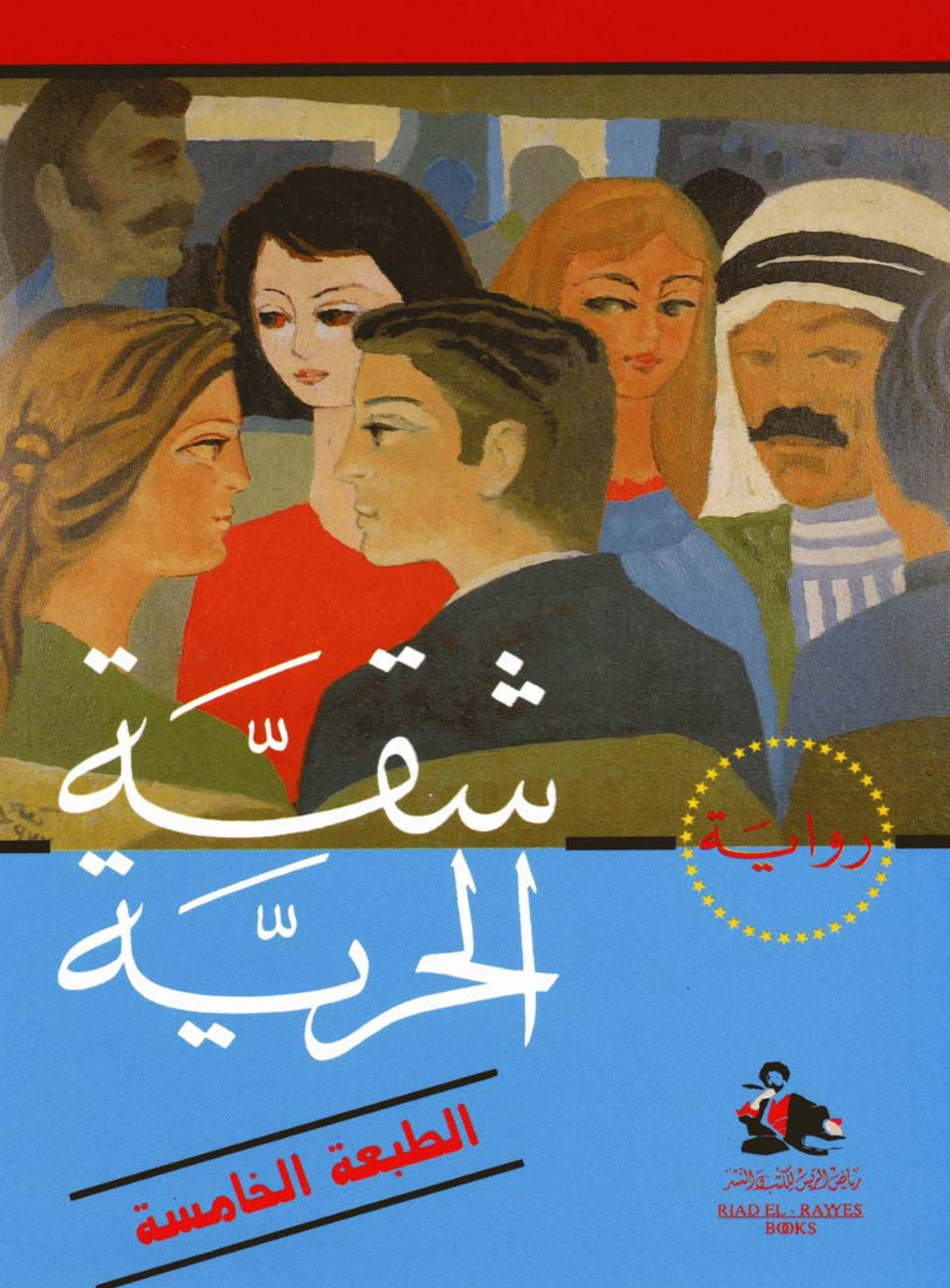
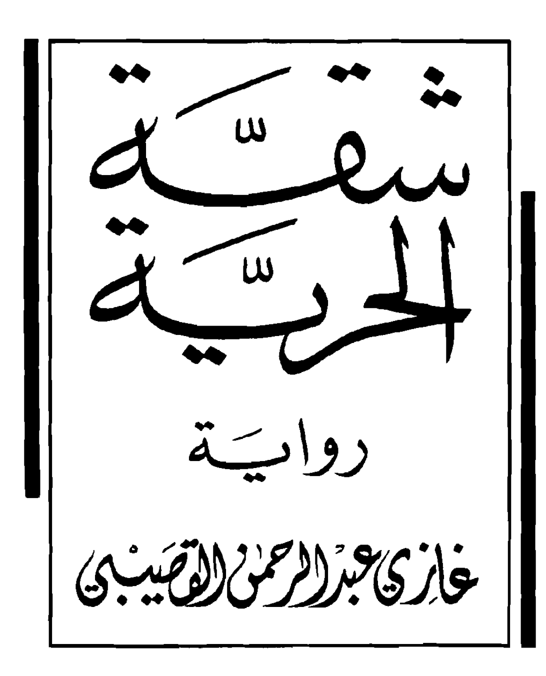
غازي عبد الرحمن القصيبي

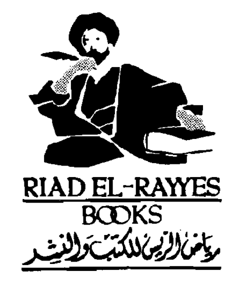


شقة الحرية

الطبعة الخامسة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL - RAYYES BOOKS


شقة
الحرية
رواية
غازي عبد الرحمن القصيبي


RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

APPARTMENT OF FREEDOM

BY:

GHAZI ABDUL RAHMAN ALGOSAIBI

First Published in December 1994
2nd Edition Publiched in April 1994
3rd Edition Publiched in November 1995
4th Edition Publiched in September 1996
5th Edition Publiched in July 1999

LONDON - BEIRUT

British Library Cataloguing in Publication Data available

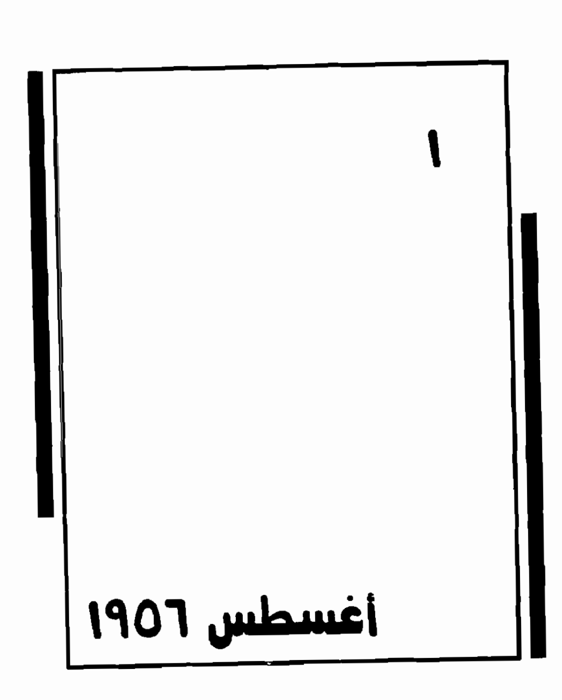
ISBN 1-85513-272-9

الغلاف: لوحة للفنان أدهم اسماعيل

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ١٩٩٤
الطبعة الثانية: نيسان/أبريل ١٩٩٤
الطبعة الثالثة: تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥
الطبعة الرابعة: أيلول/سبتمبر ١٩٩٦
الطبعة الخامسة: تموز/يوليو ١٩٩٩

كان الكاتب في القاهرة في الفترة التي تتحدث عنها الرواية. ومع ذلك فجميع أبطال هذه الرواية وجميع أحداثها من نسج الخيال. والوقائع المنسوبة الى أشخاص حقيقيين هي، بدورها، من صنع الخيال. وأي محاولة للبحث عن الواقع في الخيال ستكون مضيعة لوقت القارىء الكريم.

أ


١
أغسطس ١٩٥٦

ماذا الوَداعُ وداعُ الوامقِ الكَمِدِ   هذا الوداعُ.. وداعُ الروحِ للجسدِ

المتنبّي

١

كانت الأسئلة التي في ذهنه لا تنتهي. ولا يعرف جواب أيّ منها. والآن يشغله قائد الطائرة بسؤال جديد. لعّل هذا هو هدف المسابقة: ابعاد الأسئلة الكثيرة المزعجة عن أذهان المسافرين ليركّزوا على سؤال واحد غير مزعج، وإن بدا غريباً بعض الشيء: «كم تحمل هذه الطائرة من الوقود؟». كان هذا هو السؤال الذي طرح على المسافرين. وقيل لهم ان المسافر الذي يتوصّل الى الرقم الصحيح، أو الى رقم قريب منه، سيحصل على جائزة ثمينة. مرَّ المضيف يوزّع الاستمارات. وأخذ كل راكب استمارته. وانهمك في التفكير.

وانهمك فؤاد، بدوره، في التفكير. «كم جالوناً. تحمل هذه الطائرة؟». سؤال لم يطف بباله من قبل، لا من قريب ولا بعيد. هل يمكن القياس على السيارة؟ يعرف أن السيارة يمكن أن تبتلع بسهولة عشرين جالوناً. ولكن الطائرة أكبر من السيّارة بكثير، بكثير جداً. وهي تحمل أكثر من مائة مسافر مع أمتعتهم. وبعض الأمتعة ثقيلة كأمتعته هو. وابتسم ابتسامة عريضة وهو يتذكّر أمتعته: أربع حقائب من الوزن الثقيل غير حقيبة اليد المنتفخة. وتذكر تعليق أخيه خليل:

ـ ما هذا؟ هل سيذهب الى القمر؟ أو القطب الشمالي؟ لم كل هذه الأمتعة؟

إلاّ أن أمّه أصرّت على أن يحمل معه كل ما يحتاج اليه في «بلاد الغربة». ودخلت ضمن الاحتياجات أشياء غريبة: مناشف للحمام، علب شاي، قطع صابون معطّر، علب شيكولاته وبسكويت، وراديو من الحجم الصغير. ابتسم، وهو يتصوّر كل هذه الأشياء قابعة في حقائبه. ثم ما لبثت الابتسامة أن تبخرّت وهو يتصوّر وقفته أمام موظف الجمارك في مطار القاهرة.

سمع الكثير عن موظفي الجمارك. وكيف يفتحون كل حقيبة وينبشون كل شيء. ولا يسمحون لك بالمرور إلاّ بعد الدفع. والدفع مشكلة محيّرة. قال له أخوه ناصر ضاحكاً:

ـ تصوّر، وأنت ذاهب الى القاهرة لدراسة القانون، انك ستبدأ حياتك هناك برشوة يعاقب عليها القانون. تصوّر نفسك سجيناً في قسم البوليس. هل تعرف عقوبة الرشوة؟ سنة واحدة على الأقل. ها ها ها.

ها ها ها! الموضوع ليس طريفاً على الإطلاق. الموضوع معضلة حقيقية. يؤكد أصحابه المخضرمون الذين مرّوا بمطار القاهرة انه لا خروج إلاّ بدفع. والدفع رشوة. والرشوة جريمة. صحيح انه لم يسمع عن أحد ألقي عليه القبض في مطار القاهرة بتهمة الرشوة. ولكن من يدري؟

يتذكر قهقهة ناصر:

ـ لا أدري كيف ستتصرف في القاهرة. وأنت تغرق في شبر ماء. كان الله في عونك. كم أتمنّى لو كنت هناك لأتفرّج عليك. الجوازات. الجمارك. سترتبك ربكة مضبوطة. ها ها ها.

ها ها ها! يبدو الأمر لأخويه كما لو كان نكتة. ولكنه لا يرى وجه الطرافة. لا يزال في السادسة عشرة، أصغر من ناصر بعشرين سنة ومن خليل بعشر سنين. وهما متعودان على الأسفار. أمّا هو فهذه سفرته الأولى بمفرده. في المرّات السابقة كلّها كان هناك شخص أكبر منه يتولّى ترتيبات السفر. يعالج الروتين المُعقّد الذي لا ينتهي. حتى عند مغادرته مطار البحرين رُتّب له كل شيء. أوصله ناصر الى باب الطائرة. ولكنه الآن وحيد. لا يوجد معه من يُرتّب أو يُدبّر. عليه أن يعتمد على نفسه. عليه أن يتذكر أن مرحلة جديدة من حياته قد بدأت. أصبح رجلاً عليه أن يواجه الغربة ومشاكلها كما يفعل الرجال.

الغربة؟! ولكنه لا يحّس انّه مقبل على غربة. انه ذاهب الى القاهرة. كيف تكون القاهرة غربة؟ القاهرة عاصمة العرب، حاضرة الإسلام، كنانة الله في أرضه، وأم الدنيا، كما يسّميها المصريون (الذين يسّمونها، أيضاً، مصر!)، قاهرة جمال عبدالناصر، وصوت العرب، والنضال ضد الاستعمار، قاهرة الأمل، قاهرة تأميم القناة. ومع خاطرة التأميم، تلاشى كل شيء: تطايرت الأسئلة، وتبخرت الوساوس، وزالت المخاوف. وأحسّ بدفء شديد يجتاز عروقه. لم يمرّ على التأميم سوى بضعة أسابيع. لا تزال

ذكرى الخطاب التاريخي محفورة في أعماقه. لا تزال النبرة القوية الأخاذّة ترنّ في أذنيه:

«قرار من رئيس الجمهورية بتأميم شركة قناة السويس العالمية، شركة مساهمة مصرية».

قناة السويس؟ لا! قناة التخلّص من الاستعمار. القناة الموصلة الى الغد المشرق، الذي تصنعه الثورة المصرية للعرب أجمعين.

وهو الآن في طريقه الى قاهرة الثورة، قاهرة جمال عبدالناصر. اضطربت مشاعره بعنف وهو يتخيّل نفسه مع جمال عبدالناصر في مدينة واحدة. من يدري فقد يضمّه يوماً معه شارع واحد. قد يراه رأي العين. قد يصافحه ويتحدّث معه. ولم لا؟ ألم يجب جمال عبد الناصر على كل الرسائل التي أرسلها اليه طلاّب المدرسة الثانوية في البحرين؟ ألم يُهدهم صوره حسب طلبهم؟ صحيح أن التوقيع كان مُجرّد ختم ولكنه توقيع جمال عبد الناصر. لا بُدّ انه يكون قد وقّع الأصل بنفسه.

اتسعت ابتسامته وهو يتذكر المستر هيدلي مُدرّس اللغة الانجليزية. كان يثور كلّما ورد ذكر جمال عبد الناصر. وكان الطلبة حريصين على استثارته بإقحام جمال عبد الناصر في كل شيء. يدخل المستر هيدلي الفصل فيجد على السبّورة، باللغة الانجليزية، «يعيش جمال عبد الناصر». يتأمل الجملة ثم يلتفت الى الفصل:

ـ أعرف انه من العبث أن أسأل من فعل هذا. الخط قبيح. و«يعيش» لا تكتب هكذا. و«عبد الناصر» يجب أن تكتب بطريقة أخرى.

ويتنهّد. ويمسح السبّورة بنفسه. ويدخل يوماً ثانياً فيجد صورة جمال عبدالناصر مُعلّقة على الحائط. بهدوء يتمشّى مع سمعة الدم الانجليزي المُثلّج يزيلها من الجدار ويضعها على الطاولة أمامه:

ـ بوسع صاحب هذا «الشيء» أن يسترجعه بعد أن أخرج. وعندها يرفع أحد الزملاء اصبعه فجأة:

ـ مستر هيدلي! هل سمعت خطاب جمال عبد الناصر البارحة؟ لقد تكلّم أكثر من ثلاث ساعات.

ـ يا للمستمعين المساكين.

وزميل آخر:

ـ انظر! مستر هيدلي! صورة مُوقّعة من جمال عبدالناصر تلقيتُها اليوم. ألا تريد أن تراها؟

ـ كلاّ! كلاّ! أعرف شكله ولستُ حريصاً على النظر الى صورته. كنت أعتقد ان ارسال الصور عادة تقتصر على الممثلات.

وتنقضي الحصة في جدال حول جمال عبد الناصر. ويضرب الطلاّب ثلاثة عصافير بحجر واحد: يُدافعون عن القومية العربية، ويزعجون المدرّس الاستعماري، وتمر الساعة من دون أي مجهود.

إلا أن هذه الخواطر اللذيذة لا تستطيع أن تنسيه الاعتبارات العملية. هل سيستقبله أحد في المطار؟ وأين سيسكن؟ وكيف سيلتقي بأصدقائه الذين سبقوه الى القاهرة وهو لا يعرف عنوانهم؟ ويحاول أن يجيب على الأسئلة بهدوء، واحداً واحداً. بالنسبة للاستقبال أرسل أبوه في الأسبوع الماضي برقيّة إلى الأستاذ شريف الذي سيتولى الإشراف عليه في القاهرة. ولا بُدّ أن الأستاذ سيرسل من يستقبله إذا لم يستقبله بنفسه. وفي أسوأ الحالات لديه عنوان الأستاذ في الدقي وبإمكانه أن يذهب اليه مباشرة. أما عن السكن فلا بُدّ أن يكون الأستاذ قد رتبّه قبل وصوله. وفيما يتعلّق بأصدقائه فسوف يكونون في عمائر المؤتمر الاسلامي. ولا شك أنه من السهل الحصول على عنوان العمائر من الأستاذ شريف، أو من المؤتمر نفسه. الأمر بسيط جداً.

غير انه يدرك في أعماقه ان الأمر ليس بسيطاً. يتصوّر نفسه وحيداً في القاهرة بملايينها الثلاثة. كم عدد الأشخاص الذين يعرفهم هناك؟ عشرة، على أكثر تقدير. نقطة في محيط. يتصوّر نفسه ضائعاً في غمار البشر. تائهاً في الأحياء ذات الأسماء الغريبة. «العجوزة»! يا له من اسم مضحك. تُرى من أين جاء الإسم؟ هل كانت تسكن الحيّ امرأة شمطاء؟ هل هو أقدم أحياء القاهرة؟ وما قصة «شارع نوال» حيث يعيش الأستاذ شريف؟ هل هناك سيّدة اسمها نوال؟ وهل لا تزال تسكن الشارع؟ وماذا عن «جاردن سيتي»؟ كيف يبقي جمال عبدالناصر على الأسم الانجليزي بعد انتهاء عهد الاستعمار؟

ما أكثر ما يعرف عن القاهرة قبل رؤيتها. شاهدها في الأفلام والصحف وحدّثه عنها الزوّار. لم يكن أساتذته المصريّون في الابتدائية والثانوية يملّون الحديث عن القاهرة. وتراكمت المعلومات. حديقة الأندلس

أجمل حديقة في الشرق الأوسط. جنينة الحيوانات ثاني جنينة في العالم بعد جنينة لندن. وهناك ساعة هائلة من الزهور في القاهرة، ساعة تتكلّم. وفي حلوان حديقة يابانية لا يوجد ما يماثلها حتى في اليابان. المنامة؟ تستطيع أن تضعها في شارع من شوارع السيّدة. البحرين؟ تستطيع أن تخفيها كلّها في شبرا ولا تعثر عليها أبداً.

والبنات؟ البنات! جميلات كبطلات الأفلام. مثل إيمان نجمته المفضلة. ومتحرّرات كالفتيات في الأفلام وفي قصص إحسان عبد القدوس. في البحرين منذ سنين قليلة رفضت بنت من عائلة معروفة أن ترتدي العباءة فأحدثت ضجّة كبرى. كم عدد البنات السافرات في البحرين؟ لا يتجاوز العشرين. أكثرهن من المسيحيات واليهوديات العراقيات. أمّا في القاهرة فكل البنات سافرات، إلاّ الريفيات والعجائز، ومن يريد سفورهن؟ البنات! وسرح به الخيال. هل ستكون له صديقة؟ هل سيذهبان الى سينما «مترو» (أحسن سينما في العالم العربي)؟ وإلى حديقة الأندلس؟ والى جنينة الحيوانات؟ وكيف سيتعرف على هذه الصديقة؟ في الجامعة هناك اختلاط والمسألة بسيطة كما يقولون. ولكن أمامه سنة كاملة في التوجيهيّة، سنة بلا اختلاط. لا داعي لليأس. قد يتعرّف على بنت في العمارة التي يسكنها. أو في العمارة المقابلة. سمع من زملائه ان كثيراً من الصداقات بدأ بابتسامة تنتقل، كالفراشة، عبر الشارع، من بلكونة الى بلكونة.

غير أن هناك شيئاً واحداً لن يفعله أبداً وهو التعامل مع المحترفات. رغم الأوصاف الشهيّة. رغم القصص الكثيرة التي سمعها. بعضهن صغيرات، طيبّات، مهذّبات، لا تكاد تفرّق بينهن وبين البنات العاديّات. ولكنه يعرف انه لا يستطيع أن يُحب جسداً يباع بالمال. بدراهم معدودة تهدر كرامة المشتري والبائعة. تذكّر «جرندول» حيّ اللذة المحرّمة في البحرين، هدية بغيضة من هدايا الاستعمار. تذكّر الرعب الذي اعتراه عندما اقترح أحد أصدقائه، قبل شهور، أن يقوما بزيارة بيت من بيوت الحيّ. سوف تكون له صديقة في القاهرة، ولكن لن يصادق محترفة. أبداً. أبداً. أبداً.

يعود مرة أخرى الى الواقع. تقفز الى ذهنه مشكلة التأشيرة. ليس في جوازه تأشيرة ولكنه سوف يُعطى تأشيرة اضطرارية في المطار يحصل بعدها على الإقامة كما أكدّ الخبراء. لم القلق؟ سوف يرتب الأستاذ شريف «كل شيء» كما طمأن أباه أكثر من مرّة. عرف الأستاذ شريف قبل ثلاث سنوات عندما كان مديراً للمدرسة الثانوية (ورئيس البعثة

التعليمية في البحرين). كان، باعتراف الجميع، أنشط مدير عرفته المدرسة في تاريخها. واستطاع خلال إقامته في البحرين أن يوطد علاقاته مع الكثيرين، رغم انه لم يبق سوى سنتين. تعرّف على والده وأصبحا صديقين. وأقنع والده أن يرسله للدراسة في القاهرة. مشكلة الأستاذ شريف انه صارم شديد الصرامة. هل سيتمتع بإقامته في القاهرة ولديه مشرف كهذا؟

وقطع المضيف خواطره يسأله إذا كان قدعبّأ الاستمارة. ردّ بالايجاب وهو يكتب بسرعة: «عشرة آلاف جالون». هل سيفوز؟ وما هي الجائزة التي سيحصل عليها؟ قرّر أن يجعل المسابقة فأل الرحلة. إذا فاز أو أتى برقم قريب من الرقم الفائز كان هذا بشيراً بأن الأمور ستتيسّر. أما إذا لم يفز، فالويل من مشاكل التأشيرة والجمرك والسكن.

- الله يفتحها في وجهك يا أبوي.

تذكّر دعاء أمّه وهي تعانقه قبل الرحيل وتبكي. وتكرّر الدعاء وتعود الى معانقته. وتبكي. وتسأل للمرة العاشرة:

- هل كتبت الآية يا بعدكبدي؟ هل كتبتها يا بعد روحي؟

- نعم. في عدة محلاّت.

أمّه لا تترك أحداً يسافر إلاّ بعد أن يكتب على الجدار الآية الكريمة ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد﴾. تؤمن امّه إيماناً لا يخالجه شكّ أن من يكتب هذه الآية لا بُدّ أنّ يعود من سفرته سالماً بإذن الله. هذه المرة كان إصرارها أكثر من العادة. ولم تطمئن حتى رأتها مكتوبة بخطه ثلاث مرات.

يستغرب فؤاد كيف تمكن من مفارقة أمّه. لا يدري كيف ستكون حياته من دونها. من دون بسمتها في الصباح ورعايتها طيلة النهار وأقاصيصها في المساء. كان تدليل أمه له مثار التعليقات الساخرة في المنزل حتّى من أبيه الذي كان نادراً ما يمزح. يُخيّل الى فؤاد أن أمّه تزداد في تدليله كلما كبر. الصغير المفضل. آخر العنقود. يظن أحياناً ان أمّه تتصور انه لم يتجاوز الخامسة، ولن يتجاوزها، وان قامته التي وصلت الى ستة أقدام ليست سوى ستارة خادعة يختفي تحتها طفلها الصغير: «فؤادو».

حول سفرته هذه دار جدل طويل بين أمه وأبيه:

ـ أبا ناصر. كيف تترك فؤاد يسافر بمفرده على الطائرة؟ ويعيش بمفرده في مصر؟

ـ فؤاد أصبح رجلاً.

ـ رجلاً؟ لا يزال طفلاً في الثالثة عشرة.

ـ يا امرأة! هل يصغر ابنك أم يكبر؟ بعد قليل سوف يصل الى السابعة عشرة، ان لم يكن وصلها. هل نسيت انني تزوجتك عندما كنت أصغر منه؟

ـ ولكن يا أبا ناصر...

ـ الموضوع انتهى. سوف يسافر بمفرده.

ـ الله يفتحها في وجهك يا أبوي!

تسري الطمأنينة في عروقه. ما أجمل التعبير. «يفتحها في وجهك». يفتح ماذا؟ الدنيا. القاهرة. الدراسة. أبواب المستقبل. كل هذه الأشياء «ستنفتح» في وجهه.

يطالع في الكتاب الذي ظلّ مُهملاً في يده. غير ان القراءة مستحيلة. لا تزال أفكاره في حالة استنفار. لم ينم طيلة الليل. وأقلع قبيل الفجر. يعرف انه من العبث أن يحاول النوم ومخّه خلية نحل لا تهدأ. النوم مشكلة عنده منذ أعوامه الأولى. لا بُدّ أن يقضي بعض الوقت على فراشه يتقلّب ويفكّر. نصف ساعة، أحياناً تصل الى ساعة، وربما وصلت ساعتين. يعجب من الذين ينامون بمجرد القاء رؤوسهم على الوسادة، ويغبطهم. ألا يوجد ما يقلقهم؟ ألا يفكرون في شيء؟

قائد الطائرة يعلن نتيجة المسابقة. ويصاب فؤاد بخيبة أمل. الرقم الفائز أعلى بكثير من الرقم الذي كتبه، أضعافاً مضاعفة. ويعلن قائد الطائرة ان الجائزة مجموعة من حقائب السفر. ويبتسم. ما لديه من حقائب السفر يكفي ويزيد. ويشعر بشيء من الخوف. لقد قرّر أن يعتبر المسابقة فأل الرحلة ـ ورسب بجدارة. نظر الى الساعة. الثامنة إلاّ دقائق. الطائرة تنحدر شيئاً فشيئاً. الصحراء! الصحراء الغبراء القاحلة على مدّ البصر. أين النيل؟ أين الأهرام؟ أين «جاردن سيتي»؟ كيف تنزل طائرة في القاهرة من غير أن يتمكن ركابها من رؤية النيل؟ أو حديقة الأندلس؟

فُتِح باب الطائرة. ودخل رجل وقور يرتدي بدلة رسميّة سوداء ويحمل

في يده بخّاخة «فليت». لم يكن في الطائرة قبل دخوله ذبابة واحدة. مشى الرجل بهدوء بين الصفوف ينفث «الفليت» في وجوه المسافرين مثيراً موجة من العطاس مع كل نفثة. وخلفه تطير تشكيلة من الذبابات التي دخلت معه والتي تتمتع، على ما يبدو، بمناعة ضد «الفليت». ثم خرج رجل البخاخة. ودخل ثلاثة ضباط في بدل عسكرية أنيقة وعلى أوجههم عبوس صارم. أحسّ فؤاد، فوراً، بالذنب. ربما لأنه أحضر معه راديو. وجاء من دون تأشيرة. وأخفى في جيب بنطلونه خمسين جنيهاً مصرياً مخالفاً التعليمات التي تمنع دخول النقد الى مصر. سرعان ما استبعد هذه الخواطر السوداء. تذكر انه في بلدثوريّة يحكمها جيش ثائر. وان هذه البلد تمر بمخاطر عظيمة من صنع الاستعمار. والطائرة التي تقلّه تحمل اسم قبرص ولكنها، في الحقيقة، ملك شركة بريطانية. وهؤلاء الضباط، بلا شكّ، هم حرس الثورة من المؤامرات القادمة على الطائرات الاستعمارية. وارتاح الى هذا الخاطر. طاف الضباط على الركاب. يتأملون في كل وجه. وكأنهم يقارنونه بصورة فوتغرافية غير منظورة. وعندما مرّوا به ابتسم. ولكن أحداً لم يرّد على ابتسامته. بعد فترة من التحديق الصامت الغاضب في الوجوه سمح الضباط للركاب بالنزول.

القاهرة؟! تسارعت دقّات قلبه. هذه، إذن، هي القاهرة. بداية المغامرة الرائعة. أول انطباع قفز الى ذهنه هو انه لم ير مطاراً بهذا الحجم من قبل. رأى مطارات الظهران والكويت ودمشق وبيروت، غير أن أياً منها لم يكن بهذه الضخامة. ولم يضم أعداداً بشرية كهذه التي تموج الآن من حوله، والبعض يرتدي ملابس رسمية، والبعض ملابس عادية، والجميع يتكلمّون في وقت واحد.

وجد نفسه في الطابور الطويل أمام مكتب الجوازات. وانتابه السرور عندما رأى الضابط الجالس وراء المكتب يبتسم وينهي كل جواز في لحظات. وجد نفسه أمام الضابط. كان ينوي أن يشرح له بالتفصيل انه قدم بلا تأشيرة نظراً لعدم وجود قنصلية مصرية في البحرين وانه يودّ الحصول على تأشيرة اضطرارية. إلاّ أنه لم يجرأ على الكلام. بصمت، قدّم جوازه الى الضابط الذي قلّب الصفحات ثم قلّبها مرّة أخرى وسأله بشيء من الضيق:

- أين التأشيرة؟

- لقد قدمت من البحرين...

وقاطعه الضابط:

ـ ارجع آخر الطابور.

عاد الى المؤخرة. ووجد أمامه صفاً أطول. بعد نصف ساعة رجع الى الضابط الذي بدأ يقلّب صفحات الجواز من جديد. اندفع فؤاد بلا تفكير:

ـ لا يوجد في الجواز تأشيرة لأني جئت من البحرين. والبحرين لا توجد فيها قنصلية مصرية. سبق أن وقفت هنا وأرجعتني الى آخر الصف. أريد تأشيرة اضطرارية. من فضلك!

يبدو ان الضابط كان على وشك إعادته الى آخر الطابور مرة ثانية عندما انفجرت «من فضلك!» تحمل من التوسّل الذليل ما لم يكن يقصده. لعلّها أثرّت في الضابط الذي نظر اليه مستغرباً ثم قال:

ـ تفضل هنا في الغرفة. انتظر حتى أفرغ من بقيّة المسافرين. كانت «الغرفة» مجرد فتحة لا تسع إلا مكتباً صغيراً ومقعدين. مرت عشر دقائق. وثانية. وثالثة. وبدأ يشعر بالقلق. هل نسيه الضابط؟ هل سيرفض اعطاءه التأشيرة؟ هل سيعيده من حيث أتى؟ قرر، بينه وبين نفسه، أنّه لو حدث شيء مؤسف كهذا فسوف يرسل برقية شديدة اللهجة الى جمال عبدالناصر. ولا شك انه سيوقّع أشدّ العقوبات على المتسبّبين. أخيراً، جاء الضابط، وجلس وراء المكتب، وأخذ منه الجواز. أخرج ختماً من الدرج وختم به صفحة من الصفحات. ثم وقّع بحبر أخضر. وأعطاه الجواز وهو يقول:

ـ تأشيرة أسبوعين. جدّدها في المجمّع. وسجّل في أقرب قسم للبوليس خلال ثلاثة أيام.

انصرف الضابط وتركه في حيرته. المجمّع! ما هو المجمّع؟ وأين يقع؟ وماذا عن التسجيل في قسم البوليس؟ ثم ماذا يسجّل؟ نفسه؟ أم جوازه؟ أم تأشيرته؟ خطر بباله انه من المستحيل أن يكون جمال عبدالناصر على علم بهذه التعقيدات التي تنتظر صغار الناصريين العرب في مطار القاهرة.

خرج فابتلعته الحشود التي تموج وتمور وتدور. استوقف أحد الذين تبدو عليهم الصفة الرسمية:

ـ لو سمحت؟ أين أجد أمتعتي؟

ـ في الجمرك.

ومضى من دون مزيد من الايضاح. استوقف فؤاد أحد الباعة الجائلين وسأله:

ـ لو سمحت؟ أين أجد الجمرك؟

نظر اليه البائع بدهشة وهو يشير بيده ويقول:

ـ هناك!

عندما التفت فؤاد أدرك سرّ الدهشة. كانت في آخر القاعة لافتة هائلة كتب عليها بحروف ضخمة (الجمرك). عندما وصل الى الجمرك وجد منصّات خشبية تمتدّ الى ما لا نهاية. وأمتعة المسافرين مكوّمة في منتصف القاعة. يمرّ المسافر ويحمل حقائبه الى أقرب منصّة وينتظر المفتش. ولكن كيف يستطيع أن يحمل حقائبه وهو ينوء بحمل الحقيبة اليدوية؟ بصعوبة، زحزح الحقائب الأربع وجمعها في مكان واحد. ووقف يسترد أنفاسه. ويفكر في كيفية عبور الهوّة التي تمتد بينه وبين المنصّة.

أنقذه من ورطته شخص في بدلة رمادية لم تغسل ولم تكوَ منذ سنين، يرتدي ابتسامة تطفح بالرضا عن النفس، وعن الكائنات عموماً:

ـ شيّال يا بيه؟

وبلهفة لم يستطع كتمانها ردّ فؤاد:

ـ نعم! نعم! رجاء!

بسهولة متناهية، حمل الشيّال حقيبتين وسار بهما الى المنصّة، وعاد فأخذ الحقيبتين الباقيتين. طلب من فؤاد أن يتبعه فمشى وراءه وقلبه يكاد يطير من الخفقان. الله يستر! الله يستر! ذهب الشيّال الى أحد المفتشين وهمس في أذنه ثم قاده الى الحقائب. وبلهجة حاسمة قال:

ـ البيه مستعجل. أعمل معروف خلصنا بسرعة. من غير سؤال أو جواب، أشّر المفتش على الحقائب بالطبشور.

كان الشيّال، بلا منازع، سيّد الموقف. شكر المفتّش، ونادى شيّالاً آخر يساعده على حمل الحقائب، وقاد فؤاد الى خارج القاعة. وفؤاد في ذهول لا يصدّق ما يدور حوله. الجمارك المرعبة التي ظلّ طيلة الرحلة يحسب حسابها كيف انتهت بهذه السهولة؟ لا بدّ أن دعوة أمّه قد استجيبت وبدأت الأبواب تنفتح في وجهه. أدرك، لحظتها، ان الشيّال كنز ثمين لا بُدّ من المحافظة عليه:

ـ أرجو أن تبقى معي لتساعدني في العثور على الرجل الذي سيستقبلني. اسمه الأستاذ شريف حسين وهو بدين، قصير القامة، يلبس نظارة طبية...

قبل أن يستمع الى بقية الأوصاف، انطلق الشيّال في الجموع يشقّها شقّاً وهو يصيح:

ـ الأستاذ شريف حسين. أوعى يا محترم! عن إذنك يا سيّد! الأستاذ شريف حسين. لا مؤاخذة يا أستاذ! الأستاذ شريف حسين يتفضّل هنا.

دار الشيال في كل مكان. وجنَّد ثلاثة من باعة المرطبّات لمساعدته. ثم أبلغ فؤاد بالحقيقة التي كانت واضحة منذ الدقيقة الأولى:

ـ ما فيش هنا حد اسمه الأستاذ شريف حسين.

طلب منه فؤاد أن يختار سيارة التاكسي. كان هناك أكثر من عشرين سائقاً يعرضون خدماتهم ويتدافعون. اختار الشيّال أكبرهم سنّاً، في السبعين أو نحوها. وضع الحقائب في سيارته وأوصاه:

ـ يا أسطى محجوب. اتوصّى بالبيه. لْحسن ضيف عندنا.

قبل أن يركب السيارّة التفت فؤاد الى الشيّال وسأله بقلق حاول اخفاءه:

ـ كم الحساب من فضلك؟

ـ خمسة جنيه. اتنين لمحسوبك. والباقي بقشيش.

وضع فؤاد في يده ورقة نقدية من فئة خمس جنيهات وهو يكيل عبارات الشكر بلا حساب. وابتسم الشيّال:

ـ العفو يا بيه. شرفتنا. أهلاً وسهلاً. مصر نوّرت.

في السيارة كان ذهن فؤاد مشغولاً بمشكلتين. الأولى، انّه، على ما يبدو، ارتكب جريمة الرشوة. صحيح ان كل شيء قد تم بسرعة خاطفة لم تدع مجالاً للتفكير. وصحيح انه لم يكن هناك اتفاق مُسبّق على شيء. إلاّ أن الرشوة دُفعت واستُلِمت. أم أن البقشيش يختلف عن الرشوة؟ وكيف يختلف؟ وهل سيدرّسونه الفرق في كلية الحقوق؟ إلاّ أن المشكلة الثانية كانت أكثر الحاحاً وسرعان ما استأثرت بكل تفكيره. لماذا لم يستقبله الأستاذ شريف في المطار؟ ماذا سيفعل الآن؟ كيف سيتصرّف لو لم يجد الأستاذ شريف في شقته؟ وأين سيقضي الليلة؟

أخرجه من خواطره صوت الأسطى محجوب:

ـ أهلاً وسهلاً. شرّفت يا بيه. حضرتك منين؟

ـ من البحرين.

ـ ألف مرحبا. إنما لا مؤاخذة يعني البحرين تجي فين؟

فكر فؤاد في جواب بسيط يمكن أن يستوعبه السائق:

ـ قرب السعودية. الساحل الشرقي للسعودية.

تهللّت أسارير الأسطى محجوب:

ـ السعودية؟ الحجاز! ما شاء الله. اللهمّ صل على النبي. مكة والمدينة. أوعدنا يا ربّ.

بشيء من الحذر حاول فؤاد الإيضاح:

ـ البحرين بعيدة عن الحجاز.

إلاّ أن حقائق الجغرافيا لم تستطع إقتحام الحلم اللذيذ الذي لفّ السائق العجوز:

ـ ربنا يوعدنا. نيجي عندكو. ونزور الحبيب.

صمت فؤاد. وصمت السائق مستسلماً للنشوة الروحية الغامرة التي أثارها ذكر الحجاز. بعد دقائق، فوجىء فؤاد بالسؤال:

ـ انت عارف يا بيه ان الريّس أمّم القنال؟

ـ طبعاً. كان هذا عملاً بطولياً تاريخياً.

تجاهل السائق العبارة الأخيرة وأعلن ببساطة:

ـ حتقوم حرب.

بوغت فؤاد بالنبوءة. صحيح ان طبول الحرب تدقّ في كل مكان. صحيح ان التهديدات مستمرة والأساطيل تُحشد. إلاّ أن حرباً لن تقوم. المستعمرون أجبن من أن يحاربوا مصر الثورة ومن ورائها الأمة العربية بأسرها. واستطرد الأسطى محجوب:

ـ الأنجليز حتحاربنا. والفرنساوية. لكن احنا مش خايفين. كانت لهجة الأسطى محجوب خالية من الإنفعال وكأنه يتحدّث عن حرب خيالية في فيلم سينمائي:

ـ عارف مش خايفين ليه؟ عشان الروس معانا.

شعر فؤاد بخيبة أمل. كان يتوقع أن تكون الشجاعة نابعة من الروح المعنوية العالية التي أحياها جمال عبد الناصر. ومضى السائق يشرح الموقف.

ـ أصل الروس عندها صواريخ. خروشوف قال كده...

قبل أن يكمل حديثه قاطعه فؤاد:

ـ ما رأيك في جمال عبد الناصر؟

ـ الريّس؟ جدع. زي سعد باشا. بس سعد باشا أجدع.

سعد باشا؟ السائق يتحدث عن سعد زغلول. لا بُدّ أنّه خرّف. من الأفضل تغيير الموضوع:

ـ هل وصلنا الى القاهرة؟

ـ لا يا بيه. دي مصر الجديدة.

قبل أن يتمكّن فؤاد من إغراق ناظريه في الشوارع الواسعة والقصور الرائعة المنتصبة على الجانبين، باغته الأسطى محجوب:

ـ إنما لا مؤاخذة حضرتك بتشتغل ايه؟

ـ طالب.

ـ في كلية إيه؟

ـ الحقوق.

شعر فؤاد بتأنيب ضمير خفيف على الكذبة. خشي أن يُصدم الأسطى محجوب إذا اكتشف أن الزبون الذي يبحث معه السياسة الدولية لم يصل الى التوجيهية بعد.

مرّت المشاهد بسرعة والأسطى محجوب يشرح. العباسيّة. باب الحديد. ميدان التحرير. النيل! النيل أخيراً! ثم الدقي. وقف طويلاً عند شقة الأستاذ شريف يقرع الجرس من دون جدوى. طلب من الأسطى محجوب أن يأخذه الى مكان يستطيع فيه استعمال التيلفون. أخذه الى أقرب بقالة، وبحثا عن رقم الأستاذ في الدليل حتى وجداه. أدار فؤاد الرقم إلاّ أن أحداً لم يردّ. وكرّر المحاولة. النتيجة نفسها.

أسقط في يد فؤاد. طلب من السائق أن يأخذه الى مقر المؤتمر الإسلامي لعلّه يستطيع هناك أن يعثر على عنوان أصدقائه. لم يكن

الأسطى محجوب يعرف المحلّ. قضيا أكثر من ساعة في السؤال والبحث. وصلا في النهاية الى قصر جميل في الزمالك تحيط به حديقة غنّاء. لم يجدا هناك سوى الحارس الذي أخبرهما أن فترة العمل قد انتهت.

أحسّ فؤاد، بغتة، بالجوع. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة. إلاّ أنه لم يشأ أن يأكل قبل أن يعرف مصيره. طلب من الأسطى محجوب العودة الى الدقي. وقف على باب شقة الأستاذ يضرب الجرس وينتظر. بعد قليل، خرجت خادمة من الشقّة المقابلة وأخبرته أن الأستاذ سافر منذ شهر الى الأسكندرية، وهي لا تعرف عنوانه هناك، ولا تعرف متى سيعود.

أحسّ الأسطى محجوب أن زبونه في ورطة. وكان لديه المخرج:

ـ أنا أعرف بنسيون في الزمالك إنما لوكس. «حورس هاوس». كله ذوات. ومش غالي قوي. ايه رأي حضرتك أوديك هناك؟

في الطريق، وقفا يتناولان ساندويتشات الفول التي يراها فؤاد لأوّل مرة في حياته. كانت ألذ من أي ساندويتشات أخرى أكلها من قبل. وأصرَّ الأسطى محجوب على الدفع:

ـ أنت ضيفنا يا بيه. لمّا ربنا يوعدنا ونزور الحجاز تبقى تعزمنا هناك.

عندما وصل الى «حورس هاوس» كان يشعر بامتنان عميق نحو الأسطى محجوب رغم آرائه السياسية العجيبة. دفع له ضعف المبلغ الذي سجّله العدّاد. وطلب منه أن يحضر في التاسعة من صباح الغد.

على باب البنسيون استقبلته سيّدة عجوز تتكلّم بلكنة يونانية واضحة:

ـ من أي سفارة أنت؟

تلعثم وهو يوضح انه لا ينتمي الى أيّ سفارة، وانه جاء الى القاهرة ليدرس، قالت بسرعة:

ـ ومين أرسلك هنا؟

ـ لم يرسلني أحد.

ـ عرفت البنسيون إزاي؟

ـ أحضرني سائق التاكسي.

ـ جنيه في اليوم، للأوضة والأكل.

وأضافت على الفور:

ـ وأجرة أسبوع مُقدّماً من فضلك.

شعر فؤاد أن السيدة لم تستقبل في بنسيونها طالباً قبله. وشعر أن قاعدة الدفع المقدّم قد اخترعت الآن لمواجهة الوضع الجديد.

أخذته العجوز الى غرفة واسعة يغمرها النور. وبينما كانت حقائبه تنتقل الى الغرفة كانت تتلو التعليمات وكأنها تقرأها من ورقة:

ـ العشا من ستة لتمانية. الفطور من سبعة لتسعة. الغدا من وحدة لتلاتة. متأسفين، مفيش أكل في الأوضة. متأسفين، ممنوع الخروج من الأوضة بالبيجامة. متأسفين، ممنوع التدخين في البلكونة. متأسفين، الضيوف في الصالون بس. متأسفين...

عندما تركته مدام تانيا بمفرده في الغرفة شعر بكآبة سوداء تحتّل أعماقه. شعر بالغربة تطحن عظامه طحناً. شعر أن المدينة الجميلة الكبيرة ليست سوى فراغ هائل مفزع. أحسّ بشوق عنيف الى أمّه والى بيته في البحرين. هل ارتكب أعظم خطأ في حياته عندما ترك أهله وجاء بمفرده الى القاهرة؟ ألم يكن هناك بديل آخر؟ ذُعر عندما أحسَّ بالدموع تتساقط في صمت على خدّيه. مسحها وهو يشعر بالخجل. هل يبكي الرجال؟ سأل المدام عن أقرب طريق يوصله الى النيل. أخذته الى البلكونة وشرحت له كيفية الوصول. لم يكن بينه وبين النيل سوى شارعين. توقّف في الطريق واشترى علبة سجائر. كان قد جرّب التدخين مرّة أو مرّتين في المدرسة الثانوية إلاّ انه لم يتعلق به على خلاف معظم زملائه. يشعر الآن ان الموقف قد اختلف. الموقف، الآن، يتطلب التدخين. لقد أصبح رجلاً يواجه مشاكل الرجال بأسلوب الرجال. «دخّن عليها تنجلي». تذكّر العبارة التي يرددها المدخنون من أصدقائه.

أحسّ بدوار خفيف مع النفس العميق الأول من السيجارة، سرعان ما تلاشى. جلس على المقعد الحجري يتأمّل النهر الخالد. كانت المياه رمادية كالحة على خلاف ما كان يتصوّر. كان يعتقد انها زرقاء كمياه البحر في البحرين. خطر بباله ان الأحزان المتراكمة في قلب النيل عبر العصور لوّنت ماءه. النهر أوسع بكثير مما كان يظن، وأجمل بكثير. الحياة على ظهر النهر لا تنقطع. أشكال وألوان من السفن والقوارب تروح وتجيء. أصداء أغنية هنا، وضحكة هناك. شعر انه يلتحم بالتاريخ. لا يجلس بقرب مجرى ماء وإنما على عتبة الحضارة. عندما انسكبت ضفائر الشفق تحوّلت المياه

الرمادية، في لحظات، الى قرمزية. شعر بطمأنينة غريبة تزحف الى أعماقه وتطرد مشاعر الوحشة. عاد الى البنسيون بخطى متثاقلة. انقضى يومه الأول في القاهرة.

* * *

مع الإفطار، تعرّف فؤاد على جيرانه في السكن. كانوا ثمانية. أمريكيان يعملان في السفارة الأمريكيّة ويقيمان في البنسيون حتى يعثرا على المسكن المناسب. ثلاثة افغانيين قدموا للإشراف على معرض تقيمه افغانستان في القاهرة. سويسريان من رجال الأعمال جاءا الى القاهرة ليبحثا مع الحكومة المصريّة مشروع فندق جديد. ويوناني مُسنّ يقيم في البنسيون، بصفة دائمة، منذ عشرين عاماً، لا يكلّم أحداً، ولا يكلّمه أحد. لم ير فؤاد أحداً من افغانستان من قبل. ويشكّ أن الأفغانيين قد رأوا أحداً من البحرين. كانت هناك أسئلة كثيرة متبادلة وأخيراً وصل الى السؤال الذي حيّره منذ البداية:

ـ ماذا تعرض افغانستان في القاهرة؟

بحماسة، رد رئيس الوفد:

ـ أشياء كثيرة. كثيرة جداً. هناك السجاد الأفغاني الذي لا يقّل في جودته عن السجاد الإيراني. والفواكه المجفّفة. والمنسوجات بأنواعها. لماذا لا تزور المعرض؟ انّه هنا في الزمالك. في مبنى السفارة الأفغانية.

ثم بدأ أحد السويسريين يشكو:

ـ قضينا الآن أسبوعين في القاهرة. ولم نعثر على أحد نبحث معه موضوع الفندق. يحيلوننا من جهة الى جهة، من وزارة الي وزارة. ان شركتي تطلب منا العودة. كيف نعود قبل أن نتحدّث مع أحد؟

يعلّق أحد الأمريكيين:

ـ هذا هو الروتين المصري. ألم تسمع عنه من قبل؟ المصريون هم الذين اخترعوا الروتين. حظاً سعيداً! سوف يستغرق بناء فندقك مُدّة أطول من المدة التي استغرقها بناء الأهرام. وضحك الأمريكي على نكتته السخيفة. شعر فؤاد بالامتعاض. إذا كان هؤلاء الأجانب لا تعجبهم الأوضاع في مصر فلماذا يجيئون اليها؟ لماذا لا يبنون فنادقهم في سويسرا أو أمريكا؟ يأتون لإستغلالنا ويسخرون منا.

استقبله الأسطى محجوب بشوق وبابتسامة كبيرة:

ـ صباح القشطة يا فؤاد بيه. صباح الفلّ. على فين ان شاء الله؟

شرح له فؤاد أن عليه أن يسجّل في أقرب قسم للبوليس. قرّر الأسطى محجوب ان أقرب قسم هو قسم بولاق. كانت هذه هي المرة الأولى التي يدخل فؤاد فيها قسم بوليس. ذهل لما شاهده. متشاجرون تسيل الدماء منهم بغزارة. نساء يتعلقن برقاب أزواجهن. أطفال صغار موقوفون. عشرات البشر في جحر ضيق. عندما وصلا الى «حضرة الضابط» وشرحا له سبب القدوم أجاب ان البنسيون لا يقع ضمن اختصاص قسمه. وانه لا يعرف القسم المختصّ.

بعد تفكير عميق، قرّر الأسطى محجوب أن القسم المعني يقع في العجوزة. وتكررت القصة. جرّبا قسماً ثالثاً، ورابعاً. ملّ فؤاد وطلب من الأسطى محجوب أن يأخذه الى مبنى المؤتمر الإسلامي. هناك، سأل موظف الإستعلامات:

ـ لو سمحت؟ أريد أن أعرف عنوان الطلبة البحرينيين الذين يدرسون على نفقة المؤتمر.

ـ أفندم؟!

لم يسمع الموظف عن طلبة من البحرين يدرسون على نفقة المؤتمر. وأجرى عدة اتصالات تيلفونية لم تنته الى نتيجة. ثم قرّر:

ـ لازم غلطان يا أفندم.

أكّد له فؤاد انه واثق من معلوماته. وان المؤتمر الإسلامي يستأجر عدة عمائر في القاهرة يسكن فيها طلبة من جميع البلاد الإسلامية، ومن ضمنهم طلبة البحرين. أجرى الموظف المزيد من الاتصالات. في النهاية، قال له:

ـ اسأل في قسم الطلبة الشرقيين في وزارة التربية والتعليم.

قسم الطلبة الشرقيين؟ هل يبحث عن طلاب من الصين واليابان؟ إلاّ أنه ذهب الى القسم. وطاف بالمكاتب يسأل بأدب. ويواجه النظرات المستغربة نفسها. لم يسمع أحد بزملائه. تطوع موظف فاقترح عليه مراجعة قسم البعثات. وكان هذا القسم في مبنى منفصل بعيد. هناك

أحيل، من جديد، الى مقر المؤتمر الإسلامي. واستقبله موظف الاستعلامات ببرود واضح. ولكنه أجرى المزيد من الاتصالات وأخيراً قال:

ـ راجع إدارة العلاقات الدولية بالمؤتمر. ليست بعيدة من هنا. راجعهم بكره فقد انتهى الدوام.

عاد الى البنسيون وهو غاضب. ضاعت عدة ساعات هباء. لم يستطع أن يسجّل ولا أن يعثر على أصدقائه. كان يشرح للمدام ما حدث عندما تدخل الأمريكي ثقيل الدم:

ـ ألم أقل لكم؟ هذا هو الروتين المصري. سوف يستغرق تسجيل جوازك مدة أطول من المدة التي استغرقها بناء الأهرام.

يبدو ان هذه نكتته الوحيدة. وهي نكتة سمجة لا يزيدها التكرار إلاّ سماجة. نظر اليه فؤاد بحنق ولم يرد. وتطوعت المدام بحل مشكلة التسجيل. أخبرته انها ترسل جوازات الزبائن بصورة منتظمة الى البوليس وان هذه مسؤولية الفندق لا الساكن. شعر ان عبئاً ثقيلاً ينحّط عن عاتقه فهو لا يريد أن يبدأ حياته في مصر بمخالفة قوانينها.

مع حلول المساء، عاوده الشعور الأليم بالوحشة. ورأى أن أفضل طريقة للتنفيس عن مشاعره هي أن يكتب رسائل الى ذويه. وبدأ في كتابة رسالة طويلة الى أبيه، ثم رسالة أطول الى أمّه، ثم رسالة الى ناصر ورسالة الى خليل. عندماانتهى كانت الساعة تدنو من منتصف الليل وكان قدرٌ من الوحشة قد غادر جسمه وانتقل الى الرسائل. قرّر قبل أن ينام انه لا بد أن يلتقي غداً بأصدقائه ولو قضى اليوم بأكمله بحثاً عنهم.

تعرّف على أصدقائه في سّن السادسة، في أوّل حديقة، كما كانت السنة الأولى الابتدائية تُسمّى وقتها، ومشوا معاً، سنة بعد سنة، حتى جمعتهم القاهرة. عبد الكريم ويعقوب وقاسم. عبد الكريم ينحدر من عائلة دينية عريقة، فأبوه شيخ وجدّه شيخ، الى الجد السابع على أقل تقدير. بل ان أحد جدوده يعتبر من الأولياء الصالحين وله مزار في البحرين يقصده العوام، وبالذات النساء الراغبات في الإنجاب. وكان عبد الكريم يتلقى التعليقات اللاذعة عن فحولة جدّه حتى بعد موته بابتسامة الفخر. عبد الكريم طيب القلب الى حد السذاجة، كريم الى حد السفه، وفيّ الى أبعد الحدود. إلاّ أن مزاجه سريع التقلّب. بينما تراه سعيداً يضحك من الأعماق تفاجأ به، بعد دقائق، وقد دخل موجة من الكآبة السوداء تستغرق أياماً.

وكثيراً ما تكون كآبته مرتبطة بالوسوسة والخوف من المرض. كل شهر يكتشف عبد الكريم داء جديداً في جسمه. ويسهر خائفاً من الموت. ويفقد الثقة في أي طبيب يخبره أنه سليم معافى. وعبد الكريم يعاني صراعاً هائلاً في أعماقه. ذلك أن تربيته الدينية الصارمة جعلته يميل الى المسالمة والهدوء. إلاّ أنها أعطته، في الوقت نفسه، رغبة كامنة في التمرّد والعصيان تنفجر، بين الحين والحين، مروّعة في حدّتها. بدأ ثورته حين رفض أن يذهب الى النجف لدراسة العلوم الدينية كما أراد والده. وواصل الثورة عندما قرّر أن يدرس الحقوق في القاهرة رغم معارضة الشيخ الذي اعترض على دراسة «قوانين وضعية». أصرَّ عبد الكريم وأصرّ. ولم يستطع والده ثنيه عن عزمه. حتى اضطر الى الموافقة على مضض.

أمّا يعقوب فشخصية مختلفة تماماً. ينحدر يعقوب من عائلة فقيرة عانت، في البداية، الكثير من شظف العيش. وقد وُلد بطاقات لا تنضب من الغضب. وكان غضبه يتخذ أشكالاً مختلفة تنتهي كلها بالثورة العارمة والرغبة في نسف المجتمع بأكمله. كان يعقوب لا يمل اعتناق القضايا، ولا يملّ تغييرها. وكان قارئاً مدمناً يقرأ كلّ ما يقع تحت يده ويتأثر به. قرأ عن الصوفيين فاعتكف في المسجد. وقاده أبيقور الى اللذة. وديكارت الى الشكّ. وجمال عبد الناصر الى القومية العربيّة. كان يعتنق كلّ رأي باقتناع تام، وينافح عنه بشراسة. ثم يعتنق رأياً مخالفاً يدافع عنه بالحماسة نفسها. ولا يرى أي تناقض. ويبقى هدفه الدائم ثورياً: اقتلاع المجتمع القديم وإقامة مجتمع جديد يختلف باختلاف النظرية التي تحتل ذهن يعقوب. وفوق هذا كله فليعقوب مواهب عديدة، الرسم والغناء والشعر والخطابة.

أما قاسم فهو نقيض يعقوب. ولد قاسم من أسرة تنتمي الى فئة «البورجوازيين الجدد». كان أبوه في أوّل شبابه عاملاً بسيطاً في شركة البترول، «بابكو»، ولكنه كان عصامياً، وقد انتهى به المطاف مليونيراً. رضع قاسم المبادىء الرأسمالية مع الحليب. كان الطالب الوحيد في المدرسة الثانوية، وربما في مدارس البحرين كلّها، الذي يكره جمال عبد الناصر، ابن البوسطجي. لم يكن قاسم يتصوّر أن ابن بوسطجي يمكنه أن يقود مجتمعاً بطريقة أفضل من طريقة ملك ابن ملك. المذاهب الاشتراكية، في رأي قاسم، مجرد أحقاد يعتنقها الموتورون من الطبقات الدنيا. وانقسام العالم الى أغنياء وفقراء هو النظام الطبيعي الذي لا يحاول تغييره سوى مجنون أو موتور. وقاسم لاذع اللسان، قوي الحجّة، لا يخفي

آراءه ولا ينكرها. كان أصدقاؤه يتخوفّون المصير الذي ينتظر هذا الرجعي الصغير في مصر الثورة. كان قاسم هو الوحيد بينهم الذي يتحدّث الأنجليزية بطلاقة، ويستمع الى إذاعة لندن بانتظام، ويقرأ «التايم» و«النيوزويك». كان يريد أن يدرس في الولايات المتحدة ولكن والده رفض وقرر إرساله الى مصر. ينوي قاسم أن ينتهي من دراسة التجارة في أسرع وقت ممكن ليبدأ دراسته الحقيقية في أمريكا.

كثيراً ما تساءل فؤاد كيف أمكن لهذه الشخصيات المتنافرة أن ترتبط بصداقة عميقة. وتوصَّل الى أن كل واحد في الشلّة كان يكمّل الآخرين. ثورية يعقوب تكمّل رجعية قاسم. واندفاع قاسم يكمّل مهادنة عبد الكريم. وماذا عنه هو؟ يتصوّر فؤاد نفسه مزيجاً عجيباً من شخصيات أصدقائه، ركّبه صيدلي غشيم. أخذ من يعقوب قسطاً من الثورية، وأخذ من قاسم قدراً من المحافظة، وأخذ من عبدالكريم التوجس والتردّد.

في صباح اليوم التالي توجّه الى إدارة العلاقات الدولية. كان يتوقّع أن تتكرّر مشاهد الأمس بكل رتابتها. إلاّ أن مفاجأة لا تُصدّق كانت في انتظاره. مع ثالث موظف، وجد قائمة كاملة بأسماء الطلاب الذين يدرسون على نفقة المؤتمر. خلال دقائق عثر على أسماء أصدقائه. قفز قفزاً الى السيارة وطلب من الأسطى محجوب أن ينطلق بأقصى سرعة الى العنوان: عمارة في ميدان باب الخلق. لم يكن قد مضى على فراق أصدقائه سوى أسبوعين ولكنه يشعر انه لم يلتق بهم منذ سنين. كان أول من شاهده يعقوب الذي أخبره ان عبد الكريم وقاسم سوف يعودان بعد قليل. اقترح أن يذهبوا الى «كازينو قصر النيل» لتناول الغداء هناك احتفالاً باجتماع الشمل. بعدها بساعة كان الفرسان الأربعة يحتلّون طاولة يكاد يلمسها النيل بأصابعه. لم ينقطع الحوار ثانية واحدة. كان فؤاد حريصاً على أن يستمع الى قصص زملائه عن الفترة الماضية. وكان كل واحد منهم متشوقاً الى أن يفضي بما لديه.

بدأ قاسم فانتقد القاهرة جملة وتفصيلاً. الشوارع قذرة. والناس يمشون بالبيجامات. والجو جحيم لا يطاق (ونسي قاسم ان الجو في البحرين أشدّ حرارة). ولا يوجد من يحسن الأنجليزية. و«النيوزويك» و«التايم» تتعرضان لرقابة تقطع الكثير من المقالات. وإذاعة لندن لا تُسمع إلا بصعوبة بسبب التشويش. أما إذاعة الشرق الأدنى فلا تُسمع اطلاقاً بسبب التشويش ذاته. والطعام المصري لا يؤكل. وصبَّ قاسم جام غضبه على السكن. وأعلن

انه لا يستطيع البقاء في زريبة. كيف يسكن ثلاثة طلاب في غرفة صغيرة واحدة؟ ماذا عن الجراثيم والعدوى؟ وختم قاسم ملحمته الانتقادية بالقول انه سينتقل في أقرب فرصة للسكن في شقة. وعلى الراغبين في الانتقال معه أن يحملوا حقائبهم ويتبعوه. أما الباقون فهنيئاً لهم زريبتهم.

تحدّث بعده يعقوب. العمارة التي يسكنون فيها لا تبعد سوى خطى قليلة عن دار الكتب، مكتبة مصر الرسمية التي تضم ما يزيد على نصف مليون كتاب. هناك، أخذ يعقوب يمضي معظم ساعات النهار، وبعض ساعات الليل. اكتشف مجموعة من روايات تولستوي مترجمة الى اللغة العربية. قرأها جميعها، وتعلق برواية «الحرب والسلام». قال انه عثر على ملاذه الفكري الأخير. سوف يكون تولستويا الى الأبد. صرّح انه لو لم يستفد من القاهرة شيئاً سوى التعرف على تولستوي لكفاه. واقترح على فؤاد أن يبدأ، فوراً، في قراءة كتب تولستوي، ووعده فؤاد بالتفكير في الموضوع.

أمّا عبد الكريم فلم يكن لديه جديد أو مثير. قضى معظم وقته منذ وصوله الى القاهرة مشغولاً بترتيبات السكن والدراسة متنقلاً من قسم الى قسم ومن إدارة الى إدارة في المؤتمر. هذا هو عبدالكريم! يتفرغ قاسم للانتقاد، ويتفرغ يعقوب لتولستوي، ويسقط العبء بأكمله على رأسه. ومن دون تذمر، يتقبل عبد الكريم الوضع. يطارد الأوراق، ويرجو المسؤولين، ويملأ الاستمارات.

ظلّ الأصدقاء يتحدثّون الى ما قبل الغروب. ثم قاموا يتمشون بقرب النيل لا يملّون النظر اليه. واقترح قاسم أن يتعشوا في «الأوبرج» (كان قاسم الوحيد الذي سمع عن «الأوبرج» في البحرين). ولم يجد الإقتراح من يؤيّده. واقترح يعقوب أن يقضوا بقية السهرة في مقر السكن يناقشون أفكار تولستوي. ووجم الجميع. ثم استقرّ الرأي على أن يذهبوا الى «التابعي الدمياطي»، أشهر مطاعم الفول والطعمية في القاهرة، لتناول العشاء. عندما غابت الشمس، كان الأصدقاء الأربعة لا يزالون يتمشون على الكورنيش وأصداء ضحكاتهم تسمع من بعيد.

* * *

بعد أسبوع من قدوم فؤاد وصل الأستاذ شريف من الاسكندرية. اعتذر بحرارة لأنه لم يستلم البرقية ولم يتوقّع وصول فؤاد في هذا الوقت المبكر.

وعلى الفور، بدأ البحث عن السكن. ردّد فؤاد، على استحياء، اقتراح قاسم بشأن السكن في شقّة. ولكن الأستاذ شريف رفض الفكرة على الفور. أبدى أسباباً مُعقّدة طويلة ولكن السبب الحقيقي، في رأي فؤاد، كان خوف الأستاذ من مغبّة الحريّة. قرّر الأستاذ أن الحل الأمثل هو أن يسكن فؤاد مع عائلة تتولّى معاملته كإبن من أبنائها، وتهتم بكافة شؤونه المنزلية، من طبخ وغسيل، ليتفرّغ هو للدراسة. قرّر قاسم أن ينضم اليه فراراً من «زريبة» المؤتمر. أما يعقوب وعبدالكريم فقد قرّرا أن هذه «الزريبة» تتيح من الحرية ما لا يتيحه السكن مع عائلة.

كان العثور على عائلة مناسبة أصعب بكثير مما توقّع الأستاذ. عبر أسبوعين متواصلين، كانا يزوران عدة عائلات في اليوم. وكان الأستاذ يجد في كل عائلة عيباً أو أكثر. في هذه الشقّة أطفال تتعذّر المذاكرة مع وجودهم. هذه العائلة أجنبية ولها عاداتها وتقاليدها المختلفة. في هذه العائلة بنات مراهقات. «وما الضرر من ذلك»؟ ـ فكر فؤاد ولم يقل شيئاً. هذه العائلة تسكن في حي بعيد. هذه الزوجة متبرجة. كاد فؤاد يفقد الأمل عندما أعلن الأستاذ انه عثر على المكان الملائم: مُطلّقة تؤجّر أربع غرف للطلبة وتتولّى السهر الكامل على راحتهم. لم تطلب مقابل السكن والطعام وكل النفقات الأخرى سوى خمسة عشر جنيهاً في الشهر.

تلقّى فؤاد محاضرة طويلة عن قيمة النقود من الأستاذ. أخبره الأستاذ أنه اتفق مع أبيه على أن يُخصّص له خمسة وعشرين جنيهاً كل شهر، وأوضح انه سيبقى لدى فؤاد بعد دفع تكاليف السكن والطعام عشرة جنيهات. وأضاف ان المبلغ ضخم جداً بالنسبة لطالب في سنه. وحذره من ركوب سيارات التاكسي (وداعاً أسطى محجوب!)، أو دخول المطاعم. كان فؤاد يبتسم في داخله وهو يستمع الى المحاضرة. فقد وعدته أمّه أن ترسل له، بين الحين والآخر، مع أحد المسافرين مبلغاً سرّياً لا يعرف أبوه، ولا الأستاذ شريف، عنه شيئاً.

في صباح اليوم التالي، حمل فؤاد حقائبه المنتفخة وألقى ركابه في شقة الست خيرية التي تقع في شارع المساحة، الذي يسمّيه الجميع شارع عبد المنعم، بالدقي. كانت الشقة في الدور الرابع، ولم يكن في العمارة مصعد. قال الأستاذ شريف ان هذه ميزة عظمى لأنها تعني الرياضة الاجبارية كل يوم. وتلقته الست خيرية، وهي امرأة نصف، ممتلئة القوام، بشوش الملامح، بالعناق الحار وكأنها تعرفه، وتنتظره، من سنين. وتعرّف على زميلي

السكن: عدنان، وهو طالب أردني يدرس الهندسة، ومجيد، وهو طالب عراقي يدرس التاريخ، وكلاهما في جامعة القاهرة. ما إن وصل قاسم حتى اشتبك في نقاش حاد مع عدنان. الطالب الأردني ينتقد الملك حسين، والطالب البحريني يدافع عنه دفاع الأبطال، وفؤاد ومجيد يتابعان النقاش بكثير من المتعة.

٢

أكتوبر
نوفمبر ١٩٥٦

فِـراقٌ... ومَـنْ فـارقـتُ غـيـرُ مُـذمّمِ وأمٌّ ... ومَـنْ يمّـمـتُ خـيـرُ مُـيـمَّـمِ

المتنبي

٢

تفرّق الأصدقاء في الدراسة كما تفرقّوا في السكن. ذهب عبدالكريم ويعقوب الى المدرسة الخديويّة، التي كانت تلقّب مدرسة المشاغبين، بينما التحق فؤاد وقاسم بالمدرسة السعيدية. تلّقى فؤاد شرحاً مُسهباً عن السعيدية من الأستاذ شريف الذي أكّد له انها أعرق مدرسة في القطر المصري. أوضح الأستاذ ان معظم الوزراء في العهد الملكي درسوا في السعيدية، ومنها انتقلوا الى كلية الحقوق التي لا تبعد عنها إلا بأمتار قليلة، ثم تخرجوا وأصبحوا محامين فوزراء. وناظر السعيدية، عبد العزيز بيه شكري، صديق حميم للأستاذ شريف الذي أوصاه بفؤاد خيراً. وليته لم يفعل.

ذات صباح، في حصّة التاريخ، مادة فؤاد المفضلّة طرق أحد السعاة باب الفصل وصرخ بصوت جهوري:

ـ البيه الناظر طالب فؤاد الطارف.

ساد الفصل وجوم عميق. واتسعت حدقتا المُدرّس دهشة. يبدو ان «البيه الناظر» لم يسبق له أن طلب رؤية تلميذ من قبل. قال المُدرّس:

ـ قوم يا فؤاد. ربّنا معاك.

تسارعت نبضات قلب فؤاد. ربنا معّاك؟ ترى ما هو الذنب الذي جعل «البيه الناظر» يستدعيه؟

تبع الساعي مهرولاً، وبتردّد سأله:

ـ عارف طالبني ليه؟

وردّ الساعي باختصار شديد:

ـ لا.

بعد دقائق وصلا الى غرفة صغيرة، وأشار الساعي الى الباب:

ـ تفضل هنا عند الأفندي السكرتير.

دخل فؤاد وألقى السلام بأدب شديد على «الأفندي السكرتير» الذي ردّ عليه بضيق لم يحاول إخفاءه. ثم طلب منه الجلوس حتى ينتهي «البيه الناظر» من مكالمة تيلفونية. وطال الإنتظار. وازداد قلق فؤاد. وبغتة، سمع صوت جرس. وأشار السكرتير الى باب في آخر المكتب:

ـ اتفضل. «البيه الناظر» مستناك.

كان أول ما لفت نظر فؤاد حجم الغرفة الهائل. لم ير مكتباً بهذه الضخامة من قبل. عبدالعزيز بيه شكري رجل نحيل، أشيب الرأس، لا يكاد يبدو في الكرسي الكبير، أمامه على الطاولة اهرامات من الورق.

ـ أهلاً وسهلاً يا ابني. أهلاً وسهلاً.

قام «البيه الناظر» يصافحه. ودهش فؤاد فقد تعلّم من تجربته القصيرة أنّ أحداً من العاملين في المدرسة لا يقوم ليصافح طالباً. ومضى الناظر:

ـ شريف بيه وصاني عليك. إذا عُزت حاجة تبقى تفوت عليّ. أهلاً وسهلاً.

كان من الواضح أن المقابلة قد انتهت. وتمتم فؤاد قبل أن يخرج:

ـ شكراً. شكراً يا أستاذ.

عاد أدراجه الى الفصل. كانت حصّة التاريخ قد انتهت وبدأت حصّة المدرّس الذي تربطه بفؤاد كراهية عميقة متبادلة، الأستاذ يسري مُدرّس اللغة الإنجليزية. طرق الباب. وعلى الفور أجابه الأستاذ يسري:

ـ وحضرتك متأخر ليه؟ هُمَ البهوات في البحرين يجوا الحصص متأخرين؟

وبسرور داخلي عميق ردّ فؤاد:

ـ كنت عند «البيه الناظر».

رمقه الأستاذ يسري بنظرة كان من الواضح انها تّتهمه بالجنون أو الكذب. إلاّ أن الطلاّب، بصوت واحد، أكدوا صحة الخبر. وسمح له الأستاذ، على مضض، بالدخول.

مع نهاية الحصّة، انقضّ عليه زملاؤه. وجاء طوفان من الأسئلة والتعليقات:

- شفت «البيه الناظر»؟

- شكله إيه؟

- رفتوك؟

- قال لك إيه؟

- يا بختك يا عم. مين قدّك؟

- ده «البيه الناظر» في الدرجة الثانية يا عالم!

- خفت وإلاّ ما خفتش؟

أوضح فؤاد أن المقابلة لم تستغرق سوى ثوانٍ معدودة وانها لم تتضمن سوى جملة واحدة. ومع هذا، فقد كان فؤاد يدرك أن أحداً من زملائه، أو أساتذته، لن ينسى أنه الطالب الوحيد الذي استدعاه «البيه الناظر».

كان هذا أسبوعه الثامن في السعيدية، وأسبوعه العاشر في القاهرة. بدأت أموره تستقرّ بعد الوحشة العنيفة التي طحنت أيامه الأولى. أصبح لليوم نمطه المعروف. الصحو في السادسة. الإفطار في السابعة. الذهاب الى المدرسة مشياً إن كان هناك متسع من الوقت، أو في الأوتوبيس. العودة في الثالثة. الغداء فالقيلولة. فترة العصر التي تنقضي في كثير من القراءة وقليل من المذاكرة. المساء، وأحاديث السياسة مع زملاء السكن. العشاء، فنشرة الأخبار، فصوت العرب. النوم في الحادية عشرة. أمّا يوم الخميس فله برنامجه الخاص. يأتي عبد الكريم ويعقوب الى شقة الست أو يذهب هو وقاسم الى عمارة المؤتمر. العشاء على النيل، في «كازينو الشجرة» غالباً، فالسينما، فالثرثرة. بدأ يتعوّد على القاهرة ويألف شوارعها وميادينها وأوتوبيساتها ومقاهيها وأهلها. بدأ يلمس حرارة الطيبة النابعة من كل إنسان. وصل الى اقتناع انه لا يوجد في القاهرة شخص واحد لا يجيد النكتة، اختراعاً ورواية وتمثيلاً.

وبدأ يتأقلم مع السعيدية، مع مبانيها العملاقة التي تضم أكثر من ألفي طالب، ومع مدّرسيه. في البداية، نشأت مشكلة بينه وبين الأستاذ سرحان مدرّس اللغة العربية عندما اتهمه الأستاذ بسرقة موضوع الانشاء من مكان ما لم يحدّده الأستاذ. وغضب فؤاد وانفعل. لم يقتنع الأستاذ أن فؤاد هو

كاتب الموضوع إلاّ عندما أحضر له فؤاد قصاصات من صحف البحرين تتضمّن تاريخه الأدبي: أربع قصص قصيرة، وخمس مقالات، وجميعها بقلمه. بعدها، أخذ الأستاذ سرحان يوليه عناية خاصة، جعلته أشبه ما يكون بمساعد المدرّس خلال حصص اللغة العربية.

كان فؤاد مُعجباً بمُدرّس الفلسفة والمنطق، الأستاذ مراد، وبالمادة التي يدرسها لأول مرّة. كان الأستاذ مراد يبسّط المسائل على نحو جعل المادة المُعقّدة سهلة وشائقة. أما مدرّس اللغة الإنجليزية، اللورد يسري، كما يسمّيه الطلاب وراء ظهره، فقد كانت علاقته مع فؤاد تسير من سيىء الى أسوأ. كان لا يسمّيه إلا «بتاع البحرين»، وكان ينتهز كلّ فرصة للسخرية منه. حار فؤاد في فهم هذا العداء حتى أوضح له بعض زملائه أن السبب هو الطريقة التي ينطق بها الكلمات الانجليزية، كما تعلّمها من المستر هيدلي، والتي تختلف تماماً عن طريقة اللورد. وكانت علاقته ببقية المدرّسين محايدة. كانت شخصياتهم، في مجملها، من النوع الفاتر الذي لا يثير في النفوس كراهية أو محبّة.

أما مُدرّسه المُفضل، فقد كان الأستاذ رفعت مُدرّس التاريخ. اختار فؤاد مادة التاريخ لتخصّصه في التوجيهية، وجاءت المادّة مفاجأة سارّة بسبب المدرّس. كانت الحصة تنتهي، والطلاب في ذهول منتشٍ، وكأنّهم يشاهدون مناظر مسرحية رائعة تتكشّف أمامهم. بدأ الأستاذ المُقرّر بلويس السادس عشر ثم مشى مع أحداث الثورة الفرنسية يوماً بعد يوم. أخذهم الى مخدع لويس، والى مقصورة ماري أنطوانيت، والى مظاهرات الخبز، والى اقتحام الباستيل. كان الطلاّب يتطلعّون الى حصّة التاريخ المقبلة وكأنهم ينتظرون فيلماً جديداً من أفلام المغامرات المثيرة.

كانت المشكلة الأساسية التي تواجه فؤاد عند التعرّف على زميل جديد هي أن أحداً لم يسمع عن البحرين من قبل. هناك، دائماً، نظرات مشوبة بالإستغراب والفضول. ويزيد الطين بلّة عمل والده. كان فؤاد يردّ، ببساطة، على كلّ من يسأله عن مهنة أبيه أن أباه يبيع مجوهرات. والنظرة التي تواجهه دائماً توحي بأن المستمع يتصوّر مخزناً هائلاً مزدحماً بعقود الماس وأكوام الزمرّد. كيف يشرح للسائلين ان متجر أبيه الصغير في شارع التجّار في المنامة يُدرّ من الدخل ما يكفي العائلة ولكنه لا يأتي بالملايين، ولا بعشرات الألوف؟ كيف يقنع السامعين أن المجوهرات التي يبيعها أبوه لا يوجد فيها عقد واحد من الماس أو فص واحد من الزمرّد، وأن البضاعة -

«المال» كما يسميها أبوه ـ تكاد تقتصر على أساور اليد الذهبية وخواتم اللؤلؤ الرخيصة، بقايا عهد الغوص المرحوم.

* * *

لأول مرّة في حياته، يشعر عبد الكريم بشيعيّته. في البحرين، كان نصف الحيّ من السنّة ونصفه الآخر من الشيعة. وكذلك كان الوضع في المدرسة، وفي السوق، وفي كل مكان. كان هذا نسق الحياة الذي تعوّد عليه الجميع: السنّة سنّة، أو عرب!، والشيعة شيعة، أو بحارنة! تحصل أحياناً مضاربات بين السنة والشيعة، وخاصة خلال مواكب عاشوراء، غير أن المياه سرعان ما تعود الى مجاريها. وتحدث مداعبات بين الأصدقاء من الشيعة والسنّة تتحوّل، أحياناً، الى مناوشات، ولكن هذا، بدوره، كان جزءاً من الحياة التي ألفها المجتمع. في القاهرة، بدأ عبدالكريم يواجه مشكلة لم تخطر بباله من قبل: مشكلة الأقليات.

بدأت القصّة في المدرسة الخديوية مع مدرّس اللغة العربية الذي أشار في معرض حديثه عن قصيدة في المقرّر إشارة جارحة الى الشيعة (الذين سمّاهم الروافض). ذهب عبدالكريم اليه بعد الحصّة ليحتجّ بأدب. فوجىء الأستاذ حسين ـ الذي يسمّيه الجميع الشيخ حسين لأنّه تخرَّج من الأزهر ـ بأن أحد طلبته من الشيعة. وبلغ من استغراب المدرّس من وجود هذه الظاهرة الشيعيّة في المدرسة، أن طلب من عبدالكريم أن يعود اليه في فرصة أوسع ليكون هناك مجال أكبر للبحث. وكان «البحث» وابلاً من الأسئلة ينهمر مع كل لقاء:

ـ لماذا تكرهون الصحابة؟

ـ كيف تصدّقون أن المهدي المنتظر لا يزال على قيد الحياة بعد أكثر من ألف سنة؟

ـ هل لا تزالون تنتظرونه على باب السرداب في سامّراء؟

ـ هل لديكم قرآن يختلف عن قرآن السنّة؟

ـ ما الفرق بين زواج المتعة والزنا؟

ـ لماذا لا تعترفون بأحاديث السنّة؟

ـ لماذا لا تصلّون مع السنّة؟

ـ لماذا تكرهون السنّة؟

رغم أن عبد الكريم ولد وترعرع في بيت شيخ من أكبر مشائخ الشيعة في البحرين، إلاّ أن هذه الأسئلة لم تعرض له على هذا النحو قط. كانت

مبادىء المذهب كما تعلمّها من أبيه بسيطة وواضحة. الشيعة هم شيعة الإمام علي وأبنائه، وهم يكرهون كل من عادى الإمام علي وأبناءه، سواء كان من الصحابة أو من غيرهم. وهو لا يذكر أن أباه تفوّه بكلمة نابية واحدة ضد أحد من الخلفاء الراشدين (بخلاف أمّه التي تهوى شتم عمر بن الخطاب). والمهديّ لا يزال حيّاً لأن الله قادر على كل شيء. وهو لم يسمع بأن أحداً ينتظر خروج المهدي من سرداب في سامّراء. كما انه لم يسمع بأن هناك قرآناً للشيعة يختلف عن قرآن السنّة. وزواج المتعة كان قائماً ومعترفاً به من جميع المسلمين حتّى حرّمه الخليفة الثاني. والأحاديث التي يرويها الشيعة منقولة عن الأئمة من أهل البيت وإذا كانت ثمة مشكلة فهي في أحاديث السنّة. وموضوع الصلاة مع السنّة لم يطرح أمامه من قبل. في البحرين، يصلّي الشيعة في مساجد الشيعة، ويصلّي السنّة في مساجد السنّة، وهذا كل ما هنالك. وهو لا يكره السنّة بدليل أن كل أصدقائه المقرّبين من السنّة.

لفت الحوار الدائر بين الشيخ حسين وعبد الكريم انتباه الطلبة الذين أخذوا، بدورهم، يهتمون اهتماماً خاصاً بهذا الطالب الذي ينتمي الى مذهب لم يكن معظمهم قد سمع عنه من قبل (باستثناء الشتيمة المشهورة يا ابن الرفضى!). كادت الأمور أن تتحوّل استجواباً مستمراً في الفصل لولا تدخل يعقوب الذي صرخ ذات يوم:

ـ كفوا عن هذه الأسئلة السخيفة. شيعة وسنّة! هذا كلام من صنع الإستعمار. مؤامرة لتفريق الأمّة العربية. كلّنا عرب وكلنا مسلمون فما هذه الحماقة؟ حاول الإنجليز في البحرين إذكاء الفتنة بيننا عن طريق هذه النعرة ولكننا أفسدنا خطتهم.

حديث المؤامرة الإستعمارية في الأجواء التي تعيشها القاهرة بعد التأميم يلقى الكثير من الترحيب. بعد غضبة يعقوب، خفّ فضول الزملاء بشكل ملحوظ. حتى الشيخ حسين نضبت أسئلته ولم يعد يذكر الشيعة في دروسه. ومع ذلك، خلّفت التجربة أسئلة مزعجة تنبض في وجدان عبد الكريم: «هل يختلف الشيعي الى هذه الدرجة عن السنّي؟». «هل يكره السنّة الشيعة؟». والسؤال الأخطر «هل يستطيع الشيعي أن يعيش آمناً بين السنّة؟».

* * *

ظلت مشاعر قاسم، كما كانت قبل وصوله الى القاهرة، معادية للثورة

وللثوّار. بدأ، رغماً عن أنفه، يحسّ بمودة متزايدة نحو المصريين الذين يتعامل معهم، أما نظرته الى جمال عبدالناصر وضُباطه فلم تتغيّر. تعرَّف قاسم في أسبوعه الأول في السعيدية على نشأت، زميله في الفصل، وعلى الفور ظهرت ارهاصات صداقة عميقة. ولم تكن معرفة السبب تتطلب الكثير من الذكاء. نشأت من أسرة أرستقراطية معروفة، وقد كان أبوه وزيراً للداخلية في أكثر من حكومة من حكومات ما قبل الثورة، كما كان قبل الغاء الألقاب، العمل الذي يعتبره قاسم جريمة من جرائم الثورة الكثيرة، باشا. كان هناك تطابق تام في الأفكار بين سليل الأرستقراطية الصاعدة في البحرين ووريث الأرستقراطية الغاربة في مصر.

عبر حوار بعد حوار مع نشأت، أخذت الصورة الفعلية لما يدور في مصر تتضح أمام قاسم. حدّثه نشأت عن الحقيقة الضائعة في ضجيج الدعاية. عن عشرات الآلاف من المواطنين الذين يُعذّبون في المعتقلات. عن أذرع المخابرات المتغلغلة، كالأخطبوط، في كل مكان. عن المؤامرة الوهمية التي نُسبتْ الى الأخوان المسلمين وأعطت النظام مُبرّراً للقضاء عليهم. عن الضباط الذين تحولوا الى أسرة مالكة جديدة تفوق امتيازاتها وسلطاتها كلّ ما كان عند الأسرة المالكة القديمة. أوضح له نشأت ان كل ما يُروى عن الفساد أيام الملكية لا يُقارن بالفساد الذي ينتشر في مصر الآن. كانت كل هذه المعلومات ذخائر تضاف الى ترسانة قاسم، ذخائر هامة لأنها تجيء من ابن رجل كان وزيراً للداخلية ويعرف بواطن الأمور.

الشيء الذي يثير قاسم الى درجة الجنون أن أحداً من أصدقائه لم يشاركه الرأي، أو يبدي أدنى قدر من التعاطف مع معلوماته. عندما تحدّث مع فؤاد عن المعتقلات وما يجري فيها رد الأخير بالإنجليزية متعمّداً إغاظته:

- So What?

وعندما حاول أن يستثير حسّ العدالة الفطري عند يعقوب فوجىء بشرح مسهب صاخب:

- يا قاسم! يا قاسم! متى تفهم؟ متى تتعلّم؟ هنا ثورة. هنا نظام حل محلّ نظام. هنا معركة سياسية واجتماعية واقتصادية. كيف تتوقّع أن يتمّ هذا من غير عنف؟ من غير معتقلات؟ من غير مخابرات؟ ومن هم

المعتقلون؟ مجموعة من الرجعيين والخونة والجواسيس. لا يهم سجن ألف أو ألفين في سبيل شعب. في سبيل التحرّر.

حاول قاسم أن يجد أذناً مصغية لدى عبدالكريم إلاّ أن جهوده باءت بالفشل. علّق عبدالكريم باختصار:

- في كل مكان سجون ومخابرات.

لا ينتهي عجب قاسم من هؤلاء الأصدقاء. هؤلاء البشر الأذكياء المثقفين الذين استطاع ممثّل مثل أحمد سعيد غسل أدمغتهم وجعلهم يصدقون كل شيء.

* * *

موجة هائلة من الحقد والكراهية تصطخب في أعماق يعقوب. موجة من الغضب والسخط تعتمل في نفسه. موجة من النقمة والثورة تمور في قلبه. يحسّ يعقوب انه يعيش، شخصياً، كل عذابات الأمّة العربية التي عانت من الاستعمار كما لم تعان أيّ أمّة أخرى على وجه الأرض. منذ الصليبيين، وهجمات الإستعمار على العرب لم تنقطع: هجمات بالجيوش، وهجمات بالمؤامرات، وهجمات بالجواسيس والعملاء. والنتيجة؟ تمكن المستعمرون من التغلغل في كل شبر عربي. قسّموا الأمّة الواحدة الى دويلات ومقاطعات في اتفاقية سايكس/بيكو ووزعوها على أذنابهم وأعوانهم. ولم يكفهم هذا. جاءوا بإسرائيل وزرعوها زرعاً في قلب العالم العربي ليضمنوا انقسامه الى الأبد. وبدا كما لو أن المؤامرة التاريخية نجحت وأن الأمّة العربية سوف تظلّ مزرعة للمستعمرين وأعوانهم الخونة.

وفجأة، حدث ما لم يكن في حسبان أحد. فجأة، ظهر على الأفق عملاق أسمر، اسمه جمال عبدالناصر، أسقط كل الخطط وقلب كل المعادلات. فجأة، ظهر رجل وطني لم يصل الى الحكم بالوراثة ولا بحراب الانجليز. جاء رجل، وجاء معه عالم جديد. والتفّت آمال العرب في كل مكان حول الفارس. وتوالت الانتصارات: الجلاء، كسر احتكار السلاح، الحياد الإيجابي، السدّ العالي، وأخيراً تأميم القناة. واكتشفت الأمة العربية طاقات النضال الهائلة الكامنة في أعماقها. وزحفت الى الأمام.

والآن، في هذه اللحظة بالذات، تهجم إسرائيل على مصر. وقبل أن يدرك أحد حقيقة ما حدث، وقبل أن تتاح للجيش المصري الباسل الفرصة لتأديب إسرائيل، يجيء إنذار بريطاني/فرنسي. ويرفض البطل الإستسلام.

وتبدأ الطائرات البريطانية والفرنسية مهاجمة القاهرة، ويبدأ الإنزال المظليّ في بورسعيد. وتتضح المؤامرة القذرة الدنيئة: العدوان الثلاثي المجرم. موجة الغضب تتكسّر داخل يعقوب لتبدأ موجة جديدة. كيف يصل الى بورسعيد ليقتل أول جندي بريطاني أو فرنسي يراه؟ كيف يصل الى الحدود ليشتبك مع جنود إسرائيل؟ كيف يمكن أن يقوم بواجبه في هذه الساعة الحاسمة في تاريخ النضال العربي؟

يقرّر يعقوب أن يتطوّع، ولكنه لا يعرف كيف وأين. ذهب الى قسم البوليس في باب الخلق واستمع «حضرة الضابط» بدهشة الى هذا الشاب البحريني الذي يرتجف حماسة ويطلب الإلتحاق الفوري بالجيش المصري. وأوضح له ان الموضوع ليس من اختصاص البوليس. وأشار عليه بأن يذهب الى ثكنات الجيش في العباسيّة. استقلّ يعقوب أول تاكسي مرّ به وانطلق الى الثكنات. شرح هدفه للجنود الذين وجدهم عند البوابّة. وبدت عليهم أمارات الذهول. واتصلوا بحضرة الضابط «النوبتشجي». وجاء رجل على كتفيه نجوم كثيرة شديدة اللمعان. واستمع الى يعقوب بهدوء. ثم قال:

ـ يا ابني روّح بيتكم. أحسن لك!

غادر يعقوب الثكنات وهو يغلي من الغيظ. «يروّح بيتهم» والمعركة في عنفوانها؟ وصوت العرب يدعو الجماهير العربية في كل مكان الى القتال؟ وجمال عبدالناصر يعلن من مسجد الأزهر «سنحارب! سنحارب! سنحارب!»؟

أسرع يعقوب الى مقّر المؤتمر الإسلامي وطلب مقابلة أنور السادات، السكرتير العام، شخصياً. اضطرب موظف الاستعلامات وهو يستمع الى هذا الطلب الغريب. وشرح له يعقوب السبب. وأحاله موظف الاستعلامات الى موظّف آخر، فآخر، حتى استقر به المقام في مكتب أحد مساعدي السادات. لأول مرّة منذ الصباح، وجد يعقوب مسؤولاً ثورياً يستطيع التفاهم مع الطلبة الثوريين. قال له المسؤول:

ـ أشكرك باسم أنور السادات. وباسم مصر. ولكن يا ابني انت عمرك كام؟

ـ تسع عشرة سنة.

لم يذهب يعقوب بعيداً. أضاف الى عمره الحقيقي سنة واحدة.

- هل سبق لك حمل أي نوع من أنواع السلاح؟

فوجىء يعقوب بهذا السؤال البديهي الذي لم يخطر بباله، واضطر الى الإعتراف:

- لا.

- هل سبق أن تلقيت أي تدريب عسكري؟

- لا.

حاول المسؤول أن يشرح له أنّ «البلد حرب»، وأن الوقت لا يسمح بتدريب متطوعين جدد على حمل السلاح. وأصرَّ يعقوب على التطوّع. وبعد أخذ وردّ توصلا الى حل وسط. أن يلتحق بالمقاومة الشعبية في حيّه. تطلب الأمر إجراء العديد من المكالمات التيلفونية، وأخيراً أخبره المسؤول أن لجنة المقاومة الشعبية في باب الخلق في انتظاره.

هناك، وجد الكثير من شباب الجامعات. إلاّ أنّه كان المتطوّع الوحيد من غير المصريين. ورحّب زملاء المقاومة بهذا المتطوع القادم من بلدة عربية لم يسمعوا عنها من قبل. ارتدى يعقوب بدلة «كاكي» - «خاكي» كما تُسمّى في البحرين - واتفق مع رئيس المجموعة أن يبدأ دوريته بعد الغروب. كانت المهام الموكلة الى المجموعة بسيطة: التنبيه على الجميع بإطفاء الأنوار أثناء الغارات الجوية، ومساعدة أيّ مواطن يحتاج الى مساعدة، وملاحظة أي تصرّفات مشبوهة. لم تكن هذه الأعمال الروتينية لتطفىء ذلك الظمأ المتأجج في أعماق يعقوب الى القتل، ولكن هذا هو كل ما أمكن الحصول عليه. عندما عاد الى العمارة، انتفخ كالطاووس وزملاء السكن يرمقون بدلته العسكرية بنظرات الحيرة والغيرة.

* * *

مرّت أيام المعركة بفؤاد حلُماً لذيذاً عاشه منتشياً بكل لحظة من لحظاته. روح الصمود تتجلّى في كل مكان. الحياة الطبيعية تسير غير عابئة بالطائرات التي ترمي قذائفها. الأغاني الوطنية تفجّر الحماسة في القلوب. «الله أكبر فوق كيد المعتدي». «دع سمائي فسمائي محرقة». «والله زمان يا سلاحي». بخلاف يعقوب الذي أحسّ بضرورة مشاركته الشخصية في القتال، كان فؤاد يشعر انه قد أصبح، بعفوية تامّة، جزءاً لا يتجزأ من المعركة الدائرة: من روح الصمود، من الحياة اليومية الطبيعية، ومن الكلمات الملتهبة التي تبثّها الميكروفونات في الميادين.

١ نوفمبر ١٩٥٦. في هذا اليوم، في الساعة الحادية عشرة ودقيقتين صباحاً، وفي ميدان الأوبرا، أبصر فؤاد بعينيه، بل بأمّ عينيه كما تقول كتب الإنشاء، الرئيس جمال عبد الناصر. لم يشاهده في شريط سينمائي من مسلسل «جريدة مصر الناطقة». ولم يره على غلاف مجلة. أبصره، بلحمه وشحمه. كان جمال عبد الناصر واقفاً في السيارة المفتوحة، يحيّي الجماهير المحتشدة وهو يبتسم ابتسامة عريضة، مضيئة كالشمس. دخل فؤاد في أحضان قشعريرة سعيدة. ها هوذا بطله العظيم أمام عينيه يبتسم، والطائرات المجرمة تقصف الإذاعة والمطارات، ورُبّما بيته في منشيّة البكري. يبتسم، والعدوان الثلاثي في أوجه. يبتسم، في سيارة مفتوحة مكشوفة، لا يخشى رصاصات الإغتيال، ولا الجواسيس، ولا العملاء. يبتسم، وهو يحيّي شعبه. أين الذين يسمّونه الديكتاتور؟ هل هذه تصرّفات ديكتاتور؟ هل وُجد، عبر التاريخ كله، ديكتاتور يلتحم بشعبه على هذا النحو، من غير حراسة، وفي خضم معركة؟ يكاد فؤاد يضرب قاسم الذي لم يجد في ذروة هذه اللحظة التاريخية الفريدة ما يقوله سوى:

- لماذا يركب سيارة «كدلك» إذا كان من الزعماء الشعبيين؟!

يا لغباوة هذا المخلوق الرجعي! ألم يلاحظ في الدراما الهائلة سوى ماركة السيارة التي يستخدمها جمال عبد الناصر؟!

حاول قاسم، بلا جدوى، أن يفسد على فؤاد روعة حلمه القومي بالمعلومات الغريبة التي كان يأتي بها كل يوم والتي يعرف فؤاد أن مصدرها ابن الباشا. أصرّ قاسم على أن الطائرات البريطانية والفرنسية دمّرت الطائرات المصرية عن آخرها وأن ما نشرته الصحف المصرية من أنها دمرّت هياكل خشبية هو محض افتراء. وقال قاسم ان القوات البريطانية والفرنسية احتلت بورسعيد خلال ساعات وأن كلّ ما تردّد عن المقاومة البطولية كذب من اختراع الخبراء الألمان الذين يديرون صوت العرب والذين تتلمذوا على يد جوبلز. كان قاسم يجيء كل يوم بإشاعات جديدة خبيثة. عن انقلاب عسكري وشيك. عن عودة النحاس باشا. عن انتحار جمال عبد الناصر. وعندما أعلن عن وقف اطلاق النار أكّد قاسم ان جمال عبد الناصر كان على وشك الهرب من القاهرة ولم ينقذه من نهايته المحتومة سوى موقف آيزنهاور.

قضى فؤاد ساعات طويلة يناقش المعركة ونتائجها مع زميلي السكن، عدنان ومجيد. كانت آراؤهما نسخة طبق الأصل من آرائه. أجمع الثلاثة

على أنّ المواجهة انتهت بانتصار تاريخي. كان الهدف الحقيقي من العدوان هو إسقاط جمال عبد الناصر واستعادة القناة. وفشل العدوان في تحقيق أيّ من الهدفين: لا جمال عبد الناصر سقط، ولا القناة رجعت الى المجرمين. على العكس، خرج جمال عبد الناصر من المعركة أقوى مما كان عليه، وتأكّدت هوية القناة المصرية. عندما انضمّ يعقوب الى النقاش ظهر تحليل جديد:

- مع الانذار السوفييتي، انتهى عهد السيطرة الأمريكية على العالم. أصبح الاتحاد السوفييتي نِدّاً لأمريكا. عندما هدّد خروشوف بريطانيا وفرنسا بالصواريخ الذرّية كان التهديد، في حقيقته، موجهاً الى أمريكا، وتراجعت أمريكا.

عندما حاول قاسم أن يتحدّث عن آيزنهاور ودوره في انهاء القتال لم يجد من زملائه سوى الإحتقار. كانت آراء قاسم الرجعية أتفه من أن تستحق النقاش.

* * *

لا يعرف فؤاد كيف ومتى بدأت الصداقة بينه وبين عبدالرؤوف. الخجل يغلب عليه، كما يغلب على عبد الرؤوف. ولم تكن في طبيعة أيٍّ منهما القدرة على تكوين صداقات جديدة بسهولة. إلاّ أنه تعرّف على عبد الرؤوف في يومه الأول في السعيدية. كانت هواية الأدب، في البداية، هي الرابطة الوحيدة بينهما. كان فؤاد قد نشر قصصه القصيرة الأولى، وكان عبد الرؤوف يتطلع الى نشر قصته الأولى. سرعان ما أدركا انهما، فيما بينهما، قرآ من الكتب أكثر مما قرأه الفصل بأكمله. ثم تبيّنا، بالتدريج، وجود عوامل نفسية مشتركة. هناك الرغبة في تحليل كل شيء، أو «فلسفته» كما يقول عبدالرؤوف، وعدم أخذ الحياة ببساطة كما يأخذها الآخرون. هناك القدرة على استخلاص الجوانب الفكاهية في كل موقف، بالإضافة الى الجوانب المأساوية، في إدراك فطري أن الفكاهة لا تختلف عن المأساة. وهناك الحسّاسية المفرطة في التعامل مع كل شيء: ردود فعل الآخرين، النقد، الإطراء، والمرأة. أوه! المرأة بالذات!

خلال الفُسح كان الإثنان ينتحيان جانباً ليبحثا كل ما تحت السماء: المدرسة وكائناتها، والدنيا والناس. ويقود الحديث في كل مرة الى المرأة:

- ما رأيك في موقف العقّاد من المرأة؟

ـ أليس هو نفس موقف الحكيم؟

ـ هل أتى أيّ منهما بجديد؟

ـ من أين لعازب أن يفهم المرأة؟

ـ كانت للعقاد مغامراته النسوية.

ـ ولنجيب محفوظ!

ـ هل تختلف أحاسيس المرأة عن أحاسيس الرجل؟

ـ أيهما الصائد وأيهما الطريدة؟

ـ أيهما أكثر شهوانية؟

ـ أيهما أوفى؟

يكتشفان أن في جعبتهما عن المرأة الكثير الكثير من الأسئلة، والقليل القليل من الأجوبة.

مع توطّد علاقته بعبد الرؤوف، بدأ فؤاد يلمس أبعاد معضلة انسانية لم يكن قد فكّر فيها جديّاً من قبل: الفقر. في البحرين، كان كل رفاقه من الطبقة المتوسّطة التي ينتمي اليها، ولم تكن هناك فروق تذكر بينهم. كان في الفصل، عادة، اثنان أو ثلاثة من أبناء الأغنياء ـ أو «التجّار» كما يسمّونهم في البحرين ـ، واثنان أو ثلاثة من أبناء الفقراء ـ أو «الفقارة» ـ، أمّا البقيّة فكانوا في المستوى نفسه. لم تستأثر قضية الأغنياء والفقراء بكثير من تفكيره. لم يتساءل كيف يعيش الأغنياء أو كيف يعيش الفقراء. كان يفترض أن الحياة في منزله لا تختلف كثيراً عن الحياة في أيّ منزل آخر في البحرين. ينام الأولاد جميعاً في حجرة واحدة، ويذهبون الى المدرسة على الدرّاجات، ولا يعرفون الثياب الجديدة إلاّ في العيد، ولم يذق أحد طعم الجوع، ولا طعم الترف.

لم يشعر فؤاد قبل أن يصادق عبد الرؤوف انه ينتمي الى عالم سحري منفصل تماماً عن عالم الأغلبية من البشر هو عالم الأغنياء. لم يشعر من قبل انه وُلد وفي فمه ملعقة من أي نوع. اشترى والده سيارة قبل سنوات، ومع هذا فقد كان والده نادراً ما يستعملها، ولم تضف السيّارة شيئاً يذكر الى حياة فؤاد. الآن بدأ يدرك انه، شاء أو لم يشأ، شعر أو لم يشعر، من الأغنياء. الفقراء لا يملكون سيّارات، ولا متاجر مجوهرات، ولا يأكلون

اللحم بانتظام، ولا يرسلون أبناءهم للدراسة في الخارج، ومع الواحد منهم مصروف شهري مقداره خمسة وعشرون جنيهاً، وخمس بدل.

كل ما كان فؤاد يعرفه عن مصروفه الشهري انه يعادل مائتي روبيّة بحرينية، وهو مبلغ معقول بمقاييس البحرين. أما البدل فلم يقرّر هو لا عددها ولا نوعها ولا لونها. اتخذ أخوه ناصر القرار. الآن، تأخذ هذه المسلّمات بُعداً جديداً. عبدالرؤوف لا يتلقّى من والده سوى أربعة جنيهات في الشهر، ولا يملك سوى بدلة واحدة (من غير كرافتة). تبيّن لفؤاد أن معظم الطلاّب في فصله لا يملكون سوى بدلتين، وأخذ هو، بدوره، يحرص على ألاّ يرتدي للمدرسة سوى بدلتين فقط.

يسأل عبد الرؤوف باستغراب:

ـ ولكن كيف تعيش بأربعة جنيهات؟ كيف؟

ويستغرب عبد الرؤوف استغرابه:

ـ تكفي. أدفع جنيهاً، نصيبي من ايجار الغرفة التي أسكنها مع قريب من البلد. والباقي للأكل. لا أحتاج الى شيء للمواصلات فأنا أذهب الى المدرسة وأعود منها ماشياً.

ـ وماذا عن المطاعم؟ والسينما؟

ترتسم على شفة عبد الرؤوف ابتسامة صغيرة. ويدرك فؤاد مدى سخفه، وسخف سؤاله. ويتذكر ماري انطوانيت التي نصحت الجائعين بأكل الكعك بعد أن انعدم الخبز.

عندما عاد فؤاد الى المنزل بعد ذلك الحوار، وتأمل الغداء، شوربة ولحم ونوعين من الخضار وسلاطة وطبقاً ضخماً من الرّز ومهلبيّة، أحسّ، لأول مرّة في حياته، بتأنيب الضمير، لأنه لم يولد فقيراً.

* * *

«الميدان يعجّ بالبشر، والسيارات، والحيوانات، والروائح، والأصوات. عبد الباقي ينتظر وصول الأوتوبيس بصبر نافد. يلتفت إليه تلميذ صغير يقف بجانبه ويسأله:

ـ الساعة كم يا أستاذ؟

يشير عبد الباقي بغيظ الى الساعة الضخمة التي تتوسّط الميدان، الساعة التي سُمّي الميدان باسمها.

ويقول التلميذ:

- متشكرين يا أستاذ.

يرفض الأوتوبيس أن يجيء. ويعرف عبد الباقي نتيجة هذا الرفض. سوف يصل الى المصلحة متأخراً. وسوف يتلذّذ الباشكاتب بتعذيبه قبل أن يخبره انه لن يخصم عليه شيئاً هذه المرّة. يخصم؟! ومن دون أن يشعر، بدأ عبد الباقي يضحك. والتفت إليه التلميذ، وبدأ يبتعد. يخصم؟! هل بقي شيء من الراتب للخصم؟ بعد الإيجار، والطعام، والمواصلات، وملابس الأولاد، هل هناك سوى الديون؟ لماذا لا يخصم الباشكاتب من الديون؟

يصعد عبد الباقي من باب الدرجة الثانية بصعوبة بالغة. الهابطون يحاولون دهس الصاعدين الذين يحاولون القفز فوقهم. لا يكاد عبد الباقي يستقر واقفاً حتى تفاجئه العجوز التي تضغط بشبشبها على حذائه المهترىء:

- والنبي الساعة كم يا أستاذ؟

ويردّ عليها:

- هو أنا عارف أشوف ايدي يا ست؟

- لا مؤاخذة يا ابني.

لهذا الزحام، رغم ضغط الشبشب، ميزتان. الأولى، أن هناك احتمالاً قوياً في أن يصل الى محطته قبل وصول الكمساري اليه. والثانية أن مشكلة بقائه واقفاً، رغم الضغوط التي تنصّب عليه من كل الاتجاهات، تجعله ينسى أي مشكلة أخرى، مهما كانت كبيرة.

يهبط، بالفعل، قبل قدوم الكمساري. يخطو خطوتين قبل أن يستوقفه قروي يبدو انه قادم لتوّه من الصعيد في انتظار أول ترام ليشتريه:

- الساعة كم يا حضرة؟

لا ينظر عبد الباقي. ولا يردّ. ويواصل المشي.

ويتمتم القروي وهو يهزّ رأسه:

- عجايب! الكبر لله يا عالم. بلد ايه دي؟!

حقاً! بلد إيه دي؟! يغالب عبد الباقي الدموع التي بدأت تتجمّع في

عينيه. هل أصيب كل الناس بالعمى؟ كُلّ الناس؟ ألا يرون انه لا يلبس ساعة؟ ألا يعرفون انه لم يمتلك ساعة قط؟».

* * *

يسأله عبد الرؤوف:

ـ ما رأيك في قصّة الساعة؟

ويضحك فؤاد:

ـ يا رؤوف. زوّدتها حبتين. هل يوجد موظف لا يملك ساعة؟ هل يوجد أحد لا يملك ساعة؟

بغتة، وهو يتكلّم، تذكر فؤاد، انه لم ير ساعة على معصم عبد الرؤوف. وصمت، واحمرّ وجهه حرجاً. ولاحظ عبد الرؤوف ما حدث وقال:

ـ بسيطة. لا تأخذ الأمر بهذه الجديّة.

ولا يستطيع فؤاد مغالبة فضوله:

ـ ولكن كيف تعيش من غير ساعة؟

ـ هناك ساعات في كلّ مكان.

ـ لم لا تشتري ساعة؟ هناك ساعات رخيصة.

ويردّ عبد الرؤوف:

ـ ربّما كانت رخيصة في البحرين.

في اليوم التالي، أحضر فؤاد ساعته الاحتياطية، ماركة «ميدو» شأنها شأن الأصلية، وقدمّها لعبد الرؤوف الذي أخذها من غير تردّد، وهو يبتسم:

ـ وماذا عن بقية الناس الذين لا يملكون ساعات؟ هل تنوي إهداء كلٍ منهم ساعة؟

٣

نوفمبر
ديسمبر ١٩٥٧

أنا لائمي ان كنتُ وقت اللوائم   علمتُ بحالي بين تلك المعالمِ

المتنبي

٣

في سبتمبر الماضي أصبح فؤاد طالب جامعة وبدأت مرحلة جديدة مثيرة من حياته. انتقلت الشلّة كلّها الى الجامعة. جاءت النتائج في التوجيهيّة أفضل من التوقعات. حصل فؤاد على ٧٠٪، وقاسم على ٦٧٪، وعبد الكريم على ٦٦٪، ويعقوب على ٧٣٪، ونشأت على ٧٥٪، أما عبد الرؤوف فقد كان المتفوّق الوحيد وحصل على ٨٥٪. كانت هذه النتائج كفيلة بإدخالهم جامعة القاهرة من دون حاجة الى توسّط أحد لدى مكتب التنسيق، الذي اشتهر بأنه الجهة الوحيدة في الجمهورية التي ترفض الوساطات. التحق فؤاد وعبدالكريم ونشأت بكلية الحقوق، والتحق قاسم بكلية التجارة، والتحق عبد الرؤوف بقسم اللغة العربية في كلية الآداب. أمّا يعقوب فقرّر، في نهاية المطاف، أن يدرس الاجتماع. كان يفكر في دراسة الحقوق باعتبار أن العلاقات القانونية هي التعبير النهائي عن كل العلاقات القائمة في مجتمع ما. ثم فكر في دراسة الاقتصاد باعتبار أن النشاطات الاقتصادية هي العامل الأهم في حياة أيّ مجتمع. ثم فكر في دراسة الأدب باعتبار أن الأدب هو السلاح الأمضى في مقاومة الطغيان. ثم انتهى الى دراسة الاجتماع، باعتبار أن المجتمع ظاهرة معقدة يستحيل أن تُدرس من جانب واحد فقط.

حمل الصيف الذي قضاه فؤاد في البحرين مفاجآت لم تكن في الحسبان. بدأ يضيق بجو البحرين الخانق في أغسطس ويحنّ الى نسمات النيل الباردة. بعد فرحة اللقاء بأسرته في الأيام الأولى، أخذ يحسّ بالضجر من الدورة الروتينية: المنزل فالمتجر فالمنزل. أخذ يعاني من الجفاف الفكري المطبق على مجتمع البحرين والذي لم يسبق أن لاحظه من قبل. أخذ يفتقد جرائد الصباح، والمجلات التي تصدر وتقرأ في وقتها، وسور الأزبكية حيث يوجد ما لذ وطاب من كتب مستعملة بأرخص الأثمان، وبرامج

الراديو الثقافية. أخذ يحنّ الى تلك الرائحة القاهرية المُمَيزة، المتخمّرة عبر ألف سنة من ألف رائحة ورائحة. عندما ركب فؤاد الطائرة القبرصية قبيل الفجر، كانت الدموع تملأ عينيه، كما كانت في المرة الأولى، إلاّ أنها هذه المرّة كانت مزيجاً من دموع الألم لفراق أمه، ودموع الفرح بلقاء القاهرة.

روتين الجامعة يختلف تماماً عن روتين المدرسة الثانوية. لا يوجد الآن حضور وغياب، وأبواب تُفتح وتُغلق، وأعذار مرضية. لا يلاحظ أحد وجود أحد، ولا اختفاء أحد. المدرّج الهائل يستوعب أكثر من ألف طالب. والدكتور يستعين بالميكروفون كي يسمعه جميع من في المدرج الذي يمتلأ حتى لا يبقى فيه مكان لجالس أو واقف. أمّا الفصول الصغيرة - «السكاشن» حيث يدرّس المعيدون - فلا يحضرها أحد، سوى النوابغ والبلهاء. والجدول مريح جداً، نصف الأسبوع محاضرات صباحية، ونصفه الثاني محاضرات مسائية. والسنة الدراسية مقسّمة الى فصلين - أو «ترمين» كما يقول الجميع - وفي كل فصل خمس مواد. الشيء الوحيد الذي أزعج فؤاد هو عدم وجود كتب جاهزة. كان كل دكتور يطبع كتابه على هيئة ملازم يشتريها الطلبة وتصدر بالتقسيط، ملزمة أو ملزمتان كل أسبوع.

والفتيات؟! أدرك فؤاد من اليوم الأول أن كليّة الحقوق ليست المكان الأمثل للتعرّف على فتيات. عدد الطالبات في المدرج لا يصل الى عشر عدد الطلبة. ومعظمهن لا يكاد ينطبق عليهن وصف فتيات: نظارات طبية سميكة، وملامح صارمة قاسية، وجديّة مبالغ فيها. يتصور فؤاد وهو يجيل النظر في وجوه زميلاته انه ينظر الى قاضيات محكمة الجنايات في المستقبل. يبدو أن كل فتيات الجامعة الجميلات يدرسن في كلية الآداب. يا لحظ يعقوب وعبد الرؤوف! في قسم اللغة الأنجليزية، يزيد عدد الإناث على عدد الذكور، أمّا في بقية الأقسام فيتساوى العدد. وكلية الوزراء لا يوجد فيها سوى الوزراء. ماذا عن الوزيرات؟! غير أن القدر الذي حرم طلبة الحقوق زمالة الجميلات فتح لهم كوّة من الأمل لم يكونوا يحلمون بها: بوفيه كلية الآداب، حيث تأوي جميلات الكليّة، ويأتي عشاق الجمال من كل مكان في الجامعة. كان هذا البوفيه هو مقر الشِلّة المفضّل. عندما تتحدّث الشِلّة عن «البوفية» بلا تحديد فالمقصود بوفيه الآداب، أما عند الكلام على بوفيه آخر فلا بُدّ من التحديد: «بوفيه الحقوق» أو «بوفيه التجارة».

تغيّرت وتيرة الحياة بعض الشيء. أصبح عبد الرؤوف ونشأت عضوين رئيسيْن في الشِلّة. أصبح البرنامج الأسبوعي يتضمّن زيارة واحدة على الأقل لرابطة الطلبة البحرينيين في شارع متفرّع من ميدان الدقي. هناك، في فيلا واسعة، يلتقي طلبة البحرين الذين يدرسون في القاهرة، قرابة خمسين شاباً، وعدد ضئيل من الشابّات، ليتبادلوا الأحاديث، ويلعبوا «الكيرم»، و«البنج بونج»، والشطرنج، والورق. بين الحين والحين، تقام أمسية ثقافية حيث يلقي فؤاد قصّة من قصصه، ويلقي يعقوب قصيدة من قصائده. كما أن البرنامج الأسبوعي أصبح الآن يتضمن صلاة الجمعة مع عبد الرؤوف في مسجد الملك الصالح بالروضة، ويضم غداءً أدبياً بعد الصلاة في «كازينور»، بالقرب من كوبري عباس. في هذا الغداء، الذي يحضره يعقوب أحياناً، يقتصر الحديث على مسائل الفكر والثقافة.

كان هناك قرار كبير ينتظر فؤاد ورفاقه: قضيّة السكن. الحياة في بيت الست خيرية مريحة الى أقصى الحدود، إلاّ أنها شبيهة بالحياة في قسم داخلي. هناك قواعد كثيرة غير مكتوبة تحكم السلوك في الشقّة. لا بُدّ أن تتمّ الزيارات بحساب وفي مواعيد معقولة (ولا زائرات، بطبيعة الحال!). تتعذّر دعوة أحد الى الطعام ـ فالكراسي بعدد الطاعمين. حتّى أخذ حمّام ساخن يتطلب تنسيقاً مُسبّقاً مع الست التي تتولّى تسخين المياه على الموقد البدائي الذي يُسمّى في البحرين «الدافور». بدأ فؤاد يقتنع بوجاهة فكرة قاسم، استئجار شقة، وأعلن يعقوب وعبدالكريم استعدادهما للإنضمام اليهما حالما يحدث ذلك. لم يبق إلاّ فيتو الأستاذ شريف، وقد وعدهم قاسم بأنه سيضع خطة «جهنمية» لتجاوز الفيتو.

تتكشف أمام فؤاد جوانب عديدة من شخصية الأستاذ شريف. تولّى الأستاذ مسؤوليته في الإشراف على فؤاد بمنتهى الجديّة، وأضاف اليها مسؤولية الإشراف على قاسم، وكل الطلبة البحرينيين الذين يحتّك فؤاد بهم. كان يزور شقة السّت خيرية مرتّين في الأسبوع، مرّة في تمام العاشرة من صباح الجمعة، والثانية تجيء بغتة، في أيّ يوم. تبيّن أن للأستاذ شبكة هائلة من الأصدقاء، تحلّ، على الفور، أي مشكلة تواجه فؤاد أو أحد زملائه. إذا طرأت مشكلة صحيّة، فالأستاذ شريف يعرف كل أطبّاء القاهرة المشهورين. وإن جاءت مشكلة دراسية فللأستاذ في وزارة التربية والتعليم، حيث يعمل مسؤولاً كبيراً في الدرجة الثانية ـ من النفوذ ما يكفي لتذليل العقبة. وإن جدّت مشكلة تتعلق بالإقامة فالأستاذ يعرف عدداً من

الضباط العاملين في المجمّع (الذي أصبح فؤاد، الآن، خبيراً بممراته ودهاليزه). أمّا إذا تعقدّت الأمور، فعديل الأستاذ البكباشي شوكت يعمل في مخابرات الجيش، وهل توجد تحت سماء مصر معضلة لا يستطيع بكباشي في مخابرات الجيش حلّها؟

إلاّ أن ما يقلق فؤاد في الأستاذ لا يتعلّق بشخصيته، بل بآرائه السياسيّة. عندما كان الأستاذ في البحرين كان الجميع يعتقدون أنه من أشدّ الناس حماسة للثورة وقادتها ومبادئها. بعدَ أن توثقت علاقة فؤاد بالأستاذ أدرك أن حماسته الظاهرة للثورة تخفي الكثير من البرود، بل الكراهية. بما يشبه الصدمة، أدرك فؤاد أن إعجاب الأستاذ الحقيقي لا ينصّب على بطله، رائد القومية العربية، وإنما على سعد باشا، شأن الأستاذ في هذا شأن سائق التاكسي الأمّي العجوز الأسطى محجوب، وعلى خليفة سعد، النحّاس باشا. هذا الشعور المعادي لجمال عبدالناصر لا يقتصر على الأستاذ، بل يكاد فؤاد يلمسه عند كل شخص تجاوز الأربعين. هؤلاء الكهول لا يزالون يعيشون في أوهام العهد البائد: الملكية، والباشوات، والألقاب.

الألقاب! شيئاً فشيئاً، يتعوّد فؤاد على الألقاب ويبدأ في استعمالها. في البحرين، لا يستخدم الناس ألقاباً تذكر. عندما ذهب مع أبيه لزيارة الحاكم، لأول مرّة، سأل أباه عن كيفية مخاطبة الحاكم، فردّ أبوه «طال عمرك تكفي». كان الجميع يخاطبون الشيخ سلمان بـ«طال عمرك»، وكان الحاكم يستخدم التعبير نفسه في مخاطبة الآخرين. أما هنا فالمسألة معقدّة. جنابك. حضرتك. سعادتك. سيادتك. يا أفندم. حتى هو نفسه يتغيّر اسمه عدة مرّات في اليوم باختلاف المتحدثين والظروف. سي فؤاد (كما تسمّيه الست خيرية). فؤاد أفندي (كما يسميه المكوجي). فؤاد بيه (كما يسمّيه الجرسونات في الكليّة). الأستاذ فؤاد (كما يسمّيه بواب العمارة). شرح له نشأت الوضع أيام الملكية. كان رئيس الوزراء يلقب بـ«صاحب الدولة». إلاّ إذا كان يحمل أعلى وسام في الدولة فعندها يصبح «صاحب المقام الرفيع». الوزير «صاحب المعالي»، ووكيل الوزارة «صاحب السعادة». كل ضابط في الجيش أو البوليس يصل الى رتبة اللواء يصبح، تلقائياً، باشا وبالتالي «سعادة الباشا». أمّا الآن فقد أصبحت الأمور فوضى من غير قواعد. بعد الغاء الألقاب، أصبح اللقب الرسمي الوحيد «سيادة»، وهو لقب يطلق على رئيس الجمهورية، وعلى سائق الأوتوبيس.

هناك إحساس غامض يتسلّل، على استحياء، الى نفس فؤاد، احساس

بأن ما يبدو للعين من جمال عبد الناصر هو الحقيقة ولكن ليس الحقيقة كُلّها. بدأ يتساءل عن المشاعر الفعلية للجماهير الغفيرة التي تحتشد في كل مكان يظهر فيه جمال عبد الناصر. هل صحيح أن «الأجهزة» هي التي تجمع العمّال من مصانعهم والفلاحين من مزارعهم والطلاب من مدارسهم «وترّتب» كل هذه الجموع؟ هل في إشاعات قاسم أي قدر من الصحة؟ ولكن كيف يمكن حشد مليون شخص مهما كانت كفاءة الأجهزة؟. لا يزال فؤاد مقتنعاً أن عواطف الجماهير الحقيقية إزاء جمال عبد الناصر هي عواطف الحب والولاء، وليست مجرد مظاهر خادعة من صنع الأجهزة. أمّا أولئك الذين لا يزالون معجبين بسعد زغلول فمجرّد مومياءات محنطة تجاوزها التاريخ. لا يستطيع فؤاد أن يتخلّص من الفكرة التي توسوس له أن شعبية جمال عبد الناصر داخل مصر تقل بكثير عن شعبيته خارجها. إلاّ أن هذا أمر طبيعي. قديماً قيل «لا كرامة لنبيّ في وطنه». ولا لزعيم قومي.

* * *

«القطار مليء بالضجيج، ضجيج من الداخل وضجيج من الخارج. في الداخل، مزيج غريب من الأصوات البشرية الباكية، الضاحكة، المشفقة من الفراق، والمتطلّعة الى اللقاء. وفي الخارج مزيج أكثر غرابة من الأصوات. الباعة، المفتشّون، الشيالّون، والصافرة، واصطدام العجلات الحديدية الثقيلة بالشريط الحديدي. غير أن هذا الضجيج كُلّه لا يستطيع أن يطغى على الخواطر التي تصطخب في عقل الدكتور محمد. الدكتور؟! تعوّد على هذا اللقب حتى أصبح جزءاً من اسمه، رغم أنه ليس دكتوراً بعد. لا يزال في السنة الثالثة من كلية الطبّ، وأمامه مشوار طويل قبل أن يصبح دكتوراً حقيقياً. إلاّ أن تقاليد الكلية العريقة تضفي على الطالب اسم الدكتور منذ السنة الأولى. كل من حوله يسمّيه الدكتور محمد، أقاربه، الكمساري، زملاؤه وزميلاته في الكلية، الجميع باستثناء الدكاترة الحقيقيين الذين يدرّسونه.

خواطره تسابق القطار وتسبقه وتصل الى محطة طنطا. وتقفز الى سيارة الأجرة. وتذهب الى بيت أبيه الجديد، البيت الذي لم يره بعد. وتشاهد زوجة أبيه الجديدة، الزوجة التي لم يرها بعد. منذ زواج أبيه، قبل أكثر من سنة، وعلاقته بأبيه مقطوعة. لم ير أباه طيلة هذه الفترة، وكان يتذرّع بالدراسة ليظل في القاهرة. انتهت زياراته الشهرية لطنطا. إلاّ أنه لم يبحث موضوع الزواج مع أبيه، لا مباشرة ولا بصفة غير مباشرة. كانت

طبيعة العلاقة القائمة على الإحترام الكامل والطاعة العمياء لا تسمح بإثارة الموضوع.

الغريب أن أمه التي فوجئت بزواج أبيه كما فوجىء، تقبلّت الأمر الواقع وتأقلمت معه. بل انها بذلت أقصى جهدها لإعادة العلاقة بينه وبين أبيه. خلال زياراتها الى القاهرة، وعبر رسائلها، كانت النصائح تتوالى. «الدم لا يتحوّل الى ماء»، «الظفر لا يخرج من اللحم». ولكن الدكتور محمد لا يستطيع أن يغفر لأبيه فعلته. لا يستطيع أن يفهم السبب الذي يدفع رجلاً تجاوز الستّين الى زواج امرأة في سن أولاده. لا يمكن أن يتقبل الوضع، ولو تقبلته أمه، وأقاربه، والناس جميعاً.

لماذا، إذن، ينطلق بالقطار الى أبيه، والى المرأة التي حوّلت الدم الى ماء ونزعت الظفر من اللحم؟ قاتل الله المرض!. قاتل الله التلغراف الذي جاء وفيه سطر واحد: «أبوك مريض بالقلب. احضر حالاً. فردوس». لم يكن ثمّة خيار. جعله التلغراف ينسى كل شيء سوى تلك الرغبة العارمة في أن يرى أباه قبل موته، أن يقبله، أن يلثم جبينه ويديه، كما كان يفعل قبل أن تجيء هذه «الفردوس». من أين جاءت؟ وكيف؟ كل ما يعرفه انها كانت تتردد، يومياً، على بقالة أبيه حتّى وقع في حبائلها، وتزّوجها. وها هي ذي الآن تقتله. ماذا يتوقع عجوز يتزوج فتاة صغيرة ـ سوى النوبة القلبية؟

تتزاحم المشاهد، وتتداخل. القطار، المحطة، عمه وأخوه الأصغر في استقباله. والبيت الجديد. والزوجة الجديدة. يُفاجأ الدكتور محمد أنها أجمل بكثير مما كان يتوقع، وأكبر سِنّاً مما كان يظن. كانت ترتدي ملابس في غاية الحشمة. وتنظر اليه على استحياء. ويحمّر خداها بعنف إذا وقعت عينها على عينه.

على الفور، دخل الدكتور محمد نقاشاً طويلاً مع الطبيب الذي يعالج أباه. وتبيّن أن النوبة لم تكن خطرة كما توقّع الطبيب في البداية. يعتقد الطبيب الآن أن أباه يحتاج الى أسبوعين من الراحة قبل أن يستأنف نشاطه الطبيعي. كانت فرحة أبيه بلقائه أكبر من أن يحاول اخفاءها. رُبّما كان أبوه سعيداً بهذه النوبة التي أعادت اليه ابنه الأكبر. يلتفت الأب الى فردوس:

ـ حضّري الأوضة يا فردوس للدكتور محمد.

ويتدخل محمد:

ـ لكن يا آبه..

ـ حضرّي الأوضة يا فردوس.

وتتكلم فردوس:

ـ وحياتك يا سي محمد. يمكن نعوز دكتور في الليل والاّ حاجة.

لم يسمع «سي محمد» منذ فترة طويلة. لم يكن بوسعه أن يخالف رأي أبيه الذي لا يزال طريح الفراش. ذهب الى البيت القديم. وقضى بعض الوقت مع أمّه. ثم عاد الى البيت الجديد وأوضة الضيوف.

القطار يغادر محطة طنطا. والدكتور محمد مُحمّل بما لذَّ وطاب من الأطعمة، بعضها من أمّه ومعظمها من فردوس. وذكرى الليلتيْن اللتين قضاهما في البيت الجديد لا تفارق ذهنه.

ـ تصبح على خير يا سي محمد.

ـ صباحك فُلّ يا سي محمد.

كأس الحليب الدافىء في الليل. وفنجان الشاي الساخن في الصباح. وخدّاها يحمرّان بعنف كلما التقت عيناهما. أصيب الدكتور محمد بما يشبه الغثيان».

* * *

فؤاد يسأل عبد الرؤوف:

ـ هل أعجبتك القصّة؟

ـ مثيرة جداً. ماذا سمّيتها؟

ـ الغثيان.

ـ الغثيان؟! هل بدأت تقلّد كامو؟

ـ لِمَ لا؟ ألم يكتب معظم قصصه عن طنطا؟

ـ هل يمكن أن أسألك سؤالاً؟

ـ تفضّل.

ـ كم عمر الست خيرية؟

ـ سؤال غريب. ما علاقة الست خيرية وعمرها بقصّتي؟

ـ أجب عن السؤال.

ـ لا أدري. تقول انها في الثلاثين وأعتقد انها تجاوزتها.

ـ هل هي جميلة؟

ـ لقد رأيتها بنفسك يا رؤوف مراراً. ما هذا السؤال السخيف؟

ـ أعني هل هي جميلة في نظرك؟

ـ ما علاقة السؤال بالقصّة؟

ـ القصّة عنكما. الدكتور محمد هو فؤاد وفردوس هي الست خيرية.

ـ ألم نتفق يا رؤوف على أن الأدب الذي ينقل الواقع ليس أدباً؟

ـ واتفقنا أيضاً على أن الأدب الذي يفقد كلّ صلة بالواقع يصبح مجرد هلوسة. ثم انك لم تنقل الواقع. لقد أضفت اليه الكثير من البهارات والرتوش. الابن. وزوجة الأب. وطنطا. لماذا اخترت طنطا؟

ـ منذ متى كانت القصص القصيرة بحاجة الى مذكرات تفسيرية؟

ـ هذه القصّة بالذات تحتاج الى مذكرّة تفسيرية.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني هل حدث شيء بين الست خيرية وفؤاد؟

ـ لسنا من الكاثوليك. ولست قسيساً.

ـ حسناً. هل حدث شيء بين الدكتور محمد وفردوس؟

ـ كلاّ. إلاّ إذا كنت تسمّي كأس الحليب وفنجان الشاي «شيئاً».

ـ أتدري لماذا أصيب الدكتور محمد بالغثيان؟

ـ أفدني، أفادك الله.

ـ لأن الطالب الذي يسكن مع الست خيرية اكتشف أن العلاقة بينهما لم تعد علاقة ابن بأمّه، ولا بزوجة أبيه.

ـ قبحّك الله!

* * *

لو أن أحداً أخبر عبد الكريم أن الحُبّ عندما يجيء سيجيء بهذا العنف لما صدّقه. لو قرأ عن حُبّ عاصف كهذا في رواية لاعتبره مبالغة من خيال الكاتب. لو شاهد حُبّاً جبّاراً كهذا في فيلم لعدّه من قبيل «المخرج عاوز كده». ما الذي حدث؟ ما الذي حدث؟ من اللحظة التي رأى فيها فريدة،

فريدة حسين عيّاد، من اللحظة الأولى وهو في حالة حُبّ غامر تتملّك كل مشاعره. عندما رأى القوام القصير الممشوق، والصدر النافر، والفم المكتنز، والعينين السوداوين الواسعتين، تحوّل، على الفور، الى «مجنون فريدة» كما تحول قيس، قديماً، الى «مجنون ليلى». «مجنون فريدة» وصف يطابق واقعه بدقّة وليس مجرد تشنيعة أطلقها قاسم وتلقّفها الأصدقاء. يوم عبد الكريم لا يبدأ إلاّ برؤية فريدة، ولا ينتهي إلاّ عندما تزول امكانية رؤيتها. أشيك فستان في الوجود فستان فريدة. أجمل أوتوبيس في التاريخ أوتوبيس ١٣ الذي يحضر فريدة الى الكلية ويعيدها الى البيت. أجمل حيّ على ظهر الأرض هو السيدة زينب، حيث يقع شارع رشدي باشا، حيث تسكن فريدة.

لو أن عرّافاً قال لعبد الكريم انه سيصبح، ذات يوم، مخبراً يطارد فتاة عبر شوارع القاهرة لضحك. لو أن منجّماً أخبره أنه سيتحول، ذات يوم، جاسوساً يتسقط الأخبار والمعلومات عن زميلة من زميلاته لابتسم. وها هو ذا الآن يتحوّل، من غير أن يشعر، الى مخبر وجاسوس. تبعها في الأوتوبيس مرّات لا يستطيع أن يحصيها. أصبح يعرف أسماء صديقاتها وأصدقائها (الذين يفضّل أنّ يعتبرهم زملاءها). أصبح يعرف عدد فساتينها وأحذيتها. أصبح يعرف متى تغادر منزلها ومتى تعود اليه. والغريب انه يعرف كل شيء عنها وهي لا تعرف حتّى بوجوده. هذه المطاردة تتم بحذر وعن بعد ـ والبطلة لا تدري شيئاً عنها.

قال له نشأت الذي يتمتع، فوق وسامته، بجرأة خارقة في التعامل مع الإناث:

ـ يا كريم لا تضيّع وقتك. تعرّف عليها.

ونظر اليه عبد الكريم ولم يردّ.

ـ أنا مستعّد أن أتعرّف عليها وأقدمّك لها.

ردّ عبد الكريم، الذي يعرف أن بوسع نشأت تنفيذ هذه المهمة بسهولة، مذعوراً:

ـ لا! لا! كتر خيرك. دعها وشأنها. إياك أن تتعرّض لها.

ـ طيب. طيّب. أخبرني إذا غيرّت رأيك.

كيف يمكن أن يتحدّث معها؟ لا بُدّ أن نشأت فقد صوابه. نظرة واحدة اليها من بعيد، ويحسّ عبد الكريم أن تياراً كهربائياً يعبر جسمه

كلّه، شعرة شعرة، خليّة خليّة. ويبدأ في الارتعاش. ويلحظ كل من حوله الأعراض: اصطكاك الركبتين، ثم انطباق الكفيّن، ثم الهزة التي تعتري الكتفين، تختفي وتعود. ويهمس يعقوب: «كما انتفضّ العصفور بلّله القطر». ويضحك فؤاد: «الجماعة شرّفوا» ويعلّق نشأت: «الجوّ وصل». كل هذه الانفعالات لمجرد ظهور فريدة علي باب المدرّج، أو في بوفيه الكلية، على بعد شاسع من العصفور الذي بلّله القطر.

الوحيد الذي يرقب عبد الكريم بتعاطف تام هو عبدالرؤوف. الوحيد الذي لا يمزح ولا يسخر. كأنّ عبدالرؤوف قد مرّ في الماضي بتجربة شبيهة بتجربة عبدالكريم. أو كأنّه يتمنى أن تمرّ به في المستقبل تجربة مماثلة. يجد عبد الكريم عند عبد الرؤوف الأذن المصغية:

ـ يا رؤوف، كيف يمكنني أن أشرح؟ هذا شعور من نوع جديد تماماً. رُبّما كان شبيهاً بشعور الإنسان وهو يدخل الدنيا. أو شعوره وهو يغادرها. أعني انه شعور يختلف جذرياً عن أيّ شعور مرَّ بي من قبل. أحسّ أن أيامي كانت ضائعة بلا هدف، شاحبة بلا لون، فاترة بلا طعم وانها وجدت في فريدة هدفها ولونها وطعمها. القمر يختلف الآن لأني أرى وجهها منقوشاً عليه. النيل أصبح الآن نيل فريدة، القاهرة قاهرة فريدة، الدنيا دنيا فريدة.

عبد الرؤوف يستمع بصمت وتأثّر ولا يقترح عليه، كما يفعل السفهاء، أن يتعرّف عليها.

* * *

بعد مرور أكثر من سنة على وصوله الى القاهرة كاد فؤاد أن يفقد الأمل في العثور على صديقة. تبيّن له أن المجتمع المصري، في كثير من جوانبه، لا يقلّ محافظة عن مجتمع البحرين. واتّضح له أن الكلام الذي قرأه في روايات احسان عبد القدوس بعيد عن الدقّة. حصيلته العاطفية بعد كل هذه الشهور لا تتعدى اشارات يتبادلها، عن بعد، مع الفتيات في العمارة المقابلة، إشارات تتوقف بغتة مع دخول أحد من أقارب الفتاة البلكونة البعيدة، وبعض المعاكسات التيلفونية (الموجودة حتى في البحرين). فيما عدا هذا، لا يوجد سوى الكلام، الكلام الذي لا ينتهي عن البنات.

من البداية كان قاسم مصّراً على أن الطريق الوحيد هو طريق المال ـ

«البيزات» بالتعبير البحريني ـ وكان في هذا الموقف منسجماً مع نظرته المادّية الى كل شيء في الحياة. لا يعرف قاسم لماذا يضيّع زملاؤه أوقاتهم بحثاً عن صديقات، وبالامكان الحصول على «بنيّة» في دقائق، بمكالمة تيلفونية واحدة وبمبلغ ضئيل من المال. تجمّعت لدى قاسم أعداد كبيرة من أرقام «المدامات»، بالإضافة الى تسعيرة للبنيّات، تبدأ بجنيهْين وتنتهي بخمسة جنيهات لأحسن الموجود. كانت العقبة الوحيدة هي المكان. وقد أخذ قاسم يضاعف جهوده للخروج من «سجن الحشمة» الذي يعيشون فيه الى شقة «يأخذون فيها راحتهم».

غير أن فؤاد يدرك، عندما يخلو الى نفسه، ان المشكلة الحقيقية التي تعترض تقدمّه في عالم النساء هي الخجل أو، إذا أراد الدقّة، الجبن. هناك فتيات في كل مكان، عند محطة الأتوبيس، في الأُتوبيس، في العمارة نفسها، ولكن المشكلة في الجرأة التي تتطاير في آخر لحظة. الإشارة الى فتاة في بلكونة بعيدة شيء أمّا الحديث مع فتاة وجهاً لوجه فشيء آخر. يعرف فؤاد، في قرارة نفسه، انه ما لم يتغلّب على هذه المشكلة فلن تكون له صديقة في القاهرة ولو أمضى فيها مائة سنة.

بعد هذا كلّه جاء تعرّفه على أول زميلة حدثاً مذهلاً في سهولته وعفويته. كان في الطابور أمام المكتب الذي يتولى توزيع الملازم عندما سألته الفتاة التي تقف وراءه:

ـ هل تعرف كم ملزمة صدرت اليوم؟

وأجاب:

ـ ملزمة في المدخل. وملزمة في الروماني. وملزمتان في الشريعة.

ـ هل تظن أننا سنحصل على بقيّة الملازم قبل نهاية الترم؟

ـ هذا ما يقولون. ولو أنني أشك في ذلك.

قالت له الفتاة:

ـ لهجتك ليست مصرية. من أين أنت؟

ـ من البحرين.

لم تكن هناك علامات الاستغراب المعهودة. يبدو أنها سمعت عن البحرين من قبل.

وأضاف فؤاد:

ـ ماذا عنك؟ لهجتك، بدورها، ليست مصرية.

ـ أنا من الشام. سعاد وزّان.

ـ فؤاد الطارف.

ووجد نفسه يمدّ يده، ويتصافحان. تأمّل وجهها المستدير المشرب بحمرة، المحاط بهالة من الشعر الأشقر، وعينيها الخضراوين، وقال:

ـ عجيب أنني لم أرك في المدرّج.

ـ كيف تراني؟ البركة في الشيخ أبو زهرة.

الشيخ محمد أبو زهرة هو رئيس قسم الشريعة الإسلامية ووكيل الكليّة. وهو في معركة دائمة ضد الإختلاط تنتهي، عادة، بهزيمته. إلا أن الشيخ لا يستسلم بسهولة. في بداية التِرم أصدر قراراً بأن يخصص قسم في يسار المدرّج للطالبات، لا يجوز لهن تجاوزه، ولا يجوز للطلاّب اقتحامه.

ضحك فؤاد:

ـ ما رأيك في الشيخ؟

ـ رجعي! رجعي من الطراز الأول. نحن في القرن العشرين وأبو زهرة يريد إعادتنا الى القرون الوسطى. كيف تضع حكومة ثورية رجلاً رجعياً في وظيفة كهذه؟ وفي كلية الحقوق؟ الكلية التي يفترض أن تُدرِّس العدل والمساواة، المساواة بين الصغير والكبير، والفقير والغنيّ، والرجل والمرأة.

يدهش فؤاد لحدّة الإنفجار ويقرّر أن يستثيرها:

ـ ولكن كيف يمكن أن نساوي بين الرجل والمرأة؟ هناك فروق أساسية. هل تنكرين هذا؟

وترّد على الفور:

ـ هذا من تأثير أبو زهرة وبقيّة أصحاب العمائم. هناك فروق. بطبيعة الحال، هناك فروق. الرجل لا يحمل ولا يلد ولا يعاني من العادة الشهرية. ولكن هل هناك فروق غير هذه؟ هل هناك فروق في الذكاء؟ أو القدرة؟ أو الموهبة؟ أو المشاعر؟

لأول مرة يسمع فؤاد تعبير «العادة الشهرية» خارجاً من فم فتاة. والفتاة تتحدث بلا حرج كما لو كانت تتكلم عن عادة القراءة أو الكتابة. يحمرّ وجهه خجلاً، وتلاحظ ما حدث:

- خجلت من ذكر العادة الشهرية؟ أتعرف لماذا؟ لأنهم غسلوا دماغك. لأنهم درّسوك أن المرأة عورة لا يجوز الحديث عنها، ولا عن عاداتها.

بعد أكثر من ساعة كان الحوار الساخن بينهما لا يزال متصلاً. لم يحتج فؤاد الى أيْ قدر من الجرأة لدعوتها الى بوفيه الكليّة. ولم تتردّد سعاد قبل الموافقة.

تلك الليلة، قبل أن ينام، استعرض فؤاد ما حدث أمام مكتب توزيع الملازم وقرّر أنه قد أصبحت له الآن صديقة. تمَّ كل شيء بلا تخطيط، وبلا تفكير. أحسّ انه يعرفها منذ زمن بعيد، وانّها، بدورها، تعرفه من سنين. تحدّث معها كما يتحدّث مع قاسم أو عبدالرؤوف، بحرّية، من غير خفقان في القلب أو برودة في الأطراف. في لقائهما الأول هذا، تكلّما، وتناقشا، واختلفا، وعلت أصواتهما، شأنهما شأن الأصحاب القدامى. وعندما افترقا لدخول المحاضرة، هو مع الذكور وهي في سجن أبو زهرة، كانا قد اتفقا على لقاء في الغد، في البوفيه نفسه.

وجد نفسه يقابلها كل يوم. ويمضي عدة ساعات في الحديث معها. لم يكن في الحديث شيء عن الرومانسية أو الأدب أو توافه الأمور. كان، برمّته، حديثاً عن السياسة والثورة ومستقبل الأمّة العربيّة. أخبرته سعاد أنها بعثية ملتزمة. وسألها:

- ما ضرورة الإنخراط في حزب؟

- يا فؤاد! من غير حزب طليعي قائد لن تتمكّن الأمّة العربية من أداء رسالتها الخالدة. لا بُدّ من حزب رائد يتغلغل في كل مكان من الوطن العربي، يعلّم الجماهير، وينظّمها، ويحرّكها، وفي الوقت المناسب يفرض الوحدة العربية، يصهر الكيانات القطرية في الدولة القومية الواحدة. كيف يمكن أن يتم هذا كلّه من غير الحزب؟

- جمال عبد الناصر يحقق الآن هذا كلّه.

- جمال عبد الناصر زعيم سياسي عظيم. ولكنه زعيم بلا رؤية. بلا أيديولوجية. من دون حزب كالبعث العربي الإشتراكي لن يستطيع أن يحقق شيئاً باقياً. عواطف الجماهير لا تدوم. ما يدوم هو التنظيم الحزبي.

في الماضي، كان فؤاد يحلم بصديقة تأخذه، عبر عوالم النشوة، الى مواعيد مقمرة على النيل، والى أمسيات حالمة في حضن الأهرام. كان يتخيّل نفسه مع هذه الصديقة يسيران، بعد منتصف الليل، يداً بيد،

يتحدثان عن الحب، عن دموع الياسمين، وعن أفراح الشروق. الآن، يجد نفسه في دوّامة من الكتب والنظريات والمصادمات الفكرية الشرسة. أي قدرٍ عجيب جعل هذه الشامية الشقراء الحسناء بعثية ملتزمة؟ وأيّ قدر أعجب ساقه الى هذه البعثية الملتزمة؟

كان فؤاد قد سمع عن حزب البعث في المدرسة الثانوية. كان الأستاذ محسن من المدرّسين البحرينيين القلائل في المدرسة، وكان قد تلقى شهادته الجامعية، ومبادىء حزب البعث، من الجامعة الأمريكية في بيروت. حاول الأستاذ محسن إغراء الطلبة الذين يتوسّم فيهم النضج بالدخول في عالم البعث. وكان فؤاد من بين هؤلاء الطلبة. أعطاه الأستاذ كتاب ميشيل عفلق «في سبيل البعث» غير أن فؤاد لم يتمكن من إكماله. ولم يكد يفهم منه شيئاً. كانت الأمور، كما بدت لفؤاد وقتها وكما تبدو له الآن، لا تحتاج الى أكثر من الجماهير العربية وجمال عبد الناصر. أيّ شيء يدخل بين القائد وجنوده، مهما كان اسمه، هو بعثرة للجهود ومضيعة للوقت.

تحاول سعاد أن تجتذبه الى البعث، وتستخدم كل أسلحة المنطق:

ـ يا فؤاد! ألا تؤمن بالوحدة؟ ألا تؤمن بالحريّة؟ ألا تؤمن بالاشتراكية؟ هذه هي مبادىء البعث. ما دمت مؤمناً بها فأنت بعثي، أدركت ذلك أو لم تدرك.

ـ يا سعاد! أؤمن بالوحدة لأنها تعني قيام دولة عربية واحدة. وأؤمن بالحرية لأنها تعني التخلّص من الاستعمار. ولكنّي لا أفهم ما هي الاشتراكية. كيف أؤمن بشيء لا أفهمه؟

ـ احذر! احذر يا فؤاد أن تترك جذورك الطبقية تتسلّل الى تفكيرك. المثقفّون الشرفاء يستطيعون تجاوز الطبقة، والانتماء الطبقي. كما فعل تولستوي، والأستاذ.

ـ أيّ أستاذ؟!

ـ الأستاذ ميشيل عفلق بطبيعة الحال.

ـ ولكن ما هي الاشتراكية؟ قرأت بعض كتابات الأستاذ ولم أجد فيها تعريفاً واضحاً للاشتراكية.

ـ الأستاذ شرح الاشتراكية كما لم يشرّحها أيّ منظّر قبله، ولن يشرّحها أي كاتب بعده. لا بُدّ أن تعيد قراءة كتب الأستاذ. سنقرأها معاً، ونناقشها.

فؤاد يسأل عبد الرؤوف:

ـ ما رأيك في الاشتراكية يا رؤوف؟

ـ الاشتراكية؟ من أين جئت بهذا السؤال؟ من صاحبتك الشامية؟

ـ نعم. ما رأيك في الاشتراكية؟

ـ أيّ اشتراكية تقصد؟

ـ هل هناك عدة اشتراكيات؟

ـ بالتأكيد.

ـ ما هي؟

ـ هناك اشتراكية الماركسية أي الشيوعية. وهناك اشتراكية حزب العمال في بريطانيا، أو الديموقراطية الاجتماعية. وهناك اشتراكية الحالمين. عن أي اشتراكية تتحدّث؟

ـ أتحدّث عن الاشتراكية التي لا تحرم الوطن من قدرات المواطن لمجرد انه ولد فقيراً. الاشتراكية التي تعني انتصار الحياة على الموت. الاشتراكية القدر!

ـ هل هذه اشتراكية البعث؟

ـ نعم.

ـ هذه مجرد شعارات فارغة لا تعني شيئاً. اشتراكية الحالمين.

ـ وماذا عنك يا رؤوف؟ بأي اشتراكية تؤمن؟

ـ لا أؤمن بالاشتراكية لأني أؤمن بالاسلام.

ـ ما علاقة هذه بذلك؟ الاسلام دين والاشتراكية مذهب اقتصادي.

ـ الاسلام منهج متكامل. رؤية شاملة تنتظم كل شيء. شؤون الاقتصاد وشؤون السياسة والسلوك الشخصي والعبادات. لا يمكن أن تنتقي من هنا وهناك مبادىء ونظريات. إمّا أن تكون مسلماً أو تكون اشتراكياً.

ـ رؤوف، هذه نظرة رجعية. لم أكن أعرف انك تعتنق مثل هذه الأفكار من قبل.

ـ لم تسألني من قبل.

ـ رؤوف! أجبني بصراحة. هل تتعاطف مع الأخوان المسلمين؟

احمرّ وجه عبد الرؤوف ولم يجب. ولاذ فؤاد، بدوره، بالصمت وهو يكتشف أن معرفته الوثيقة بعبد الرؤوف أكثر من سنة لم تجعله يرى منه سوى السطح الخارجي.

بدأت أسئلة ثقيلة جديدة تهاجم رأس فؤاد من كل جانب. هل الاشتراكية علاج الفقر الوحيد؟ ما هي حدود الاشتراكية؟ من أين جاءت أفكارها، من الاسلام، أم من كارل ماركس، أم من الأستاذ؟ هل في كلام عبد الرؤوف أي قدر من الصحة؟ هل كل الاشتراكيين أعداء للاسلام؟ هل الاشتراكية ضرورية الآن؟ هل جمال عبد الناصر اشتراكي؟

قاسم، كالعادة، يعرف كل الأجوبة:

ـ حذرتك يا فؤاد وأنذرتك. حذرتك من هذه البنيّة. قلت لك انها شيوعية. لا يغرّك هذا الكلام الفاضي عن الاشتراكية. لا يوجد شيء اسمه اشتراكية. هذه دعاية لتضليل المغفلين. هناك النظام الشيوعي المطبّق في روسيا والنظام الرأسمالي المطبّق في أمريكا. وبسّ! هؤلاء البعثيون شيوعيون كلهم ـ وأولهم الأستاذ محسن في البحرين.

من العبث التفاهم مع قاسم.

عبد الكريم، هو الآخر، لا يرى أن الاشتراكية تستحق شيئاً من اهتمامه:

ـ أرجوك يا فؤاد. دعني في حلمي الجميل. دعني أفكّر في فريدة. كن اشتراكياً إذا شئت ولكن لا تزعجني بهذه الخرابيط.

الاشتراكية «خرابيط»؟!

ذهب فؤاد مع سعاد الى سينما «ميترو»، مرّة. وتناولا الغداء في جزيرة الشاي، مرّة. وزارا جنينة الأسماك، مرّة. وفي كل مرة كان الأستاذ، كالشيطان، ثالثهما. نظريات الأستاذ، عبقرية الأستاذ، نضال الأستاذ. لاحظ فؤاد أن حبّه العميق لجمال عبدالناصر يتلاشى أمام تقديس سعاد، الذي يصل الى العبادة، للأستاذ. أخذ يشعر بالغيرة. عندما أمسك بيدها وهما في الطريق الى الأوتوبيس الذي سيحملهما من الأهرام الى القاهرة، تقبّلت يدها يده بلا مقاومة. كانت الأصابع مشتبكة، والحرارة تسافر من جسدها الى جسده، إلاّ أن الحديث كان عن مفهوم «الانقلابية» في فكر الأستاذ.

كانا في نشوة القبلة الأولى، على مقعد بقرب النيل، أمام بيت

الطالبات حيث تسكن سعاد، وكان شعرها الأشقر يرّف على وجهه، وعطرها ملء رئتيه.

قالت:

- هل تحبني يا فؤاد؟

- نعم يا سعاد.

- قلها.

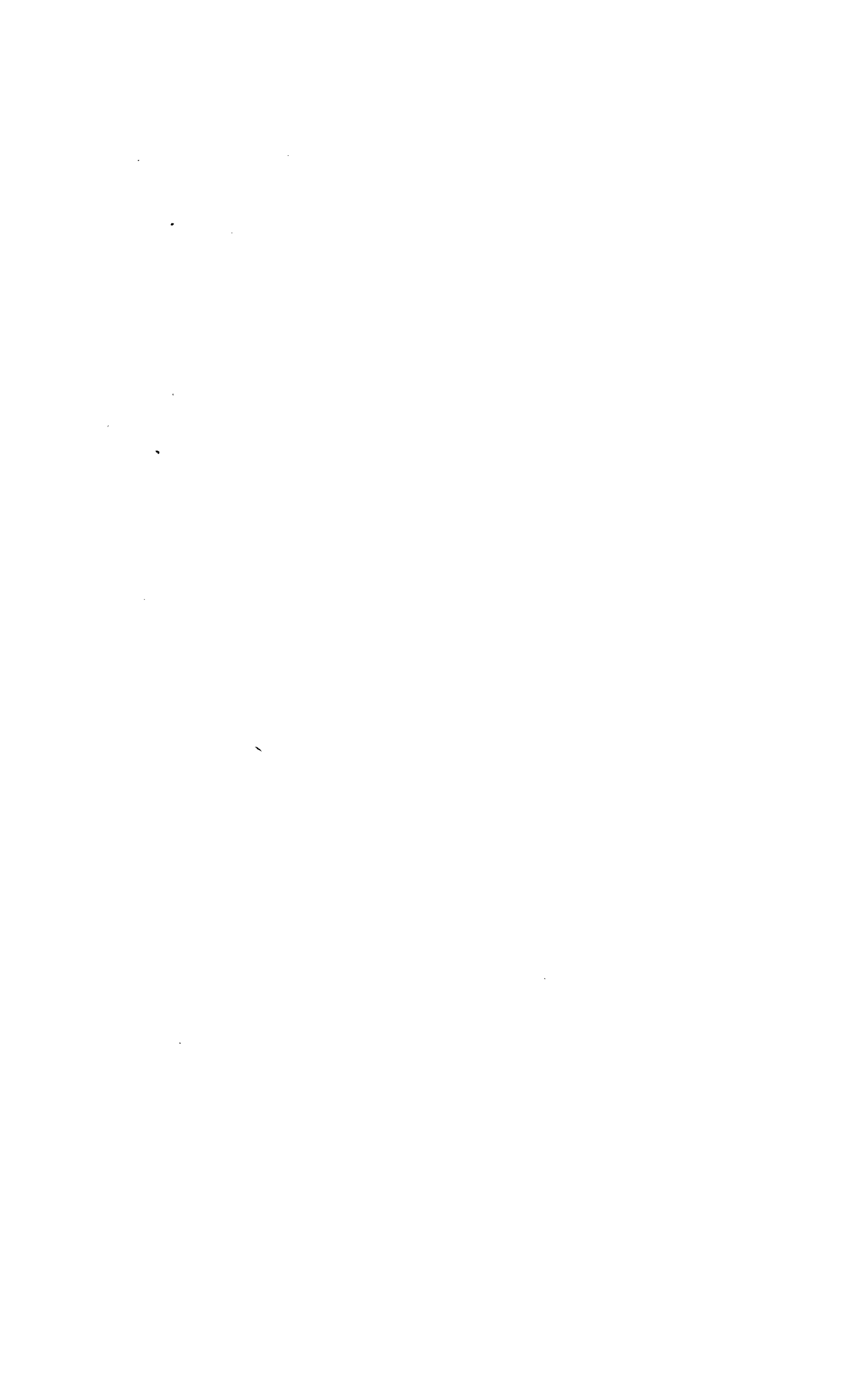
- أحبك يا سعاد!

- هل ستنضمّ الى الحزب؟

- نعم يا سعاد!

وضاعا في القبلة الثانية.

قبل أن ينام أدرك فؤاد أنّه، في سن الثامنة عشرة، قبّل فتاة لأول مرّة في حياته، وأنه قال لفتاة، لأول مرّة في حياته، انه يحبّها، وأنه قرّر، في سن الثامنة عشرة، لأول مرة في حياته، أن ينخرط في حزب سياسي. كل هذا في مساء واحد. يا له من مساء! يا له من مساء!

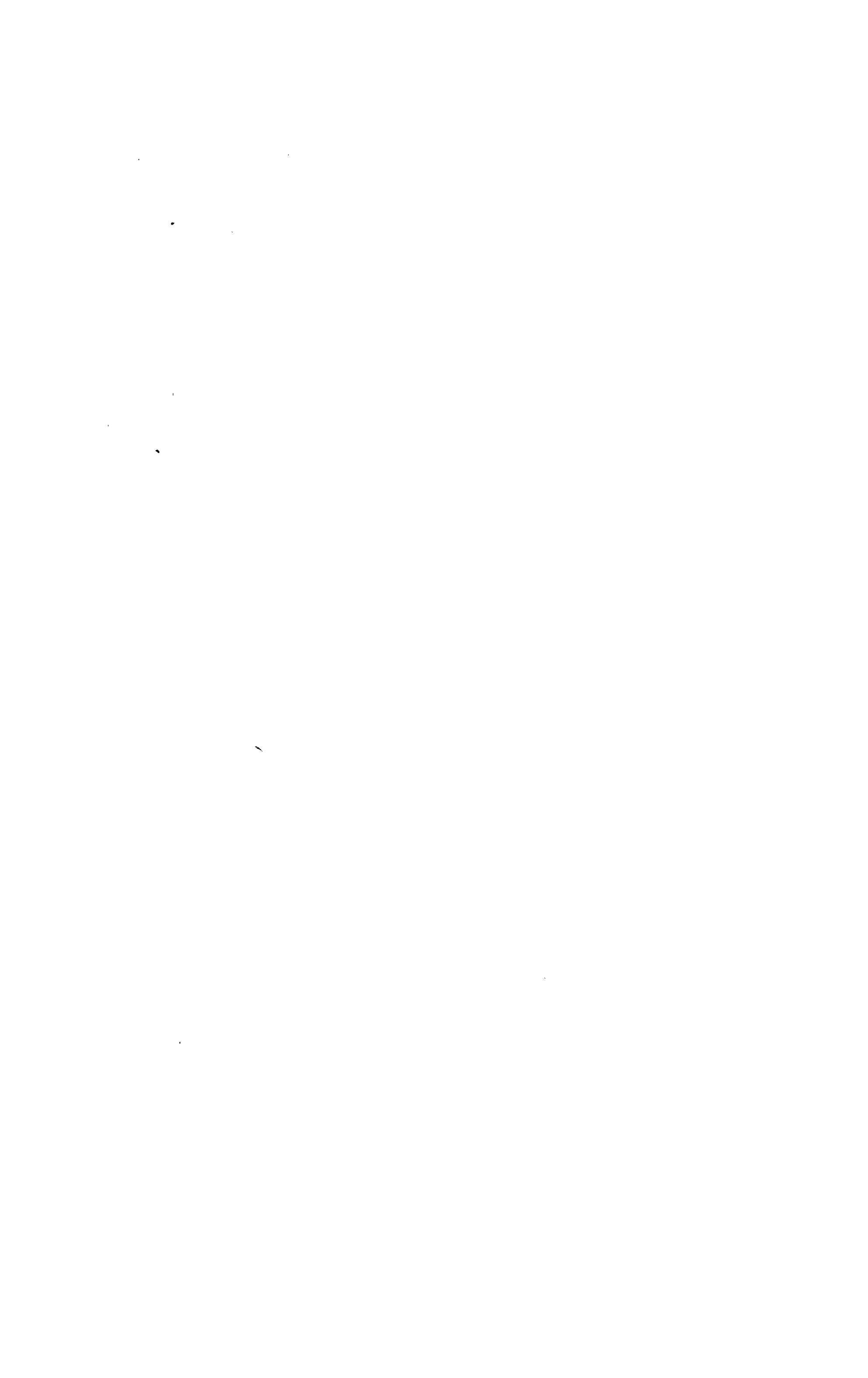


٤

فبراير
مارس ١٩٥٨

أحُلماً نرى؟ أم زماناً جديدا؟ أم الخلقُ في شخص حيٍّ أعيدا؟

المتنبي



٤

كيف أمكن أن يحدث كُلّ ما حدث خلال أسابيع، بل خلال أيام قلائل؟ بما يشبه المعجزة، المعجزة داخل حلم، الحلم داخل أمنية، تتابعت الأحداث وتلاحقت. حشود في الميادين السورية. رئيس جمهورية سوريا يصل الى القاهرة. اتفاق مبدئي على الوحدة بين مصر وسوريا. تصديق المجلس النيابي السوري. تصديق مجلس الأمّة المصري. استفتاء الشعبين. قيام الجمهورية العربية المتحدة. انتخاب جمال عبد الناصر رئيساً للدولة الفتيّة الجديدة. ويُجنّ العالم بأسره. تجن الجماهير العربية فرحاً. ويجنّ المستعمرون وأعوانهم وإسرائيل غضباً. تبدو الوحدة العربية الشاملة الآن هدفاً يداعب أصابع اليد.

يهمس فؤاد:

ـ لا أصدّق يا سعاد. لا أصدّق أن الذي حدث قد حدث.

ـ لم تستغرب يا فؤاد؟ انها ساعة الانطلاق. ساعة الميلاد. ساعة البعث.

ـ ولكن كيف تمَّ كل شيء بهذه السرعة؟ ان رأسي يدور.

ـ هناك ثلاثة أسباب. الحزب. والجماهير. وجمال عبد الناصر. كان الأستاذ أول من أطلق فكرة الوحدة وانتشرت بين الجماهير في القطر السوري كالنار في الهشيم. وكان وجود زعيم مثل جمال عبد الناصر فرصة تاريخية. وكان ما كان.

ـ لا أزال عاجزاً عن التصديق.

يُفاجأ فؤاد بموقف الأستاذ شريف من الوحدة، وبالطريقة العنيفة التي يُعبّر بها عن رأيه:

ـ ما هذا الكلام الفارغ؟ ما هذا العبث؟ ما هذه المسخرة؟ يُلغى اسم

مصر؟ هذا الاسم التاريخي العظيم يتحول الى اقليم جنوبي؟ شيوعيون في دمشق يفرضون رأيهم علينا ونقبل.

ـ الشيوعيون يا أستاذ شريف ضد الوحدة. هذه رغبة الجماهير.

ـ الجماهير؟ أية جماهير يا فؤاد؟ هل رأيت أحداً يحتفل هنا سوى الحكومة ومنظماتها؟ أتعرف ما سيحدث؟ سوف نصرف كل مواردنا على الشوام. ونتحمّل كلّ مشاكلهم. سوف يجيئون هنا وينافسوننا في كل مجال. الشوام أشطر تجّار في العالم. قُل على الاقتصاد المصري السلام.

يجد هذا الرأي الرجعي، بطبيعة الحال، تعاطفاً كبيراً عند قاسم الذي يضيف معلومات جديدة يستقيها من مخزون إشاعاته الذي لا ينضب:

ـ هل تعرف حقيقة ما حدث؟ عشرة ضباط في الجيش السوري قالوا لجمال عبدالناصر: «إمّا أن تقبل الوحدة أو نترك سوريا للشيوعيين». ووافق صاحبكم فوراً. ولم لا يوافق؟ المزيد من السلطة. رحمة الله على سوريا!

يتنهّد فؤاد:

ـ يا قاسم! هل أنت أعمى؟! ألا ترى بعينيك كل هذه الملايين؟ ألا ترى كيف حملت الجماهير السورية سيارة جمال عبد الناصر؟ ألا ترى ما يحدث في كل مكان يزوره؟ أي عشرة ضباط يستطيعون عمل هذا كلّه؟!

ـ أنت يا فؤاد طيب القلب تغتر بالمظاهر. تصدّق كل ما تسمع. هذه الجماهير نفسها سوف تنقلب على جمال عبدالناصر لو سمعت كلاماً مختلفاً من الإذاعة، وتهتف ضدّه.

ـ نصف إذاعات العالم تهاجم جمال عبد الناصر ومع ذلك فالجماهير تهتف له. في دمشق. وفي بيروت. وفي بغداد. وفي تونس. وفي المنامة.

ـ الدعاية، يا فؤاد، الدعاية! لو أن صوت العرب يقول عني ما يقوله عن جمال عبد الناصر لرأيت هذه الجماهير تهتف لي بدلاً منه.

ـ ده بعدك!

بعد ليلة القبلة التاريخية بأيام انضم فؤاد، رسمياً، الى حزب البعث. فوجىء أن سعاد التي قرر أن يدخل الحزب من أجل عينيها لن تكون في مجموعته لأنها تنتمي الى مجموعة أخرى أعلى. كانت مجموعته تتألف من أربعة أعضاء. وعُقد الاجتماع الأول في شقة المسؤول عن المجموعة الذي بدأ الاجتماع بقوله:

ـ فلنتعارف أولاً. أنا بسّام نويلات من الأردن. الرفيق هنا ماجد الزبير من السعودية. الرفيق هنا فؤاد الطارف من البحرين. والرفيق هنا محمد عسيلي من لبنان. والرفيقة هنا فيكتوريا نصّار من العراق. أهلاً وسهلاً بكم في الحزب.

وقعت كلمة رفيق كالمطرقة على رأس فؤاد. كان يتصوّر أن استخدامها وقف على الشيوعيين. تململ في مقعده ولاحظ أن ماجد الزبير كان، بدوره، يتململ. وتبادلا النظرات الصامتة. واستطرد بسّام:

ـ الدرس الأوّل هو ضرورة السريّة المطلقة. أنتم جميعاً تعلمون أن النشاط الحزبي محظور في القطر المصري. لو عرفت السلطات أن لقاءنا اليوم اجتماع حزبي لتعرضنا للملاحقة وربّما دخلنا السجن. من الضروري مراعاة الحذر حتّى عند التعامل مع أقرب الناس. لا بُدّ أن تتعلّموا الحيطة فجميعكم ستكونون عرضة للمطاردة عند عودتكم الى أقطاركم.

انقضى الاجتماع الأول بأكمله في المسائل التنظيمية. وبدا الأمر لفؤاد غريباً بعض الشيء. كلمات السرّ، والألغاز التي تستخدم عند الحديث على التيلفون، والأسلوب الملتوي لترتيب الاجتماعات. وعندما انتهى الاجتماع خرج فؤاد وهو يتنفس الصعداء.

ثم توالت الاجتماعات، بمعدّل مرّة كل أسبوع. وكان محور النقاش، في البداية، دستور الحزب والمبادىء الأساسية:

* الأمة العربية وحدة روحية ثقافية، وجميع الفوارق القائمة بين أبنائها ثانوية تزول قيمتها بيقظة الوجدان العربي.

* الأمة العربية وحدة اقتصادية سياسية لا تتجزأ ولا يمكن لأي من الأقطار العربية أن يستكمل شروط حياته منعزلاً عن الآخر.

* الوطن العربي للعرب، ولهم وحدهم حق التصرف بشؤونه وثرواته وتوجيه مقدّراته.

ومع كل مبدأ، كانت الأسئلة تتدفق. ما معنى الوحدة الروحية؟ ما دور الاسلام في تكوين هذه الوحدة الروحية؟ كيف تتحقّق الوحدة السياسية؟ ما موقف الحزب من الانقلابات العسكرية؟ كيف يتصرّف العرب في ثرواتهم؟ هل التأميم هو أفضل سبيل؟ ما هي الاشتراكية العربية؟ وماذا عن علاقة الحزب بجمال عبد الناصر؟

كان السؤال الأخير أكثر الأسئلة إلحاحاً على ذهن فؤاد. مع قيام

الجمهورية العربية المتحدّة حلّ حزب البعث في سوريا نفسه نزولاً عند رغبة جمال عبد الناصر الذي اشترط حلّ الأحزاب. توقع فؤاد أن تنتهي اللقاءات الحزبية بصيغة تلقائية. إلا أن هذه اللقاءات لم تتأثر على أي نحو بقرار حلّ الحزب. سأل سعاد:

ـ لقد حلّ الحزب نفسه فلماذا نواصل اجتماعاتنا هنا؟

ـ قرار الحلّ يقتصر على سوريا. ولكننا لسنا في سوريا. نحن هنا لا نمارس نشاطاً حزبياً داخلياً. نحن نعمل لصالح الأمة العربية كلّها وتوقفنا خيانة لهذه الأمّة.

ـ ولكن كيف يستمر نشاطنا هنا إذا كان النشاط الرئيسي في دمشق توقف؟

ـ حلّ الحزب لا يعني توقّف النشاط. تحوّل الحزب الآن عنصراً أساسياً في الحكومة. وسوف يستمر في العمل من موقع الشريك.

ـ ليس لجمال عبد الناصر شريك في السلطة يا سعاد، ولن يكون له. سوف يحكم سوريا كما حكم مصر بلا أحزاب، معتمداً على الجماهير. لو كان يستطيع التعاون مع الأحزاب لتعامل مع أحزاب مصر.

ـ الوضع في سوريا يختلف تماماً. لا تنس أن الحزب هو الذي سلّمه مقاليد سوريا. نحن الذين علّمنا الجماهير الوحدة. نحن الذين طالبنا بالوحدة الفورية. سوف يكون هو رئيس الدولة أما القيادة الفكرية والسياسية فسوف تكون لنا.

ـ في كلامك الكثير من التفاؤل.

ـ أنت لا تعرف سوريا كما أعرفها. سوف يكون حزبنا الحاكم الحقيقي. أما جمال عبد الناصر فسوف يملك ولا يحكم.

جمال عبد الناصر يملك ولا يحكم؟!

* * *

إذا كان شهر فبراير من سنة ١٩٥٨ سيدخل تاريخ العرب باعتباره شهر الوحدة المصرية السورية، فانه دخل تاريخ عبدالكريم باعتباره شهر اللقاء. منذ أن عرض عليه نشأت أن يتعرّف على فريدة ثم يعرّفه عليها والفكرة تطنّ كالنحلة في ذهنه. مع كل يوم يمرّ كانت مشاعره نحو فريدة تزداد عنفاً. وكان يزداد اقتناعاً أنه لا يمكن أن يعيش الى الأبد في قبضة

الرعشة والخوف مراقباً من بعيد. مع رسوخ هذه الحقيقة في تفكيره كانت هناك حقيقة لا تقل رسوخاً: من المستحيل أن يتخذ هو زمام المبادرة.

عندما بدأ التلميح لنشأت بخجل وتردد، قاطعه الأخير:

ـ اترك الموضوع لي.

بعد يومين جاءه نشأت وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

ـ إبسطْ يا عم. فُرجت. بكره الساعة العاشرة في البوفيه.

لم يستطع عبد الكريم الرد. ظلَّ يحملق في نشأت بذهول. وعندما تمكّن من النطق لم تجيء سوى كلمتين:

ـ ماذا حدث؟

ـ مرَّ كل شيء بسهولة كما توقعْت. استوقفتها، وقدمّت نفسي لها، ثم حدثتها عنك، وأبدت استعدادها للتعرّف عليك، خاصة عندما عرفت انك من البحرين.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا أقصد شيئاً. لعلّها من البعثيات كصاحبة أخينا فؤاد.

ـ ولكن ماذا حصل بالضبط؟

ـ حسناً. اليك التفاصيل. كانت في طريقها الى البوابة الخارجية للجامعة، تسير بمفردها. تقدّمتُ اليها وقلت: «تسمح لي يا مدموزيل فريدة بكلمتين؟». وأجابت: «تفضّل». فقلت: «أنا نشأت محرم زميلك في الكلية»، فقالت...

ـ نشأت! لا داعي للسخرية.

ـ أنا لا أسخر. هذا هو ما حدث والله العظيم.

ـ أريد أن أعرف ماذا قلت لها عني.

ـ قلت لها انك شاب طيّب وابن ناس وخجول حبتّين وانك ترغب في التعرّف عليها، فرحّبت بالفكرة، والموعد غداً العاشرة.

ـ ولكن...

ـ ما فيش لكن! غداً في بوفيه الآداب. لمّع الجزمة. واغسل وجهك جيداً. وحاول أن تبدو وسيماً.

لم ينم عبد الكريم تلك الليلة ساعة واحدة، ولا دقيقة واحدة، ولا ثانية

واحدة. كيف يمكن أن ينام وغداً موعده مع فريدة؟ غداً؟ غداً! يكلمها؟! وتكلمه؟! ماذا سيقول لها؟ ماذا ستقول له؟ حاول أن تبدو وسيماً. كيف؟ هل يطلب من نظّارته أن تختفي؟ أم يرجو قامته أن تمتّد؟ كيف سيبدأ؟ ألف حوار، وألف سيناريو، وألف عبارة تمهيدية، وألف جملة ختامية، وهو يتقلّب على السرير. ثم سمع أذان الفجر. ونهض. وقضى قرابة ساعتين في الحمام، ضعف المعدّل المعتاد. في السابعة، كان في محطة الأوتوبيس. في السابعة والنصف كان أمام الجامعة. بعدها بلحظات كان أمام بوفيه الآداب ينتظر أن يفتح أبوابه. كان أول الداخلين وتلقاه العم حسنين الجرسون ببشاشته المعهودة:

- أهلاً وسهلاً يا كريم بيه. على الصبح كده؟ اللهم اجعله خير.

ردّ باقتضاب:

- قهوة مضبوط.

- سكر زيادة. وشربات. وملبّس.

أحسَّ عبد الكريم بضيق شديد. هل استطاع العم حسنين أن يقرأ كل هذه الأشياء في وجهه؟

جاءت القهوة. وبدأ عبد الكريم يرتشفها ببطء. ويرقب كيف يفتح البوفيه عينيه، ويتثاءب، ويتمطّى، ويبدأ يومه بهدوء يثير الأعصاب. تمتلىء طاولة هنا، وفي لحظات تجيء الساندوتشات وأكواب الشاي وفي لحظات، تفرغ من سكّانها. طاولة «البنج بونج» في منتصف البوفيه صامتة لم تفتتح نشاطها اليومي. يرى عبد الكريم على طاولة في طرف البوفيه مجموعة من طلبة الحقوق، ويتجاهلهم. وهناك دكتور من كلية الآداب يتناقش مع زميله بانفعال. تمتلىء القاعة الواسعة، وعندما تقترب الساعة من التاسعة لا يكاد يوجد مقعد واحد شاغر. بغتة، في حركة جماعية، يهبّ كل من في البوفيه لإدراك محاضرة التاسعة. تمر الثواني ببطء، أبطأ من السلحفاة، أبطأ من زحف المُقعَد، أبطأ من كل شيء، ولكنها تمرّ. والبوفيه، كالوحش الخرافي، يبتلع المئات من البشر ويقذفهم بعيداً عنه في دقائق. والطاولات تزدحم وتفرغ. وأكواب الشاي والقهوة تنهمر من الصينيات وكأنها مطر من نوع جديد. والعم حسنين يقدّم له فنجان القهوة الثالث:

- زيادة والنبي يا كريم بيه. زيادة.

العاشرة وخمس دقائق. ثم يقف الزمان. ويتجمّد المكان. وتصبح الأشياء ساحرة مسحورة. وتنفجر الشمس. وتفيض الأنهار. ويأخذ العقل إجازة. وتدخل فريدة وبقربها نشأت، يتحدثان ويضحكان، ويتجهان الى طاولته. ويتكلم نشأت:

ـ مدموزيل فريدة، أقدم لك صاحبي كريم الشيخ.

ـ أهلاً وسهلاً. تشرفنا.

كيف استطاع عبد الكريم أن يقول هذه الكلمات الثلاث؟ بأيّ مجهود؟ بعد أيّ نضال؟ يعرف عبد الكريم أن بطلاً من أبطال رفع الأثقال لم يجد قط صعوبة في رفع حمله الثقيل تشبه الصعوبة التي وجدها عند نطقه بهذه العبارة. ثم أصيب بالبكم. لم يعد قادراً على قول شيء. ولم ينقذ الموقف إلا نشأت الذي بدأ ثرثرة لا تنتهي:

ـ اتفضلي يا مدموزيل فريدة، اتفضلي. انتي فطرتي والاّ عاملة ريجيم على رأي أهل دمياط؟ أنا ما فطرتش. إيه رأيكو نفطر احنا الثلاثة؟ ساندوتشات الفول هنا هايلة. فشر «جروبي». خذ يا عم حسنين! ثلاثة فول وصلحهم. وثلاثة شاي. إنما خد بالك شاي نضيف. أصل الشاي هنا على مزاج العم حسنين. مرّة شاي. ومرّة خشب. ومرّة من ده على ده. وإلا ايه يا عمّ حسنين؟ توصّى بالمدموزيل فريدة. جيب من الشاي اللي تخبّيه للبيه العميد.

يُخيّل الى عبد الكريم أن نشأت ظل يتحدّث شهوراً قبل أن تقطع الطوفان اللفظي تغريدة العندليب:

ـ مالك ساكت يا كريم؟ اوعى تكون مكسوف.

أدرك عبد الكريم انه إن لم ينطق الآن فسوف يظل صامتاً الى الأبد:

ـ حاأقول ايه بس؟ مش لما تخلص إذاعة صوت نشأت؟ وجاءت ضحكتها أرق مما توقع، وأشهى مما ظن، وأحلى ممّا يستحق.

وتشجّع:

ـ تصوري يا مدموزيل فريدة ان نشأت مرّة ابتدأ يتكلّم قبل صوت العرب وما خلصش إلا بعديها.

وجاءت الضحكة الثانية.

وبلباقة تحرك نشأت:

- أنا شبعت والحمد لله. سبتكو بخير بقى.

كيف استطاع، في اللقاء الأول، أن يروي لها قصة حياته منذ أن ولد الى أن رآها هذا الصباح في البوفيه؟ كيف استطاع أن ينطلق من غير أن يتلعثم، أو يرتبك، أو يتردد؟ أين راحت الارتعاشات والمخاوف؟ وكيف استمعت اليه فريدة كما لو كانت تصغي الى أعظم ملحمة في التاريخ؟

* * *

ليس بوسع يعقوب أن يحدّد، بدقة، اللحظة التي تحوّل فيها من ثائر بلا نظرية الى ثائر له نظريته العلمية. بدأ كل شيء مع تعرّفه على الأستاذ صبحي فرحات، المعيد الذي يدرّسه في «السكشن». لم يكن الأستاذ صبحي معيداً تقليدياً كالآخرين. كان الأول في التوجيهية على القطر كلّه. وكان الأول في ليسانس الاجتماع. والأوّل في دبلوم علم النفس. والأوّل في دبلوم التربية. وهو يمضي سنته الأخيرة في الكليّة قبل أن يشدّ رحاله الى باريس للحصول على الدكتوراه. ولم يكن أحد من أساتذة صبحي أو زملائه أو طلبته يشكّ أنه سيكون الأول في الدكتوراه، إن كان في السوربون أوائل وأواخر.

بدأ قصتّه مع الأستاذ صبحي بمشادّة صغيرة. كان صبحي يتحدّث عن المجتمعات البدائية وأديانها في الفصل - وكان يقول ان معظم هذه المجتمعات لم تعرف ديانة من أي نوع. أثارت اللهجة القاطعة التي يتحدّث بها المعيد رغبة يعقوب في استفزازه. وقاطعه:

- ولكن يا أستاذ ماذا عن آدم؟

- ماذا عن آدم؟

- ألم يكن أول إنسان؟ ألم يكن نبيّاً؟ كيف وجدت، إذن، مجتمعات بدائية بلا أديان؟

بهدوء، سأله الأستاذ صبحي:

- اسم الأخ إيه؟

- يعقوب الحدّي. من البحرين.

- أهلاً وسهلاً. إحنا هنا يا يعقوب بندرّس اجتماع، مش شريعة. عاوز تدرس شريعة روح الأزهر.

- ولكن الحقائق يا أستاذ لا تتغيّر بتغيّر الكليّات. كان هناك آدم!

ـ اسمح لي أكمّل الدرس الآن. وأراك بعدين. ونتفاهم.

تكرّرت اللقاءات «بعدين». وفي كل مرّة، كان هناك حوار طويل وساخن ومعقّد. بدأ الحوار الأوّل بآدم:

ـ يا يعقوب، لقد كنت تحاول استفزازي. أشّك انّك تؤمن بآدم.

ـ أعوذ بالله يا أستاذ. كيف لا أؤمن بآدم؟!

ـ في كل ديانة، بدائية كانت أو غير بدائية، هناك أسطورة عن أبي البشر. في كل مكان في العالم، في كل قارة، في كل قبيلة.

ـ اسمح لي يا أستاذ. أنت تناقض نفسك. كنت تقول في الفصل ان معظم المجتمعات البدائية لم تعرف الأديان. وأنت الآن تقول إنها آمنت بآدم.

ـ أين التناقض؟ بامكانك أن تؤمن بآدم من غير أن تؤمن بأيّ دين. وبامكانك أن تؤمن بدين من غير أن تؤمن بآدم.

ـ يا أستاذ صبحي! هل تسخر مني؟

ـ لا. أتحدّث بمنتهى الجديّة. هناك مجتمعات بدائية اعتقدت أن لها أباً هو أب الناس جميعاً ومع ذلك لم تؤمن بأي دين.

ـ ولكن كيف تفرّق بين الدين والإيمان؟ أليس الدين مرادفاً للايمان؟

ـ أحياناً. ولكن ليس بالضرورة.

ـ كيف؟

ـ سوف أعطيك مثلاً. أنا، شخصياً، لا أؤمن بأيّ دين، ولكنني أؤمن بنظرية ماركس ونظرية فرويد.

ـ أنت يا أستاذ، أذن، تعبد ماركس وفرويد.

في اللقاء الثاني، كان الحوار عن ماركس:

ـ لم كلّ هذه الحماسة يا أستاذ صبحي لماركس؟ ما الذي جاء به ماركس؟

ـ ماركس هو أوّل من أثبت، بأسلوب علمي، أن للتاريخ حركة منضبطة تحكمها قوانين ثابتة.

ـ لمجرّد انه قال ان الاقتصاد هو أساس كلّ شيء؟

ـ لا. لأنه أوضح أن الطبقة الاقتصادية المسيطرة في مجتمع ما تطبع

كل جوانب المجتمع بطابعها، من العادات الى القوانين الى الأديان، وبالتالي يستحيل تغيير المجتمع إلاّ بإزالة هذه الطبقة نهائياً.

ـ وما الجديد في ذلك يا أستاذ صبحي؟ كل ثورة في التاريخ انطلقت من هذا المبدأ، ازاحة الطبقة المسيطرة.

ـ كل ثورة في التاريخ نزعت طبقة ووضعت طبقة أخرى مكانها، ولم يتغيّر شيء. الجديد في النظرية الماركسية انها عندما تزيل الطبقة الرأسمالية المسيطرة لا تحلّ محلّها طبقة أخرى، بل تحلّ محلّها الشعب الذي يملك وحده كل الثروة.

ـ هذا كلام جميل ولكنه كلام نظري.

ـ نظري؟! هذا كلام علمي واقعي. ونحن الآن نراه بأعيننا يُطبق في الاتحاد السوفياتي والصين وأوروباالشرقية.

ـ ولكن يا أستاذ في كل هذه الأماكن الذي يحكم هو الحزب وليس الشعب.

ـ مرحلة الحزب مرحلة مؤقّتة كما أوضح لينين، مجرد خطوة نحو الطريق الى الشيوعية الحقيقية.

ـ ومتى تجيء الشيوعية الحقيقية؟

ـ في المرحلة التاريخية القادمة.

ـ وماذا عن ستالين ومجازره؟ خروشوف نفسه الآن يهاجم ستالين.

ـ التجاوزات الفردية ستحدث دائماً. ولكن النظام المنبثق من مصالح البروليتاريا قادر دائماً على تصحيح المسار.

وكان فرويد محور اللقاء الثالث:

ـ ما سرّ إعجابك الشديد بفرويد؟

ـ فرويد هو توأم ماركس الفكري. الجناح الآخر من الفهم العلمي الحقيقي للإنسان. ماركس أوضح لنا كيف تتحرك المجتمعات، وفرويد أوضح لنا كيف يتحرّك الأفراد.

ـ كل ما قاله فرويد أن الجنس هو القوة الأساسية التي تسيّر الانسان.

ـ لا. هذا وهم شائع يردّده أنصاف المتعلمين. لم يكن البشر في حاجة الى فرويد ليدركوا أهميّة الجنس. اكتشاف فرويد الأعظم هو العقل

الباطن: تلك الدوافع والحوافز الفعلية التي تحكم السلوك والتي لا يعرف العقل الظاهر عنها شيئاً. قبل فرويد، لم يتحدّث أحد عن العقل الباطن، ولا عن القوى التي تتحكم فيه.

- وكل هذه القوى تعود الى الجنس والطفولة والرضاعة؟!

- معظمها. لو انك نظرت الى سلوك من حولك، وكنت على إلمام بنظرية فرويد، لما استعصى عليك فهم شيء. ألا تعتقد، مثلاً، أن الديكتاتور الذي يمارس أقسى أنواع التسلط إنما ينفّس عن عقد مترسبة في عقله الباطن؟

- يا أستاذ صبحي! لا تبدأ الحديث عن جمال عبدالناصر! أنت تعرف شعوري نحوه.

- وأنت تعرف شعوري نحوه. مُجرّد بورجوازي صغير يحاول أن يصبح بورجوازياً كبيراً.

شيئاً فشيئاً، كلمة بعد كلمة، وكتاباً عسيراً بعد كتاب عسير، تحوّل يعقوب من ثائر عاديّ الى ثائر ماركسيّ/فرويدي. في مزيج النظرتين مفتاح سحري يتيح ليعقوب تحليل كل ما حوله من ظواهر، سواءً كانت جماعية أو فردية. يحسّ يعقوب أنه كان أعمى في الماضي ولم يعثر على عينيه إلاّ مع هذا المفتاح العلمي. ومع ذلك لم يتمكن يعقوب من متابعة الأستاذ صبحي الى آخر الشوط. لا زال، رغم النظرية الماركسية/الفرويدية يرفض أن يرى في الدين مُجرّد أفيون للشعوب، أو مجرد انعكاس لسلطة الأب في عقل الطفل الباطن.

* * *

«كان يعرفها منذ كانا في الثالثة، بل رُبّما قبل ذلك. متى يبدأ الطفل معرفة جارته الطفلة؟ في السنة الأولى؟ أو الثانية؟ لا يدري. ما يدريه انّه منذ عرفها لم يفارقها. أصبحا مضرب المثل في القرية، زينب، أو زوبة، وعبد السميع، أو عبده. يبدآن اللعب مع الفجر، ولا ينتهيان إلاّ مع الغروب.

ومرّت السنوات. الكتّاب: يدخله عبده، أما زوبة فتبقى مع أمها في المنزل. المدرسة: يدخلها عبده، أما زوبة فتعمل مع أمها في الغيط. وبعد ساعات الكتّاب والمدرسة، تنفتح أمام عبده وزوبة الحقول الخضراء. وتبدأ

الألعاب الصبيانية بين أعواد الذرة، وعلى أغصان الجمّيزة، وعلى شاطىء الترعة.

ثم كبرت زوبة. أخذت تتحوّل من طفلة الى امرأة. وكبر عبده. بدأ يتحوّل من طفل الى رجل. كم كان عمره عندما بدأ التحوّل، وكم كان عمرها؟ لا يذكر. ما يذكره هو أن تلك الأيام المتأرجحة بين الطفولة والمراهقة شهدت حدثين هامين. أنهى عبده الدراسة في مدرسة القرية واستعد للسفر الى البندر حيث سيسكن مع عمه ويواصل الدراسة في مدرسة البندر. وجاء خطيب لزوبة، ووافق أبوها، وبدأت الاستعدادات للفرح.

يذكر كل لحظة من لحظات ذلك اليوم. كيف التقيا بُعيد أذان الفجر، والظلام يلفّ الذرة والجميّزة والترعة. يذكر كيف أقبلت مع الضوء الأول، نصف طفلة ونصف امرأة. وكيف استقبلها بوقار يليق بنصف طفل ونصف رجل:

- رايح البندر يا زوبة.

- عارفة يا عبده.

- حتفتكريني يا زوبة؟

- يمكن. وانت؟

- يمكن. إزاي تتجوّزي الحاج يونس؟ ده قد أبوكي؟

- قسمة ونصيب.

- بتحبّيه يا زوبة؟

- المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين.

- وأنا يا زوبة؟

- انت رايح البندر، وساييني.

- انت اللي سبتيني. مش انتي اللي حتتجوّزي الجمعة الجاية؟ والاّ نسيتي؟

- نسيت؟ شوف الحنّة!

الحنّة. ويدها. ورجلها. وشفتاها. وعيناها. والذرّة. والجميزة. والترعة. لم يكن ينوي عمل شيء. ولم تكن تنوي عمل شيء. كان نصف طفل

ونصف رجل. وكانت نصف طفلة ونصف امرأة. بدأ الطفل يلعب مع الطفلة. ومن غير أن يشعرا، بدأ الرجل يلعب مع المرأة. وعندما أفاقا، وجدا على رداء زينب قطرات من دم. ذهبت الى الترعة، تغسل الرداء وتبكي. وجلس يرقبها، ويبكي. كانا يعلمان، علم اليقين، أن زوجها عندما يكتشف انها لم تعد عذراء سوف يطلّقها، وان أباها سيقتلها في الليلة نفسها. لم يكن بوسعهما سوى البكاء.

وجاءت الليلة الكبيرة. عبد السميع مع الأولاد والأطفال يشاهد الفرح، ولا يهزج مع الهازجين، ولا يرقص مع الراقصين. وزينب في الداخل، في أعماق الدوّار، تنتظر المصير. وتمرّ الساعات متثاقلة. وتسكت الطبول. وتصمت الأناشيد. وتتوقّف الطلقات النارية. ويحبس الجمع أنفاسه في انتظار المنديل الأحمر الذي يُعلن للعالم بكارة العروس وشرف عائلتها. وأبو زينب ينتظر مع المعازيم. والسيجارة في فمه تسلم مكانها لسيجارة.

فجأة، يشقّ السكون صوت زغرودة منفجرة من أبعد الأغوار. أم زينب! أبو زينب يتأمّل المنديل الأحمر الذي جاء طائراً على أيدي النسوة، وعلى وجهه ابتسامة فخر عريضة. وترتفع الأصوات من كل مكان:

ـ مبروك يا عمدة.

ـ ألف مبروك يا حضرة العمدة.

ـ أصيلة بنت أصيل.

تدوي الطلقات النارية من جديد. ويُغمى على عبد السميع».

* * *

ينظر فؤاد الى عبد الرؤوف بخبث ويقول:

ـ قصة غريبة يا رؤوف. غريبة جداً.

ـ ما وجه الغرابة؟

ـ فتاة متجدّدة العذريّة!

ـ لا تكن قاسياً.

ـ أليست هذه هي الحقيقة؟

ـ لا. هذه هي القصّة.

ـ ماذا سمّيتها؟

- ما رأيك؟
- المعجزة؟
- لا تكن سخيفاً.
- المنديل الأحمر؟
- لا تكن أسخف.
- هي قصتك. سمّها ما شئت.
- سوف أسمّيها «الترعة».
- الترعة؟ ما علاقة الترعة بعقدة القصّة؟ أليست العقدة هي العذرية؟
- ربّما.
- وما علاقة الترعة بهذا؟
- الترعة تظلّ، دائماً وأبداً، عذراء.
- رؤوف! هل أصبحت من السرياليين؟ ماذا تقصد؟
- الترعة في قريتي هي هي منذ أيام كليوباترا. لم يتغيّر فيها شيء. لا تزال عذراء.
- آه! «عودة الروح»! فهمت.
- لم تفهم شيئاً.
- «الترعة العذراء». تصلح فيلماً سينمائياً. أقترح هند رستم للبطولة وحسن الإمام للإخراج. ماذا عن زينب؟
- ماذا عنها؟
- هل هناك زينب حقيقية؟
- بكل تأكيد. ألم تقرأ رواية هيكل؟ أعني الدكتور هيكل؟
- أعرف من تعني. أسألك عن زينبك أنت، عن زوبة.
- كانت هناك فتاة اسمها زوبة.
- وأحببتها؟
- نعم.
- وتزوجت الحاج يونس؟
- نعم.

ـ ثم ماذا حدث؟

ـ عاشت بالتبات والنبات. وخلفّت صبيان وبنات.

* * *

أحكم قاسم الخطّة. أعدَّ لها بصبر ومهارة وذكاء. بحث عن الشقة المناسبة. استعان بنشأت، الذي استعان بعدد من معارفه. شقّة في الزمالك. أخرى في المنيل. ثالثة في الدقي. رابعة في الجيزة. ولكن المواصفات لا تضبط. هذه الشقة صغيرة. تلك الشقة غالية. البواب هنا شرس جداً. هذه العمارة لا تسمح بسكن عزّاب. هذا الشارع كثير الضجيج. وأخيراً، «وجدتها!». قالها قاسم، وردّدها نشأت. في شارع الدرّي. في العجوزة. الدور الثالث. والعمارة من غير مصعد (مما يتلاءم مع نزعات الأستاذ شريف الرياضية). شقة رقم ٦. موقع مثالي. لا يبعد عن الجامعة سوى ثلث ساعة بالأوتوبيس. رقم ٦ أيضاً. الشقة/الحلم. أربع غرف نوم واسعة. وحمّامان. ومطبخ. ردهة كبيرة يمكن أن تتحول الى صالون. وطرقه يمكن أن تصبح غرفة طعام. وغرفة صغيرة للشغّال أو الشغّالة. وهذا كلّه بثمانية عشر جنيهاً.

أعلن عبد الكريم أن الشقّة مثالية. وقال يعقوب انه ليس بالامكان أبدع ممّا كان. وأبدى فؤاد استعداده للانتقال فوراً. لم يبق سوى فيتو الأستاذ شريف. وجاء دور الخطة المرسومة. طلب قاسم أن يزور الأستاذ. ودهش الأستاذ فقد كان يرى قاسم مع شريف أكثر من مرّة كل أسبوع في شقة الست خيرية. لم يسبق لقاسم أن دخل شقّة الأستاذ إلاّ مرة واحدة، عندما دعاه الأستاذ الى الغداء مع فؤاد. وتعرّف وقتها على زوجة الأستاذ فاطمة، التي يسمّيها الأستاذ «بطة» رغم انها تجاوزت الأربعين. وعلى ابنه محمّد، الذي يسمّيه الأستاذ «ميمو» رغم انه في العاشرة. وعلى ابنه عارف، الذي يسمّيه الأستاذ «فوفو» رغم انه في الثامنة.

رحب الأستاذ بقاسم. وجاءت «بطّة»، وسلمّت وذهبت. وجاء «ميمو» و«فوفو» وسلّما، وذهبا. وجاءت القهوة ولم تذهب. بدأ قاسم بحذر:

ـ يا أستاذ شريف! وجدت نفسي مضطراً الى مقابلتك هنا لأني لا أستطيع الحديث في الموضوع أمام فؤاد أو أمام الست خيرية.

ـ ليه يا ابني؟ خير ان شاء الله؟

ـ خير. أرجو أن يظلّ ما أقوله سراً بيني وبينك. هل تعدني يا أستاذ؟

ـ طبعاً يا ابني طبعاً.

ـ هل تعطيني كلمة شرف؟

ـ طبعاً يا ابني. تفضّل!

ـ يا أستاذ أنا خايف على فؤاد.

ـ لماذا؟ هل هو مريض؟

ـ لا. لا.

ـ هل لديه مشكلة مع الدراسة؟

ـ لا.

ـ إذن ما سبب الخوف؟

ـ الست خيرية.

ـ الست خيرية؟! هل اختلفت مع فؤاد؟

ـ على العكس يا أستاذ على العكس.

ـ وضّح يا قاسم. أرجوك!

ـ منذ مدة بدأت علاقة مريبة بين السّت وفؤاد.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. علاقة مريبة؟!

ـ نعم.

ـ كيف؟

ـ يا أستاذ شريف، أعفني رجاء من التفاصيل. يكفي أن أقول لك انها تدخل غرفة فؤاد في العاشرة مساءً، أمامنا جميعاً، ولا تغادرها إلاّ في الصباح، أمامنا جميعاً.

ـ لا حول ولا قوّة إلا بالله. الست خيرية؟! انها في سن أمه. كيف اصطادته؟

ـ هنا السرّ الفظيع يا أستاذ شريف. رأيت رجلاً غريباً قبل فترة في غرفة فؤاد يردّد عبارات غير مفهومة ويطلق البخور وعندما سألت الست ارتبكت وتلعثمت.

ـ آه! عملت له عمل. هذا يفسّر كل شيء.

ـ فؤاد الآن ضائع مشتّت الأفكار. لا يستطيع الأكل ولا النوم ولا

المذاكرة. أخشى عليه الجنون إذا بقينا في الشقة. لا بدّ أن نغادرها يا أستاذ شريف.

- صحيح. من الضروري الانتقال. سوف أبحث فوراً عن شقّة أخرى وسيّدة محترمة.

- لا يا أستاذ. لا تتعب نفسك. لقد وجدت الشقة المناسبة. وسوف نسكنها نحن الأربعة: فؤاد وعبدالكريم ويعقوب وأنا. أعدك يا أستاذ أننا سوف نراقب فؤاد بكل دقّة.

- كنت أخشى عليكم نتائج السكن في شقّة ولهذا اخترت الست خيرية. وانظر الى ما حدث. يا قاسم! هناك شيء واحد يقلقني.

- نعم يا أستاذ؟

- هل الست خيرية حامل؟ هل اتهمّت فؤاد بشيء؟

- لا. لا أظن انها حامل، ولم تتهم فؤاد بشيء.

- الحمد لله.

- ألا تريد أن تذهب معي لرؤية الشقة يا أستاذ؟ عم زكريّا البواب في انتظارنا.

عندما أعلن قاسم للمجموعة أن الأستاذ شريف وافق على الانتقال الى الشقة الجديدة، لم يصدّقه أحد، حتى رأوا المفتاح في يده. سأله فؤاد:

- ولكن كيف استطعت إقناع الأستاذ؟

- سحر، يا فؤاد، سحر!

- ماذا تقصد؟

- أقصد عمل، يا فؤاد، عمل!

في صبيحة ١٠ مارس ١٩٥٨ انتقل الفرسان الأربعة الى الشقة رقم ٦، في الدور الثالث من العمارة التي تقع في منتصف شارع الدرّي. كان أول قرار ينتظرهم هو اسم الشقّة. وتعدّدت المقترحات:

- الرفاع.

- الحدّ.

- العروبة.

قال قاسم بمرارة:

ـ كل شيء هنا الآن اسمه «نصر». سمّوها «شقة نصر»، وارتاحوا.

أوشك الباقون أن يوافقوا نكاية في قاسم، إلاّ أن يعقوب اعترض:

ـ لا! الحريّة! جئنا هنا لممارسة حريّتنا. سوف نسمّيها «شقة الحريّة».

ووفق على الإسم بالاجماع.

كانت المهمّة التالية هي وضع دستور ينظّم الحياة في الشقة، وكُلّف فؤاد ونشأت بصياغته. وجاءت المادة الأولى:

«شقة الحرية جزء لا يتجزأ من الأمّة العربية، يسكنها، بصفة أصلية، كل من عبد الكريم الشيخ، ويعقوب الحديّ، وقاسم صدفي، وفؤاد الطارف، وبصفة فرعية، كلّ من عبد الرؤوف بحيري، ونشأت محرم، وهي شقة ذات سيادة واستقلال، تقوم على مبادىء المساواة والعدل والديموقراطية، وتؤخذ القرارات بالأغلبية، ويجوز لأي عضو طرح أي موضوع للنقاش، باستثناء الحركة السياسية في البحرين...

يتوقف نشأت عن الكتابة، ويسأل فؤاد:

ـ ولكن لماذا الاستثناء؟

ـ هذا موضوع شائك يا نشأت. كل مرّة نناقش فيها هذا الموضوع نختلف ونصرخ. ومرة أو مرتين كدنا نتضارب بالأيدي.

ـ ولكن لماذا؟

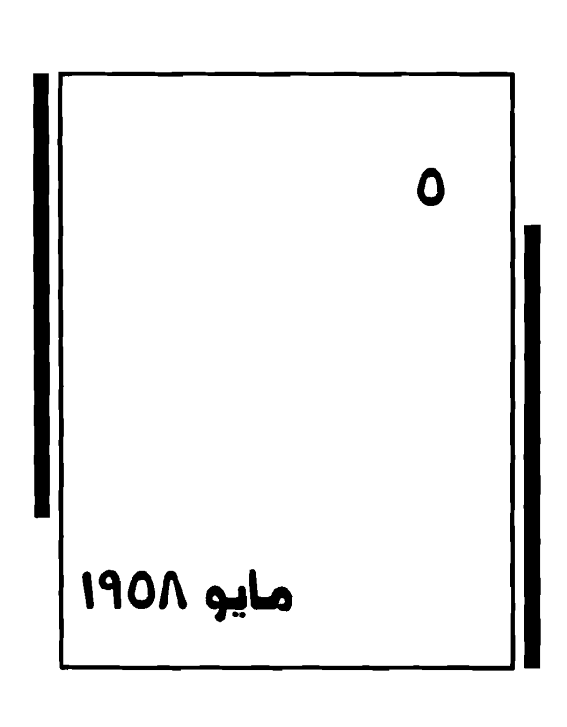
ـ لأن قاسم يرى أن هذه الحركة كانت مؤامرة شيوعية. ويعقوب يرى انها كانت أعظم حركة ثورية في التاريخ. وعبدالكريم يعتقد انها مؤامرة انجليزية. وأنا لا أدري.

اكتمل الدستور في سبعين مادة. تنظّم الميزانية، وأسلوب الصرف، واختصاصات العضو الذي يتولّى إدارة الشقة بالتناوب، وصلاحيات الشغّال (أو الشغالة)، والوقت المسموح بقضائه في الحمّام (وضعت هذه المادة حماية للآخرين من نزعة عبد الكريم الى قضاء الساعات الطوال هناك)، وقواعد استقبال الضيوف والضيفات. وأصّر فؤاد على أن يشمل الدستور المادة التالية:

«لا يجوز، اطلاقاً، استقبال أي ضيفة خلال شهر الامتحان سواء في الترم الأول أو الثاني».

واقترح نشأت أن تضاف عبارة: «ما لم تكن الضيفة والدة أحد

السكان أو جدّته». ووفق على المبدأ، والاستثناء. ونصت المادة الأخيرة على أنه لا يجوز تعديل أي حكم من أحكام الدستور إلاّ بإجماع الأعضاء، الأصليين والتبعيين.


٥
مايو ١٩٥٨

أيـــا خـــدَّد الـــلـــه وَرْد الخدود! وقـــدَّ قـــدود الحســـان الـــقـــدود!

المتنبي

٥

بعد أقلّ من شهرين من الانتقال استكملت شقة الحريّة تجهيزاتها. تولّى الأستاذ شريف، بنفسه، كل شيء. تبيّن انه يعرف نجّاراً ممتازاً، وصاحب معرض للموبيليا، وسبّاكاً، وكهربائياً. أصرّ قاسم على سخّانة كهربائية في كل حمّام، بعد أن عانى الأمرّين في شقة الست خيرية من الماء الذي لا يُسخّن إلاّ عند الضرورة. وأصرَّ على شراء ثلاجة حقيقية، بعد أن قاسى من الثلاجة البدائية في شقة الست، الثلاجة التي تعمل عن طريق وضع قالب من الثلج في جزئها الأعلى يبرّد نصفها الأسفل. وتولّى قاسم تحمّل النفقات الإضافية. لم تأت الشقة، في النهاية، على ما كان يتمناه قاسم من فخامة ولكنها جاءت على مستوى يفوق المستوى المعتاد لشقة يسكنها طلبة عزّاب.

ما ان استقّر الفرسان الأربعة في شقة الحريّة حتى أصّر قاسم على ممارسة الحريّة بترتيب سهرة مع بنيّات. سرعان ما اتضح له أن المسألة أصعب مما كان يتوقّع. في البداية، رفض جميع زملائه حضور السهرة. قال عبد الكريم ان حبّه الطاهر لفريدة يحول بينه وبين الجلوس مع غانيات. وذكر يعقوب انه لا يستطيع العودة الى الجنس إلاّ بعد أن يفهمه فهماً علمياً تاماً باستكمال قراءة كتب فرويد. أمّا فؤاد فقد قال انه يرفض، من حيث المبدأ، التعامل مع محترفات. بعد جهد جهيد، أقنعهم قاسم بالبقاء معه، من باب الاحتفال بالحرية لا أكثر ولا أقل. وأضاف انه لا يوجد ما يدعو أحداً منهم الى عمل أي شيء. وقال انّ البنيّات قادمات من أجل البيزات التي سيتكفّل قاسم بدفعها، وانه لا يهمهّن أن يحدث شيء أو لا يحدث.

بعد اقناع زملائه، شرع قاسم يخطّط للتفاصيل. وهنا، كانت في انتظاره مفاجأة غير سارّة. أرقام التيلفونات التي جمعها عبر الشهور لا تردّ،

أو مقطوعة. عندما ردّ تيلفون واحد سمع من الجانب الآخر صوت رجل يشتمه ويهدّده إن عاد الى طلب الرقم. ماذا حدث؟ اتّضح لقاسم بعد الاستفسار ان مطاردة بوليس الآداب للمدامات تقتضي تغيير الأرقام بين الحين والحين. جمع قاسم من السواح البحرينيين مجموعة جديدة من الأرقام جرّبها واحداً بعد الآخر، حتى لقي التجاوب المنشود من مدام لولا. بعد أن تأكدّت من جدّيته، ومن انه حصل على الرقم من زبون تعرفه، اطمأنّت المدام وبدأت المفاوضات.

في البداية، كان التفاوض على العدد. قالت انها لا تستطيع أن ترسل سوى ثلاث فتيات. وأصرّ فؤاد على أربع. ثم جاء دور السعر. طلبت المدام خمسة جنيهات عن كل واحدة، وعرض قاسم جنيهين، ثم تمّ الاتفاق على ثلاثة جنيهات. ثم جاءت مشكلة دخول العمارة والخروج منها. شرح لها قاسم انه متفاهم مع البوّاب وانه لا توجد أي مشكلة. إلاّ أن المدام أصرّت على أن يحضر قاسم الى شقتها بنفسه ويصطحب البنات ثم يعيدهن بنفسه. ووافق قاسم، وتطوّع يعقوب بمرافقته. وتحدّد الموعد: السابعة من مساء الخميس، على أن يرجعهن قاسم قبل الحادية عشرة.

أُعلنت حالة الطوارىء في شقة الحريّة ابتداء من صباح الخميس. تولّى قاسم، بنفسه، كل الترتيبات. منح الأسطى زكي، الطباخ، إجازة استثنائية تبدأ بعد الانتهاء من وجبة الغداء وتستغرق يوماً كاملاً. اتفق مع «الحاتي» على أن يرسل وجبة عشاء تصل في الثامنة. ملأ الثلاجة بزجاجات «ستلا»، وبالمزّات: جبنة بيضاء، وزيتون، وخيار، وجزر. كان في حالة يرثى لها من التوتر العصبي وكأنه يحضّر لإعدام جماعي لا للحفلة التي كان يحلم بها منذ أن وصل القاهرة.

تمّ كل شيء بسلام. ذهب مع يعقوب الى شقة المدام في الزمالك، وعادا بالبنات. غضّ البواب، العم زكريا، الطرف عن الزائرات. ومن محاسن الصدف أن أحداً من الساكنين لم يكن موجوداً في المدخل أو على السلّم. عندما استقر الجميع على مقاعدهم في الصالون الذي كان ردهة، وتمّ توزيع أقداح البيرة، أحسّ قاسم ان الخطة التي تطلّبت كل هذا الجهد تكللّت، أخيراً، بالنجاح.

لا يعرف قاسم الأسماء الحقيقية للفتيات، فكلّ ما سمعه هو الأسماء «الفنية»، أو «الحركية» باللغة الحزبية، زيزي وشوشو وريري وديدي. جميعهن صغيرات، في سن تقارب سن الزبائن. من المشكوك فيه أن أيّ

واحدة منهنّ تجاوزت العشرين. زيزي، التي قرّر قاسم انها من نصيبه، كانت أجملهن: بيضاء، ممتلئة، لا تكاد تضع شيئاً من المساحيق. شوشو، التي بدأت على الفور حواراً صاخباً مع يعقوب، يمكن أن تنال درجة «جيد» بمعايير الجامعة. ريري، بدورها، تستحق درجة «جيّد» رغم السمرة الشديدة التي تغطي ملامحها. أما ديدي فتكاد تنافس زيزي لولا شعرها الأصفر الفاقع المصبوغ بطريقة بدائية. جلست ريري بقرب عبد الكريم، يتبادلان النظرات بصمت وحذر. وجلس فؤاد بقرب ديدي يسألها عن آخر الأفلام التي شاهدتها.

فؤاد يشرب البيرة لأول مرّة في حياته، على خلاف الباقين الذين عرفوا البيرة منذ أيام الدراسة الثانوية في البحرين. كان الحصول على البيرة مغامرة خطرة، وشربها مغامرة أخطر. عقوبة السكر في البحرين ستة أشهر في السجن. ولعلّ حب المغامرة، لا حب الكحول، هو الذي دفعهم الى ركوب المخاطر. كان من المتفقّ عليه في المدرسة الثانوية أن الرجولة لا تبدأ إلاّ بالتدخين. فإذا أضيفت البيرة الى السجائر تحقق نصف الرجولة، ولم يبق سوى النصف الآخر: النساء. كان يعقوب الوحيد بينهم الذي عرف النساء، في «جرندول» في البحرين، عدة مرّات، وفي أكثر من بيت من البيوت السرّية في القاهرة، عدة مرات. لم ترق فكرة البيرة لفؤاد، لا في البحرين ولا في القاهرة. تلقّى الكثير من سخرية رفاقه، وظلّ صامداً. حتى عبدالكريم، رغم نشأته الدينية الصارمة، شرب البيرة في البحرين مع الآخرين. ولا يعرف إلاّ الله ماذا كان سيحدث لو اكتشف الشيخ أن ابنه الذي كان يزعم انه ذاهب الى «دروس خصوصية» كان يذهب لشرب البيرة. يقرّر فؤاد أن الاحتفال بشقّة الحرية يبرّر شرب كأس البيرة الأول. ويُفاجأ بالطعم المرّ. كان يتصوّر البيرة شراباً حلواً كالبيبسي، أو محايداً كالماء. ويمجّ الرشفة التي تتناثر على ثيابه ويضحك أصدقاؤه. ويشرحون له أن البيرة لا تُشرب لطعمها وانما لمفعولها، وان المفعول يبدأ مع الكأس الثانية، وحين يظهر المفعول يختفي الطعم.

تمتلىء منافض السجائر وتفرغ . تختفي زجاجات «الستلا» بسرعة مذهلة. وتعلو الضحكات. ويجد فؤاد نفسه منطلقاً على نحو لم يعهده في نفسه من قبله. يردّد كلمات بذيئة، لم يكن يردّدها من قبل. ويروي نكات خارجة، لم يكن يعرف انه يحفظها. يغنّي يعقوب بصوته الجميل أغنية من أغاني عبدالحليم حافظ الذي يجيد تقليده: «على قدّ الشوق اللي

في عيوني يا جميل سلّم». وتغنّي الفتيات. ويجيء العشاء. وتحلو الحفلة. ويهمس قاسم أن الساعة تدنو من التاسعة وانه من المستحسن عدم إضاعة الوقت.

* * *

زيزي مع قاسم في غرفته، أكثر غرف الشقّة أناقة. على الجدران صور لا يجمع بينها شيء. صورة والد قاسم، وصورة والدته، وصورة عمّه. صورة بالألوان لألفيس برسلي. صورة أخرى، بالألوان، لبريجيت باردو. صورة لآيزنهاور منزوعة من غلاف «التايم». تتأمل زيزي الصور. وتقف مذهولة أمام صورة آيزنهاور:

- مين ده؟

ولا يستطيع قاسم أن يغالب الضحك.

- مالك؟ بتضحك ليه؟ حيكون مين يعني؟

- آيزنهاور.

- آه. بتاع أمريكا؟

- بتاع أمريكا.

- وحاطط صورته في أوضتك ليه؟

- أصلي معجب بيه.

- معجب بالعجوز ده؟!

- مُعجب بيه من الناحية السياسية.

- ودّه وش يتحّب ده؟!

- أنا ما أحبش وشّه يا زيزي.

- أمّال بتحّب فيه إيه؟

- سياسته.

- ياه! احنا مالنا ومال السياسة؟ عاوز تودّينا في داهية.

- ليه بس؟

- اللي مالناش صنعة فيه مالناش دعوة بيه.

- طيّب. بلاش سياسة.

- أيوه. أحسن. بلا همّ ووجع قلب. احنا ناقصين؟

- ليه؟ خير؟

- خير! دُنيا! انت مُش حا تقلع؟

بحركة سريعة يتصوّر قاسم انها لم تستغرق سوى ثانية، تخلصت زيزي من جميع ملابسها، وجلست على الفراش، كما ولدتها أمّها، تنظر اليه باستغراب. يحمرّ وجهه، ولا يتكلم.

- انت مش حا تقلع؟!

يشعر قاسم ببرودة كبرودة القبر تتسرّب الى أطرافه وتجمّدها، وتقتل كل نوازع الشهوة في دمائه.

وتستمر زيزي:

- ايه؟ مالك؟ مش حا تقلع وتيجي السرير؟

يتجمد قاسم في مكانه.

- ايه؟ مش عاجباك؟

- لا. لا. بس أنا أصلي...

- أصلك ايه؟

لم يكن قاسم يتصوّر أن الأمور سوف تتطوّر على هذا النحو. كان يتوقّع أن يسود الغرفة الظلام، وأن تبدأ الحكاية بهمسات رقيقة وقبلات ناعمة. أمّا أن تبدأ المسألة في النور الساطع بواحدة تتوقع منه أن يتخلّص من ثيابه، مثلها في لحظة، ثم يقفز عليها كالحيوان، فهذا خازوق كبير. يحاول قاسم أن ينقذ ما يمكن إنقاذه:

- ممكن أطفي النور؟

- ليه بقى؟ مش عاجبين؟

- لا. بسّ أنا...

- آه! مكسوف؟! ما تقول كده من الصبح. كلّه إلاّ مكسوف. وعامل لي راجل؟!

يشعر قاسم، فجأة، بغضب جامح. ما الذي يدفعه الى تحمل كلّ هذه الاهانات؟ لماذا يسمح لها بإذلاله؟ ألم تجيء من أجل البيزات؟ ألم تحصل على البيزات؟

يقول لها بحزم:

- غيرت رأيي. مش عايز الليلة. قومي البسي هدومك. أنا مستنى في الصالون.

* * *

بمجرد أن يدخل عبدالكريم غرفته مع ريري يبادر الى سؤالها:

- انتي اسمك إيه؟
- انت لحقت تنسى؟ ريري!
- لا. اسمك الصحيح؟
- مالك ومال اسمي الصحيح؟ انت نيابة؟
- لا. بسّ عاوز أعرف.
- مالوش لزوم. ريري كده حلوة.
- اسمعي يا ريري. ممكن نتكلم شويّة؟ ممكن أسألك كم سؤال؟
- تاني؟! لازم انت نيابة.
- لا، والله. دأنا ما اتخرجتش لسه. بسّ عاوز أعرفك أكتر.
- أمرنا لله. تفضّل!
- عمرك كم سنة؟
- تمانتشر.
- ورحتي المدرسة؟
- أمّال فاكرني فلاّحة؟ ده أنا معايه الاعدادية.
- وما كملتيش الدراسة ليه؟
- ظروف!
- ايه الظروف دي؟
- ضروري تعرف يعني؟
- لو سمحتي.
- بابا مات. وساب ماما وعيّل صُغيّر وتلات بنات. أنا الكبيرة.
- بابا كان بيشتغل إيه؟

- عسكري.
- ومات إزاي؟
- في حادثة.
- ما لوش معاش؟
- تمانية جنيه. حاتكفي إيه والاّ إيه؟
- وامتى... يعني... امتى...
- قصدك امتى ابتديت أشتغل؟
- آه.
- من سنتين.
- وعمرك ستاشر؟
- آه.
- أمك بتعرف؟
- يمكن.
- يمكن يعني ايه؟
- أنا باديلها الفلوس. لا هي بتسأل، ولا أنا باقول.
- وتقولي ايه لما تخرجي، زي الليلة مثلاً؟
- مش قلنا مش بتسأل؟!
- وبتديها كام كل شهر؟
- النصيب بقى. انت حشري كده ليه؟
- يعني أربعين جنيه تقريباً؟
- يا ريت! مرّة عشرين. وبالكتير تلاتين.
- انت ما بتخرجيش كل ليلة؟
- يا ريت!
- والمدام بتاخذ من الفلوس كام؟
- تأخذ جنيهين وتديني جنيه.
- لكن ده حرام.

- مش كده برضه والنبي؟
- طيب ما تسيبيها؟
- وأروح فين؟ أسرح في الشوارع؟ كده أحسن.
- والزباين منين؟
- من عندكو.
- من عندنا؟ من فين؟
- الكويت والسعودية وقطر.
- بس احنا مش من الكويت ولا السعودية ولا قطر.
- أمال منين؟
- من البحرين.
- آه. كنت فاكراكم كويتيين. لحسن كلامكم زي كلامهم.
- ممكن أسألك عن شعورك...
- اسمع يا سي كويتي ولا بحريني أنت. كفاية سين وجيم بقى. كفاية قوي. انت مش ناوي تشتغل؟
- لا. لا. شكراً. كفاية الكلام.
- عجايب.

يدسّ عبد الكريم يده في جيبه ويخرج خمسة جنيهات:

- اتفضلي يا ريري. هدية صغيّرة. تعالي نكمّل الكلام في الصالون.
- متشكرين. متشكرين قوي. عجايب.

* * *

بمجرد أن تدخل شوشو الغرفة مع يعقوب يقع بصرها على صورة كارل ماركس وصورة فرويد:

- مين الجدع ده؟ اللي عامل زيّ الفقي؟
- كارل ماركس.
- مين؟
- كارل ماركس.
- ويطلع مين بسلامته؟ مُمثّل من بلاد برّه؟

- لا. ده اقتصادي مشهور.
- اقتصادي؟ يعني يملك شيكوريل؟
- لا. لا. يعني له نظريات اقتصادية. تُدرَّس في الجامعات.
- آه. يعني بيعلّم العِيال؟
- تقريباً.
- والجدع التاني ده مين؟
- سيجموند فرويد.
- مين؟
- الدكتور فرويد.
- وده مين راخر؟
- ده عالم عظيم. اكتشف علم النفس.
- النفس؟ وهي النفس علم؟!
- طبعاً.
- وأنت بقى تفهم في علم النفس؟
- شويّه.
- طب ما تقولي عن نفسي.
- إنسانة مظلومة مقهورة مسحوقة.
- مظلومة ومقهورة صحيح إنما مسحوقة فشر.
- مسحوقة يعني مظلومة.
- مش تقول كده من الصبح؟! وازاي عرفت إني مظلومة؟
- لو ما كنتيش مظلومة كنتي اشتغلتي الشغلانة دي؟
- مالها الشغلانة دي؟ كلّها يومين وأبقى ممثلة سينما. هُمّا ممثلات السينما أحلى مني؟
- فشر!
- أيوه كده.
- مين اللي ظلمك يا شوشو؟

ـ يوه! ناس كتير. يا اسمك ايه؟

ـ يعقوب.

ـ اسم صعب. ما لكش اسم تاني؟

ـ لا.

ـ طَبْ أنا حاسمّيك «بوبي».

ـ ربنا يسامحك. هو أنا كلب؟

ـ لا. العفو. بَس بأدلعك. قوللي يا بوبي انت كمان مظلوم؟

ـ طبعاً.

ـ ومين اللي ظلمك؟

ـ المجتمع.

ـ ياه! كُلّ الناس ظلموك! يا ضناي!

ـ مش كل الناس. أكتر الناس مظلومين زيّي وزيّك.

ـ أُمال مين اللي ظلمك؟

ـ الرأسماليين.

ـ يعني الناس الكبار؟!

ـ آه.

ـ طَبْ ما انت بكره حتتخرّج وتروح بلدك وتبقى من الناس الكبار.

ـ أبداً. حاكون دايماً مع الناس الغلابة.

ـ ليه؟ هو انت وش غُلب؟!

ـ اسمعي يا شوشو. حأشرح لك الموضوع باختصار. المجتمع فيه صنفين من الناس. أقليّة تستغلّ وتبقى غنيّة. وأكثرية يستغلّوها وتبقى فقيرة.

ـ والنبي ده كلام صحيح.

ـ ولازم نغيّر الوضع.

ـ وحا نغيرّه ازاي بس؟

ـ بالثورة.

ـ ما الثورة قامت، وبقينا جمهورية.

- لا. لا. الثورة الاشتراكية.
- ودي ما قامتشي؟
- لسه.
- وحا يحصل إيه لمّا تقوم؟
- ينتهي الاستغلال.
- يعني نبقى كُلنا أغنيا؟
- أيوه.
- طبْ دي حاجة عظيمة يا بوبي. الريّس ما عملهاش ليه؟
- الريّس ابتدا.
- نصبر بقى. اسمع يا بوبي! إنت ما تعبتش من الكلام؟
- لا.
- أنا تعبت. ما تغني لي شوية.
- غنّي انتي.
- مشت غنيّت «انت وبسّ اللي حبيبي» مرتّين؟
- غني مرة تالتة.
- لا. أنا تعبت. غني انت.
- طيب. تعالي نروح الصالون ونغنّي سوا.

* * *

يدخل فؤاد الى غرفته مع ديدي. تَمُرّ بصورة أبيه، وبصورة أمِّه، وصورة جمال عبد الناصر. وتقف أمام صورته مع سعاد في حديقة الكليّة. تسأله على الفور:

- مين البنت دي؟
- زميلتي.
- اسمها إيه؟
- سعاد.
- مصريّة؟
- لا. سوريّة.

- سوريّة؟ «من الموسكي لسوق الحميدية». ما احنا خلاص بقينا بلد واحد. بقت مصرية يعني.

- لا. سوريّة.

- لا. شامية!

- طيب. شامية.

- حلوة؟

- أهي صورتها قدامّك.

- مش بطالّة. وعرفتها منين؟

- من الكليّة.

- محاميّة؟

- لا. دي طالبة بتدرس معانا.

- بكرة حا تبقى محامية وتفتح مكتب هنا في مصر.

- اشمعنى هنا؟

- هيّه بلدهم فيها حاجة؟

- سوريّا غنية يا ديدي.

- غنية؟! أمّال بنصرف عليهم ليه؟

- مين اللي قال ان مصر تصرف على سوريا؟

- الكل بيقول. مش كان الرّيس يعمل وحدة مع السعودية. ويجيب لنا شوية بترول. بدل الشوام الجعانين دول.

- السعودية دولة رجعية.

- رجعية، رجعية! بسّ فيها بترول. والحج. والنبي الوحدة مع السعودية أحسن.

- بسّ هُما ما بيرضوش.

- هُمّا مين؟

- حكّام السعودية.

- أصلهم ناصحين. مش عايزين يصرفوا على حد.

- يا ديدي، المسألة مُش بهذا الشكل.

- أمّال المسألة شكلها إيه؟
- الموضوع يتعلّق بالوحدة العربيّة.
- وماله؟
- يعني موضوع مبدأ. مش موضوع مصلحة.
- المبدأ اننا نتحّد مع الغلابة ونسيب المريّشين؟! وصاحبتك بقى غلبانة والاّ مريّشة؟
- ما أعرفش.
- ما تعرفشي؟ ما سألتهاش؟
- لا.
- حا تتجوزّها؟
- ما افتكرش.
- حا تتجوز وحدة من بلدكو؟
- الله أعلم.
- يا ما نفسي أتجوز واحد من بلدكو.
- من البحرين؟
- من أيّ حته فيها بترول. هي البحرين مش فيها بترول؟
- شويّه.
- شويّه أحسن من ما فيش. ما تيجي نتجوّز؟!
- لا. شكراً.
- ليه؟ مش على قد المقام؟
- لا. العفو.
- ولاّ الشامية يعني أحلى؟

يخشى فؤاد أن يفلت زمام الموقف. ويقترح عليها أن يستأنفا حديث الزواج في الصالون. هناك، يفاجآن بوجود قاسم وعبد الكريم ويعقوب، والفتيات الثلاث.

* * *

في صباح اليوم التالي، وعلى مائدة الافطار، يتنحنح يعقوب ثم يقول:

- يا اخوان! أحبّ أن تعرفوا اني لم أعمل شيئاً البارحة.

ينظر اليه فؤاد بارتياح عميق، ويقول:

- ولا أنا!

وينضم عبد الكريم:

. ولا أنا!

يتردد قاسم قليلاً ثم يتكلّم:

- ولا أنا!

يضحك الجميع في وقت واحد. ثم يستطرد يعقوب:

- حسناً! أنا لي تجاربي السابقة وعندي الآن أسباب علمية وجيهة تمنعني من ممارسة الجنس. ولكنكم جميعاً عذراوات. لماذا ضيعتم الفرصة؟ ماذا عنك يا كريم؟

- كنت أفكّر في فريدة.

- وانت يا فؤاد؟

- كنت أفكّر في سعاد.

- وانت يا قاسم؟ هل كنت تفكر في بريجيت باردو؟!

- لم أكن أفكّر في أحد، ولكن الجو كان غير مناسب.

- ماذا تقصد؟

- خلعت البنيّة ثيابها فجأة وطلبت منّي أن أفعل نفس الشيء.

- وماذا كنت تتوقع؟ محاضرة عن العفة؟!

- كنت أتوقع بعض المقدّمات.

- بعض الرومانسية؟ بعض الحنان؟ بعض الحب؟ أنت تذكرني بما قاله السيّاب.

- ماذا قال؟

- «يا انت! يا أحد السكارى!

يا من يريد من البغايا ما يريد من العذارى

أتريد من هذا الحطام الآدميّ المستباحِ

دفء الربيع، وفرحة الحمل الغرير مع الصباحِ؟».

ينظر اليه قاسم بغيظ، ويصرخ:

- SHUT UP



٦

نوفمبر ١٩٥٨

أرى ذلــــك الـــقـــرب صـــار إزوِرارَا وصــار طــويــلُ الــســلامِ اخــتــصــارا

المتنبي



٦

كانت المفاجأة السارّة الكبرى التي قابلت فؤاد في الكليّة هي سهولة الدراسة. كان يتوقّع أن تستغرق المذاكرة مجهوداً هائلاً، خاصة وانه كان يسمع الغرائب عن طول مناهج القانون وصعوبتها. اكتشف أن سماع المحاضرات، بقدر معقول من التركيز، بالاضافة الى المذاكرة الجادّة خلال الأسابيع الأخيرة من الترم كفيل بضمان النجاح. كانت درجاته في أول ترمين قضاهما في الكلية تتراوح بين «مقبول» و«جيد جداً». وكانت هذه حالة بقيّة رفاقه الذين لم يجد أحد منهم صعوبة تذكر. كانوا على وجه العموم، طلبة متوسطين، أو فوق المتوسّط بقليل، باستثناء عبد الرؤوف الذي كانت درجاته ممتازة على الدوام.

ولم يجد فؤاد في مواد الكليّة ذلك الجفاف الذي كان يخشاه. على النقيض، أخذ يجد في دراسة القانون لذة تتزايد مع تزايد معلوماته. أخذ، من غير أن يشعر، يستخدم الكثير من المصطلحات القانونية في لغته اليومية. كان مشدوداً، بصفة خاصة، الى مادة الشريعة الاسلامية، رُبّما لشخصية الأستاذ، الشيخ محمد أبو زهرة، عدّو سعاد، ذي الوجه البشوش، والقامة المليئة المديدة، ورُبّما لأن دور الاسلام في الدولة العربية القومية القادمة بدأ يشغل تفكيره. كثيراً ما كان يذهب بعد المحاضرة الى مكتب الشيخ أبو زهرة حيث يلقى الكثير من الترحيب ويطرح الكثير من الأسئلة. كان الشيخ يجيب عن أسئلته بصراحة وسعة صدر. كان المدرّج خلال محاضرات الشيخ يغصّ بالطلبة، فقد كانت محاضراته ذروة في التشويق، ولم تخل محاضرة واحدة من القفشات واللذعات. هذا بالاضافة، الى ما كان الشيخ يخصّ به جريدة «أخبار اليوم» من تحيّة خاصة قبل كل محاضرة. وكانت الجريدة التي تعادي الشيخ لموقفه من الاختلاط، تردّ التحية، في الصباح التالي، بأسوأ منها.

لم تعد الدراسة همَّ فؤاد الأكبر، رغم انها ظلّت تقتطع الجزء الأكبر من وقته. أخذ تفكيره ينصّب على موضوعين، أحدهما يتعلق بقلبه، سعاد، والآخر يتعلّق برأسه، البعث. كانت علاقته بسعاد تتدهور يوماً بعد يوم بطريقة غير مرئية. على السطح، لم تكن هناك أية مشاكل. كان في نظر الجميع «صاحب سعاد»، وكانت سعاد «صديقة فؤاد». إلاّ أن شيئاً ما راح يتسلّل الى أعمق أعماق الصلة، في القاع البعيد، وينخر فيه. في البداية، لم تكن لهذا الشيء أعراض خارجية. ثم جاءت الأعراض، متردّدة وعلى استحياء. يمر يومان وثلاثة ولا يلتقيان، ولا يعتب أحدهما على الآخر. يجيء الموعد الأسبوعي فيجد أحدهما، أو كليهما، مشغولاً بما هو أهم. وحتى عند اللقاء، عندما يتاح لهما الفرار عن العيون، لم تعد للقبلة حرارتها، ولا للضمة نشوتها.

وكانت علاقته بالحزب تمّر بمأزق بعد مأزق. لا يزال فؤاد يؤمن بمبادىء الحزب النظرية، إلاّ أن واقع الممارسة الحزبية يسبّب له الكثير من القلق. بعد النشوة الفكرية الأولى، تحوّلت الاجتماعات الأسبوعية الى عبء ثقيل، ولم يعد يطرح فيها إلا ما هو مكرور ومعاد. والنشاطات الحزبية تقتصر على الهتافات التي تُردّد في المناسبات. التعليمات الحزبية التي تتوالى وترسم لكل عضو طريقة التفكير في كل حدث، تدوس على أفكاره بلا هواده. اضطراره الى التعامل مع كل «رفيق» بعثي كما لو كان صديقاً عزيزاً يشكل ضغطاً متزايداً على أعصابه. هل ستضيع حريته الشخصية «في سبيل البعث»؟

جاء لقاؤه بالأستاذ ميشيل عفلق صدمة كبرى. ظلّت سعاد تحدّثه، يوماً بعد يوم، عن هذا اللقاء وتتطلع اليه بلهفة كالجنون. وجاء اليوم المشهود. وذهب مع سعاد الى الفندق الفخم القابع على النيل، حيث يقيم الأستاذ. كان الأستاذ في ركن من الصالون تحيط به باقة من المعجبين والمعجبات. الأستاذ قصير القامة، عادي الملامح، ليس فيه ما يغري بتذكّره. كان يدخن بلا انقطاع. وتوالت الأسئلة. والأستاذ يتكلم ببطء شديد، ويردّ على كُل سؤال بكلمتين أو ثلاث، ويحظى كل ردّ بتأوهات شبيهة بأنين العشاق. سعاد، بقربه، تلتهم الأستاذ بعينيها ثم تقول:

ـ الرفيق فؤاد يكتب القصة القصيرة يا أستاذ. كما كنت أنت تفعل.

نظر اليها الأستاذ، الذي يبدو انه يعرفها جيداً، وابتسم. وحسدها الحاضرون والحاضرات. ونظر الى فؤاد، ولم يبتسم، ثم قال:

ـ تركت القصص لأنها مضيعة للوقت. عبث رومانسي. وصمت. وهزّت سعاد رأسها موافقة. وشهق الحاضرون والحاضرات إعجاباً. وأصيب فؤاد بما يشبه الشلل.

ولم يكن لقاؤه بالأستاذ صلاح الدين البيطار أسعد من لقائه بالأستاذ ميشيل عفلق. كان البيطار، بدوره، محاطاً بالرفاق والرفيقات، ولكن الجوّ لم يعبق ببخور العبادة التي أحاطت بالأستاذ. كان البيطار أكثر انطلاقاً في الحديث من الأستاذ، وبدا لفؤاد أكثر ذكاء وأعظم حيويّة. قالت سعاد للبيطار ان فؤاد يكتب القصة القصيرة. وسأله البيطار:

ـ ما هو موضوعك يا فؤاد؟

ـ ماذا تقصد يا أستاذ؟

ـ ما هو الموضوع الأساسي الذي تتناوله في قصصك؟

ـ ليس هناك موضوع واحد. لكل قصة موضوعها.

ـ حسناً. ولكن يجب أن تكون هناك قضية واحدة تخدمها كل القصص.

ـ أنا أكتب بعفوية يا أستاذ من غير أن أفكر في قضيّة.

ـ أدب بلا قضيّة؟! هذا ليس أدباً. هذه تسلية، تسلية بورجوازية.

تحرّك سعاد رأسها بعنف، متفقة مع البيطار.

* * *

«عزيزتي سعاد.

أعرف ان هذه الرسالة لن تجيء مفاجأة لك، بل رُبّما كان عدم مجيئها هو المفاجأة. ان جوّ الفتور الذي اكتنف علاقتنا في الأسابيع الأخيرة يقضي عليها الآن قضاءً مبرماً. وعندما أتحدّث عن العلاقة فإنني لا أقصد الصداقة لأنني على ثقة أن الصداقة بيننا ستدوم ما دمنا على قيد الحياة، من جانبي أنا على الأقل. لعلّك تذكرين عندما خرجنا من مجلس الأستاذ كم كنت حزيناً ومتألماً. قلت لك، وقتها، انني أرفض أن أعتبر موهبتي، رغم تواضعها، مضيعة للوقت. ولعلّك تذكرين عندما تركنا مجلس الأستاذ البيطار انني قلت لك انني أعتبر موهبتي، رغم تواضعها، قضية لا تقلّ في أهميّتها عن القضية الكبرى. وكنتِ في المرّتين تصرّين على أن الموهبة التي لا تخدم الحزب لا قيمة لها. هذا هو الفرق بيني وبينك يا سعاد. أنت

طراز نادر من البشر، من القلّة التي تجعل القضية التي تؤمن بها فوق كل شيء، وفوق كل شخص. وكم يؤسفني أن أقول ان القضية التي جمعتنا ذات يوم تفرّقنا اليوم. أصارحك يا سعاد أنني لم أعد قادراً على الانضباط الحزبي الذي تصبح العضوية من دونه لغواً. لم أعد قادراً على تبعات الالتزام الحزبي، سواءً كانت تبعات شخصية أو فكرية أو سياسية. لقد أخبرت الأخ بسّام هذا الأسبوع اني لن أتمكن من الحضور في المستقبل. ويراودني ظنّ كاليقين ان انتهاء علاقتي بالحزب يعني، تلقائياً، انتهاء علاقتك بي. لقد كنت أطمع يا سعاد أن تكون لنا علاقتنا الخاصة، بعيدة عن الآخرين والأخريات، بعيداً عن «الرفاق» و«الرفيقات»، علاقتنا التي نستطيع داخلها أن نتفق وتختلف من دون أن نفترق، علاقتنا التي لا يدخلها حزب أو قادة. ولكنني أعرف انك تضعين كل علاقة في حياتك في خدمة المبدأ الذي تؤمنين به. سأظل، دائماً وأبداً، أيتها الصديقة أذكر الساعات السعيدة التي عشناها معاً، وأذكر ملامحك العذبة، وابتسامتك الحلوة، ومناقشاتنا الصاخبة. وسوف أظلّ، دائماً وأبداً، أشاركك الايمان بقدر هذه الأمة الواحدة الخالدة، وبقدرتها على صياغة غدها المشرق. ولك، دائماً وأبداً، محبتي الصادقة.

فؤاد».

«عزيزي فؤاد.

كان أملي الأغلى الأحلى أن نستمّر معاً، نخطّط لمستقبل أمتّنا، كما نخطط لمستقبل صداقتنا، ونحلم بغدنا معاً، كما نحلم بغد أمتنا، ونتطلّع الى بيت واحد يضمّنا، كما نتطلع الى دولة واحدة تلّم شتات العرب. إلاّ أن أملي أخذ يتلاشى عندما لاحظت انك تحاول فصل القضية الخاصة عن القضيّة العامة، وهما لا ينفصلان. أنت تعتقد يا فؤاد أن بوسع الأمّة العربية أن تصل الى ما تتمناه من دون نظرية، ومن دون قيادة فكرية، ومن دون تنظيم. أنت يا فؤاد لا تزال تؤمن بالغيبيات، بدين غيبي، وبزعيم غيبي، وبانتصارات غيبية. أمّا أنا فأدرك أن الحلم لن يتحقّق إلاّ على يد طليعتنا البعثية، والطليعة تحتاج الى فكر ملتزم، والفكر الملتزم لا يثمر إلاّ بتنظيم منضبط. لقد آثرت أن تترك عواطفك الرومانسية تهزم عقلك. هذا خيارك وحدك، وهو خيار أتقبّله بالرضا، وبكثير من الأسى. نعم، سوف تبقى صداقتنا، وهذا وعد مني. ونعم، سوف تبقى ذكرياتنا، وهذه حقيقة لا تحتاج الى وعد. أمّا الطرق فقد افترقت الآن. تسير أنت الى حيث تقودك موهبتك، وهي موهبة تظلم نفسك إذا تصوّر انها متواضعة، وأسير أنا الى

حيث يقودني قدر هذه الأمّة التي لا أشك انك ستظل تؤمن معي بعظمتها وابداعها الخلاّق.
سعاد»

* * *

«يرتجف زغلول على البلاط البارد. يلملم حوله أطرافه في محاولة يائسة للبحث عن الدفء. وخطى الأمباشي محروس الثقيلة تروح وتجيء في الممر. وزغلول يتوجّه بدعاء صامت الى الله ألاّ يقف الحذاء أمام زنزانته. وقوفه لا يعني سوى شيء واحد: جردل جديد من الماء المُثلّج يُسكب على البلاط. قبيل الفجر بلحظات، يغمض عينيه، ثم يفيق فيصلي ويدعو. وتجيء قطعة الخبز الصغيرة المحروقة وكوب الشاي الفاتر. الأمباشي محروس يكشّر عن أنيابه:

ـ نمت كويس يا مولانا؟!

يساق زغلول الى غرفة التحقيق، ويبدأ «حضرة الضابط»:

ـ اعترف أحسن لك!

ـ أعترف بإيه بس؟

ـ انك عضو في التنظيم.

ـ تنظيم إيه بس يا حضرة الضابط؟

ـ التنظيم الارهابي.

ـ ارهاب إيه يا حضرة الضابط؟ ده أنا راجل غلبان وفي حالي. من الجامع للبيت، ومن البيت للجامع. حتَّى اسأل أهل البلد.

ـ سألناهم. واعترفوا.

ـ اعترفوا بإيه بسّ يا أفندم؟

ـ بالأسلحة اللي تخزنّوها في بيوتكم، يا ولاد الكلب!

ـ الله يسامحك يا أفندم؟

ـ الله يخرب بيتك! تعترف والاّ نجيب الكهربائي؟

ـ أعترف بإيه بس يا أفندم؟

ينقطع التحقيق. ويقوده محروس الى الزنزانة. وقبل أن يدخل يلتفت زغلول الى الامباشي ويسأله:

ـ والنبي يا أمباشي محروس ممكن شويّة ميّة أتوضى بيها؟

ـ ما كانشي يتغّز.

ـ وحا صلّي إزاي من غير وضوء؟

ـ ما انت صلّيت كفاية يا مولانا. مش كنت إمام الجامع؟!

ـ الله يهديك يا أمباشي محروس.

ـ الله يخرب بيتك!

ثم تجيء فترة التحقيق المسائية. ويبدأ «حضرة الضابط»:

ـ حا تعترف والا مش حا تعترف يا زغلول؟

ـ أعترف بإيه بسّ يا أفندم؟

ـ اسمع يا زغلول! ما تضيعش وقتي.

ـ يا أفندم والله ما عملتش حاجة.

ـ طيّب! محروس! روح جيب الكهربائي.

ـ صبرك بس يا أفندم.

ـ حا تعترف يعني؟

ـ الكهربائي لزومه ايه يا أفندم؟

ـ شويّة صدمات تنشط مخّك. وإذا ما نفعتش نجيب الكلاب.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ـ هو فيه شياطين غيركم ـ يا أولاد الكلب!

ـ يا أفندم ما لوش لزوم كهربا وكلاب.

ـ حا تعترف يعني؟

ـ أعترف.

ترتسم على وجه «حضرة الضابط» ابتسامة كبيرة:

ـ محروس! انده وكيل النيابة».

* * *

ينظر فؤاد الى عبد الرؤوف ضاحكاً:

ـ كرسي الاعتراف! تأليف واخراج وبطولة الأستاذ يوسف بيه وهبي. يا للهول! ما هذه المبالغة؟

- ليس هناك مبالغة.
- كلاب وكهرباء ومساجين يُمنعون من الصلاة؟! أين يحدث هذا؟
- هنا.
- أين؟
- في القاهرة. في السجن الحربي. على مرمى حجر.
- أنت تمزح.
- هل هذا موضوع يصلح للمزح؟
- حسناً. يمكن أن أقبله كمبالغة فنيّة.
- لا! هذه ليست قصّة يا فؤاد. هذه حادثة حقيقية.
- تعني ان هناك شخصاً اسمه زغلول؟
- نعم.
- وانه عومل هذه المعاملة في السجن الحربي؟
- نعم.
- لماذا؟
- لأنهم كانوا يفتشون عن أسلحة ما يسمّونه التنظيم الارهابي وعثروا في بيته على كتيبّات من تأليف الشيخ حسن البنا.
- من هم هؤلاء؟
- البوليس. الجيش. المخابرات.
- هل كان هذا جرمه الوحيد؟ كتيبّات حسن البنا؟!
- نعم.
- هل كان عضواً في التنظيم الارهابي؟
- لم يكن عضواً حتّى في الجماعة نفسها. كان يجمع الكتب الدينية ويقرأها، ووقعت هذه الكتيبّات في يده.
- ثم اعترف؟
- نعم.
- وماذا كانت العقوبة؟
- ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة.

- وكيف عرفت أنت كل هذه التفاصيل؟

- من زغلول. شقيقي الأكبر.

* * *

يستكثر عبد الكريم على نفسه كلَّ هذه السعادة. لا يصدّق أن القدر خبّأ له كل هذا السرور. لا بدّ أن هناك شيئاً فاجعاً على وشك الحدوث. فريدة تحبه. هل هذا معقول؟ أم انه جُنّ وبدأ يتخيّل ما لا يوجد؟ الدلائل كلها تشير الى انه يعيش حقيقة، وان كانت أروع من الحلم. أواه! ماذا لو كانت حلماً طال حتى اختلط بالحقيقة؟ وماذا سيحدث له لو أفاق؟ وهل يحلم وحده الآن، أم ان فريدة تحلم معه؟ هل هو جزء من حلمها؟ أم انها جزء من حلمه؟ أم انهما حلم واحد؟ وكيف أصبح، بغتة، أوسم البشر؟ كيف تطايرت كلّ مخاوفه وعقده ذرّات هباء؟ كيف أصبح يشعر بثقة في النفس لم يعرفها في نفسه من قبل؟ معجزة الحب؟!

بعد ذلك اللقاء التاريخي الأول في البوفيه، تكررّت اللقاءات، داخل الكلية وخارجها. كان موعدهما الحقيقي الأول رحلة الى القناطر الخيرية. الكليّة هي التي نظمت الرحلة واشترك فيها عشرات الطلبة والطالبات، إلاّ أن عبد الكريم اعتبرها رحلتهما وحدهما. ارتسمت تفاصيل اليوم في ذاكرته بحروف من عطر. التجمع في روض الفرج. المركب الكبير الذي استوعب الحملة الطلاّبية. الرحلة عبر النيل. الميكروفون الذي لم يتوقف عن العمل: وصلة بعد وصلة، من الفكاهة الى الغناء الى الخطابة. والقناطر الخيرية التي يراها لأوّل مرّة بعد أن قرأ عنها الكثير في كتب المطالعة أيام الدراسة الابتدائية. «رحلة الى القناطر الخيرية». الحدائق تمتد في كل اتجاه كأذرع خضراء تنبت من أخطبوط أخضر جميل. في كل مكان ضجّة وغناء وضحك. انقسمت الحملة الى مجموعات صغيرة. ذهب وحده مع فريدة، بعيداً عن الاخرين والأخريات. تحدّثا. وضحكا. ومرَّ الزمن كأنه يسابق جواداً أسطورياً فاز بكلّ الجوائز في كل الميادين. وعادت الحملة الى المركب. وواصل الميكروفون عمله. وتوالت الأغنيات من مطربي الكليّة الهواة ومطرباتها الهاويات. وأحسَّ عبدالكريم انه ينتقل على بساط الريح الى دنيا الأساطير. فريدة بقربه، ونسمات النيل تعبث بشعرها كصبيّ مشاغب، والغروب يتلصّص من بعيد في جلباب بنفسجي. «أول مرة تحبّ يا قلبي وأول يوم أتهّنا». تنتقل الأغنية من الميكروفون الى أوتار قلبه مباشرة.

وفريدة بقربه، تردّد هامسة كلمات الأغنية. ويرسو المركب. وينتهي النهار/الحلم.

تتطاير الأيام كالبخار قبل أن يتمكن من ملامستها. وفي كل يوم تبدو فريدة أجمل، وأشهى، وأقرب. كان الجزء الأروع من كل أسبوع هو اللقاء في دار من دور السينما، لحضور عرض العصر، «الماتينيه». في الصالة الواسعة المبرّدة تلتقي يداهما، في غفلة من العالم، لقاء الليل بالنهار والعطش بالريّ. وعندما يصدف أن يكونا في المقاعد الخلفية بلا جيران أو جارات يقترب منها قليلاً، وتستدير بوجهها في حركة بطيئة عفوية، وينظر الواحد منهما في عين الآخر، رغم الظلام. ثم يدنو أكثر. وتلمس شفتاها شفتيه، لمحة، كرفيف أجنحة الفراش. ويأتي احساس قادم من مكان غير هذا العالم. من الفضاء الخارجي، ربّما. أو ربّما من مكان أقرب قليلاً، من دنيا النجوم. أو أقرب، من شواطىء الغيوم. شفتاها وردتان طريتان مرشوشتان بالسكر الناعم. وعندما يعود يظلّ عطرها على فمه، وعلى يديه، وفي روحه. يستنشق عطرها، ويستنشق الفردوس المسحور. وينام. ويحلم بها.

متى طرأت فكرة الزواج؟ هل نَشَأَت في ذهنه وانتقلت الى ذهنها؟ أم العكس؟ أم وُلدت في الذهنين معاً؟ بعد الموعد الخامس، أو لعلّه العاشر، أخذا يتحدّثان عن المستقبل. وكان الحديث، في البداية، عامّاً ومبهماً:

ـ حا تشتغل إيه يا كريم بعد ما تتخرّج؟

ـ لسه مش عارف. يمكن أكمّل دراسة.

ـ هنا في الكلية؟

ـ يمكن.

ـ ما تفتح مكتب محاماة؟

ـ فكرت. مفيش محامين في البحرين.

ـ هنا المحامين أكثر من الهم على القلب. ألافات! ملايين!

ـ وانتي حا تعملي ايه بعد الليسانس؟

ـ مش عارفه.

ثم اتجّه الحوار وجهة جديدة:

ـ البحرين حلوة يا كريم؟

ـ حلوة في عيني.

ـ ياما نفسي أشوفها.

ـ حا تشوفيها.

ـ تفتكر ممكن؟

ـ ومش ممكن ليه؟

ـ وعد؟

ـ وعد ونصّ!

ثم تحوّل الحوار تخطيطاً لمستقبل مشترك:

ـ خلاص يا فريدة. قررت فتح مكتب في البحرين بعد التخرج. وقررت انك حا تشتغلي معايا.

ـ موظّفة؟

ـ لا. شريكة.

ـ شريكة؟!

ـ شريكة حياتي!

ـ كده مرّة واحدة؟

ـ عندك مانع؟

ـ مانع من ايه؟

ـ تكوني شريكة حياتي؟

ـ انت بتتكلم جدّ ولاّ بتهزّر؟

ـ جدّ، والله!

ـ طب سيبني أفكر.

ـ لا! من غير تفكير.

ـ موافقة.

ـ جد؟ جد؟ والله؟ والله؟

ـ جد! جد! والله! والله!

عندما أخبر عبد الكريم الشِلّة انه تفاهم مع فريدة، مبدئياً، على الزواج جوبه بصمت قاتل سرعان ما تحوّل الى اعتراض صاخب. كان يتوقّع أن

يشاركه أصدقاؤه فرح الأفراح هذا ولكن رد فعلهم جاء كاللطمة على وجهه.

بدأ قاسم:

ـ هل جُننتَ يا كريم؟ هل فقدت صوابك؟ لا زلت طالباً في السنة الثانية وتفكر في الزواج؟ كيف ستعيش مع زوجتك؟ من سيصرف عليك وعليها؟

وأضاف يعقوب:

ـ الزواج يحتاج الى نضج نفسي وعقلي. وأنت يا كريم، مع احترامي الشديد، لا زلت مراهقاً، لم تبلغ العشرين. أمامك عشر سنوات على الأقل حتى تصبح مُستعداً للزواج.

ويتدخل فؤاد:

ـ وماذا عن المذهب؟ كيف تتزوج سنيّة؟ هل توافق هي على أن تتزوج شيعياً؟ هل سيوافق أبوك على الفكرة؟

لم يعبأ عبد الكريم باعتراض قاسم، فالمصاريف التي تكفي واحداً تكفي اثنين. ولم يأبه بسخافات يعقوب الفرويدية عن المراهقة والنضج. ولكن السؤال الذي أثاره فؤاد يتغلغل في خصره كالخنجر. سبق له أن بحث مع فريدة قضية المذهب، وقرّرا أن اختلاف المذهب لن يكون عقبة تعترض الزواج. ولكن النقطة التي أشار اليها فؤاد تدق ناقوس الخطر. أبوه! الشيخ! هل سيوافق شيخ مشائخ شيعة البحرين على زواج ابنه بسنيّة، ومن مصر؟!

* * *

أقنع قاسم نفسه أن ما حدث خلال السهرة الأولى، أو على الأصّح ما لم يحدث، كان نتيجة تصرفات زيزي الحمقاء، وان التجربة الثانية سوف تكون أفضل. وجاءت التجربة الثانية مع بنيّة أرسلتها مدام أخرى. جاءت البنية، مُنى، وتكرّر ما حدث في المرة الأولى. ذهبا الى غرفته، واختفت ملابسها، وطلبت منه أن يتحرك، ولم يستطع. وجاءت التجربة الثالثة. قالت له المدام الثالثة ان نادية أجمل فتياتها وألطفهن معشراً وأصرّت على خمس جنيهات، ووافق. وتبين أن نادية رائعة الجمال، بالفعل، ولم تكن في عجلة من أمرها. كانت هناك كل المقدمات التي يعتقد انها ضرورية ومع ذلك لم يستطع، في النهاية، عمل شيء.

حمل همومه الى نشأت:

ـ تعقّدت يا نشأت. أظنّ أني مريض. أظن أني بحاجة الى مراجعة طبيب.

ـ ماذا حدث؟

ـ ثلاث مرّات يا نشأت. مع ثلاث بنيّات مختلفات. ولم أستطع عمل شيء. لقد بدأت أشك في نفسي. لا بُدّ أني مصاب بالعجز الجنسي.

ـ أين وجدت البنات؟

ـ من عند مدام.

ـ بفلوس يعني؟

ـ لا! ببلاش! طبعاً بفلوس.

ـ مالك ومال المحترفات يا قاسم؟

ـ ومن أين آتي بغير المحترفات؟

ـ الدنيا مليانة بنات.

ـ فين؟

ـ في كل شبر.

ـ وكيف أتعرف عليهن؟

ـ الجرأة. قليل من الجرأة. أنت شاب وسيم جداً، وغني جداً، ولا ينقصك سوى الجرأة.

ـ الله يجبر بخاطرك.

ـ القليل من الجرأة فقط.

ـ ماذا لو غضبت البنيّة؟ لو شتمتني؟ أو صفعتني؟

ـ لن تشتمك ولن تصفعك.

ـ والمطلوب الجرأة؟! السهل الممتنع!

يحاول قاسم أن ينسى مشكلته الجنسية بالانهماك في الدراسة إلاّ أنها تلحّ عليه، أكثر فأكثر. ماذا لو كان، بالفعل، مصاباً بالعجز الجنسي؟ هل يذهب الى طبيب؟ هل يستطيع الطبيب حلّ المشكلة؟ ألن يقول له انها حالة نفسية؟ هل ينتهي به الحال مع طبيب نفسي؟ أو في مستشفى

الأمراض العقلية؟ في العباسيّة؟! السراية الصفرا؟! هل هذا معقول؟ لمجرد انه لم يستطع النوم مع بنيّة محترفة ينتهي في مستشفى المجانين؟!

بحث الأمر مع يعقوب الذي ردّ عليه كما لو كان أخصائياً نفسياً تخرّج على يد الدكتور فرويد شخصياً:

- هل تريد، حقاً، أن تعرف السبب؟

- طبعاً.

- أنت تفشل لأنّك، في عقلك الباطن، تعتقد انك على وشك ممارسة الجنس مع أمّك.

- يعقوب! ما هذه البذاءة؟

- طوّل بالك، ودعني أشرح. لقد تربّينا في مجتمع البحرين المحافظ. وعلّمونا، من اللحظة الأولى، أن الجنس ذنب وإثم وخطيئة. والطفل، كما أثبت فرويد علمياً، يشعر باللذة الجنسية الأولى من ملامسة أمّه، ومن مصّ ثديها بصفة خاصة. ثم يكبر. وتختلط المشاعر في عقله الباطن. شعوره باللذة الجنسية التي أحسّ بها وهو يرضع ثدي أمه، وشعوره بالخطيئة. تصبح كل عملية جنسية وكأنها زنا بالأم. ومن هنا يجيء العجز.

- لم أسمع في حياتي كلّها بسخافة أتفه من هذه السخافة. هل هناك طفل يحسّ بلذة جنسية وهو يرضع؟!

- كل الأطفال. ولكنهم ينسون عندما يكبرون. يدفنون التجربة في العقل الباطن.

- هل هذه الغرائب من أفكار فرويد؟

- هذه حقائق علمية اكتشفها فرويد.

- سوّد الله وجهك! ووجه فرويد!

لم يُعرها قاسم كبير اهتمام من قبل، فقد اعتبرها، بمريولها المدرسي الأزرق وتسريحة ذيل الحصان، مجرد طفلة، ولم يكن عنده وقت للطفلات. مع خيبة أمله المتزايدة في المحترفات، أخذ قاسم يلاحظها باهتمام ينمو يوماً بعد يوم. كانت تسكن في الشارع نفسه، في عمارة قريبة من عمارته. وكان يراها كل صباح، تقريباً، في المحطة. ركبت معه الأوتوبيس عشرات المرات، في الدرجة الأولى، وكانت تنزل أمام مدرسة الأورمان النموذجية للبنات في الدقي. يكتشف الآن انها ليست طفلة.

المريول يخفي جسداً أنثوياً ناضجاً، وذيل الحصان يتجنّى على شعرها الكثيف الحالك. يتصورّها في فستان أنيق قصير وشعرها ينسدل على جانبي وجهها، ويدرك انه قضى شهوراً يركب الأوتوبيس مع فتاة رائعة الجمال من غير أن يشعر.

تذكر نصيحة نشأت ـ الجرأة! القليل من الجرأة! ـ واستجمع شجاعته ذات صباح وهما ينتظران الأوتوبيس وبادرها:

ـ صباح الخير يا مدموزيل!

وردّت على الفور كأنها كانت تنتظر المبادرة من زمن:

ـ صباح النور.

ـ الأوتوبيس تأخّر.

ـ ربنا يستر. ليقفلوا البوابّة.

ـ انتي في الأورمان، مش كِده؟

ـ أيوه.

ـ سنة إيه؟

ـ توجيهي.

ـ علمي ولا أدبي؟

ـ علمي.

وجاء الأوتوبيس وركبا معاً. وواصلا الحوار رغم الزحام الذي لم تسلم منه حتّى الدرجة الأولى. وقبل أن تنزل في محطتّها كان قد عرف منها أن اسمها شيرين بدر الشرقاوي، وان أباها هو الدكتور بدر الشرقاوي، عميد كلية الصيدلة بجامعة القاهرة، وانها تنوي دراسة الصيدلة مثل أبيها.

لم يكد يرى نشأت حتى صاح:

ـ صدّق أو لا تصدّق! جاءت الجرأة.

ـ أخيراً؟

ـ أخيراً. ووجدت كل تجاوب.

ـ من هي تعيسة الحظ؟

ـ جارتنا. في الشارع نفسه. تصوّر أني كنت أركب معها الأوتوبيس كل يوم، ولم أكلّمها من قبل.

- لازم وحشة.
- وحشة؟ اصبر حتى تراها.
- هل هي طالبة في الجامعة.
- لا. في التوجيهي. هل تعرف من هو أبوها؟
- الملك فاروق؟!
- عميد كلية الصيدلة؟
- الصيدلة؟ أوعى تطلع البنت مسمومة.
- قديمة!

* * *

خلال فترته البعثية، لم يشعر فؤاد بأيّ توافق فكري مع أحد من أعضاء مجموعته باستثناء ماجد الزبير. كان بسّام نويلات مغروراً الى حدّ لا يُحتمل، يتحدّث وكأنه هو الذي أنشأ حزب البعث، وقبلها اخترع الأمّة العربية. وكان محمد عسيلي مُحمّلاً بشحنات قوية من الكراهية. كان شيعياً من جنوب لبنان يشعر بالاضطهاد، ويعتقد فؤاد انّه لم ينضم الى البعث إلا ليحارب به السيطرة المارونية/السنيّة على مُقدرات لبنان. وكانت فيكتوريا نصّار مسيحية، ويبدو انها، بدورها، دخلت الحزب للافلات من السجن النفسي الذي يطبق على كلّ الأقليات.

تطورت علاقة فؤاد بماجد الى صداقة. ماجد من عائلة معروفة في عنيزة. كان يتحدث، ذات يوم، ان الريحاني زار عنيزة في مطلع القرن وسمّاها باريس نجد. ما ان سمع قاسم الجملة حتى انتفض كالملدوغ:

- الريحاني؟! متى زار نجيب الريحاني عنيزة؟!
- أمين الريحاني يا مغفّل! الفيلسوف المشهور!
- وقال ان عنيزة باريس نجد؟
- نعم. وكتبها في كتابه.
- إمّا أن الريحاني لم ير عنيزة، أو لم ير باريس!

ماجد، كفؤاد، يؤمن بالقوميّة العربية، وبالوحدة العربية، وبزعامة جمال عبد الناصر، ولكنه، كفؤاد، يؤمن ايماناً عفوياً بالاسلام، ولا يرى أن بامكانه أن يعتنق مذهباً يتعارض مع الاسلام. يقول له فؤاد:

ـ البعث يا ماجد حزب أقليّات. أنشأه مسيحي. انظر الى أعضاء مجموعتنا.

ـ هل لاحظت اصرار فيكتوريا في كل اجتماع على علمانية الحزب؟ على فصل الدين عن الدولة؟ وموافقة بسّام ومحمد؟

ـ الدوافع معروفة يا ماجد. علمانية لبنان تعني انتهاء السيطرة المارونية، وعلمانية العراق تعني انتهاء السيطرة الاسلامية.

ـ وماذا عن بقية العالم العربي حيث لا يوجد سوى المسلمين؟ هل تتصوّر دولة علمانية في السعودية؟

ـ أو في عمان؟ أو في اليمن؟

ترك ماجد حزب البعث في الشهر نفسه الذي تركه فيه فؤاد. وجاء القراران من غير تخطيط مُسبّق ـ وكانت دهشتهما عظيمة لتوارد الخواطِر هذا. كان ماجد في صالون شقة الحرية ينفث دخان سيجارته ويفكر بصوتٍ عال:

ـ ولكن هذه ليست نهاية المشوار. إذا كان البعث لا يصلح فلا بُدّ أن هناك طريقاً آخر للعمل العربي. لا بُدّ أن يكون هناك تنظيم أقرب الى الواقع العربي، تنظيم يعرف الأمّة العربيّة على نحو أفضل.

يقاطعه قاسم منفعلاً:

ـ أنت وفؤاد من السذّج! ما هذا الكلام الفارغ؟! أحزاب! تنظيمات! قوميّة عربيّة! وحدة عربية! مصالح! المسألة كلها مصالح! مصلحة ميشيل عفلق تتطلب الحديث عن القومية العربيّة فهو يتحدّث عنها. ومصلحة جمال عبدالناصر تتطلب الكلام عن الوحدة العربية فهو يتكلم عنها. وأنتم تصدقّون كل شيء.

ينظر اليه ماجد باستغراب شديد:

ـ ولكن العرب أمّة واحدة يا قاسم. هل تنكر ذلك؟

ـ كلام فارغ! أسألك بالله يا ماجد هل السعوديون كالمصريين؟ لا بل أسألك بالله هل السعوديون كالبحرينيين؟

ـ بالتأكيد.

ـ لا. هل تعرف ماذا نسمي المملكة في البحرين؟

ـ ماذا؟

ـ المهلكة!

ـ سامحكم الله.

ـ وأزيدك من الشعر بيتاً. حتّى في البحرين الصغيرة هناك سنّة وشيعة. وسنّة منامة وسنّة محرق. وشيعة مدن وشيعة قرى. وشيوخ أصل ويياسر.

ـ ألا يوجد لديك أدنى شعور بالعروبة؟

ـ العروبة؟! طبعاً. كلنا عرب. ولكننا عرب من أشكال مختلفة لا نكوّن أمّة واحدة. هل تفهم اللهجة الجزائرية؟! أنا لا أفهم نصف كلامك عندما ترطن بالنجدي.

ـ لأنك لست عربياً قُحّاً.

ـ وأنتم لا تفهمون كلامنا. هل تعرف معنى «طماشة»؟ أو «غشمرة»؟ أو «جكيّة»؟

ـ وأنت أيها الأعجمي المستعرب هل تعرف «المطازيز» أو «القرصان» أو «النجر»؟

ـ أحسنت! لا أنت تفهمني ولا أنا أفهمك. كفّوا عن هذا الكلام السخيف عن أمة عربيّة واحدة. تذكّروا الطالب السوداني الذي نُشِلت محفظته وهو يهتف لوحدة وادي النيل فغيّر رأيه وهتف: «مصر والسودان عشرين حتّة!». هذه حالنا. عشرين حتّة!

ـ كنت أعرف انك رجعي. واكتشفت الآن انك أيضاً اقليمي انعزالي.

ـ طز فيك! وفي المطازيز!

٧

ابريل ١٩٥٩

أتُــراهــا.. لــكــثــرة الــعُــشّــاقِ   تحــسـبُ الـدمـع خِـلـقـةً فـي المآقـي؟
المتنبي

٧

عندما قامت ثورة العراق، في يوليو، كان فؤاد يقضي إجازة الصيف في البحرين. وقتها، كادت البحرين ترقص فرحاً. سقط نوري السعيد! سقط العميل الأكبر! سقط النظام الخائن! سقط حلف بغداد! ستنضم العراق الى الجمهورية العربية المتحدّة خلال أيام. كان فؤاد مخموراً بالبشر. إلاّ أن والده هزّ رأسه ألماً:

- ولكن لماذا قتلوا الملك؟ بشّر القاتل بالقتل ولو بعد حين.

وأمّه أوشكت أن تبكي:

- بعد كبدي، الملك فيصل. بعده صغير. بزر. مو حرام يذبحونه؟

أما قاسم فزمجر:

- عصابة مجرمين وقتلة ولصوص. تمرّدوا على أسيادهم. وذبحوا ملكهم. ونهبوا القصر. خونة ولصوص!

كانت هذه هي الأصوات النشاز، الخافتة الضئيلة، في غمار جوقة السرور الصاخبة التي عمّت البحرين من أقصاها الى أقصاها.

إلا أن شيئاً غريباً، غريباً جداً، بدأ يحدث في بغداد. لم تنضمّ العراق الى الجمهورية العربية المتحدّة. ومرّ الأسبوع يتلوه الأسبوع، والشهر يتبعه الشهر. دبَّ الخلاف بين عبدالكريم قاسم، الذي كان الجميع يعتبرونه نجيب الثورة، مع عبد السلام عارف، الذي كان يعتبر جمال الثورة، وخسر عارف المعركة وجُرّد من كل مناصبه. وأخذت خطابات عبد الكريم قاسم وتصريحاته منحى انعزالياً واضحاً. وظهرت في الشارع العراقي هتافات عجيبة: «ماكو زعيم، إلاّ كريم. جمهورية لا إقليم». وظهرت شعارات جديدة: «اتحاد لا وحدة». طفا الشيوعيون على السطح،

وكانوا يبدون كما لو كانوا يحكمون العراق. وانتشرت علامات الاستفهام حول عبد الكريم قاسم. هل هو مجنون؟ هل هو شيوعي؟ هل هو عميل استعماري؟ وصلت المأساة ذروتها مع تمرّد عبد الوهاب الشوّاف في الموصل. وحدثت المذابح بعد قمع الحركة. انطلق الشيوعيون يذبحون، قيل المئات، وقيل الآلاف، وقيل عشرات الآلاف.

في شقة الحريّة لم يكن الحديث ينقطع عن العراق وما يدور فيه: فؤاد، كالعادة، كثير الأسئلة:

ـ ماذا حدث؟ كيف انتكست الثورة؟ كيف أزيح عبدالسلام عارف؟ أين الضباط القوميون؟

وقاسم، كالعادة، يعرف كل الأجوبة:

ـ عبد الكريم قاسم ضابط متآمر. وجمال عبد الناصر ضابط متآمر. كيف يثق الواحد منهما في الآخر؟ وكلٌ منهما يريد السلطة لنفسه فكيف يتّحدان؟

يعقوب لديه تفسير مُعقّد لا يفهمه أحد:

ـ يجب أن تأخذوا وضع العراق بعين الاعتبار. كان العراق في عهد الملكية بلداً إقطاعياً بكل معاني الكلمة. والفعل يولّد ردّ فعلٍ مساوياً في القوّة، معاكساً في الاتجاه. السيطرة الاقطاعية البورجوازية ولدت ردّ فعلٍ من البروليتاريا، ووُلِد الحزب الشيوعي العراقي. وُلِد قوياً لأنه يجابه عدوّاً قوياً. ووُلِد برؤية واضحة. أمّا القوميون فقد اختلطت عليهم الأمور. كان بعضهم إقطاعياً، بل كان معظمهم من الاقطاعيين. وعندما سقط النظام الملكي لم يكن في الساحة تنظيم قوي سوى الحزب الشيوعي.

يقاطعه فؤاد:

ـ ولكن يا يعقوب الثورة لم يَقُم بها الحزب الشيوعي. الثورة قام بها ضبّاط قوميون، ضبّاط ناصريون، ثم سرقها عبد الكريم قاسم.

ـ أنت تنظر الى الواجهة يا فؤاد ولا تنزل الى الجذور. جذور الثورة العراقية الحقيقية ماركسية خالصة، أيديولوجية قائمة على مقاومة الاقطاع، لا تهمّها القوميّة العربيّة ولا الوحدة. ثورة العراق منطقية مع جذورها.

ـ أنت وجذورك! هذه ثورة ناصرية وحدوية سرقها عبد الكريم قاسم.

يتدخل عبد الكريم:

ـ لا تنسوا أن السمّي، عبد الكريم قاسم، شيعي.

يردّ فؤاد:

ـ لا. لا. سنّي.

ـ شيعي!

ـ سنّي!

يتدخل قاسم:

ـ لا أدري هل هو سنّي أو شيعي. هو مجرم والسلام.

يقاطعه فؤاد:

ـ لا! ليس مجرد مُجرم. هذا الرجل قتل الوحدة العربية. طعن الأمة العربية من الظهر.

ينفجر قاسم:

ـ ألم أقل لك ألف مرّة لا توجد أمّة عربية؟ هذا مثل جديد تراه بعيونك. هل العراقيون كالمصريين؟ أو كالسوريين؟

يردّ فؤاد:

ـ وقلنا لك ألف مرّة ان الفروق بسيطة إذا قورنت بالأشياء المشتركة.

يعلو صوت قاسم:

ـ أيّة أشياء مشتركة؟! المصريّون مسالمون حتى الموت والعراقيون يقتلونك أولاً ثم يسألونك عن اسمك.

ـ للثورات أحكامها.

ـ ثورات وثيران! لم تحزنوا عندما قُتل الملك فيصل والآن تقيمون القيامة لقتل الشوّاف وتسمّونه شهيداً. كلهم مجرمون وقتلة يتنازعون على السلطة.

يتدخل يعقوب:

ـ لا تنظروا إلى الأشخاص. القضيّة أعمق من ذلك. انظروا الى ما وراء الأشخاص. الشوّاف، مثل عبدالسلام عارف، يمثّل ظاهرة بلا جذور سياسية في المجتمع العراقي. أمّا عبد الكريم قاسم فأدرك عمق الجذور الشعبية للشيوعيين وتحالف معهم. هذا تصرّف رجل ذكي لا مجنون.

يقول عبد الكريم مبتسماً:

ـ قلت لكم انه شيعي. كل الشيعة أذكياء.

يتدخل قاسم:

ـ مجرد قاتل محترف. لا شيوعي ولا بطيخ. متآمر يعشق السلطة. لو عرف ان جمال عبد الناصر سوف يضمن له السلطة في العراق لاتّحد معه على الفور. ولكنه يعرف أن جمال عبد الناصر سوف يغدر به كما غدر بمحمد نجيب.

يرد فؤاد بعنف:

ـ جمال عبد الناصر لم يغدر بأحد. جمال عبد الناصر قاد أعظم ثورة في تاريخ المنطقة من دون إراقة دماء.

ينقضّ عليه قاسم:

ـ لا يا شيخ؟! وماذا عن العمّال الذين شنقهم؟ ماذا عن الأخوان المسلمين؟

يتدخل يعقوب:

ـ جمال عبد الناصر، في النهاية، مُجرّد بورجوازي صغير. والبورجوازية لا تستطيع التعايش مع حركة عماليّة قويّة ـ ولهذا أعدم العُمال الذين أضربوا. ولا مع مدّ رجعي شعبي ولهذا أعدم الأخوان المسلمين.

يصرخ قاسم:

ـ هل هذه حالة؟ يا جماعة! هل هذه حالة؟ إعدام ومشانق وسُجون وسحل ودماء! قلنا لكم امسكوا مجنونكم وإلاّ سوف يأتي من هو أجنّ منه. رحم الله نوري السعيد! عبر نصف قرن لم يقتل واحداً على الألف مما قتلوه في يوم واحد.

يرد فؤاد:

ـ لا تترحّم على الخونة! لعن الله نوري السعيد! وكل الرجعيين!

ينظر اليه قاسم بغيظ متزايد ويتمتم:

ـ بل لعن الله القتلة والسفاحين! وكل من يتعاطف معهم! يحاول يعقوب تهدئة الأمور بتحليل غامض آخر:

ـ يا ناس! لا تنظروا الى الأمور من الزاوية الشخصية. حاولوا فهم حركة التاريخ. حاولوا دراسة تطوّر المجتمعات. لو عرفتم الفرق بين المجتمع

المصري والمجتمع العراقي لعرفتم الفرق بين عبدالكريم قاسم وجمال عبدالناصر.

يعلّق عبدالكريم:

ـ الفرق ان عبدالكريم قاسم شيعي!

* * *

«يأتي صوتها عبر التيلفون:

ـ ضروري أشوفك. دلوقتي يا عماد. قررت أخيراً. يبتسم عماد. أخيراً! يضحك عماد. بعد شهور من الدلال والتمنّع تستجيب سامية لنداء قلبه. تستجيب للحب الكبير الذي يملأ روحه. لا يعلم إلاّ الله كم تألّم من عبارتها التقليدية:

ـ أنا باعزّك يا عماد.

«أعزك»؟! أي أعتبرك عزيزاً!

ويسألها:

ـ ما الفرق بين الحب والمعزّة.

ـ الفرق كبير.

ـ ما هو؟

ـ أنت مثل أخي!

مثل أخيها؟! سامحها الله! هل يقضي أخوها معظم ليله يفكّر فيها؟ هل يذهب أخوها كل يوم الى المستشفى الذي تعمل فيه مُدعياً انه مريض؟ هل يوصلها أخوها كل ليلة الى البيت؟

ـ أنت ممرضة يا سامية. أليس في قلبك بعض الحنان؟

ـ قلبي يفيض بالحنان. ولكن الحنان غير الحُبّ.

رأى عماد سامية، للمرّة الأولى، عندما ذهب الى «مستشفى الكاتب» يعود صديقاً أجرى عملية الزائدة الدودية. عندما دخل وجد الدكتور عادل بهجت الجرّاح الشاب الذي أجرى العملية، ووجد الممرّضة الجميلة، سامية. منذ تلك اللحظة، وهو في حالة حُبّ، حُبّ من طرف واحد. توثقت علاقته بسامية. أصبح يراها كل يوم تقريباً. وعندما لا يراها يحدّثها

بالتيلفون. جاءها بالهديّة تلو الهدية. باقة الورد بعد باقة الورد. وهي تبتسم. لا تصدّه ولا تردّه، ولا تشجّعه، حتى أوشك على الجنون:

ـ لا يمكن أن نستمر على هذه الحالة يا سامية.

ـ لم لا؟

ـ أنت لا تعرفين كم أتعذّب.

ـ تتعذّب بصداقتي؟

ـ لا. أتعذب بحبك. وأنت لا تعرفين.

ـ قلت لك يا عماد اني، أيضاً، أعزك. أعتبرك مثل أخي.

ـ من قال لك أني أبحث عن أخت؟

تصحو كرامته من نومها، متأخرة، وتنفجر. هذه العلاقة أصبحت سجناً كريهاً دخله طائعاً، ووضع نفسه تحت رحمة السّجانة. تحول الى ظلٍ لسامية. لا! تحول الى كلب أليف تملكه سامية. كلب يتبعها بلا ملل، وينفّذ أوامرها بلا كلل، ويرضى بالفتات، إذا حصل على الفتات.

والآن، في غمرة هذه الثورة، تجيء المكالمة. أخيراً! أخيراً! لا تودّ سامية أن يتمّ اللقاء في المستشفى. ويتفقان على «جروبي» سليمان باشا. وتجيء الساعة الخامسة. وتدخل سامية. الجاتوه والشاي. وابتسامة سامية تضيء المكان. وقلب عماد ينبض كآلة فقدت اتزانها. وتضحك سامية. وينتظر لحظة الاعتراف. وتقبل اللحظة:

ـ عماد! أريد أن تكون أول من يعرف. لقد خطبني الدكتور عادل ووافق أبي».

* * *

يبتسم عبد الرؤوف وهو يعيد الأوراق الى فؤاد:

ـ «الملاك الأزرق»؟

ـ تقريباً.

ـ في القصة الكثير من الواقعية. شاهيناز؟!

ـ طبعاً.

ـ هل تزوجت؟

ـ لا.

ـ هل تحبها على النحو الذي وصفته القصّة؟

ـ أكثر يا رؤوف.

ـ وهي؟

ـ هي «تعزّني».

ـ وماذا ستفعل؟

ـ لا أدري. ماذا فعل بطل «الملاك الأزرق»؟

ـ ترك مدرسته وكتبه وطلابه وبيته وراح يهيم وراء الغانية. حتى انتهى به الأمر خادماً لها.

ـ قد أفعل الشيء نفسه.

شاهيناز شاكر! يا له من اسم! يا له من اسم! تكاد حروفه تغنّي. كما تغنّي صاحبة الأسم. حفلة الكلية. والسرادق الضخم. ووصلات البرنامج تترى. ونجمة الحفلة طالبة الكلية الدائمة فايدة كامل. ثم يَعلن مُقدم الحفل عن «الموهبة الغنائية الشابة». وتجيء الموهبة. وتغني أغنية نجاة الصغيرة:

قـــلـــبـــك راح فـــينْ؟ أنـــا مـــش لاقـــيـــاهْ
ولا شِـــفـــتِ يـــومـــينْ فـــي الحُبّ مـــعـــاهْ

تحوَّل فؤاد، فوراً، إلى «مجنون شاهيناز» على الطريقة الكريمية. إلا انه كان أشجع من عبد الكريم. ذهب بعد انتهاء الحفلة الى شاهيناز وأعرب لها عن إعجابه الشديد، بكلماتٍ مؤثرة. وشكرته بحرارة. وأعرب عن استغرابه لأنه لم يرها في الكلية من قبل. وأوضحت له انها طالبة «منتسبة»، لا تحضر إلا خلال الامتحانات، أو في مناسبات كهذه. وقالت انها تدرس الحقوق بناءً على إصرار أبيها المحامي، أما هي فتعرف أن مستقبلها الحقيقي في الفنّ. وهكذا أصبحت طالبة منتظمة في معهد الموسيقى، ومنتسبة في كلية الحقوق.

ما للشقراوات وماله؟! على الأصّح، ماله وللشقراوات؟! الأولى شقراء شامية. والثانية شقراء مصرية، فصيلة نادرة من المصريّات. ماله وللعيون الخضر؟! الأولى خضراء العينين والثانية. وهنا تتوقّف المقارنة. الثانية أجمل من الأولى، بمراحل. القوام أرق وأنحف وأطول. والشفة أشهى وأعذب. والشعر أطول وأغنى، يصل الى منتصف ظهرها عندما تطلقه من إساره. والصوت؟ أوه!! الصوت! أواه!! الصوت! نسخة طبق الأصل من صوت

نجاة الصغيرة. لا! نسخة أجمل من الأصل. كيف تجمّعت كل هذه المواهب في فتاة واحدة؟ الغناء والتمثيل والجمال، ودراسة الحقوق. الشقراء المعجزة! المحامية الحسناء! والاسم! شاهيناز! يحمل ظلالاً لا تنكر من محتد أرستقراطي نبيل. العفوية نفسها التي تميزّت بها علاقته بسعاد تكتنف الآن علاقته بشاهيناز. يتحدثان بسهولة، ولمدة ساعات، وعن كل شيء. ترحّب شاهيناز بهذا المعجب الغريب القادم من بلاد غريبة. ولا يستطيع أن يعبّر عن مشاعره الحقيقية بالكلام. ويلجأ الى الكتابة. وتبدأ رسائله اليها. وتتوالى.

«أيتها الغالية!

لا يساورني شك انك سوف تكونين، في يوم قريب، أشهر نجمة في القاهرة، وفي العالم العربي كلّه. سوف تكون صورتك على غلاف كل مجلّة، وسوف ينطلق صوتك من كبد كل راديو، وسوف تضيء ملامحك أعماق كل شاشة. وقتها ـ هل ستذكرينني؟».

«أيتها الغالية!

عندما وقفت تغنّين، في ذلك المساء البعيد القريب، الذي جمعنا قبل لحظات، وقبل قرون، أحسست انك تغنين لي وحدي. أصبح السرادق عشّنا، وأنت طائرتي الرائعة التي تصدح لي وحدي. وتسألينني عن قلبي أين ذهب. ها هوذا ملقى أمامك، فخذيه بين يديك، أو دوسي عليه بقدميك».

«أيتها الغالية!

أنت لا تحتاجين الى معهد موسيقى، ولا الى أساتذة يعلّمونك الغناء. لقد وُلدتِ بموهبتك، مثل البلابل التي تفتح عيونها على الحياة وهي تغنّي. كل ما عليك أن تفعليه هو أن تبتسمي فيضحك الوجود طرباً، وأن تعبسي، فتبكي الدنيا، أو أن تقولي حرفاً، فيرقص الكون فرحاً، ويرقص قلبي معه، وترقص الدموع في عيني».

«أيتها الغالية!

هل تعرفين معنى اسمك؟ أراهنك انك لا تعرفين! صديقي يعقوب الذي يعرف الفارسية يقول ان شاهيناز تعني «دلال الملوك». تصوّري! دلال الملوك! هل هناك أجمل من هذا المعنى؟ لم أستغرب. فأنت، فعلاً، ملكة،

ملكة روحي وأميرتها وسلطانتها. واجتمع فيك دلال النساء كلّهن. أيتها المحبوبة المدّللة!».

تتلقى شاهيناز رسائله بمزيج من الاستغراب والسرور. يدرك فؤاد أن الفنانة تتعاطف مع حروف الفنان، وان روح المطربة تتعاطف مع روح الأديب. وماذا بعد التعاطف؟ لا هي تردّ على الرسائل. ولا هي تشاركه العواطف النابضة فيها. ولا هي تغضب فتقطع العلاقة. يصبح فؤاد ضحيّة التعليقات الساخرة. يبدأ قاسم:

ـ يا فؤاد ايش فيك؟ مُخبّل؟ من بعثية لمطربة؟!

ويسأله عبد الكريم:

ـ لماذا لا تؤلف لها أغانيها؟ ألست أديباً؟

ويتحدّث فرويد على لسان يعقوب:

ـ هذا ليس حُبّا يا فؤاد. هذا حرمان جسدي جنسي. لو انك نمت معها مرّة واحدة لزال الحرمان وطار الحب.

ويغضب فؤاد:

ـ لا تغلط يا يعقوب! لا تتحدّث عن شاهيناز بهذه الطريقة.

ـ أليست مغنيّة؟

ـ إنها أشرف منك!

ـ يعلّق قاسم ببساطة:

ـ لا توجد مغنيّة شريفة.

ويصرخ فؤاد في وجهه:

ـ اسكت انت!

عبد الكريم يتعاطف معه فجأة:

ـ يا ناس! حرام عليكم! الراجل بيحب!

غير أن قاسم لا يقتنع:

ـ بيت مجانين! مجنون فريدة! ومجنون شاهيناز! ومجنون فرويد! لماذا لا نسمّي الشقة «دار المجانين»؟

يقول نشأت بهدوء:

ـ لا يجوز، بموجب الدستور، تغيير الاسم إلاّ بالاجماع.

لا يستطيع فؤاد أن يبحث موضوع شاهيناز بأيّ قدر من الجديّة إلاّ مع عبدالرؤوف:

ـ ماذا بوسعي أن أفعل يا رؤوف؟ أشعر أنني مسلوب الارادة. ريشة في مهّب الريح. هذا وضع لا يطاق.

ـ لماذا لا تنهيه وترتاح؟

ـ حاولت يا رؤوف. حاولت بكل جهدي. حاولت أن أنساها. حاولت أن أتجنبّها. وفي المساء أجد نفسي أمام التيلفون أتحدّث اليها عن اللقاء القادم.

ـ وتقابلك؟

ـ تقابلني.

ـ وماذا يحدث؟

ـ هنا البلاء! لا يحدث شيء! أذهب الى المعهد. وأشاهدها أثناء البروفات. وكثيراً ما أوصلها الى منزلها.

ـ هل قلت لها انك تحبّها؟

ـ يا رؤوف! ألم أقرأ عليك رسائلي؟ بعد رسائل كهذه هل هناك حاجة الى أن أقول شيئاً؟

ـ كيف تصف شعورها نحوك؟

ـ «تعزني»! قالتها مراراً وتكراراً.

ـ هل تحب غيرك؟

ـ لا أدري.

ـ اسمع يا فؤاد. أنا أعتقد انها تلعب بك.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعتقد انها تبقيك بجانبها لأنه يرضي غرورها أن يعجب بها كل هذا الإعجاب أديب...

ـ رؤوف! لا داعي للسخرية.

ـ لم أكن أسخر. دعني أكمل. هي فنّانة مبتدئة ويسعدها أن يكون لها

أكبر عدد ممكن من المعجبين، وأين ستجد معجباً أفضل منك؟ انها تتسلّى بك، وبرسائلك.

ـ وماذا أفعل؟

ـ هل تريد الصراحة؟

ـ نعم.

ـ هذه علاقة مريضة. تسيء الى الجانبين معاً. تغذّي كبرياءها وتحطّم كبرياءك.

ـ علاقة مريضة؟! هل زاد الفرويديون واحداً؟

ـ لا. ولكنني أعرف الكثير عن الحب من طرف واحد.

ـ حدثني عن هذه التجربة.

ـ قد تقرأ القصة ذات يوم.

«أيتها الغالية!

البارحة عاهدت نفسي على الرحيل. وعدت نفسي أن أحمل قلبي النازف، وأوراقي الراعفة، وخطاي الضائعة، وأن أرحل عن عالمك المسحور. وهذا الصباح قرّرت أنني لا أستطيع أن أعيش يوماً واحداً بدونك. حتّى لو كان هذا حُباً من طرف واحد. حتّى لو كان جنوناً. يكفي انك «تعزينني». لا أطلب غير هذا».

* * *

سافر الأستاذ صبحي الى باريس في أواخر الصيف ومن هناك بدأ يكتب ليعقوب. أخبره في رسالة من رسائله أنه وجد نفسه، ذات مساء، وجهاً لوجه أمام سارتر. وعقدت الدهشة لسانه فلم يستطع أن يتكلّم. وقاده هذا اللقاء العابر الى مؤلفات سارتر وفلسفته الوجودية. وتلقّف يعقوب الفكرة الجديدة بحماسة. أخذ يقرأ كل ما تقع عليه يده من كتابات عن الوجودية. كلما قرأ ازداد نهماً. دخل عامل آخر في تكوينه الفكري، وأصبح يعد نفسه الآن ماركسياً/فرويدياً/وجودياً.

يسأله عبد الرؤوف:

ـ هل تستطيع أن تشرح لي الوجودية باختصار؟ لقد قرأت كل ما كتبه أنيس منصور عنها ولم أفهم شيئاً. ما هي؟

- تصعب معالجة فكرة معقّدة باختصار يا رؤوف.

- إذن اشرحها باسهاب.

- سأحاول. الوجودية، أولاً، ليست نظرية. أعني انه لا يوجد مفكر واحد خرج بها وحدّد معالمها، كما فعل ماركس أو فرويد. كان هناك، عبر التاريخ كله، مفكرّون وجوديون، وكانت هناك، دائماً، مواقف وجودية.

- لم أفهم شيئاً.

- اصبر! قلت لك انها فكرة مُعقّدة. ان كان لا بُدّ من تعريف مختصر فالوجودية هي الحرية المسؤولة، أو المسؤولية الحُرة. الوجودية تعني أن تقف في مواجهة الوجود وتتخذ قرارك. تقرر، مثلاً، هل تؤمن أو لا تؤمن. هل تخدم البشرية عن طريق النضال أو العيش في صومعة. الوجودية تعني التحرّر من الكليشيهات الموروثة، ومن الاجابات الجاهزة، ومن الصيغ المُعلّبة. أن تحيا بعمق، بشراسة، بإصرار، بإمعان، أن تأخذ قدرك بيدك - هذا هو معنى الوجودية.

- عفواً! لا أزال عاجزاً عن الفهم.

- أنت تتغابى يا رؤوف. عندما أمشي مع القطيع، مع الجماهير، واحداً ضمن الجموع، أفكر كما يفكّر الآخرون، وألبس ما يلبسه الآخرون، وأؤمن بما يؤمن به الآخرون، فأنا لست حُراً - ولست وجودياً. عندما أقرّر أن من حقي أن تكون لي معتقداتي الشخصية بصرف النظر عن معتقدات الآخرين، عندما أواجه العالم بذاتي، بتميّزي، غير خائف من النتائج، أصبح وجودياً. فهمت؟

- لا!

- بالنسبة لي معنى الوجودية واضح وضوح الشمس، وقد صدق القائل «توضيح الواضحات من المعضلات». دعني أضرب لك بعض الأمثلة. خُذ أبو نواس مثلاً. هنا إنسان وجودي مائة في المائة. تمرّد على القيم السائدة في مجتمعه وأوجد مجتمعه الخاص وقيمه الخاصة.

- لم يكن أبو نواس سوى شاعر ماجن عابث.

- هنا الخطأ! هنا الخطأ! أبو نواس كان فيلسوفاً على مستوى سارتر. ولكن دعنا نأخذ مثلاً آخر. خُذ المعرّي. عندما صرخ المعرّي:

أفيقوا.. أفيقوا.. يا غواة!.. فإنما دياناتكُم مكرٌ من القدماءِ

أتدري ماذا كان يفعل؟ كان يتخذ موقفاً وجودياً نادراً. لقد واجه المؤمنين بكل الديانات، منذ أن بدأ التاريخ، واجههم جميعاً، كل هؤلاء الملايين، ربما البلايين، ووقف بمفرده، الشيخ الضعيف الضرير، يعلن انه على صواب وهم على خطأ. منتهى الوجودية!

ـ ما قاله المعرّي مجرد إلحاد أدعو الله أن يكون قد تاب منه قبل الموت. هل الوجودية، باختصار، إذن هي الالحاد؟

ـ لا! لا! لو عاش المعرّي في مجتمع مُلحد وقال هذا الكلام لما كان وجودياً ـ لكان واحداً مثل البقية. الايمان، في مجتمع ملحد، هو موقف وجودي.

ـ وهذه أغرب! هل الوجودية، إذن، خالف تعرف؟

ـ لا! الوجودية اعرف تخالف!

ومع تغلغل المنطق الوجودي الى أعماقه، أخذ سلوك يعقوب يتّسم بالغرابة، فالمزيد من الغرابة. عبرّت وجوديته عن نفسها على طريقة أبو نواس الذي أصبح الآن بطل يعقوب المفضّل، وأصبحت أشعاره قراءته المفضلة. اتباعاً للمنهج النواسي الوجودي، انغمس الوجودي الجديد انغماساً في الملذات. أصبح فعل الجنس عملاً وجودياً يتّصل بالبطولة، لا بالمجون. غاص يعقوب في بحر الجنس حتى القرار، يمارسه في كل فرصة، ومع كل انثى. ولا يعبأ بسخرية الرفاق من مغامراته مع الشغالات اللاتي يصطادهن من العمارة، ومع الغانيات القبيحات اللاتي يلتقطهن من الشوارع بل انه أعلن ذات يوم أمام المجموعة انه مارس الجنس مع صبيّ. وقال انه لم يشعر انه يقوم بعمل شاذ. كان يمارس حقّه كإنسان في أن يعرف مختلف التجارب الانسانية بكل تنوعها. كان يتخذ موقفاً وجودياً من الجنس.

يضجّ قاسم:

ـ اسمع يا يعقوب! فضحتنا أمام الله وخلقه. خدّامة داخلة، وخدّامة خارجة. لماذا الخدّامات؟

ـ أنت رجعي حتّى في الجنس يا قاسم. ألا يكفي الخدّامات ما يلاقينه من اضطهاد اجتماعي فنضيف اليه الاضطهاد الجنسي؟

ـ أنت الذي تضطهدهن جنسياً ومالياً. عشرة قروش!! أليس هذا أبشع استغلال؟ وأنت تدّعي انك ماركسي تقاوم الاستغلال.

ـ القروش لا تهمّ. المهم هو الموقف الوجودي. عندما أنام مع خدّامة الجيران أكون قد اتخذت موقفاً وجودياً أعلنت من خلاله ان من حقي أن أنام مع من أشاء ـ حتى الخدّامات. هذا قراري وحدي. وهي، بدورها، تقف موقفاً وجودياً من غير أن تشعر.

ـ خدّامة الجيران تقرأ سارتر؟!

ـ قلتُ لك من غير أن تشعر. انها تنتقم من أسيادها الذين يذلّونها من الصباح الى المساء. انها تمارس حُريّة بلا حدود عندما تمارس الجنس معي.

ـ لقد جاءت من أجل البيزات لا من أجل الحرية.

ـ هذا ما يعتقده الرأسماليون أمثالك.

ـ لديّ سؤال واحد يا يعقوب.

ـ نعم؟!

ـ ألا تحسّ وأنت تنام مع خدّامة الجيران انك تمارس الزنا مع أمّك؟

ـ لعنك الله!

ومع الغوص في الجنس، ازداد هيام يعقوب بمعشوقه أبو نواس، بنت الحان. اكتشف يعقوب عدداً مذهلاً من البارات في القاهرة. كما اكتشف أن هذه البارات تنقسم الى فئات: بار الفنانين في عماد الدين، وبار الصحفيين في عابدين، وبار المحامين في باب اللوق، وبار السواح والسائحات في فندق «ميناهاوس». وكم كانت دهشة المجموعة بالغة عندما صرّح يعقوب أن السيجارة التي يدخنها أمامهم محشوّة بالحشيش. وتعالت صيحات الاستنكار وأوضح يعقوب أن النفور من الحشيش مجرد «تابو» موروث يجب كسره إذا أراد المرء أن يصبح وجودياً.

يسأله فؤاد:

ـ ولكن أين تجد الحشيش؟

ـ في البوفيه. أي جرسون سوف يبيعك إذا طلبت منه.

ـ في بوفيه الآداب؟! في الجامعة؟!

ـ أو بوفيه الحقوق! أو بوفيه التجارة! اسأل أي جرسون إذا كانت لديه «حتّة» وسوف يأتي بها على الفور مقابل ربع جنيه.

ـ لا أصدّق كلمة واحدة.

ـ جرّب! هكذا يعيش المجتمع البورجوازي، على الكذب والتناقضات. يدرسونك في المدرّج أن عقوبة تهريب المخدرات هي الإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة ويبيعونك المخدّرات على بعد خطوات من المدرّج.

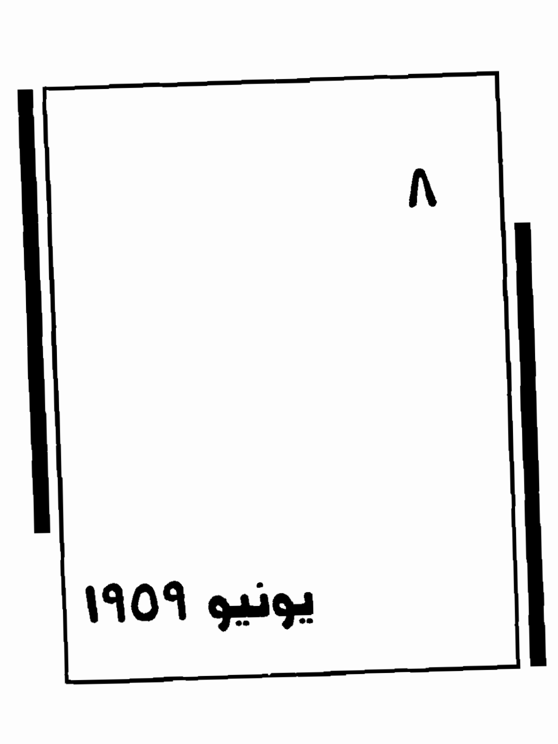
ـ لا أصدق.

ـ قلت لك جرّب. جرّب بكره.

يعود يعقوب من جولاته الليلية بقصص غريبة. الليلة، تعرّف على صلاح عبد الصبور في بار «الهيلتون» وتبادلا انشاد الأشعار. يخرج ورقة فيها أبيات يزعم انها من تأليف عبدالصبور وبخطه. الليلة، تعرّف على كامل الشناوي في «روى» بسليمان باشا، وقضى معه أكثر من ساعة يستمع الى قصة غرامه مع نجاة الصغيرة. الليلة، تبادل القفشات مع فريد شوقي في عوّامة على النيل. أصبح يعقوب في نظر المجموعة، «أبو شلاّخ»، الترجمة البحرينية «لأبو لمعة». أصبحت قصص يعقوب تسمى «اليعقوبيات»، تضحك منها المجموعة ولا يصدقها أحد.

ذات ليلة، والساعة تقترب من الحادية عشرة، والشلّة مجتمعة في الصالون، فُتح الباب، ودخل يعقوب، ومعه رجل وجهه أبيض اللون مشرب بحمرة، بشوش الملامح. نظر يعقوب اليهم وقال:

ـ يا جماعة! تعالوا سلموا على الأستاذ بيرم التونسي.



٨
يونيو ١٩٥٩

هـذي! بـرزتِ لـنـا فـهـجـتِ رسـيـسـا   ثـم انـثـنـيـتِ... ومـا شـفـيـتِ نـسـيـسـا

المتنبي

٨

تناوب السكان على إدارة الشقة حسب ما نصَّ عليه الدستور. ثم تبيّن أن الشهر الذي يتولّى فيه عبد الكريم الإدارة يشهد انخفاضاً ملحوظاً في المصاريف. كانت النفقات تتكوّن من بندين، الثابتة والمتغيرة. النفقات الثابتة تشمل إيجار الشقة، وبقشيش البواب، جنيهين، وراتب الأسطى زكي، ستة جنيهات. أمّا ما عدا ذلك من مصاريف الطعام والغسيل والتيلفون والكهرباء فيتغير من شهر الى شهر. مجموع النفقات الثابتة والمتغيرة في حدود ثمانين جنيهاً في الشهر. إلاّ أن المعدل ينخفض بما يقارب الثلث عندما يتولّى عبد الكريم الإدارة. كان السرّ بسيطاً: عبد الكريم هو الوحيد الذي يملك الجلد على مراجعة حسابات الأسطى زكي، والذي يذهب بنفسه الى البقال والجزّار والمكوَجي للتأكد من الأسعار. اتخذ سكّان شقة الحريّة قرارين هامين، تطلّب أولهما تعديلاً في الدستور. بموجب هذا القرار، أصبحت إدارة الشقة مسؤولية عبد الكريم وحده. أمّا القرار الثاني فكان الاستغناء عن الأسطى زكي. وما ان خرج الأسطى حتى كان يعقوب يقدّم الشغالة الجديدة، هانم، لعبد الكريم الذي وافق على توظيفها مقابل تعهّد يعقوب بعدم ممارسة أية أعمال وجودية معها.

كانت الأحوال المادية لسكان الشقة جيّدة. كان كل واحد منهم يتلقى منحة دراسية من الحكومة المصرية - قسم الطلبة الشرقيين! - تصل الى عشرة جنيهات. وكان كلّ من فؤاد وعبد الكريم ويعقوب يتلقى من أسرته خمسة وعشرين جنيهاً في الشهر، بالاضافة الى ارساليات الأمهات التي تتم من دون علم الآباء. قاسم هو الوحيد بينهم الذي ينفق بلا حساب. اتفق مع أبيه على أن يرسل له خمسمائة جنيه يصرف منها حتى تنتهي ثم يطلب غيرها، وهكذا. تحول قاسم الى «احتياطي» دائم، يلجأ اليه الجميع

عند الحاجة. ولم تكن الحاجة تعتري إلاّ فيما ندر. العضو الوحيد الذي كان في حالة إفلاس مستمر هو يعقوب. النزعات الوجودية أدت الى نفقات إضافية قادت الى إفلاس مقيم. تقبّل يعقوب ظاهرة الإفلاس بحماسة شديدة واعتبرها، هي الأخرى، موقفاً وجودياً مليئاً بالفروسية.

تقترب الامتحانات، وتُعلن حالة الطوارىء في شقة الحريّة. يتغيّر نمط الحياة. لا يكاد أحد يذهب الى الكليّة، فالمحاضرات، الآن، مضيعة للوقت الثمين. تطول اللحى، وتتّسخ الثياب، وتذوي الملامح. ويجيء فنجان القهوة بعد فنجان الشاي في دورة تبدأ مع الفجر ولا تنتهي إلا بعد منتصف الليل. الأعصاب مشدودة تنفجر بسبب وبلا سبب. وهانم على حافة الانهيار:

- هانم! كبايّة ميّة.
- هانم! فنجان شاي.
- هانم! الغدا. جعنا.
- هانم! العشا.
- هانم! ساندوتش.
- هانم! روحي البقالّة هاتي علبة سجاير.

ينظر يعقوب الى الفتاة الضئيلة، ذات القسمات البريئة المليحة، وهي تدور بين الغرف، وتنتابه نوبة من الغضب على المجتمع البورجوازي وكل من فيه.

تفقد كليّة الحقوق شكلها الطبيعي وتتحول الى ما يشبه معسكرات الاعتقال. سرادقات هائلة تغطي الأرض وتمتد في كل اتجاه. آلاف من الطلبة يرتعدون، كأنهم أغنام تساق الى المذبح. والجو في الداخل يزيد الموقف رهبة. مفتشون غلاظ شداد في كل مكان يصرخون وعلى وجوههم شبق عارم الى اصطياد طالب لئيم متلبّس بالغش. وباعة المرطبات يهرولون بين الطاولات. والعرق يتصبّب من كل الوجوه. ويدخل أستاذ المادّة يرافقه فرّاش يحمل أوراق الأسئلة. وتُوزّع الأوراق. بغتة، تنطلق صرخة من هنا ويُغمى على فتاة ويُهرع اليها الممرضون. بغتة، يُغمى على طالب، بلا صراخ. صوت نشيج هناك. دموع بلا نشيج هنا. لم يكن امتحان واحد يمرّ من دون عشر ضحايا، على الأقل، منهم من يفيق من الصدمة ويواصل الامتحان، ومنهم من يبقى في الخيمة الطبيّة تحت المراقبة.

في جو الامتحانات المحموم تنقطع النشاطات الاجتماعية. حتى نشأت وعبد الرؤوف لا يزوران إلاّ لماماً وبقصد المذاكرة. والمذاكرة في شقة الحريّة فنون. يعقوب لا يستطيع أن يدرس إلا ماشياً ومهمهماً بصوت عال، وهذه العادة مصدر مناوشات لا تنتهي. أمّا عبد الكريم فلا يذاكر إلا منبطحاً على بطنه فوق الأرض، مُدّعياً أن هذه أفضل طريقة للتركيز. قاسم يقرأ بسرعة، ثم يعيد القراءة، ثم يعيدها، ويخطّط تحت السطور بلون يختلف مع كل قراءة، وتصبح الصفحة، في النهاية، لوحة سيريالية متكاملة. فؤاد يقرأ ببطء شديد، ولا يحتاج الى إعادة ما يقرأ.

الجميع يعانون من الهيستيريا التي تعبّر عن نفسها بأشكال مختلفة. فؤاد يضطر الى المشي السريع، مرتين كل يوم، بمعدل ساعة كل مرّة حتى تهدأ أعصابه. أما يعقوب فيتضاعف استهلاكه من «الستلا» والسجائر. وقاسم يصاب بأرق مستحكم يبقيه صاحياً حتّى الفجر. أما مخاوف عبدالكريم فتتسلّل الى عقله الباطن، كما يؤكد يعقوب، وتتحوّل الى كوابيس. وكوابيس عبد الكريم مُروّعة. يحلم ان إنساناً له وجه وحش يجثم على صدره ويطبق على رقبته ويخنقه، ولا ينتهي الكابوس إلاّ بصرخة مدوّية تهزّ أركان الشقة، وربّما أركان العمارة. ومع دنّو الامتحانات، تصبح الكوابيس والصرخات ظاهرة ليلية تغذي جوّ الهلع الذي يلفّ الشقّة.

كل شيء يأخذ إجازة أيام الامتحانات، الا العواطف. ويبدأ الصراع على التيلفون، الوسيلة الوحيدة للتعبير عن العواطف. عبد الكريم يحدّث فريدة حتى يضجَّ الآخرون ولا تنتهي المكالمة إلا بعد ساعتين أو ثلاث. وقاسم يتبادل مع شيرين مكالمات قصيرة متعددّة. وفؤاد يتصل بشاهيناز مرّة كل يومين. أمّا يعقوب فمكالماته كالبرقيات، لا تستغرق المكالمة سوى ثوانٍ معدودة.

مع نهاية الامتحانات ينقلب الجوّ في شقّة الحريّة رأساً على عقب. عبد الكريم يحتفل بتقطيع الملازم، ويعقوب يقذف بها من الشبّاك لتسقط حيث شاءت. أما فؤاد وقاسم فينهجان منهج الحذر ويكتفيان بابعادها. هذا، في نظر يعقوب، موقف متخاذل بعيد عن الوجودية. يعوّض السكّان أنفسهم عن الأيام الضائعة. تبدأ الزيارات. وتضجّ الشقة بالغناء المنبعث من الراديو ومن الحناجر، وبأصداء الضحك. تحلق اللّحى. تُلمّع الأُحذية. شقة الحريّة بعد انتهاء الامتحانات أُشبه ما تكون بحقل يوقظه الربيع من غيبوبة الشتاء: زهور وأفراح صغيرة في كل مكان.

رُبّما كان هذا الجنون النشط المتغلغل في كل ذرّة في الهواء هو المسؤول عمّا حدث، ذات عصر، لعبد الكريم. كان رفاقه خارج الشقة وكان في غرفته يراجع الحسابات مع هانم. كان جالساً على الكرسي وراء طاولته، وقلمه في يده، وكشف الحساب أمامه، وكانت هانم تقف وراءه. من غير إنذار، وضعت هانم يدها على كتفه. أحسّ بشواظ من نار يُولد في كتفه وينزل الى بقية جسمه. حاول عبد الكريم أن يتجاهل ما حدث ويستمر في قراءة الكشف. إلاّ أن يد هانم الثانية امتدت الى كتفه الثاني، واشتعل الجزء الآخر من جسمه. كما لو كان متفرجاً يرقب ما يدور أمامه من غير أن يشارك فيه، رأى عبدالكريم نفسه يقوم ويغلق الشباك. ورأى هانم تذهب الى الباب وتقفله. ثم رأى نفسه معها على السرير، يقبّلها وتقبلّه ويلتحمان. بلا وعي، وخلال لحظات معدودة، فقد عبد الكريم عذريته، وخان فريدة.

في المساء دعا عبد الكريم المجموعة الى اجتماع استثنائي في غرفته. كان عابساً، وعلى عينيه آثار الدموع. أصيب الرفاق بالهلع، وسأله قاسم:

ـ ماذا حدث؟

وردّ متلعثماً:

ـ لا أدري ما أقول. حدث شيء مؤسف.

يلح قاسم:

ـ ما هو؟ ماذا حدث؟

ـ لا أدري كيف أبدأ. بعد أن خرجتم جاءت هانم هنا لأراجع معها كشف الحساب. ثم.. ثم.. ثم...

ويصرخ يعقوب:

ـ ثم نمت معها! مبروك! مبروك! ألف مبروك!

ينظر اليه عبدالكريم بامتعاض ولا يتكلّم.

يسأل فؤاد:

ـ هل حدث هذا حقاً يا كريم؟

ـ نعم. غلطة فظيعة. لن أغفر لنفسي أبداً. لعن الله الشيطان.

يضحك يعقوب:

ـ الشيطان؟ ما دخل الشيطان؟ أنت تنبسط وهو ينلعن!

يواصل عبدالكريم:

ـ الآن لا نستطيع أن نبقيها في الشقّة. كلّ مرة أراها فيها سوف أذكر ما حدث. أرجو أن توافقوا على الاستغناء عنها. وأرجو أن توافقوا على اعطائها عشرين جنيهاً...

يصرخ يعقوب:

ـ عشرين جنيهاً؟ لماذا؟ أنت تنام معها ونحن ندفع؟ هل هذه عدالة؟ أين ذهبت مبادىء الدستور؟

تسيل دمعة على خد عبدالكريم، ويظلّ صامتاً. ويتدخل فؤاد:

ـ لا داعي لهذا يا كريم. أنا موافق، والبقية موافقون. ادفع لهانم المبلغ وابحث عن شغالة جديدة.

ويضيف ضاحكاً:

ـ ولكن احرص على أن تكون الشغالة الجديدة فوق الأربعين. حتى لا تغري أحداً.

يضيف يعقوب:

ـ ولكن لا تستعجل. سنسافر بعد أيام قليلة. ابق هانم حتى نسافر.

ينظر عبد الكريم في وجوه رفاقه بارتياح ظاهر، ويهمس:

ـ شكراً لكم. شكراً. كيف أستطيع أن أعيش مع نفسي بعد أن خنت فريدة؟ كيف أغفر لنفسي؟ لقد اكتشفت اليوم أنّني مجرد حيوان.

يضحك يعقوب:

ـ لقد اكتشفنا انك حيوان منذ مدة طويلة. أمّا فريدة فيجب أن تشكر الظروف التي أنقذتها من تزوّج حيوان بكر لا يدري ما يفعل ليلة الدخلة.

* * *

اجتمع فؤاد بشاهيناز في كازينو «قصر النيل». أوضح لها أنه يريد أن يراها بمفردها قبل أن يسافر لقضاء عطلة الصيف في البحرين. واتفقا على موعد الغداء. وجاء الحمام، والطحينة، وبقية المستلزمات. نظر فؤاد الى الوجه الجميل المبتسم، وبدأ يتكلّم:

ـ شاهيناز! أرجو أن تكوني صريحة معي. هل هناك أمل؟

ـ ماذا تقصد يا فؤاد؟

ـ تعرفين ما أقصد. أقصد علاقتنا. هل هناك أمل؟

ـ وضّح يا فؤاد، أرجوك.

ـ هل هناك أمل في أن تحبيني ذات يوم؟

ـ ألم نبحث هذا الموضوع مراراً؟

ـ نعم. ولكن هذه هي المرة الأخيرة. أريد أن أعرف.

ـ ماذا تريدني أن أقول؟

ـ الحقيقة.

ـ هل تريد أن أكذب وأقول اني أكرهك؟

ـ لا.

ـ هل تريد أن أكذب وأقول اني أحبّك؟

ـ لا.

ـ إذن، ماذا تريدني أن أقول؟

ـ أريد أن أعرف هل هناك أمل. إذا كان الجواب بالنفي فسوف يكون هذا لقاءنا الأخير.

ـ يا فؤاد. هذا شيء راجع لك. أنت تعرف مكانتك عندي. أنت تعرف انك أقرب أصدقائي الى نفسي. ألا يكفي هذا؟

ـ يكفي لو كنت أشعر شعوراً مماثلاً، ولكن شعوري يختلف. أشعر يا شاهيناز انك محور حياتي. أشعر انك الشمس التي أستمدّ منها الضوء والأمل والدفء. أريد يا شاهيناز أن أقضي كلَّ أيامي معك. هل هذا شعور صديق نحو صديقة؟

ـ لا أدري. ولكن هذا الشعور لا يزعجني.

ـ لا يزعجك أنت ولكن يزعجني أنا. أشعر أنني فضولي، متطفّل، ضيف ثقيل يخجل صاحب الدار من طرده.

ـ فؤاد! هل تريد الصراحة التامة؟

ـ رجاء.

ـ حسناً. أنا لا أستطيع أن أُحب. أقسم لك بالله.لا أنت، ولا غيرك.

هل تعتقد انك الوحيد الذي أعجب بي؟ لا أبالغ إذا قلت انه كان قبلك العشرات. ربما المئات! منذ بلغت الرابعة عشرة وأنا، بغير قصد مني، ألمس مشاعر الرجال. كل رجل يراني، كل رجل تقريباً، يحبّني! حتى أساتذة المعهد العواجيز!

ـ وأنتِ؟ ألا تشعرين بشيء؟

ـ لا. لو كنت قادرة على حبّ رجل لأحببتك أنت. صدّقني. أنا لا أفكّر إلا في مستقبلي، لا أعشق إلاّ مستقبلي، ولا يخفق قلبي إلا إذا تخيلت مستقبلي. أتعرف ماذا أتخيّل؟ أتخيّل نفسي أشهر من نجاة الصغيرة. في شهرة أم كلثوم. أتصور نفسي أعظم من فاتن حمامة. هل هذا جنون؟

ـ لا. هذا طموح. ولكن لماذا لا يكون في قلبك ركن صغير للحُبّ بجانب الطموح؟

ـ لا أدري يا فؤاد. صدقني أنني أتمنّى ذلك. عندما أغنّي عن الحب أشعر أن كلماتي تصدر عن فراغ. أتمنى لو كان لي حبيب، أغنّي له، وله وحده. لهذا يا فؤاد لا تعرف كم تسعدني رسائلك.

ـ ليت لي حظ رسائلي. اطمئنى يا شاهيناز. سوف تصلين في يوم قريب الى كلّ ما تتمنّينه. ولكن هل تقبلين نصيحة من صديق؟ من أخ؟

ـ طبعاً.

ـ احذري يا شاهيناز، فطريقك مليئة بالمخاطر. عندما يصل الجمال الى الحد الذي وصل اليه جمالك يتحوّل من نعمة الى نقمة. انظري الآن حولك. هل تعرفين ان كل رجل في الكازينو ينظر اليك؟ انظري الى الطاولة المجاورة. انظري الى «المِتر» كيف يسترق النظرات.

ـ هذا قدري يا فؤاد.

ـ نعم. ولكنه قدر ينبض بالأخطار. لا تسمحي لطموحك أن يقودك الى قرار تندمين عليه.

ـ تقصد المنتجين والمخرجين؟! لا تخف.

ـ هل تريدين أن أحضر لك معي شيئاً من البحرين؟

ـ يكفي أن تكتب لي من هناك.

غادرا الكازينو، وعيون الرجال تعرّيها، وتهوي على ظهره بسياط الحسد التي يكاد يحسّ وخزها. أدرك فؤاد أن قصّة الحب الثانية في حياته

قد انتهت، في هذا اليوم المشمس من أيام يونيو، على مقربة من النيل. آه! لو نطق النيل بما رأى وسمع عبر القرون. مليون عاشق؟ مليون عاشقة؟ مليون قصيدة؟ على أقل تقدير!

«أيتها الغالية!

طلبت إليّ أن أكتب لك من البحرين، ولكنني أفضّل أن أكتب لك رسالتي الأخيرة من القاهرة. ورسالتي تتلخّص في كلمتين: شكراً وعذراً. أمّا الشكر فلأنكِ صبغت الشهور الماضية من حياتي بالمرارة الحلوة، ولا أدري سعدت بأي الطعمين أكثر. كانت تجربة يا شاهيناز جعلتني أستوعب دروس قرون. عرفت شعور اليتيم من غير يتم، وذقت لوعة البعد بلا بعد. أدركت معنى الحرمان، كما لم أدركه من قبل. أصبحت يا شاهيناز، بفضلك، انساناً يستطيع أن يحس بعذاب الآخرين، ويستطيع أن يتعاطف مع المعذبين. كان هذا هو الجزء المُرّ من القدح، أمّا الجزء الحلو فقد كان أشهى من قطرات المطر في فم الصحراء الصفراء. عندما كنتِ تغنّين كانت الدنيا تتحوّل الى فراشات، مهرجانات من اللون والضوء. لم أطرب قط لصوت كما طربت لصوتك. حتّى فيروز، مغنّيتي المفضلة، لم يتسرّب صوتها الى ذلك المكان البعيد البعيد في أضلاعي ويغرز سهمه الذهبي الصغير هناك، كما فعل صوتك. شكراً يا شاهيناز لأنك أتحتِ لي، بكل سخاء، أن أكون بقرب أجمل مخلوقة رأيتها أو أتوقّع أن أراها. مجرد القرب منكِ كان الأسعد في كل أحداث حياتي. وعذراً يا شاهيناز إذا كنت قد أثقلت عليك. لا شك أن رسائلي، وأحسبها قد تجاوزت الخمسين، قد أزعجتك، أحياناً على الأقل. ولا شك أن إلحاحي في طلب اللقاء بعد اللقاء قد سبّب لك بعض العنت (هل تعرفين معنى العنت؟ هاه! اسألي أحد الأساتذة العواجيز!). وبعد الشكر والاعتذار، يبقى لي مطلب صغير واحد أرجوك يا شاهيناز، بل أستحلفك، أن تحققيه لي. عندما نلتقي ذات مساء، وأنا مع الناس، وأنت على المسرح، والعيون كلّها تشرب من حسنك، وضفائرك الشقراء تضيء القمر والنجوم، عندما تقع عيناك عليّ، إذا وقعت عيناك عليّ، أستحلفك بالله أن تغني لي:

قلبك راح فين؟ أنا مش لاقياهْ!
ولا شِفت يومينْ في الحب معاهْ

فؤاد»

* * *

حاول يعقوب أن يتجاهل المشكلة، ثم أقنع نفسه أنّه توهّمها. ثم جاءت الامتحانات وانغمس في دوّامتها. ولكن المشكلة لم تنته. الحرقان المؤلم قبل التبوّل وأثناءه وبعده. البقع الصفراء الصغيرة التي تنتشر على ملابسه الداخلية. بمرور الأيام يزيد الألم، وتتكاثر البقع، وتعبث بيعقوب المخاوف السوداء. ترى هل أصيب بالزهري؟ هل سيكون نصيبه الجنون ثم الموت كما حدث للأدباء الوجوديين في أوروبا في القرن التاسع عشر؟ يدرك يعقوب أن مفاتحة أصدقائه ستقود الى سخرية مريرة، ويقرّر أن يلجأ الى الكتمان.

اليافطة على باب العيادة تعلن أن صاحب العيادة أستاذ مساعد مُتخصص في الأمراض الجلدية والتناسلية. يدخل يعقوب ويدفع للتمرجي «الفيزتا»، ثلاثة جنيهات، ويضيف اليها جنيهاً، بقشيش التمرجي. بعد أقل من ساعة يناديه التمرجي متجاهلاً أكثر من عشرة أشخاص جاءوا قبله. يدخل غرفة الطبيب ويحدّثه عن الأعراض. ويهز الطبيب رأسه متفهماً. ويفحصه فحصاً مؤلماً من السبيلين. ويأخذ عيّنة من البول. ويطلب منه العودة الى غرفة الانتظار. بعد ساعة أخرى يناديه التمرجي. يدخل يعقوب فيرى علامات قلق واضح على وجه الطبيب:

- اجلس. اجلس يا ابني.

- خير يا دكتور؟

- خير. مرض خطير ولكنه قابل للعلاج والحمد لله.

- سيلان؟!

- لا.

- زهري؟!

- لا.

- ما هو إذن، يا دكتور؟

- هنا الخطورة. ميكروب من فصيلة نادرة، ولكنه قابل للعلاج.

- وما هو العلاج يا دكتور؟

- العلاج يا ابني مكلّف ويستغرق بعض الوقت.

- ماذا يكلّف؟ وكم يستغرق؟

- أربعمائة جنيه، يُدفع نصفها مقدماً، والباقي بعد انتهاء العلاج. يحتاج

الأمر الى عشرين جلسة كهربائية، وتدليك البروتستات، بالاضافة، طبعاً، الى الحقن والأقراص.

يصعق يعقوب. أربعمائة جنيه؟! من أين سيأتي بها؟ حتى قاسم لا يملك مبلغاً ضخماً كهذا. وكهرباء؟! وتدليك البروتستات؟! يتكلم بخجل شديد:

ـ ولكني يا دكتور. لا أملك هذا المبلغ. أنا طالب ولي مصروف مُحدّد. هل يمكن تقسيط المبلغ على شهور؟

ـ آسف يا ابني. قسطين فقط.

ـ طيّب يا دكتور. أعطني فرصة لتدبير المبلغ.

عاد يعقوب الى شقة الحريّة محملاً بكُلّ هموم العالم. لم يسبق له أن عانى مشكلة صحيّة من قبل، ولم يسبق له أن فكر، مجرد تفكير، في صحّته. والآن يزوره ميكروب من نوع نادر يحتاج الى علاج باهظ التكاليف طويل المدى. تلاحظ المجموعة أن شيئاً ما قد ألمّ بيعقوب ولكنه يرفض الحديث. قبل أن ينام يسمع طرقاً على بابه، ويدخل فؤاد:

ـ لاحظت انك لا تودّ الكلام. ولكني أعرف المشكلة.

ـ تعرف؟ كيف؟

ـ فلنقل ان المصادفة وحدها هي التي دلّتني.

ـ ولكن كيف؟

ـ الملابس الداخلية.

ـ من الذي لاحظها؟

ـ هذا لا يهمّ الآن. قل لي ماذا فعلت.

ـ ذهبت الى طبيب في سليمان باشا وأخبرني أن العلاج يحتاج الى مدة طويلة ويكلّف أربعمائة جنيه.

ـ أربعمائة جنيه؟! هل أنت متأكد انه طبيب؟ يظهر لي انه نصّاب.

ـ تقول اليافطة انه أستاذ مساعد في الجامعة.

ـ لديّ الحل.

ـ ما هو؟

ـ نخبر الأستاذ شريف. لا بُدّ أنه يعرف طبيباً يوثق به.

- ولكن...

- اسمع يا يعقوب إذا كانت صحّتك لا تهمّك أنت فهي تهمني أنا. لا أودّ أن تنتقل العدوى إلينا.

يتقبل الأستاذ شريف الخبر الذي ينقله فؤاد بهدوء ملحوظ غير مُتوقع، كأنّه كان يعرف انه لا بُد أن يحدث شيء كهذا، طال الزمن أو قصر، وكأنه كان يدرك أن الشقة سوف تُستغّل لأغراض غير دراسية. بمجرد انتقالهم الى شقة الحرية ألغى الأستاذ شريف زيارته المفاجئة واكتفى بالزيارة الثابتة صباح كل جمعة، ولعلّه كان حريصاً على ألاّ يرى ما لا يسرّه. ذهب الأستاذ مع يعقوب وفؤاد الى أخصائي من أصدقاء الأستاذ القدامى. لم يستغرق الفحص سوى دقائق وأعلن الطبيب انها حالة سيلان عادية لا يتطلب علاجها سوى عشر حقن من البنسلين. عندما غادر يعقوب العيادة كان يشعر وكأنه يولد من جديد. لا شيء أسوأ من أن يموت المرء مجنوناً. لا شيء!

* * *

تصرّ فريدة على أن يذهب عبد الكريم معها لمقابلة أبوَيْها ولكنه يصرّ على تأجيل الزيارة حتى يحصل على موافقة والده، وبعدها يتقدّم، رسمياً، للخطبة. اتفقا على أن يستأذن عبدالكريم أباه خلال العطلة، ويعود في نهايتها بالشبكة، وتعلن الخطوبة، على أن يتم الزواج في موعد لاحق. مع اقتراب موعد السفر، بدأ التفكير الجدّي في كيفية مفاتحة أبيه. الرهبة التي يُحسّ بها في حضرة أبيه تجعل من الصعب، بل من المستحيل، عليه أن يكلّمه في موضوع حسّاس كهذا. ماذا لو صفعه؟ أليس من الأفضل أن يتحدّث مع أمّه أولاً؟ ولكن معارضة أمّه للزواج ستكون أشّد من معارضة أبيه. سوف تصرّ على أن يتزوّج ابنة خالته. يكاد عبد الكريم أن ينسى ابنة خالته والوعد السخيف الذي قطعته أمّه لأختها بأن ابنها لن يتزوج سوى ابنتها. حدث هذا عندما كان طفلاً في الخامسة، وكانت ابنة خالته في المهد. هل من المعقول أن يعتبر الآن مسؤولاً عن تنفيذ وعدٍ طائشٍ كهذا؟

هداه التفكير الى أن أسلم السُبل هو كتابة رسالة الى والده يوضّح فيها الموقف، حتى يكون أبوه على علم بكل شيء قبل وصوله الى البحرين. يدرك عبد الكريم أن هذه أخطر رسالة يكتبها في حياته، وأن مستقبله قد

يعتمد عليها. أعدّ المسوّدة بعد المسوّدة. ثم طلب الى فؤاد أن يساعده على صياغة الرسالة. بعد محاولات عديدة توصّلا الى الصيغة النهائية:

«سيدي فضيلة الوالد الشيخ حفظه الله.

أقبل يديكم الكريمتين، وألثم جبينكم الطاهر، وأدعو الله أن تكونوا مع سيدتي الوالدة وكافة الأسرة بخير صحة وأحسن حال. ويسرّني أن أبلّغ سيّدي أني أنهيت الامتحانات هذا الأسبوع وأتوقّع النجاح إن شاء الله ببركة دعائكم الصالح. وقد أعددت العُدّة للسفر بعد عشرة أيام وكلّي شوق الى استجلاء طلعتكم والتزوّد بنصائحكم الغالية.

وبعد فيا سيدي أحببت أن أبلغكم عن شيء جدٍّ في حياتي لا أستغني فيه عن توجيهكم ورضاكم. لقد تعرّفت يا سيدي في الكليّة على زميلة من زميلاتي، تتحلّى بالعفاف والحشمة والأخلاق الفاضلة ومن أسرة متدينة ومحافظة. وعندما وجدت فيها كل الصفات المطلوبة للزوجة الصالحة توكلت على الله وقرّرت بعد الحصول على أذنكم الكريم أن أقترن بها. وأحبّ أن أوضح لكم أنني شرحت لها عاداتنا وتقاليدنا فأبدت استعدادها التام للتقيّد بالحجاب وكافة العادات. ويسرني أن أبلغكم يا سيّدي أنني لاحظت فيها محبّة شديدة لآل البيت عليهم صلوات الله وسلامه، وعندي اقتناع تام انها بعد الزواج سوف تعتنق المذهب الصحيح. إلاّ أنني يا سيدي وجدت من الصعب أن أطلب منها هذا الطلب قبل الزواج حتى لا أحرجها مع أسرتها. أرجو أن تطمئنوا يا سيدي الى أنني اتخذت القرار المناسب ولن يحصل إن شاء الله إلاّ ما يرضيكم. وختاماً، أدعو الله أن يديم ظلّكم ويمتّعنا بوجودكم ولا يحرمنا بركة دعائكم.

ابنكم المطيع

عبد الكريم»

يُسلّم عبد الكريم الرسالة لموظف البريد ويتلقّى وصل التسجيل. ينظر الى الوصل باحترام شديد. هذه الورقة الصغيرة تضمن وصول رسالته الى أبيه. ماذا سيحدث عندما تصل الرسالة الى الشيخ؟ ماذا سيحدث؟ ماذا سيحدث؟ ماذا سيحدث؟

* * *

يُفاجأ يعقوب بأن رفاق السكن قرّروا محاكمته. لا توجد كلمة لوصف هذه المواجهة سوى المحاكمة. وهي محاكمة يساق اليها بلا إنذار،

ومن غير أن يتاح له الاطلاع على صحيفة الدعوى، ومن دون أن يسمح له بمحام.

بدأ فؤاد:

ـ لقد تردّدنا كثيراً قبل أن نُقرّر أن يكون لنا معك هذا الاجتماع. ثم وجدنا أنّه لا بُد من المصارحة. لقد وصلت الأمور الى حدٍ لا يمكن السكوت عليه.

ـ لحظة! لحظة! لمجرّد أني أصبت بالسيلان؟ هذا شأني أنا. ما دخلكم أنتم؟

يرد فؤاد:

ـ لا أتحدث عن السيلان. أتحدث عما هو أهم. أتحدّث عن تصرفاتك في الآونة الأخيرة.

ـ تصرفاتي؟ أنا حرّ في تصرفاتي! ألسنا في شقّة الحريّة؟ ألم تكن الفكرة الأساسية وراء انتقالنا أننا سوف نكون أحراراً؟

يتدخل قاسم:

ـ هذا صحيح. ولكن الحرية لها حدود. وقد تجاوزت كل الحدود. خدامات! حشيش! أشكال غريبة من الشوارع! هل تريد أن نطرد من العمارة؟

يقول عبد الكريم:

ـ لم أشأ أن أخبركم بهذا من قبل ولكن ما دام الموضوع قد انفتح فسوف أخبركم. كلمني وكيل العمارة أكثر من مرّة. أخبرني أن الجيران يشتكون. أنذرني أنه إذا لم يتغيّر الوضع فعلينا مغادرة الشقّة.

ويتدخل فؤاد:

ـ هذا جانب واحد. الجانب الأهم يتعلق بك وبمستقبلك. الى متى تنوي الاستمرار على هذا النحو؟ سهر ومشروب وبنات كل ليلة؟ كل ليلة؟!

ويصرخ قاسم:

ـ وحشيش!

يصمت يعقوب ثم يقول بحزن واضح:

ـ لم اللف والدوران؟ لقد اتفقتم على التخلّص مني، أليس كذلك؟ اتخذتم قراركم وانتهيتم، أليس كذلك؟ لم كل هذه المقدّمات؟ متى تريدون أن أذهب؟ الآن؟ أم أن بامكاني الانتظار حتى الصباح؟

يرد عليه فؤاد بهدوء:

ـ عيب! عيب يا يعقوب أن تقول هذا الكلام. لا يريد أحد التخلّص منك. بل لن يسمح لك أحد بالذهاب حتى لو أردت. كل ما نرجوه منك هو أن تترفق بنفسك وتفكّر في مستقبلك.

ـ مستقبلي من شأني وحدي. إذا كنتم تريدون أن أذهب فسأذهب. بلاد الله واسعة، وأنا لست سجيناً هنا. ولكنني لن أسمح لكم أن تتدخلوا في حياتي الخاصة أو في حريّتي.

يجيب فؤاد:

ـ ولكن حياتك الخاصة بدأت تؤثر على حياتنا الخاصة. وحريتك بدأت تقيّد حريتنا. هل يرضيك أن نطرد من العمارة؟ ألست أنت الذي تكرّر دائماً أن حرية الفرد تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين؟ نريد منك فقط أن تفكر.

ـ أفكّر في ماذا؟

ـ اسمك. واسم أسرتك.

ـ اسمي؟ واسم أسرتي؟ حلوة!

ينهي فؤاد المحاكمة:

ـ على أية حال. سوف نذهب الى البحرين في الأسبوع القادم وسوف يكون أمامك الكثير من الوقت للتفكير الهادىء.

بمرارة يرد يعقوب:

ـ وفي هذه الأثناء ابحثوا عن ساكن جديد. رُبّما شيخ الأزهر!

٩

سبتمبر ١٩٥٩

لـيـالـيَّ بـعـد الـظـاعـنـين شـكُـولُ طـوالٌ... ولـيـل الـعـاشـقـين طـويـلُ

المتنبي



٩

لم يكن فؤاد يتصوّر أن الجرح الذي خلّفته علاقته بشاهيناز في روحه سوف يبقى نازفاً طيلة الصيف. عاد الى البحرين بكآبة ثقيلة زادها الصيف الساخن ثقلاً. عاد مزعزع الثقة في نفسه، شكلاً وموضوعاً. لم يهتّم بشكله من قبل، أما الآن فهو يتأمّل وجهه في المرآة وكأنه يراه لأوّل مرة. النظّارة! لعن الله النظارة! من رأى فتاة جميلة أحبت رجلاً يلبس نظارة طبيّة؟ فيما عدا ذلك، تبدو ملامحه عادية، لا هي بالوسيمة ولا بالقبيحة. الأنف كبير بعض الشيء. ماذا عن الشارب؟ قد يتحسّن شكله إذا تخلّص منه. يحلق الشارب، ويتغيّر الوجه الى الأسوأ. ويقرّر ألاّ يعود الى حلقه مستقبلاً. ماذا عن الجسم؟ النحافة لعنة لا تفارقه. الهيكل العظمي كما يسمّيه رفاقه أحياناً. من رأى فتاة جميلة أحبّت هيكلاً عظمياً؟ لا بدّ من الرياضة. حمل الأثقال، هو أسرع وسيلة لتحسين المظهر.

الشكل؟! يعرف فؤاد انه يخادع نفسه إذا تصوّر أن مشكلته مع شاهيناز سببها نظارة طبية وقامة طويلة نحيفة. ثم ان كرامته، ما تبقّى منها، تحتجّ على مبدأ تغيير الشكل من أجل امرأة. على الذين يحبونه أن يحبّوه كما هو، من غير تحسينات أو تعديلات. وفوق ذلك، هل يمكن العبث بالمظهر من دون الإخلال بالجوهر؟ إذا أزال شاربه ورمى نظّارته وغيّر تسريحة شعره وتحوّل الى بطل من أبطال حمل الأثقال، ألا يكون، في حقيقة الأمر، قد أعلن أن شخصية جديدة قد حلّت محل الشخصية الأصلية؟ ومن الذي يضمن أن الشخصية الجديدة سوف تكون أفضل من القديمة؟

القلق الذي يعذّبه يتجاوز الشكل. هل هناك مشكلة في نفسيته ـ أو عقله الباطن؟ ـ لا يدري عنها؟ كيف اقتصرت علاقاته النسائية في ثلاث

سنوات على ثورية فضلّت حزبها عليه، ومطربة فضلّت فنها عليه؟ هل لديه حاسّة سادسة متخصصة في اختيار المرأة غير المناسبة؟ وماذا عن أدبه؟ ماذا عن القصص والروايات التي ينوي أن يكتبها؟ ألا يحتاج الأدب العظيم الى إلهام عظيم؟ ألا يحتاج الأديب الى حبّ كبير يملأ حياته؟ حب متبادل. حب عاصف. حب أهوج. ومتى سيجيء هذا الحب؟ بعد أن يتجاوز سنّ الشباب؟ بعد أن تضيع أحلى سنوات العمر؟

اقترح عليه والده أن يذهب للسلام على الحاكم، الشيخ سلمان، وعرض الفكرة على قاسم وتم الاتفاق على أن يذهب الوالدان، وهما صديقان بدورهما، والولدان. ذهبوا بعد المغرب الى القصر في الرفاع، وكان الشيخ سلمان على الدكة الاسمنتية الصغيرة خارج القصر. كان جالساً على الأرض، يحيط به عدد قليل من الزوّار. رحّب الشيخ بهم ترحيباً حارّاً. ودعاهم الى العشاء في الليلة القادمة. وأضاف أن العشاء للضيفين القادمين من القاهرة. عادا في الليلة التالية الى المجلس نفسه في الهواء الطلق. وأبدى الشيخ اهتماماً لم يتوقعه أحد بما يدرسه الضيفان الصغيران.

بدأ بقاسم:

ـ ماذا تدرس؟

ـ تجارة، طال عمرك.

ـ تجارة؟ هل تحتاج التجارة الى دراسة؟ البركة في الوالد!

ضحك الجميع. واستأنف الشيخ أسئلته:

ـ كيف يدرّسونكم التجارة؟

ـ ندرس المحاسبة والإحصاء والاقتصاد.

ـ ولكن كل هذا لا يجعل الانسان تاجراً. ما رأيك يا أبا قاسم؟

ـ صدقت، طال عمرك. التجارة موهبة، ورزق من الله.

يلتفت الشيخ سلمان الى فؤاد ويسأله:

ـ وأنت يا ولدي ماذا تدرس؟

ـ القانون، طال عمرك.

ـ نعم. هذا شيء يمكن دراسته في الجامعات.

ثم تحدث الشيخ طويلاً عن القانون. عن مجلس الغوص الذي رأسه سنين طويلة والذي كان ينظر في قضايا الغوص. وأسهب في شرح الأعراف التي تحكم تجارة اللؤلؤ. ثم تحدّث عن الأعراف التي تنظّم الزراعة في البحرين: كيفيّة اقتسام المياه المشتركة بين البساتين، والعلاقة بين صاحب الأرض والمزارع، والأوقاف الزراعية.

قال فؤاد:

ـ طال عمرك، العرف، كما يعلموننا في الجامعة، مصدر أساسي للقانون في كل بلدان العالم، لا يقل أهمية عن التشريع.

وردّ الشيخ:

ـ صحيح. العادات المتوارثة هي الأساس. الذي مشى عليه أجدادنا وآباؤنا نمشي عليه، وندرّب عليه أبناءنا. إذا غيّرنا ما نحن عليه ضعنا.

هل كان الشيخ يتحدّث عن القانون؟ أم يعطي المستمعين درساً غير مباشر في السياسة؟

ثم انتقلوا الى داخل القصر لتناول العشاء. جلسوا مع الشيخ حول سفرة صغيرة عاديّة، على الأرض. وجلس أتباع الشيخ على سفرة ثانية. وانهمك الشيخ في تقطيع اللحم وتوزيعه على ضيوفه، ولم يكد يأكل شيئاً. تحدّث مع الأبوين عن ذكريات قديمة مشتركة، ولكنه لم ينس أن ضيفي الشرف هما الطالبان القادمان من القاهرة.

يسأل قاسم:

ـ هل أعجبتك القاهرة؟

يردّ قاسم بدبلوماسية غير معهودة:

ـ البحرين أجمل، طال عمرك.

يبتسم الشيخ، ويقول:

ـ البحرين؟! البحرين صغيرة! ما فيها شيء! ولكنها بلدنا، وعزّنا، وفخرنا.

ثم يلتفت الى فؤاد:

ـ هل يدرّسونكم الشرع؟

ـ نعم، طال عمرك.

ـ الشرع هو الأساس يا ولدي. كل خير تجده في الشرع. إذا ذهب الدين ذهب كل شيء.

خرج الضيفان مبهورين بتواضع الحاكم وحسن وفادته ومعلوماته القانونية الواسعة. نظر قاسم الى فؤاد متشفياً:

ـ متى سيعزمك جمال عبدا لناصر على العشاء؟!

ورد فؤاد بغيظ:

ـ جمال عبد الناصر مشغول. جمال عبد الناصر رئيس دولة من ثلاثين مليون مواطن.

* * *

رجع يعقوب الى البحرين ممتلئاً بالاشمئزاز من نفسه. لم يكن بحاجة الى السيلان ولا الى المحاكمة ليدرك أن حياته البوهيمية لم تكن سوى بعثرة للوقت والفكر والجهد والصحّة. يعرف أن استشهاده بأبو نواس في غير موضعه. لقد بقي اسم أبو نواس عبر التاريخ لروعة شعره لا لروعة حياته. وكذلك الشأن بالنسبة للمعرّي. هل بإمكانه أن يكون أبو نواس القرن العشرين أو معرّيه؟! يدرك يعقوب أنه ولد بمواهب متعدّدة، ولكنه ولد بقدر ضئيل من كل موهبة لن يضمن له الخلود. لن يكون مغنيّاً عظيماً، ولا شاعراً عظيماً، ولا خطيباً عظيماً، ولا رساماً عظيماً. سبع صنايع والبخت ضايع! بمواهبه هذه يستطيع أن يتسلى ويسّلي الآخرين: يكتب زجلاً يلقى في حفلة، أو يغني أغنية في سهرة، أو يرسم صورة كاريكاتيرية مضحكة. ماذا بعد ذلك؟ لا شيء.

موهبته الحقيقية الوحيدة هي الثورة. إن دخل التاريخ فلن يدخله إلاّ ثائراً. إن كان سيغيّر العالم الى عالم أفضل فليس أمامه من سبيل سوى العمل الثوري. منذ طفولته، وهو يمتصّ النظريات ويختزنها حتى كاد أن ينفجر. آن الأوان للانتقال من النظرية الى الممارسة. إذا لم يبدأ العمل الثوري الآن، في الحادية والعشرين، فمتى يبدأ؟ في الستين؟ الثورة؟ أي ثورة؟ يحسّ يعقوب أن الثورة الحقيقية الوحيدة هي الماركسية، أو الشيوعية إذا كان لا بُدّ من تسميّة الأشياء بأسمائها. لا يزال معجباً بسارتر ولكن بإمكان سارتر أن يتحدّث عن الحرية والمسؤولية الفردية إلى الأبد ولن يتغيّر شيء من

واقع الاستغلال. لا يزال مؤمناً بنظريات فرويد ولكن بوسع فرويد أن يكتب عن الأحلام والعقل الباطن الى الأبد، ولن تؤدّي كتبه الى وصول البروليتاريا الى الحكم. الثورة، الثورة التي يقودها الحزب الشيوعي، هي أمل الخلاص الوحيد، أمل البشرية وأمل يعقوب.

علمته إقامته في مصر أن الشعارات الناصرية البرّاقة لم تغيّر الظلم الاجتماعي الرهيب الذي رآه بعينيه. ما الذي تغيّر منذ أيام الملكية؟ باستثناء مصادرة بعض الأراضي الزراعية لأسباب سياسية بحت استهدفت تقليم أظافر الطبقة الاقطاعية القديمة، لم يتغيّر شيء. نشأت طبقة جديدة حاكمة من الضباط، أسوأ من الطبقة القديمة وأشرس. الشركات التي أُخذتْ من الانجليز والفرنسيين سلمت للضباط. العمارات الموضوعة تحت الحراسة وُزّعت على الضباط. هل تغيّر وضع الفلاح الذي يكدح في الحقل؟ لم يتغيّر شيء. ذهب المالك القديم، وجاء المالك الجديد، الجمعية التعاونية، وهي في حقيقتها منظمة حكومية تعامل الفلاحين معاملة أسوأ من معاملة الباشا. هل تغيَّر وضع العامل الذي ينزف دماً وعرقاً في المصنع؟ لم يتغيّر شيء. لا يزال المصنع مملوكاً لعبود أو أبو رجيلة، أو شقيق أحد الضباط.

والقومية العربية؟ ما جدوى القوميّة العربية إذا تحولت الى قناع تمارس الرأسمالية تحته كل استبدادها وفجورها؟ ماذا حدث لسوريا بعد الوحدة؟ سُلّمت الى عبدالحميد السرّاج، مجرد جلاّد بورجوازي. الرابطة الحقيقية هي التي تربط المظلوم بالمظلوم والجائع بالجائع، شأنها شأن الرابطة التي تربط الظالم بالظالم والمتخم بالمتخم. ما الفائدة من مقاومة الاستعمار إذا ظلّ الاقتصاد رأسمالياً مربوطاً بالرأسمالية العالمية؟ يحل قيد مكان قيد، والعبودية باقية. أليس خلاف جمال عبد الناصر مع الغرب من قبيل خداع البصر؟ أيّ خلاف؟ مصر في العهد الناصري قلعة حصينة من قلاع الرأسمالية، وسوريا، بفضل جمال عبد الناصر، تحولت الى قلعة أخرى. لم تجيء الوحدة إلاّ لسبب واحد: اجهاض الثورة الحقيقية والقضاء على الحزب الشيوعي السوري. والبعث؟ حزب إقطاعي بشعارات اشتراكية مسروقة. ماذا يتوقع العاقل من حزب يملكه أكرم الحوراني، الاقطاعي المعروف؟

كيف غفل عن كل هذه الحقائق في الماضي؟ كيف صفّق للوحدة التي كرسّت سيطرة الرأسماليين؟ كيف تطوع للقتال في حرب الرأسماليين مع

الرأسماليين؟ ينظر يعقوب الآن الى العالم بعيون زالت عنها الغشاوة فيرى الخارطة الفعلية. لا يوجد فرق بين عرب وعجم، كما يزعم دعاة القومية؛ الفرق الوحيد هو بين أبطال الاستغلال وضحاياه. لا توجد حريّة فعلية إلاّ في ظل النظام الشيوعي، أما الديموقراطيات الغربية فتمثيلية ماكرة تخدع البسطاء. رأس المال هو الذي يُقرّر كل شيء، من يصبح الرئيس، ومن يصبح عضو البرلمان، وما على الناخبين إلاّ الموافقة. عندما تنعدم الحاجة، وما يتبعها من ذل، عندما يصبح الجميع متساويين، عندها، وعندها فقط، يمكن الكلام عن الحريّة.

الحرّية! يتحدثّون عن حريّة الكلام. الجائع لا يريدها؛ يريد حريّة الحصول على الطعام. ويتحدثّون عن حريّة الفكر. العاري لا يطلبها؛ يطلب حريّة الحصول على كساء. ويتحدثّون عن حريّة المعتقد. المريض لا يفتقدها؛ ولكنه يفتقد حريّة الحصول على الدواء. هذا، في النهاية، هو الفرق بين الرأسمالية والشيوعية. الرأسمالية تمنحك حريّة الكلام وحريّة الفكر وحريّة الدين. والشيوعية تعطيك الطعام واللباس والدواء. اكتشف يعقوب في هذا الصيف الحاسم رسالته في الحياة، الرسالة التي ولد من أجلها، الرسالة التي سيعيش في ظلّها، الرسالة التي سيموت في سبيلها.

* * *

بعد أسبوعه الثالث في البحرين، شعر قاسم برغبة جامحة في العودة الى القاهرة. ماذا حدث لعقله؟ أين انتقاده القديم المرير لمصر، وكل من في مصر، وكل ما في مصر؟ هل أصابته عدوى من نوع غريب جديد، كميكروب يعقوب النادر؟ اشتاق الى شيرين، الى صوتها الناعم في التيلفون، ووجهها الباسم في المحطة. اشتاق الى نشأت والى حديثهما الممتع عن مخازي الثورة. اشتاق الى شقة الحريّة والنوافذ المفتوحة، بحري، للنسيم العليل. تذكّر أمسيات رمضان الرائعة: المصابيح، والأطفال، والخشّاف، والقطايف، والياميش، وسهرات الفيشاوي حتى الفجر. تذكّر العيد القاهري، وأطباق الكحك، وأهازيج الصغار، و«البمب» الذي ينهال من البلكونات على الغافلين والغافلات في الشارع.

شغل نفسه بتعلّم السياقة وحصل على الرخصة. ولكن أين يذهب بالسيارة؟ في أقل من ساعة، يستطيع أن يعبر البحرين من أقصاها الى أقصاها، من الحدّ الى رأس البرّ. ماذا حدث للبحرين؟ تبدو أصغر بكثير مما عرفها أيام طفولته وصباه. تبدو، في الواقع، وكأنها زنزانة من حجم

متوسط. أين يذهب؟ مطعم «بابكو». سينما «بابكو». شاطىء «بابكو». وماذا بعد؟ لا شيء بعد!

* * *

وجد عبد الكريم في انتظاره صدمة زلزلت كيانه كما لم يزلزله أيّ حدث آخر من قبل. بمجرّد أن رأى وجه والده، عرف أن مخاوفه القديمة من أن تنتهي سعادته بغتة قد تحققّت. قبّل يد أبيه ورأسه، والشيخ عابس متجهّم لا يتكلم. أدرك عبدالكريم أن أيّ حديث مع أبيه، في هذه الظروف، سيزيد الطين بلّة. انتظر حتى انفرد بأمه وسألها بلهفة:

ـ ماذا قال الوالد عندما استلم رسالتي؟

ـ قال انه سوف يتبرّأ منك إذا تزوجت المصرية.

ـ يتبرّأ مني؟

ـ أقسم على ذلك.

ـ ولكن لماذا؟

ـ سنيّة؟ ومصرية؟ وتسألني لماذا؟

ـ هي مسلمة على أي حال.

ـ عدوة المذهب؟ أنت لابنة خالتك والسلام.

ـ هذا ظلم. ظلم.

ظلم؟! لا! أكثر من ظلم. قهر واستبداد وتسلّط وديكتاتورية. بأيّ حق يتّخذ أبوه قراراً كهذا؟ من أعطاه حريّة تدمير حياته على هذا النحو؟ كيف يمنعه من زواج المرأة التي يحبّها وهو متزوّج بأربعة، غير زوجات المتعة في إيران؟ لن يرضخ ولن يستسلم. ولن يسمح لأبيه بمصادرة حقه في الحريّة والسعادة، حتى لو كان شيخاً. ليتبرأ منه أبوه إذا شاء. وليقطع عنه المصروف إذا أراد. ولكنه لن يذعن. سوف يعود الى القاهرة، ويتزوج فريدة، ويثبت للدنيا كلها، ولأبيه بصفة خاصة، ان الحب الحقيقي يحطم كل العقبات، ويكتسح كل الحواجز. ولكن لا بُدّ من الحذر. من التخطيط. التقيّة! آه، التقيّة! ألم يقل الامام جعفر الصادق «التقيّة ديني ودين آبائي»؟ هذا وقت التقيّة. سوف يتمسكن حتى يتمكن.

غير أن شيئاً آخر يشغل عبد الكريم. لم تنقطع رسائله لفريدة، بمعدّل رسالة كل يوم، رسالة مليئة بالشوق لا تذكر شيئاً عن موقف أبيه. جاءت

رسالة من فريدة، وثانية، وثالثة، ثم توقفت الرسائل. حاول أن يتّصل بها تيلفونياً. بعد صعوبات شديدة وانتظار طويل قال له «ترنك» القاهرة ان الرقم لا يجيب. كتب الى نشأت يرجوه أن يتصّل بها ويسألها عن سبب انقطاعها عن الكتابة، وردّ نشأت أنه حاول الاتصال ولم يستطع. أطبقت الوساوس السوداء على عبد الكريم. هل مرضت؟ هل أصيبت في حادث؟ عطلة منحوسة من أولها الى آخرها!

* * *

عبد الرؤوف في البوفية يهزّ في وجه فؤاد المجلّة وهو يضحك:

ـ مبروك يا فؤاد! مبروك! حصلت قصتك على الجائزة الرابعة. ونُشِرت في المجلّة.

ـ وأنت؟

ـ حصلت على الجائزة الثانية.

ـ مبروك يا رؤوف! ألف مبروك!

يأخذ فؤاد مجلة نادي القصة ودقّات قلبه تسبق يده. ها هي ذي أمام عينيه قصته «الغثيان». وها هي ذي قصة عبدالرؤوف «الساعة». وقد حصل كل منهما على جائزة. هذا منعطف حقيقي في حياتيهما. لم يسبق لعبد الرؤوف أن نشر قصة من قبل، وكانت قصصه هو منشورة في صحيفة بحرينية، لعلّها نشرتها من باب المجاملة. أمّا الآن فنادي القصة المصري يعترف بموهبته. ويمنحه الجائزة الرابعة في مسابقة النادي، اشتراك سنة في المجلة، وينشر القصّة.

يضيف عبد الرؤوف:

ـ هل تعرف أن نجيب محفوظ هو الذي رأس لجنة التحكيم؟

ـ نجيب محفوظ؟! تعني ان نجيب محفوظ قرأ قصتي وقصتك؟!

ـ بالتأكيد.

ـ هل أعجب بهما؟

ـ يبدو ذلك. اسمع. عندما ذهبت الى النادي لأستلم جائزتي، ثلاثين جنيهاً دفعة واحدة!، قال لي رئيس تحرير المجلة الأستاذ أحمد عبدالباري انه يستطيع أن يعرفني على الأستاذ نجيب محفوظ، ولكني فضّلت الانتظار حتى تعود ونراه معاً.

ـ الأستاذ نجيب محفوظ؟!!

ـ نعم. ما رأيك؟

ـ متى؟ متى؟ متى؟

ـ سوف أتحدّث مع الأستاذ عبد الباري وأخبرك.

في المقهى الشعبي البسيط، جلس نجيب محفوظ تحيط به مجموعة من الأدباء، المخضرمين والناشئين. ما أعظم الفارق بين مجلس ميشيل عفلق ومجلس نجيب محفوظ. ميشيل عفلق يتصرّف وكأنه نبيّ يحف به حواريّوه. أما نجيب محفوظ فمجرّد واحد من الشلّة، مجرد حرفوش من الحرافيش. لا توجد هنا نظرات تقديس، ولا كلمات حكمة ساقطة من عل، بل مجموعة أصدقاء يتبادلون النكت والتعليقات ويدخنون الأرجيلة.

يقدمهما الأستاذ عبد الباري، ويرحّب بهما نجيب محفوظ ويهنئهما بالفوز. ويعود الى شلّته. يستجمع فؤاد أطراف شجاعته ويتكلم:

ـ أستاذ نجيب! ممكن آخذ منك نصيحة؟

ـ نصيحة؟ يا ابني أنا لا أعطي نصايح. إذا كنت تريد نصيحة اكتب لأمينة السعيد.

ضحك الموجودون. واستمر فؤاد:

ـ ممكن، إذن، أن أسألك سؤالاً؟

ـ تفضل.

ـ هل تعتقد أن بوسع كاتب القصة القصيرة أن يكتب رواية؟ أعني هل القصة القصيرة فن مختلف عن فن الرواية؟

ـ القصة، أساساً، فنّ واحد، سواء كانت طويلة أو قصيرة. ولكن هناك فرق. الرواية تحتاج الى جلد طويل، الى مثابرة عبر سنين. أما القصّة القصيرة فيمكن أن تكتب في يوم. أو في ساعة.

ـ إذن فكاتب الرواية يستطيع أن يكتب القصة القصيرة؟

ـ إذا أراد. ولكن كاتب القصة القصيرة لا يستطيع أن يكتب الرواية إلا إذا أعطي صبر الروائي.

ـ وأنت يا أستاذ؟ كيف تكتب رواياتك؟

ـ بالقلم!

ويضحك الموجودون. ويحمر وجه فؤاد. ويستطرد نجيب محفوظ:

ـ يا ابني كل شيخ وله طريقة. إذا كنت موهوباً فسوف تكون لك طريقتك الخاصة. اصبر. لسه بدري!

ـ ولكنني أريد أن أعرف...

يتدخل الأستاذ عبد الباري:

ـ استغرقت كتابة رواية واحدة من روايات الأستاذ نجيب أكثر من خمس سنين.

ويعلّق نجيب محفوظ:

ـ هذا صحيح. ولكن العبرة ليست بالزمن. كم من يوم قضيته وراء المكتب من دون أن أكتب حرفاً واحداً. وكم من ساعة كتبت فيها صفحات.

يتدخّل عبدالرؤوف على استحياء:

ـ هل هناك الهام في القصة يا أستاذ؟ كالشعر؟

يردّ الأستاذ:

ـ لا أدري عن الشعر. اسأل الشعراء. في القصص لا يوجد الهام. ما فيش شياطين شعر! هناك العالم الخارجي الذي تراه أمامك، البشر والأشياء. هذه هي المواد الخام للقصة. وهناك العالم الداخلي للكاتب، الموهبة، الحساسية، الثقافة، التجربة. من هذين العالمين تنبع القصّة.

يسأله عبد الرؤوف:

ـ وما رأيك في المرأة يا أستاذ؟

ـ أنّي فيهم؟!

تضج المجموعة بالضحك. ويشعر عبد الرؤوف بالحرج ولكنه يواصل:

ـ أعني يا أستاذ هل يحتاج الأديب الى حُب لكي ينتج؟

ـ لا أدري.

لا يصدّق فؤاد أذنيه. سؤال بديهي كهذا والأستاذ يزعم انه لا يعرف الجواب. ويتدخّل:

ـ إذا كنت أنت يا أستاذ لا تدري، فمن الذي يدري؟

ـ يا ابني لم يعمل أحد احصائية عن كل أدباء العالم وعن غراميّاتهم لنعرف الذين أحبّوا والذين لم يحبّوا. كيف أجيبك؟

ويقرّر فؤاد أن يغامر:

ـ إذن سأسألك عن نفسك يا أستاذ. هل أحببت؟

ـ يوه!!

ـ كم مرّة؟

ـ ثلاث مرات في اليوم. قبل الأكل!

ويضحك فؤاد مع الضاحكين.

* * *

عندما صمّم يعقوب خلال الصيف على أن ينضمّ الى الحزب الشيوعي كان يدرك انه يخاطر بحريّته، وربما بحياته. خطوة واحدة طائشة وينتهي في السجن. من هنا، كان حريصاً على أن يتبيّن مواقع أقدامه قبل التحرك. أخفى عزمه حتى عن رفاقه، الذين أقنعوه بلا صعوبة، بالتراجع عن قرار الهجرة من شقة الحرية. وقرّر أن يستمر في ارتداء مسوح الوجودي البوهيمي من باب التضليل. كانت مشكلته الكبرى هي كيفية الانخراط في الحزب. كيف يجد شخصاً يثق فيه يدلّه على الطريق؟

كان لدى يعقوب اقتناع راسخ أن الأستاذ صبحي على صلة بالحزب. وكان يثق في صبحي ثقة عمياء. قرّر أن يكتب له. إلاّ أنه يرى أن جميع الرسائل التي تصله في القاهرة تصل «مفتوحة بمعرفة الرقيب» كما يقول الختم الرسمي بلا حياء. بعد تقليب الأمر على وجوهه، كتب لصبحي من البحرين رسالة غامضة آملاً أن يتمكن صبحي من قراءة ما بين السطور:

«أخي الكريم الأستاذ صبحي

فضلّت أن أرسل اليك هذه الرسالة من البحرين لأسباب لا تخفى على فطنتك. وهي تتعلق بموضوع هام جداً مرتبط بمستقبلي. أرجو أن تكتب لي باسم شخص تثق فيه لأبحث معه الموضوع. ولكن أرجو أن ترسل الردّ الى البحرين على عنوان الوالد الذي سيقوم بارساله لي بطريقته الخاصة. مع أطيب تحياتي وتمنياتي القلبية.

أخوك المخلص

يعقوب»

أوصى أباه ألاّ يرسل الخطاب القادم من باريس بالبريد بل ينتظر سفر شخص يعرفه ليحمل الخطاب بيده الى القاهرة. بعد وصوله الى القاهرة بأيام جاء رد الأستاذ صبحي عن طريق البحرين:

«الأخ العزيز يعقوب

استلمت رسالتك. وبامكانك أن تبحث ما شئت، وأنت مطمئن، مع صديق من أعزّ أصدقائي، يعمل صحفياً في الأهرام، في الملحق الاقتصادي. اسمه عزت مختار. وبامكانك الاتصال به في الجريدة. مع خالص تحياتي.

المخلص

صبحي»

اتصل يعقوب حال تسلّمه الرسالة بعزّت الذي كان، فيما يبدو، يتوقع مكالمته. اتفقا على اللقاء في الشقة الصغيرة التي يسكنها عزّت في العباسية. بعد مقدمّة لم تطل، اتجه يعقوب الى الهدف:

ـ يا أستاذ عزت، منذ قرابة سنتين وأنا أعتنق المبادىء الماركسية. والفضل في هذا يعود الى الأستاذ صبحي. وكل يوم يمّر يزيدني إيماناً بهذه المبادىء. أشعر الآن انه لا يكفي أن أعتنق النظرية ولا بُدّ من العمل. باختصار، يا أستاذ عزّت، قررت الانضمام الى الحزب الشيوعي. هل تستطيع أن تساعدني؟

يصمت عزت، ويستمر يعقوب:

ـ بامكانك أن تثق بي. لا تخف.

ويتكلم عزّت وكأنه يزن كل حرف بلسانه قبل النطق به:

ـ المسألة ليست مسألة خوف. هذه مفاجأة. لماذا تعتقد ان لي علاقة بالحزب الشيوعي؟

ـ لا أعرف انساناً يمكنه مساعدتي سوى الأستاذ صبحي وهو الذي أشار عليَّ بك.

ـ يا أخ يعقوب! ألا تعرف وضع الشيوعيين في مصر هذه الأيام؟ الرئيس يهاجم خروشوف وخروشوف يهاجم الرئيس. العلاقات مع الاتحاد السوفييتي من أسوأ ما يمكن. كل الشيوعيين المعروفين أصبحوا في السجون يتعرضون لأقصى أنواع التعذيب.

- أعرف كل هذا. وأنا مستعد لمواجهة أيّ مصير.
- القضية ليست بهذه السهولة. لا أستطيع أن أعدك بشيء. أحتاج الى بعض الوقت قبل أن أرد عليك.
- أرجو أن لا تتأخر.
- سوف أتصل بك.
- متى؟
- لا أدري. بعد شهر. أو أكثر. لا داعي للعجلة. لن تطير المعتقلات!

غادر يعقوب الشقّة وهو يسمع نبضات قلبه صارخة في أذنيه. يشعر بحركة الدماء تجري، ملتهبة، في عروقه. يحسّ انه بدأ الطريق الى المجد، أو السجن، أو القبر. ويحس بشوق عارم الى احتضان واحد من هذه الخيارات، أو جميعها.

* * *

عندما عاد الأصدقاء من البحرين وجدوا نشأت في انتظارهم في المطار ومعه مفاجأتان. الأولى، سيارة ماركة «نصر». والثانية، حسناء ماركة سويسرا. عاد قاسم معه في السيارة، بينما استقلّ الآخرون التاكسي.

بدأ قاسم:
- مبروك السيارة. ومبروك البنيّة.
- هيلدا! هذا صديقي قاسم. انتبه هيلدا تعرف العربية.
- لنبدأ بالسيّارة.
- بدأت المحاولة مع والدي منذ أن أنهيت التوجيهية، ولم أنجح إلاّ الآن. أخيراً اقتنع والدي أن السيارة لن تشغلني عن المذاكرة. كنت أفضل سيارة أكبر، ولكن هذا هو الموجود. «فيات» مُزوّر باسم «نصر»!
- والبنيّة؟
- هيلدا سويسرية يعمل أبوها في السفارة السويسرية هنا.
- وكيف تعرفّت عليها؟

يلتفت نشأت الى هيلدا ويقول لها بالانجليزية:
- قولي لقاسم كيف التقينا.

وتجيب بالانجليزية:

ـ جمعتنا هواية الخيول. رأيته في نادي الفروسية في الأهرام عدة مرات. وسابقته. وسبقته. وتعرفنا.

يضيف نشأت ان هيلدا تدرس في الجامعة الأميركية في القاهرة وانها قضت أكثر من سنتين في مصر. وانها تتقن اللغة العربية. يلاحظ قاسم مدى اعجاب نشأت بها، ويؤكد نشأت الملاحظة:

ـ شوف يا قاسم! الحاجات الحلوة بتاعة برّه! مش الفلاحات اللي في الكليّة.

كل من لا ينتمي الى الطبقة الأرستقراطية القديمة في نظر نشأت فلاّح، أو فلاّحة.

ويضحك قاسم:

ـ من يدري لعلّها من فلاحات سويسرا.

وتردّ هيلدا:

ـ أنا مش فلاحّة!

فجأة تتجهّم أسارير نشأت:

ـ اسمع يا قاسم. لقد حرصت على أن تركب معي حتى نستطيع أن نتحدّث في الطريق قبل الوصول الى البيت. الأمر يتعلّق بفريدة. لا أدري كيف أنقل الخبر الى كريم.

ـ ماذا حدث لها؟ كان يشكو انقطاع رسائلها. هل هي مريضة؟

ـ لا. هي في صحة ممتازة، وفي غاية السعادة. المشكلة ليست فريدة. المشكلة كريم.

ـ تكلّم!

ـ باختصار، أثناء الصيف جاء لفريدة خطيب، ضابط في الجيش، برتبة يوزباشي التي أصبحت الآن نقيب ببركة الاقليم الشمالي، ووافقت، ووافق أهلها، وتزوجا.

ـ بهذه السرعة؟

ـ يبدو انهم اعتبروه لقطة. ألم أقل لك ان الضبّاط هم الملوك الجدد في مصر؟

ـ وكيف عرفت أنت بكل هذا؟

ـ عندما انقطعت رسائلها عن يعقوب كتب اليّ يطلب أن أتصل بها وأطمئنه. وبالفعل كلمتها، واجتمعنا، وأخبرتني بعزمها على الزواج. رجتني أن أشرح لكريم انّه لم يكن بوسعها أن تضيّع الفرصة. وأقسمت انها لم تكن تتوقع حدوث شيء كهذا، ولكنه القدر. وكل ما تتمناه من كريم ألاّ يحقد عليها، وأن ينساها.

ـ ينساها؟!

ـ أعرف ان ذلك مستحيل. ولهذا فضّلت أن نتشاور قبل أن أتحدّث مع كريم. هل أحاول اخفاء الحقيقة؟ أم أبلغه الخبر بالتقسيط؟ أم دفعة واحدة؟

ـ أين فريدة الآن؟

ـ في الاسكندرية. في شهر العسل.

ـ سوف تكون هناك صدمة هائلة مهما كان الأسلوب. وسيزيد من قسوتها انها جاءت بعد رفض أبيه فكرة الزواج. كان يريد أن يثبت أن الحب فوق كل شيء. والآن يتبيّن أن اليوزباشي فوق الحب.

ـ ما رأيك؟

ـ رأيي أن تهرب الآن وتؤجّل الموضوع الى الغد. سوف نكون معك عندما تبلغه بما حدث. وسوف نحاول جهدنا التخفيف عنه.

بمجرد أن رأى عبد الكريم الوجوه المقطّبة حوله، انكمش قلبه في أضلاعه. فريدة! ماتت!

يبدأ نشأت:

ـ يا كريم، أنت إنسان مؤمن بالله وبالقدر...

ويقاطعه عبد الكريم:

ـ أرجوك! أرجوك! قل لي هل ماتت؟

ـ أعوذ بالله. اطمئن من هذه الناحية. صحتها ممتازة.

ـ إذن ما هي مصيبة القدر التي يجب عليّ أن أتحمّلها؟

ـ خلال الصيف تقدم لفريدة خطيب، ضابط في الجيش أمامه مستقبل مرموق، وكما تعرف فالبنات في مصر هذه الأيام يفضلن الضابط على الطبيب والمهندس...

يقاطعه عبد الكريم:

- ووافقت؟

- نعم.

- وتمت الخطوبة؟

- تزوجا. وهما الآن في شهر العسل. وقد طلبت إليّ فريدة أن أبلغك تحياتها ورجاءها أن تنساها.

قبل أن يعلّق أحد، قام عبدالكريم، وعلى وجهه صفرة الموت، ودخل غرفته، وأغلق الباب بالمفتاح. بعد ثوانٍ تسرب صوت نشيج مكتوم يصدر من حيوان جريح. ارتفع النشيج شيئاً فشيئاً، حتى ملأ الشقّة ثم تحول الى عويل. عيشة، الشغالة الأربعينية السمينة التي حلّت محل هانم، تسأل باستغراب:

- خير يا جماعة؟ الراجل بيصوّت كده ليه؟

يتبادل الرفاق النظرات المحرجة، وينفضّ المجلس.

* * *

مضى اليوم التالي بأكمله في اجراءات التسجيل، والحصول على «الكارنيه» الجديد، والملازم الجديدة. السنة الثالثة في كلية الحقوق تعتبر، بإجماع الآراء، أصعب سنوات الكلية وأثقلها ظلاً. من ناحية، هذه سنة قانون العمل الذي يدرّسه الدكتور جمال زكي. وللدكتور جمال زكي شهرة عمّت كليات الحقوق في مصر، وتسربت الى خارج مصر. يؤمن الدكتور، ويصرّح في كل مناسبة، ان درجة «ممتاز» تعني الكمال، والكمال لله وحده، وهي، بالتالي، تستعصى على البشر أجمعين. كما يؤمن بأن درجة «جيد جداً» هي الدرجة التي سيحصل عليها هو نفسه لو انه أخذ الامتحان. أقصى ما يمكن أن يطمح اليه الطالب، إذا كان نابغة، تقدير «جيّد». أما الطالب، المجدّ فأقصى ما يمكن أن يحلم به تقدير «مقبول». أما بقية الطلبة فمصيرهم بين «ضعيف» و«ضعيف جداً». نتيجة هذه الفلسفة الغريبة التي يطبّقها الدكتور بدقّة متناهية لا تتجاوز نسبة النجاح في مادته ربع الطلاب. عبثاً، ضج الطلبة وتذمروا. عبثاً، اشتكوا. تعددت الحالات التي ينجح فيها الطالب في كل مواد السنة الثالثة وكل مواد الليسانس ويفشل في الحصول على الشهادة لأنه رسب في قانون العمل، مرة بعد مرة. بلغ من ذعر الطلاب أن عدداً منهم كان يحوّل أوراقه الى كلية حقوق عين شمس أو الاسكندرية بمجرد وصوله الى السنة الثالثة. كما بلغ

اليأس بمجموعة من الطلبة حد الذهاب الى القصر الجمهوري وتقديم شكوى الى رئيس الجمهورية. وجاء الرد من الرئاسة بأن الشؤون الأكاديمية تخصّ الجامعة وحدها. وسمع الدكتور جمال زكي بما حدث. تزعم الرواية أنه بدأ محاضرته على النحو التالي:

«بلغني أن نفراً منكم ذهبوا الى رئاسة الجمهورية مطالبين بعزلي. وأحبّ أن أؤكد لكم أنني باقٍ ما بقيت هذه الجدران. حتّى إذا ما سقطت، فسوف أبقى لأدرّس قانون العمل في الهواء الطلق».

من ناحية ثانية، يتضمن المنهج عدداً من المواد المعقدة، كقانون الأحوال الشخصية لغير المسلمين، وقوانين الاجراءات، وهي، فوق تعقيدها، مملّة لا تطاق. من ناحية ثالثة، ينصب مُقرّر الشريعة على المواريث، وهي أكثر موضوعات الشريعة صعوبة. ويتولى تدريس المادة أستاذ غير الشيخ أبو زهرة، يفتقر الى علم الشيخ وخبرته وقدرته على الشرح وخفّة روحه. من ناحية رابعة، تتضمن مادة القانون المدني، في الترم الثاني، جزءاً بالفرنسية يُخَصَصّ له نصف الدرجة، ولم يكن في المجموعة، باستثناء نشأت، من يعرف حرفاً واحداً من الفرنسية. يستقبل فؤاد سنته الدراسية الثالثة بقدر كبير من التشاؤم.

لم يلحظ أحد أن عبدالكريم لم يكن مع الشلّة في الكليّة. ولم يعنّ لأحد أن يتساءل أين ذهب، أو أن يربط بين غيابه وبين الخبر الذي سمعه من نشأت. عندما عادت المجموعة، لم تجد عبد الكريم في الشقة. وعندما جاء المساء ولم يظهر بدأ الأصدقاء يحسّون بالقلق. ذهب فؤاد الى غرفة عبدالكريم فوجد على سريره ورقة بيضاء خالية إلا من سطر واحد: «الوداع. غداً تجدون جثتي على النيل».

أمسك يعقوب بزمام الموقف:

ـ النيل؟ لا بُدّ من التفكير الهادىء المنطقي. ما هي المحلات الواقعة على النيل التي نرتادها، والتي كان كريم يرتادها مع فريدة؟

يرد قاسم:

ـ «كازينور». وكازينو «قصر النيل». وكازينو «الشجرة». لا يوجد غيرها.

يقول يعقوب:

ـ أعتقد انه في واحد منها. لو كنت مكانه لذهبت الى واحد منها وسكرت، قبل القاء نفسي في النيل.

يقول فؤاد:

ـ لا تضيعوا الوقت. سوف أذهب الى «كازينور». ويذهب قاسم الى كازينو «قصر النيل». ويذهب يعقوب الى كازينو «الشجرة».

وجده يعقوب على طاولة نائية بمفرده. وبمجرد جلوسه، اكتشف أن عبدالكريم استهلك كمية هائلة من البيرة. التفت اليه عبد الكريم مذهولاً وسأله بلسان مُقيّد:

ـ يعقوب؟ كيف عرفت أني هنا؟ لا تحاول أن تغير رأيي.

ـ لن أحاول أن أغير رأيك. هل تسمح لي أن أشرب كأساً معك؟

ـ تفضل.

تأتي زجاجة «الستلا». ويواصل عبدالكريم الحديث. وتجيء كلماته مبعثرة، مقطعة الأوصال:

ـ لن أغير رأيي. سوف ألقي بنفسي في النيل. من هنا. وأغرق. وأرتاح. أرتاح من هذا العالم القذر. أرتاح من أبي. أعني الشيخ. نحن في البيت لا نسمّيه إلا الشيخ. ارتاح من الشيخ. ومن فريدة. ومنكم ـ لا تحاول تغيير رأيي. اتخذت قراري وانتهى الأمر. سوف أقفز الآن أمامك. لا تحاول منعي.

ـ لن أحاول منعك. اشرب! في صحتك!

ـ سوف أنتحر الآن. أمامك. أمام الجميع. ما قيمة الحياة؟ طُزْ في الحياة. وطُزّ في فريدة. وطُزّ في الضباط. وطُزّ في الشيخ. وطُزّ فيكم.

ـ وطُزّ فيك! اشرب الآن!

عندما وصل قاسم وفؤاد الى كازينو «الشجرة» كان عبدالكريم قد تجاوز مرحلة الاحساس. اقتاده الثلاثة كما يقتاد رجال البوليس مجرماً خطراً، فؤاد يمسك بساعده الأيمن، وقاسم يمسك بساعده الأيسر، ويعقوب يدفعه من الخلف، حتى دخلوا الى التاكسي. عندما وصلوا الى العمارة حملوه حملاً على السُلّم. ما كادوا يضعونه الى فراشه حتى دخل في غيبوبة لا تختلف عن الموت الذي كان يبحث عنه في أعماق النيل.

١٠

نوفمبر ١٩٥٩



إنّــي لأعــلـمُ... والـلـبـيـبُ خـبـيـرُ   أنّ الحيــاة، وان حــرصـــتَ، غـــرورُ

المتنبي

١٠

«يرتجف محمدين. ينكمش داخل ثيابه التي أصبحت، لكثرة ثقوبها، كالمصفاة. يرتجف رغم المصفاة الأخرى، البطانيّة المهترأة. على يمينه يرقد أبوه، الحاج مخلوف، وعلى يساره أخوه الأصغر حسنين. محمدين في الثالثة عشرة ولكنه المسؤول عن إعالة أبيه وأخيه، منذ أن صدمت سيارة مسرعة والده وجعلته مقعداً لا يتحرك إلاّ زحفاً ولا يقوم إلا مستنداً على عكاز. كل ما يستطيع الأب المقعد عمله هو لف سجائر جديدة من أعقاب السجائر القديمة التي يجمعها محمدين. يتولى الأخ الأصغر بيع السجائر القديمة/الجديدة بثمن بخس، العشرة بقرش صاغ واحد. لا يستطيع الدخل الصغير أن يوفّر للأسرة سوى هذا القفص الخشبي على سطح هذه العمارة المتهالكة، القابعة في زقاق مظلم من أزقة الجيزة الداخلية.

يصحو محمدين على صوت الأذان. ويذهب لشراء الفول والخبز. ويعود فيجهّز الشاي ويوقظ أباه وأخاه. مزاج أبيه أسود هذا الصباح. كل صباح. منذ أن بدأ السعال والبصق المتكرّر. الضحية، دائماً وأبداً، هو محمدين. ينتهز أبوه أي فرصة لشتمه، أو تهديده بعُكازه، أو لطمه. ومحمدين يدرك، بالفطرة، أن أباه لا ينوي شرّاً. يفهم، بطريقة غامضة، أن أباه لا يستطيع التعبير عن ألمه إلا بإنزال الألم به. ويتحمّل محمدين تصرفات أبيه بصبر يفوق صبر الرجال.

ينتهي الأفطار، وتبدأ الجولة اليومية بحثاً عن الأعقاب. وكلّما امتلأ الكيس عاد محمدين ليفرغه عند أبيه ويعود الى الشارع. البحث عن الأعقاب عملية شاقة محفوفة بالمخاطر. كثيراً ما يضطر الى عبور الطريق، في وجه السيارات القادمة والذاهبة، ليلتقط عقباً واحداً. كثيراً ما يصطدم بفتيان أكبر منه، يعملون في «الكار» نفسه. وكثيراً ما يلقى المتاعب من رجال البوليس.

الأوتوبيس هو أفضل مكان لجمع الأعقاب. ينتظر محمدين حتى يصل الأوتوبيس الى المحطة الأخيرة ثم يقفز اليه في الدقائق التي تفصل بين الوصول والانطلاق من جديد. يدور بين المقاعد كالخذروف. ويدخل تحتها، كالدودة. وعندما يخرج يكون قد نظف الأوتوبيس تنظيفاً كاملاً من الأعقاب.

يجيء الأوتوبيس ممتلئاً حتّى السقف. ويغادر الركاب متدافعين. يدخل محمدين كالعادة. ويغطس تحت المقعد. عندما يرفع رأسه يرى حذاءاً ضخماً ينبثق منه كمساري ضخم على وجهه تكشيرة ضخمة:

ـ بتعمل ايه هنا يا حرامي يا مجرم؟

ـ بالّم السبارس بسّ والله.

ـ سبارس؟! ورّيني ايه ده اللي في إيدك؟ محفظة نشلتها؟

ـ يا عمّ حرام عليك. ده كيس السبارس.

ـ سبارس؟! يا ابن الكلب، يا وسخ.

ينزل الحذاء الضخم على يده اليمنى. ويصرخ محمدين. ويضغط الحذاء. ويبكي محمدين. ويزداد ضغط الحذاء. ويسمع محمدين صوت أصابعه وهي تتكسّر. ويترك كيسه، وينطلق كأنه ذئب صغير جريح. ويعوي.

بمجرد دخوله، وقبل أن يتمكّن من شرح ما حدث، يصرخ أبوه:

ـ تعال هنا يا واد.

ويدنو من أبيه ويصرخ الأب:

ـ رجعت بدري ليه؟ فين الكيس؟ ضيعته؟ ضيعته يا ابن الكلب يا وسخ...

ويهوي العكاز على يده اليسرى. ويسمع محمدين نفس الصوت الذي سمعه في الأوتوبيس. ويعوي. ويعوي».

* * *

يقول فؤاد:

ـ ليتك كتبت قصتك هذه السنة الماضية يا رؤوف. كنت استعرتها منك وقدمتها للأستاذ ميشيل عفلق. لا شكّ انه كان سيُسّر بها.

ـ لماذا؟

ـ لأنه لا يعترف بالأدب البورجوازي. لا يعترف إلاّ بالأدب الذي يخدم قضيّة الكادحين.

ـ لم أقصد خدمة قضية. صوّرت مشهداً رأيته ذات يوم بعيني.

ـ رأيت بعينك طفلاً تُكسر أصابع يده اليمنى وأصابع يده اليسرى في ساعة واحدة؟ بالله عليك، أين رأيت هذا؟

ـ رأيت ما حدث في الأوتوبيس منذ ثلاث أو أربع سنوات. لا أدري إذا كانت أصابع الولد قد انكسرت بالفعل ولكني لا أستبعد ذلك.

ـ وبقية التفاصيل؟

ـ بقيّة التفاصيل من الخيال. من المحتمل أن تكون صحيحة، أو قريبة من الصحة. ماذا تتوقع من صبيّ يقضي نهاره في جمع السبارس؟ أن يكون ابن مدير عام؟!

ـ قد يجمعها ليستفيد هو من النقود.

ـ هذه، فعلاً، نظرة بورجوازية. لولا الحاجة ما عرّض الطفل نفسه لكل هذه المخاطر.

ـ وما هو الحل يا رؤوف؟ قلنا الاشتراكية هي الحلّ فقلتم ان الاشتراكية كفر وإلحاد. قلنا خذوا من الأغنياء وأعطوا الفقراء قلتم هذه شيوعية. ما الحلّ؟

ـ الحل هو الاسلام.

ـ ولكن كيف يا رؤوف؟ هذا ولد مسلم في بلد مسلم وقد رأيت ما حصل له على يد ـ أو على قدم! ـ رجل مسلم.

ـ من قال ان مصر بلد مسلمة؟

ـ عفواً؟!

ـ من قال ان هذه بلد مسلمة؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ أين الاسلام في هذه الدولة؟

ـ يا رؤوف! أعرف تعاطفك مع الجماعة. وأعرف مأساة أخيك. ولكن

لا تكن أبلهاً. إذا لم تكن مصر بلداً مسلمة، فأين يوجد الاسلام؟ في إسرائيل؟

ـ لا أود بحث هذا الموضوع معك. أنت مُخدّر بدعاية جمال عبدالناصر.

ـ وأنت مخدّر بدعاية حسن البنا.

ـ أرأيت؟ لقد بدأنا نتشاتم.

ـ لا داعي للشتائم. بوسعنا أن نتحدث بهدوء. أريد أن أعرف ماذا تعني عندما تقول ان مصر ليست بلداً مسلمة.

ـ أنت تنظر الى الاسلام على أنه مجرد شعائر: صلاة وصيام ورمضان وعيد. هذا جزء من الاسلام وليس الاسلام كله. الاسلام أن تحكم بكل ما أنزل الله، كلّه لا بعضه.

ـ هذا هو الكلام الذي يقوله المشايخ في السعودية فيعتبرهم الجميع رجعيين.

ـ هذا ليس كلام مشايخ. هذا ما أنزله الله عزّ وجلَّ على نبيّه صلى الله عليه وسلم في قرآنه المجيد ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾. أليست العبارة واضحة كل الوضوح؟

ـ يا رؤوف! حرام عليك! لقد قرأت القرآن كما قرأته أنت. الحديث هنا عن اليهود والنصارى.

ـ وما الفرق بين الكافر والمسلم سوى اتباع شريعة الله؟ عندما يتجاهل المسلم شريعة ربّه أي فرق يبقى بينه وبين الكافر؟

ـ يا رؤوف! لا أكاد أصدق أذنيّ. تعتبر المسلم كافراً إذا لم يطبق كل تفاصيل الشريعة؟! هذا تطرّف.

ـ هذا هو الاسلام. سمّه ما شئت.

ـ ولكن من الذي قال ان مصر لا تحكم بما أنزل الله؟ أليس قانون الأحوال الشخصية بأكمله مأخوذاً من الشريعة؟ أليست الشريعة مصدراً أساسياً للتشريع؟ ألا يمكن أن نعتبر أحكام القانون الجنائي من قبيل التعزير الوارد في الشرع؟

ـ هذا كلام فارغ يقال للاستهلاك المحلّي.

ـ هذا كلام قانوني دقيق ندرسه في كلية الحقوق.

ـ دعنا من كتب الكلية. انظر الى ما حولك. هل هذا مجتمع مسلم؟ انظر! صور جمال عبد الناصر في كل شبر. برامج الإذاعة من أوّلها الى آخرها عن جمال عبد الناصر. كتاب «فلسفة الثورة» مُقرّر على الطلاب في كل المراحل. سوف أعطيك مثلاً بسيطاً جداً. قارن عدد المرات التي تذكر فيها وسائل الأعلام اسم جمال عبد الناصر وعدد المرات التي تذكر فيها اسم نبيّ الله وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، وستعرف اننا في مجتمع لا يعرف من الاسلام سوى اسمه.

ـ حسناً. فلنفترض، جدلاً، أن هذا المجتمع غير مسلم. وجاء مجتمع مسلم تماماً يرضيك تماماً. كيف سيحلّ هذا المجتمع مشكلة محمدين؟

ـ الحل الاسلامي يا فؤاد ليس مرسوماً جمهورياً من مراسيم صاحبكم. الحل الاسلامي يبدأ من المهد بتربية إسلامية شاملة. تعلّم الطفل عبادة الله لا عبادة الديكتاتور. تدرّس الطفل مبادىء الاسلام لا مبادىء الشيطان. لو أخذنا حديثاً نبويّاً واحداً، واحداً فقط، «ما آمن من بات وهو شبعان وجاره جوعان»، ودرسّناه في المدارس كما ندرسّ تفاهات جمال عبد الناصر الآن هل تعتقد انه سوف يكون هناك أمثال محمدين؟ لو اهتّم كل إنسان بجاره، هل سيبقى جائع واحد؟

ـ ولكن لحظة يا رؤوف! لحظة! من الذي يمنع الوعّاظ والخطباء من شرح المبادىء الاسلامية؟ لديكم أعظم جامعة إسلامية في العالم الاسلامي. لديكم أكبر العلماء.

ـ لدينا علماء موظّفون لدى الدولة. كبيرهم، شيخ الأزهر، برتبّة نائب رئيس وزراء، والبقية كل حسب موقعه. علماء يتغيّر إسلامهم مع مواقف الدولة السياسية. إذا صادق جمال عبدالناصر روسيا أفتوك بالجنوح الى السلم. وإذا عادى روسيا أعلنوا الجهاد على الشيوعيين الملحدين.

ـ ألا يوجد علماء مخلصون في مصر كلها؟

ـ نعم، في أعماق السجن.

ـ يا رؤوف! لم أعهدك تهوّل الأمور.

ـ هذا هو الواقع. النظام الذي تعجب به يحارب الاسلام كما لم يحاربه أي نظام في تاريخ مصر. والرئيس الذي تمجّده عدوّ الاسلام الأكبر.

ـ اتق الله! قليلاً من المنطق. الإخوان تعاونوا مع جمال عبد الناصر فترة

من الزمن. وهناك من يقول انه كان واحداً منهم. وقد أيّدوا الثورة. ثم اختلفوا على السلطة. ثم حاولوا قتله فسبقهم. القصة كلها سياسة في سياسة. ما دخل الاسلام في هذا؟!

ـ بالنسبة لجمال عبد الناصر المسألة قد تكون سياسة أما بالنسبة للاخوان فالمسألة مبدأ. كان الاتفاق أن تعمل الثورة على قيام الدولة الاسلامية ولكنه نكث بالوعد وغدر بالاخوان.

ـ قال جمال عبد الناصر في العديد من خطبه أن الهضيبي طالبه بتطبيق الشريعة والبدأ بفرض الحجاب على المصريّات. فسأله: «وهل ابنتك متحجّبة؟»، فردّ الهضيبي انه لا يستطيع اجبار ابنته على لبس الحجاب، فأجابه: «إذا كنت لا تستطيع فرض رأيك على ابنتك فكيف أتمكن من فرض رأيي على كل بنت في مصر؟».

ـ هذه قصة خيالية من أكاذيب صاحبكم.

ـ وحادثة الاسكندرية؟!

ـ تمثيلية من أولها الى آخرها.

ـ يا رؤوف! انهالت الرصاصات على بعد بوصتين من جسم الرجل. كيف أمكن ترتيب هذه التمثيلية؟!

ـ إذا تأمّلت كيف استغل النظام هذه الحادثة وسفك الدماء البريئة بعدها أدركت أن الحكاية مفبركة.

ـ الدماء البريئة؟! وماذا عن دم جمال عبد الناصر الذي حاولوا إراقته؟ أليس الرجل مسلماً معصوم الدم؟

ـ قلت لك اني أعتبره عدوّ الاسلام الأكبر.

ـ وكيف استحقّ هذه المنزلة؟

ـ ألا يكفي قتل الشهداء الأبرار؟ عودة والفرغلي والمجموعة؟ ألا يكفي أن يطلب أحد زبانيته من أحد الشهداء أن يقرأ الفاتحة بالمقلوب في المجزرة التي سمّوها محاكمة؟

ـ لنفترض أن جمال عبد الناصر أخطأ هنا. ماذا عن إنجازاته الأخرى؟

ـ أية انجازات؟

ـ الجلاء. تأميم القناة. التسليح. السدّ العالي. الوحدة.

- صدق قاسم عندما قال انهم غسلوا دماغك. الجلاء حدث نتيجة كفاح الأخوان المسلمين ضد الانجليز عبر ثلاثين سنة. وتأميم القناة انتهى بمعركة خسرها صاحبكم، معركة فتحت خليج العقبة أمام الملاحة الاسرائيلية، وأتت بقوات دولية تضمن حماية اسرائيل. ومخطط السدّ العالي وضعه وزير وفدي. والوحدة مع سوريا قائمة على باطل.

- لا أدري ما الفرق بين آرائك وهلوسات قاسم. الظاهر أن الرجعية ملّة واحدة.

- لا تحرّف الكلام عن مواضعه. الكفر مِلّة واحدة.

* * *

يدنو ماجد من فؤاد في صالون شقّة الحرية ويهمس:

- اسمع يا فؤاد! لديّ سر ولكني واثق أن بوسعي أن أخبرك.

- هات.

- لقد انضممت خلال عطلة الصيف الى حركة القوميين العرب.

- ما هذه المفاجأة؟

- وجدت عندهم ما افتقدته لدى البعث؟

- عند القوميين العرب؟!

- نعم.

- هل نسيت كم كُنّا، في فترتنا البعثية، نسخر من هتافاتهم: «دم! حديد! نار!». كنا نسمّيهم جماعة «الشيش كباب». هل نسيت؟

- البعثيون لا يطيقون منافسة من أحد. وهذه، على أية حال، ليست شعارات الحركة. شعارها «وحدة. تحرّر. ثأر».

- ما الفرق بين الحركة والبعث؟

- هناك فارقان جوهريان. الأول، انه لا توجد روح عدائية عند الحركة نحو جمال عبد الناصر. الحركة تعتبر جمال عبدالناصر قائدها الفعلي. وهناك من يقول ان جمال عبدالناصر نفسه هو رئيس التنظيم.

- أشكّ في ذلك. والفارق الثاني؟

- الحركة أدقّ في تحليلها لطبيعة الصراع الدائر في الأمّة العربيّة من حزب البعث. هذه المرحلة تتطلّب لمّ القوى الاجتماعية كافة في صف

واحد ضد الاستعمار وربيبته اسرائيل. عندما تقوم الدولة الواحدة يمكننا أن نبحث في طبيعة نظامها الاقتصادي والاجتماعي.

ـ مؤسسا الحركة، حسب علمي، هما جورج حبش ووديع حداد. والاثنان مسيحيان. هل تذكر كلامنا عن الأقليّات؟

ـ الوضع يختلف في الحركة. هذه حركة عربيّة خالصة لم تستورد آراءها من فرنسا. نشأت في أتون المقاومة ضد الصهيونية. كان الهدف في البداية الثأر، والثأر فقط، ثم اتضح ان الثأر لن يتحقق من غير تحرّر من الاستعمار ومن غير وحدة شاملة. كان هذا هو التسلسل المنطقي.

ـ كنت أتحدّث عن الأقليّات!

ـ هذه الحركة ليست كالبعث. لا يوجد هنا نجوم قادة كالأستاذ. جورج حبش ووديع حداد مجرد عضوين في قيادة الحركة. ولا تنس أن في القيادة عضواً مؤسساً من الكويت.

ـ من الكويت؟! من هو؟

ـ الدكتور أحمد الخطيب.

ـ كنت أعتقد انه سوري.

ـ ما الذي دفعك الى هذا الاعتقاد؟

ـ لا أدري. رُبما الاسم. هل أنت متأكد انه كويتي؟

ـ سبحان الله يا فؤاد! أخبرني زميل من الحركة. هل تريد أن أحضر لك جوازه؟!

ـ زميل من الحركة؟ تقصد رفيقاً من الحركة؟ ألا تسمّون الأعضاء الرفاق؟

احمرّ وجه ماجد، ولم يجب.

وضحك فؤاد:

ـ عادت حليمة الى عادتها القديمة.

فتح الباب ودخل قاسم وتوقف الاثنان، فوراً، عن الحديث. أدرك قاسم السبب. واندفع:

ـ ألا تملاّن الثرثرة عن السياسة والأحزاب؟! ألا تشبعان؟!

ردّ ماجد بغيظ:

ـ ماذا تريدنا أن نبحث؟ البنيّات أم السيارات؟

ـ أليس هذا أحسن من التآمر؟

ـ تآمر؟! من الذي يتآمر؟

ـ أنتما! فؤاد يتآمر على حكومة البحرين. وأنت تتآمر على حكومة السعودية.

ـ يا قاسم! نحن نتحدث عن مستقبل الأمة العربية. عن تحررها. عن وحدتها. عن استعادة فلسطين. وأنت تسمي هذا تآمراً؟

ـ مستقبل العرب في دمار إذا كان سيقودهم أشخاص بآرائكم السخيفة.

ـ وما هي آراؤك العظيمة يا حضرة الفيلسوف؟

ـ رأيي أن تترك الحكم للحكام الشرعيين الذين يحكمون من مئات السنين. رأيي أن ندرس ونعود الى بلادنا ونتتج. أنت يا ماجد تدرس الطب فلماذا لا تركزّ على دراستك وتعود وتخدم وطنك؟ أليس هذا أنفع من الأحزاب والكلام الفارغ؟

ـ عملي القومي لا يحول بيني وبين دراسة الطب. ولن يحول في المستقبل بيني وبين ممارسة الطب. ولكن ما هذا التأييد الجارف لحكام السعودية والبحرين. هل رشوك؟

ـ هذا كل ما تحسنونه يا معشر الثوريين: البذاءة. دعني أسألك سؤالاً يا ماجد: كم مخصصك من البعثة السعودية؟.

ـ حوالى خمسة وثلاثين جنيهاً.

ـ هذا الراتب. ومع الكتب والملابس والتذاكر والبدلات الأخرى ألا يصل المجموع الى أكثر من خمسين جنيهاً؟

ـ ربما.

ـ ألم تخبرني انكم في الشهر الماضي اجتمعتم بالأمير فهد وزير المعارف عندما كان في القاهرة وطالبتم برفع المخصّصات ووافق؟

ـ نعم.

ـ ماذا تريد أكثر من ذلك؟ ان ما تتقاضاه يقارب مرتّب وكيل الوزارة في مصر. ألا تشكر الحكومة التي أعطتك كل هذا؟

ـ هذا مال الشعب. ولا منّة للحكومة.

ـ الشعب؟! أيّ شعب؟!

ـ الشعب العربي في الجزيرة.

ـ الشعب العربي في الجزيرة؟! لا يوجد شعب عربي في الجزيرة. يوجد أكثر من مائة قبيلة ومائة شعب. يوجد شعب سعودي، ولولا الملك عبد العزيز لما وُجد الشعب السعودي.

ـ لا أتحدث عن الملك عبد العزيز. أتحدّث عن الأوضاع الراهنة.

ـ ولماذا لا تعجبك الأوضاع الراهنة؟ أنت طالب وراتبك ضعف راتب عميد كليتك.

ـ لا تجوز المقارنة. مصر ليست بلداً بترولية. أم ان جمال عبدالناصر لديه حقول بترول سريّة في حديقته؟!

ـ جمال عبدالناصر بدّد في حرب السويس دخل السعودية لمدة عشرين سنة.

ـ أنت ومغالطاتك!

ـ أتعرف ما سيحدث لو تحققت الوحدة العربية التي تثرثر عنها؟

ـ ماذا؟

ـ سوف يتوزع مخصصك الحالي على طلاب الشعب العربي في الأردن وطلاب الشعب العربي في اليمن وطلاب الشعب العربي في تونس. لن يبقى لك سوى ثلاثة جنيهات، أو أربعة على الأكثر.

ـ لا يهّم. في سبيل الوحدة العربية تهون كل تضحيّة.

ـ إذن لماذا لا تبدأ التضحيّة الآن؟ لماذا لا توزع مخصصاتك على الطلبة العرب المحتاجين في القاهرة؟ هناك آلاف منهم.

ـ من العبث الحديث معك يا دبشه. هل تعرف معنى الدبشة؟

ـ معناها الإكديش... يا اكديش!

* * *

لم يفق عبد الكريم من النوم/الغيبوبة إلاّ مساء اليوم التالي. عندما أفاق كان جبينه ملتهباً وجسمه ينتفض في قشعريرة مثلجة. نادى رفاقه. بصوت متهدّج. دخل فؤاد وما كاد يلمس جبهته حتى عرف أن الموقف يتطلّب

الحركة السريعة. كلّم الأستاذ شريف بالتليفون، وجاء الأستاذ ومعه طبيب (من أصدقائه). فحص الطبيب عبد الكريم فحصاً دقيقاً ثم التفت الى الأستاذ:

ـ لا بُدّ من نقله الى المستشفى فوراً. نزلة شعبية قويّة. سوف نأخذه الى مستشفى الجمعية الخيرية الاسلامية. انه هنا في العجوزة.

مرت بعبد الكريم عشرة أيام وهو في منطقة البين/بين، بين الصحو والنوم، بين الحلم والكابوس، بين الواقع والوهم. يغمض عينيه، فيرى فريدة في فستان الزفاف الأبيض تسير بجانبه وهي تغنّي: «أول مرّة تحب يا قلبي وأول يوم أتّهنا». تزفهما راقصة جميلة. نجوى فؤاد؟ رُبما! ويجلسان على الكوشة. يلتفت عبد الكريم فإذا بفريدة تتحول الى ضابط شكله شبيه بشكل الشاويش عطية، شخصية رياض القصبجي المشهورة. يدخل الضابط يده في جيبه ويخرج مُسدساً ضخماً ويطلق النار. ويصرخ عبد الكريم بأعلى صوته. وتأتي الممرضة بأقراص وحقن. يصحو ويرى رفاقه، ويكلّمهم ويكلّمونه، ولكنه لا يتذكر شيئاً مما قاله، أو مما قالوه. يحلم من جديد. يرى أباه مبتسماً وهو يعقد، بنفسه، قرانه على فريدة. غريبة! متى وافق أبوه على زواجه بفريدة؟ ومتى عقد القران بنفسه؟ يتأمّل وجه أبيه. وتزول العمامة. وتزول ملامح أبيه المبتسمة. ويعود الشاويش عطية. يطعنه بسكين هذه المرة. ويصرخ عبدالكريم. وتجيء الممرضة بالمزيد من الأقراص والحقن. ويأتي المزيد من الأحلام/الكوابيس. ثم تنقطع الأقراص والحقن، وتزول الحرارة، وتعود شهيته. ويغادر المستشفى وهو لا يحمل أي شعور نحو فريدة، لا الحب ولا الكراهية. كأنّ النزلة الشعبية لم تكتف بالسكن في رئته بل تغلغلت الى قلبه واستخرجت منه حُبّ فريدة، وأرسلته يتبخّر مع حبّات العرق.

مساء الخميس ورابطة الطلبة البحرينيين مليئة بروادها. هنا غرفة «الكيرم»، والصراخ يعلو كالعادة مع صوت المضرب. وهنا غرفة الورق، والصراخ يرتفع مع كل ورقة هابطة. في المكتبة مشهد غريب من نوع جديد. ثلاثة من الطلبة يحملون سلة بأطراف أصابعهم، ولا يتحدثون إلا همساً.

يلتفت عبد الكريم الى فؤاد:

ـ ما هذه؟ لعبة جديدة؟

ـ هذه موضة بدأت الأسبوع الماضي. كتب أنيس منصور في «آخر ساعة» انه شاهد قبيلة في أندونيسيا تحضّر الأرواح بالسلّة. وبدأ الجميع يحضّرون الأرواح. في كل بيت.

ـ أرواح؟ وبالسلّة؟! كيف؟

ـ الطريقة كما أوضحها أنيس منصور كما يلي. تأتي بسلّة عادية من الخيزران مثل سلّة المهملات. ترسم صورة وجه على ورقة كبيرة، ثم ترسم صليباً على الوجه، وتغطي فتحة السلّة بالورقة. ثم تأتي بقلم رصاص وتدخله في ثقب من الثقوب في قاعدة السلة، وتربطه إذا لزم الأمر. بعد ذلك يجلس ثلاثة ويلمس كل منهم السلّة بأطراف أصابعه. ويطلبون الروح التي يريدونها. وتأتي الروح وتملأ السلّة فتثقل وتميل الى الأمام وتبدأ الكتابة.

ـ الروح؟!

ـ هذه هي الفكرة.

ـ هل تصدّقها؟

ـ أنا؟ أتعتقد أنني جننت؟

ـ أريد أن أرى العملية بنفسي.

ـ أدخل. ولكن إياك أن تضحك أو تسخر فالأرواح لا تحبّ الضاحكين والساخرين.

يدخل عبد الكريم ويسلّم ويردّ الموجودون السلام ايماءاً برؤوسهم، ويشيرون اليه أن يجلس. يأخذ مقعده بهدوء، ويرقب ما يدور بفضول متزايد. كبير المحضّرين، جعفر علوي، يتكلم بمنتهى الجديّة والاحترام:

ـ هل حضرت الروح؟

وتكتب السلّة:

ـ نعم. السلام عليكم.

وتردّ المجموعة:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله.

ثم يسأل جعفر:

ـ من أنت أيتها الروح الكريمة؟

وتكتب السلّة:

ـ شوقي.

ـ أحمد شوقي؟ الشاعر؟

ـ أمير الشعراء.

ـ عفواً! أمير الشعراء. أهلاً وسهلاً. شكراً على حضوركم. هل من الممكن أن نسأل بعض الأسئلة؟

وتكتب السلة بحروف ضخمة.

ـ تفضّلوا.

تمتلىء الصفحة، وتأتي ورقة بيضاء جديدة. ويسأل جعفر:

ـ ما هي أحب قصائدك الى نفسك؟

ـ نهج البردة.

ـ وأجمل بيت شعر قلته؟

ـ وللحريّة الحمراء بابٌ بكل يدٍ مُضرّجةٍ يُدّقُ

ـ ما رأيك في حافظ إبراهيم؟

ـ صديقي العزيز. وهو معي هنا.

ـ والمتنبي؟

ـ لم أره هنا.

ـ ماذا تقصد بهنا؟

ـ عالم الروح.

ـ الجنة أو النار؟

ـ عالم الروح.

ـ من أعظم شاعر عربي في رأيكم؟

ـ أمير الشعراء.

ـ وفي الوقت الراهن؟

ـ في كل وقت.

تستمر المحاورة بعض الوقت. ثم تكتب السلّة: «مع السلامة». ويعلن جعفر أن روح أحمد شوقي قد انصرفت.

يتوجّه عبد الكريم بسؤال الى المحضرّين:

ـ يا أخوان! هل من الممكن أن تطلبوا روح جدتي؟ أمّ والدتي. اسمها فاطمة حجّي عيسى البلبول.

ويرّد جعفر:

ـ سنحاول. من الأفضل أن تمسك السلّة معنا.

ـ لا! لا! لا!

يلفّ الغرفة صمت عميق. ويتمتم المحضّرون بكلمات لا يسمعها. ويبدو أثر التركيز واضحاً على وجوههم. وتمرّ دقيقتان. ثم تهتّز السلّة وتتحرك وتكتب:

ـ السلام عليكم.

ويرد جعفر:

ـ وعليكم السلام أيتها الروح الطيبة. هل أنت فاطمة حجي عيسى؟

ـ نعم. حضرت من أجل كريمي.

عندما يقرأ عبد الكريم كلمة «كريمي» على الورق يصفّر وجهه. لم يكن أحد في العائلة كلّها يطلق عليه هذا الاسم سوى جدّته. ولم يسمعه من أحد منذ ماتت وهو طفل في العاشرة.

يلتفت اليه جعفر:

ـ تكلّم! اسأل!

يتردّد عبدالكريم، ثم يقول بصوت خافت:

ـ اشلونك جدّة؟

وتكتب السلّة:

ـ زينة. زانت حالك.

يزداد اصفرار وجهه، وتتسارع دقات قلبه. لم يسمع تعبير «زانت حالك» منذ توفيت جدته. يهمس بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ هل تنصحيني بشيء؟

ـ انساها. لا تهمّك الإبليسة. راحت في إبليس.

يلاحظ جعفر أن عبد الكريم بدأ يتصبب عرقاً ويرتعش. ويصرف الروح، وينهي الجلسة.

يُقرّر عبد الكريم أن يكتشف هذا العالم المثير المذهل: عالم الأرواح، عالم الحريّة والانطلاق من قيود الجسد ومن هموم الدنيا. إلاّ أنه لا يلقى سوى السخرية المرّة من أصحابه. يصرخ يعقوب في وجهه:

ـ أرواح؟! أية أرواح أيّها المخبّل؟! العقل الباطن لحامل السلّة هو الذي يحرّكها. لا توجد أرواح سوى أرواح البشر الذين يمسكون السلة.

ـ كيف استطاعوا، إذن، أن يعرفوا التعبيرات التي كانت تستخدمها جدتي: «كريمي»، و«زانت حالك»، و«الابليسة»؟!

ـ يا كريم! يا كريمي! جدتك لم تخترع هذه التعبيرات. كل عجائز البحرين يستخدمنها، على الأقل كل عجائز البحرانيات!

يذهب عبد الكريم الى الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير، رائد الحركة الروحية في مصر، ومؤلف العديد من الكتب في منزله بالروضة. ويرحّب به الأستاذ الذي لم يسبق له رؤية أحد من البحرين، آملاً أن يكون ضيفه طليعة الروحانيين في الجزيرة، ويعطيه نسخاً موقّعة من كتبه. ويحاول أن يبسّط له الظاهرة الروحية:

ـ هناك يا ابني جسدان: الجسد المادي، أو الترابي، والجسد الأثيري، أو الروحي. عند الموت، ينفصل الجسد الأثيري، أو الروح. هذا الجسد الأثيري. كالهواء لا يمكن لمسه ولا رؤيته ولا يستطيع أن يتصل بالعالم المادي الذي نعيش نحن الأحياء فيه إلا عن طريق الوسطاء الروحيين.

ـ وما السبب يا أستاذ؟

ـ السبب ان الوسيط الروحي هو إنسان بموهبة خاصة، يفرز جسده مادة خاصة مشعّة تسمى «الأوكتوبلازم»، هذه المادة هي التي يمكن للروح من خلالها أن تتجسّد، وتتكلم، وتحدث مختلف الظواهر الروحية التي نعرفها.

ـ ولكن يا أستاذ كيف يمكن أن يحصل كل هذا عن طريق السلّة؟

ـ السلة؟! آه، سلة أنيس منصور! لا تهمّ الوسيلة. المهمّ وجود وسيط روحي ينتج، عالماً أو غير عالم، مادة «البروتوبلازم». كلّما كان وجود هذه المادة كثيفاً كلّما تمكنت الروح من التجسد بطريقة أفضل. في بعض الحالات، عندما يكون الوسيط موهوباً فعلاً، يمكن للروح أن تتجسد تجسّداً

كاملاً، أي تتحوّل الى جسد يشبه جسدنا هذا تماماً. أمكن تصوير حالات كثيرة لأرواح متجسدة.

ـ هنا؟ في مصر؟

ـ لا. لا يوجد، حتى الآن، وسيط على هذا المستوى في مصر. ولكن هناك حالات عديدة موثّقة في أوروبا وأميركا. ستجد الصور والوثائق في كتبي. بهذه المناسبة، لماذا لا تحضر جلسة من جلساتنا وترى ما يحدث بنفسك؟ نحن نجتمع مساء كل جمعة هنا، في منزلي.

ـ وماذا يحدث أثناء الجلسة؟

ـ نجتمع في غرفة مظلمة بعض الشيء. ونستمع الى موسيقى كلاسيكية. ونطرد كل الخواطر الدنيوية من أذهاننا. ونركّز كل أفكارنا على العالم الأثيري. وتحضر الروح، وتتكلّم معنا على لسان الوسيط.

ـ تتكلّم؟!

ـ نعم. الوسيط هو الذي يفتح فمه ويحرّك لسانه ولكن، في الحقيقة، الروح هي التي تتكلم.

ـ تعني انه عندما تكون الروح فرنسية فإنّ الوسيط المصري يتكلّم بالفرنسية؟

ـ من الممكن أن يحدث هذا. ولكن الأرواح، خصوصاً العالية منها، تعرف كل اللغات. كل الأرواح التي تأتينا تتكلم اللغة العربية.

ـ ماذا تقصد بالأرواح العالية؟

ـ بقدر ما تتمكن الروح من الانطلاق من هذا العالم المادي بكل شهواته واغراءاته بقدر ما تعلو.

ـ ولماذا الظلام في الغرفة؟

ـ «الأوكتوبلازم» يفقد الكثير من حيويته في الضوء. ولهذا لا تظهر الأشباح في النهار. الأشباح هي الأرواح المربوطة بالأرض، الأرواح التي لا تعرف انها ماتت، ولهذا تظل تتردّد على الأماكن التي عاشت فيها.

ـ كم يبلغ عدد الحضور في الجلسة؟

ـ بين عشرة وعشرين.

ـ ألا يوجد خطر؟

ـ خطر؟ تعني أن تتقمّص الروح جسد أحد الحضور ولا تخرج منه؟

ـ مثلاً.

ضحك الأستاذ أبو الخير وقال:

ـ لا. لا. الأرواح التي تزورنا طيبة لا تؤذي أحداً.

حضر عبد الكريم في الموعد المحدّد. ذُهل عندما رأى بين الحضور الدكتور عثمان خليل عثمان رئيس قسم القانون الدستوري في الكلية، وجراحاً من أكبر جراحي مصر، ومخرجاً سينمائياً معروفاً. شرح له الأستاذ أبو الخير أن «الروح المرشد» للمجموعة روح رجل عاش في مصر الفرعونية، وانه يسمي نفسه «ميرا». وأوضح له الأستاذ أن الوسيط رجل محدود الثقافة يعمل في مصلحة المطافىء وانه عندما يستيقظ لا يذكر شيئاً مما قالته الروح على لسانه.

بدأت الجلسة. وجلس الحاضرون على هيئة حلقة مستديرة. وأطفئت الأنوار، باستثناء مصباح ضئيل يرسل خيطاً من الضوء الأصفر الشاحب. وبدأت الموسيقى. شعر عبد الكريم بالخوف يتسرّب الى كل شعرة في جسده ويجعلها تقف. ركّز انتباهه على الوسيط. وبدأ وجه الوسيط يتقلّص في الضوء الخافت حتى كادت ملامحه الأصلية تختفي. ثم أغمض عينيه، وأخذ يتحدّث بصوت أجش وبلغة عربية فصحى:

ـ السلام عليكم.

ردّ الأستاذ أبو الخير:

ـ وعليكم السلام يا ميرا. عمّاذا ستتحدّث الليلة؟

ـ أوّد أن أتطرّق للمغزى الروحي من حركات الصلاة.

ـ موضوع عظيم.

ـ هل سألتم أنفسكم لماذا تتطلّب الصلاة حركات معيّنة؟ لماذا لا تتمّ والانسان واقف لا يتحرك، أو جالس لا يتحرّك؟ أخذتم حركات الصلاة مُسلّماتٍ وقنعتم بذلك دون أن تبحثوا الأبعاد الروحية. الحقيقة أن هناك اعتبارات روحية فيما يتعلق بحركات الصلاة. مناطق الجسد تتفاوت فيما يتعلق بكثافتها الروحية، أعني بنشاطها الروحي، إلاّ أن المركز الروحي الرئيسي هو الدماغ، هو الذي يطلق الاشعاعات الروحية وهو الذي يستقبلها. في الدماغ ثلاث مناطق روحية أساسية: الجبهة ومنتصف الرأس

والرقبة. لا يمكن أن تُستغل الطاقة الروحية القصوى للدماغ إذا اكتفى المرء بالوقوف. الركوع يحرّك القوة الروحية الكامنة في منتصف الرأس. والسجود يحرك القوة الموجودة في الرقبة. والوقوف من جديد يعيد التوازن الى المناطق الثلاث. لو شاهدتم رجلاً يُصلي في غرفة مظلمة وكانت لديكم موهبة روحية لرأيتم كيف تتركز الأشعاعات حول رأسه خلال الصلاة، لرأيتم أشعة تدخل وأشعة تخرج. والأشعة في حالة الوقوف تختلف عن الأشعة في حالتي السجود والركوع، حَتى الألوان تختلف.

يتكلّم الدكتور عثمان خليل عثمان:

- ولكن يا ميرا الركوع والسجود من خصائص الصلاة في الاسلام، ماذا عن الأديان الأخرى؟

ويردّ الوسيط على لسان ميرا (أو ميرا على لسان الوسيط):

- سؤال وجيه يا دكتور. في كل دين صلاة، وفي كل صلاة حركات. لو تأملتم الصلاة في كافة الأديان لوجدتم انها تتطلب تحريك الرأس بحيث تنكشف المناطق الثلاث أمام الأشعة.

يسأله الدكتور عثمان:

- ماذا عن الصلاة الصامتة الهادئة؟

- حديثي عن الصلاة الدينية. لا أتحدث عن التأمّل.

يسأل الجرّاح:

- إذن فصحيح ما يقال من أن الروح تغادر الجسد عن طريق الرأس؟

- بكل تأكيد. لو استطعتم أن تبصروا الروح وهي تغادر جسد إنسان يوشك أن ينام، أو يوشك أن يموت، وظاهرة النوم لا تختلف عن ظاهرة الموت إلاّ في أن الروح تعود الى الجسد عند اليقظة، لو أبصرتم هذا المشهد لرأيتم الجسد الأثيري يترك الجسد المادي من ناحية الرأس.

تجيء أسئلة أخرى وأجوبة جديدة. الكثير من الأسئلة والأجوبة يحتوي على مصطلحات لا يفهمها عبدالكريم. ثم يقول الأستاذ أبو الخير:

- يا ميرا! لدينا ضيف الليلة يودّ أن يسألك بعض الأسئلة.

- نعم. لاحظت. أهلاً بك يا عبد الكريم. قدمت من البحرين، أرض دلمون، من أكثر مناطق الأرض روحانية.

يكاد قلب عبد الكريم يتوقف من الذعر، ويتكلم بصعوبة:

ـ كنت في جلسة تحضير أرواح، وجاءت روح قالت انها روح جدتي التي توفيت وأنا طفل. كيف أعرف إذا كانت صادقة؟

يرد ميرا:

ـ الأرواح أرواح بشر، والبشر يكذبون ويصدقون. لا تقنع بالدعوى؛ اطلب الدليل.

ـ لقد سمّتني اسماً لا يستخدمه سواها ولا يعرفه أحد في المجموعة غيري.

ـ هذا يكفي. يا دكتور عثمان! ألا يعتبر هذا دليلاً كافياً من الناحية القانونية؟

يضحك الدكتور عثمان ويجيب:

ـ قد لا يكون دليلاً قاطعاً ولكنه، بالتأكيد، قرينة قويّة.

تخف رهبة عبد الكريم بعض الشيء ويسأل:

ـ أودّ أن أستمر في الاتصال بروح جدتي. ألا توجد طريقة غير السلّة؟

يضحك بعض الموجودين، ويجيب ميرا:

ـ أرى حولك هالة من «الأوكتوبلازم». لديك موهبة روحية لا بأس بها. لا تحتاج الى سلّة. الكتابة التلقائية أفضل.

ـ الكتابة التلقائية؟!

ـ يمكن للأستاذ أبو الخير أن يشرحها لك.

توالت الأسئلة والأجوبة. ثم بدأ الوسيط يتململ ويتأوّه. ثم أفاق، وانتهت الجلسة.

شرح له الأستاذ أبو الخير طريقة الكتابة التلقائية. لا تحتاج الى أكثر من ورقة بيضاء وقلم رصاص. تضع القلم في يدك وتجعلها تسترخي تماماً حتى لا تكاد تشعر بها. «البروتوبلازم» المنبثق من اليد يمكن الروح من الإمساك بها وتحريك القلم. وهكذا يدور الحوار. أضاف الأستاذ انه من الأفضل أن تتم التجربة في غرفة هادئة، من غير متفرجين، وفي ضوء خافت.

دخل عبد الكريم عالم الروح ولم يستطع الخروج. وجد فيه كل ما افتقده في العالم المادي: الحبّ والتفهم والإثارة والمعرفة. انغمس في حوار ليلي طويل مع روح جدّته. سألها عن كل شيء: الموت، الحياة بعد الموت،

علاقة الموتى بالأحياء، وطبيعة عالم الروح. وأجابت روح جدّته على معظم الأسئلة، وقالت انها لا تعرف الاجابة على بعضها، وأضافت انه من «غير المسموح» أن تتطرّق الى موضوعات معينة. رفضت أن ترد على أي أسئلة تتعلق بالقبر أو بالجنة أو بالنار. رغماً عنه، وجد عبد الكريم نفسه يسألها عن فريدة، وأجابت:

ـ الابليسة! عملت لك سحراً!

ـ ولكنني أحببتُها قبل أن تعرف أني أحبّها.

ـ عملت لك سحراً لكي تتزوجها، ثم تزوجت هي، وظل سحرها يعمل حتى أبطلته أنا.

ـ كيف أبطلتيه؟

ـ تصارعت مع الجن وغلبتهم. وشفيت أنت.

ـ ومن الذي عمل السحر؟

ـ ساحر في امبابة.

ـ تعرفين امبابة جدة؟!

ـ طبعاً كريمي!

منذ أن يصحو وهو يتطلع الى الموعد الليلي الممتع مع جدّته. في كل مرّة، تمتليء عشرات الأوراق، ويتعلم عشرات الأشياء الجديدة. أخبرته جدته انها تسهر على حمايته منذ أن وصل القاهرة. قالت له انها هي التي منعته من القاء نفسه في النيل. وهي التي حالت بين والده وبين طرده من المنزل في البحرين. قالت له انها ستجعله أسعد إنسان في العالم. ستحقق كل طلباته. سوف تأتي له بأسئلة الامتحانات. سوف توصل اليه كل ما يريد من أموال. سوف تجعل أي فتاة يريدها مغرمة به. وفي المقابل، لا تريد منه سوى أن يخصص لها ساعتين كل ليلة، لتستطيع أن تتكلم معه عبر القلم.

لم يطلب عبد الكريم من روح جدته تقديم أي دليل على صدق ما تقول. إلاّ أن الأدلة جاءت تترى. يرن التيلفون ويكتب القلم «التيلفون لك»، ويتبيّن، بالفعل، ان المكالمة له. يدّق جرس الباب ويكتب القلم، «جاء الأستاذ شريف يحمل كيساً كبيراً»، ويدخل الأستاذ، بالفعل، يحمل كيساً مليئاً بالفاكهة. يكتب القلم «غداً تصلك رسالة من ابنتي فيها

أربعون جنيهاً»، ويجيء مسافر من البحرين في الغد ويعطيه رسالة من أمّه فيها المبلغ بعينه. يشعر عبد الكريم انه أصبح انساناً جديداً، يختلف عن بقية البشر، إنساناً يستطيع قراءة المستقبل.

لاحظت المجموعة انزواء عبد الكريم الليلي في غرفته. لاحظت الكتب الروحية التي أصبح لا يقرأ غيرها. لاحظت السواد المتراكم تحت عينيه نتيجة السهر المتواصل حتى الصباح. لاحظت كميات الورق الهائلة المستخدمة كل ليلة. خشيت المجموعة أن ينتهي عبد الكريم في مستشفى الأمراض العقلية. واستقرّ الرأي على عقد محاكمة شبيهة بمحاكمة يعقوب في الصيف الماضي. إلاّ أن يعقوب، هذه المرة، تحول الى ممثّل الادعاء:

ـ يا كريم! منذ أسابيع وأنت في وضع غير طبيعي. منذ خروجك من المستشفى. هل أثّر المرض على دماغك؟

يردّ عبد الكريم بغضب:

ـ غير طبيعي؟! ماذا تقصد؟! هل رأيتني أضرب الناس بالعصا؟!

ـ لم تصل الى هذه المرحلة. ولكنك في الطريق.

ـ أعدك انك سوف تكون أول من أضربه.

يتدخّل فؤاد:

ـ نحن لا نمزح يا كريم. بالنا مشغول عليك. ما قصة الأرواح هذه؟

ـ الروحية حقيقة علمية، مادّة تدرس في جامعات أمريكا وأوروبا.

ـ تقفل على نفسك الباب كل ليلة وتقضي الليل وأنت تشخبط على الأوراق. هل تصدق انك تتحدث مع جدتك؟

ـ نعم. بكل تأكيد.

يصرخ قاسم:

ـ يا كريم! جدتك في قبرها. في رأس رُمّان!

ـ جسدها هناك، وروحها هنا.

يقول يعقوب:

ـ هذا عقلك الباطن يا رجل! عقلك الباطن هو الذي يسأل وعقلك الباطن هو الذي يجيب. هل تعرف مصير الانسان الذي يتحدّث مع نفسه؟ العباسيّة!

ـ قالت لي أشياء كثيرة لم أكن أعرفها. كيف يحدث هذا لو كنت أتحدّث مع نفسي؟

يسأله يعقوب:

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل الرسائل التي تخبرني عن محتوياتها قبل وصولها. مثل الأشخاص الذين أعرف هويتهم قبل دخولهم. مثل المكالمات التي أعرف من أجراها قبل أن أرفع السماعة.

ساد صمت عميق بدّده يعقوب:

ـ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله! كنت أتصوّر أن المسألة مجرد ايحاء نفسي ولكن يبدو انها أخطر من ذلك. لا بُدّ أن تذهب الى طبيب نفسي يا كريم. وفي أقرب فرصة.

يضيف قاسم:

ـ وأنا من هذا الرأي.

ويقول فؤاد:

ـ وأنا.

يقلّب عبد الكريم نظره في وجوه زملائه. ثم ينهض غاضباً ويدخل غرفته، ويقفل الباب بالمفتاح.

يجري الى القلم والورقة. وتغيم أمامه الدنيا ويعود طفلاً صغيراً ضئيلاً يلقي بنفسه في أحضان جدته التي تضمّه وتقبلّه، ويتحرّك القلم:

ـ أعرف! سمعت ما قالوه. هؤلاء الأبالسة! هؤلاء ليسوا أصدقاءك! انهم أعداؤك! شاركوا في عمل السحر! والآن يريدون قتلك!

يعود عبد الكريم من أوهام الطفولة الى القلم الذي ينزلق الآن على الورقة بسرعة هائلة لا يكاد معها يتبيّن الكلمات:

ـ سيدخلون الآن ويقتلونك! بالسكين! مثل الخروف! سيكسرون الباب الآن! ولكن لا تخف! أنا معك! افتح الشباك واقفز منه. سأحملك بين ذراعيّ. اقفز الآن!

تنطلق صرخات حادة من الغرفة ويتدافع الرفاق. يسمع عبد الكريم الدقات. ولكنه لا يستطيع أن يتحرك. وتمر الثواني. والدقات تعلو.

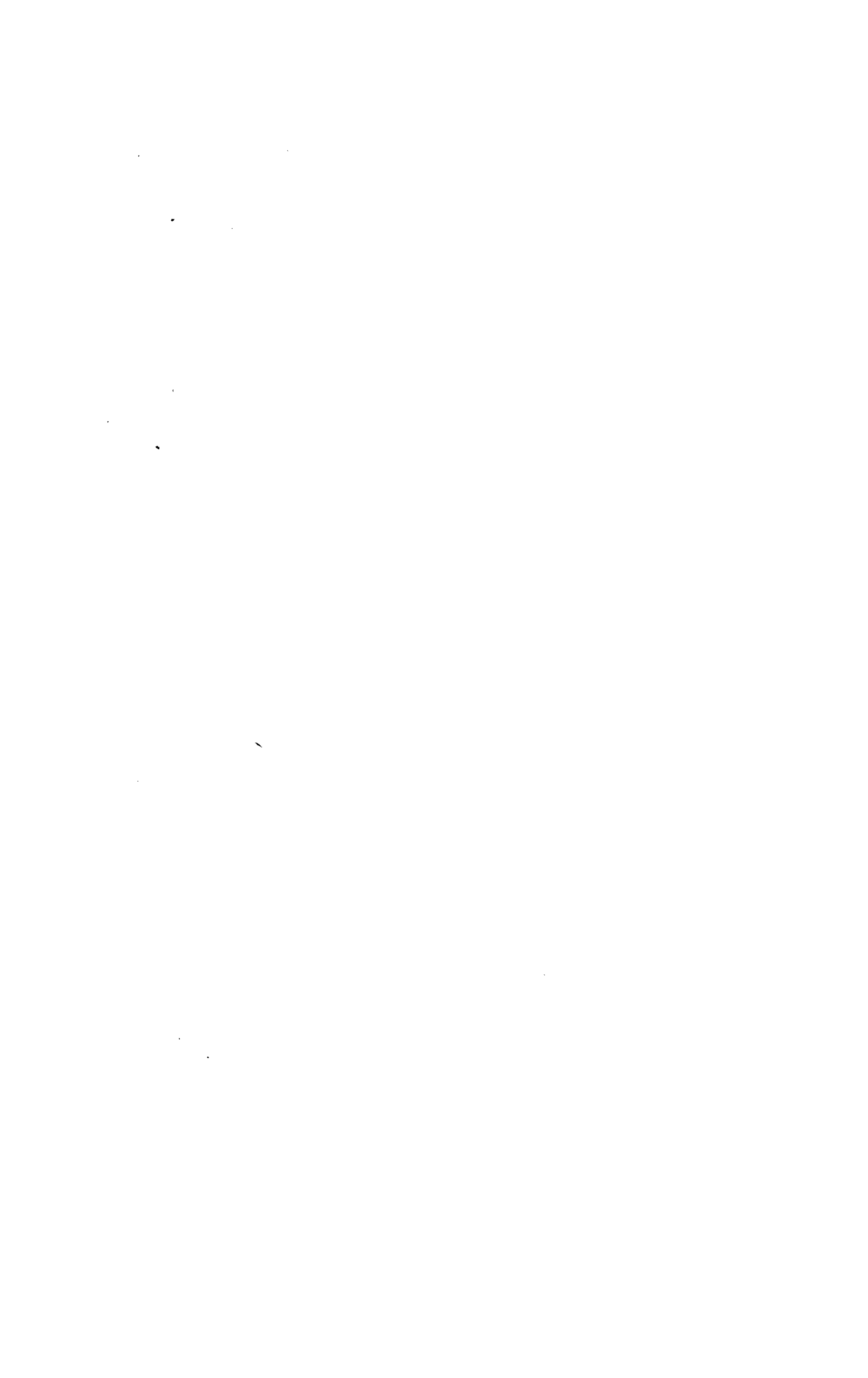
وصراخه يرتفع. ثم يوقف يده اليمنى باليسرى. ويكسر القلم. ويمزق الورقة. ويفتح الباب:

ـ أرجوكم! أرجوكم. ساعدوني!

وترد المجموعة بصوت واحد:

ـ ماذا حدث؟

ـ القلم! الروح! جدتي! طلبت مني الانتحار!

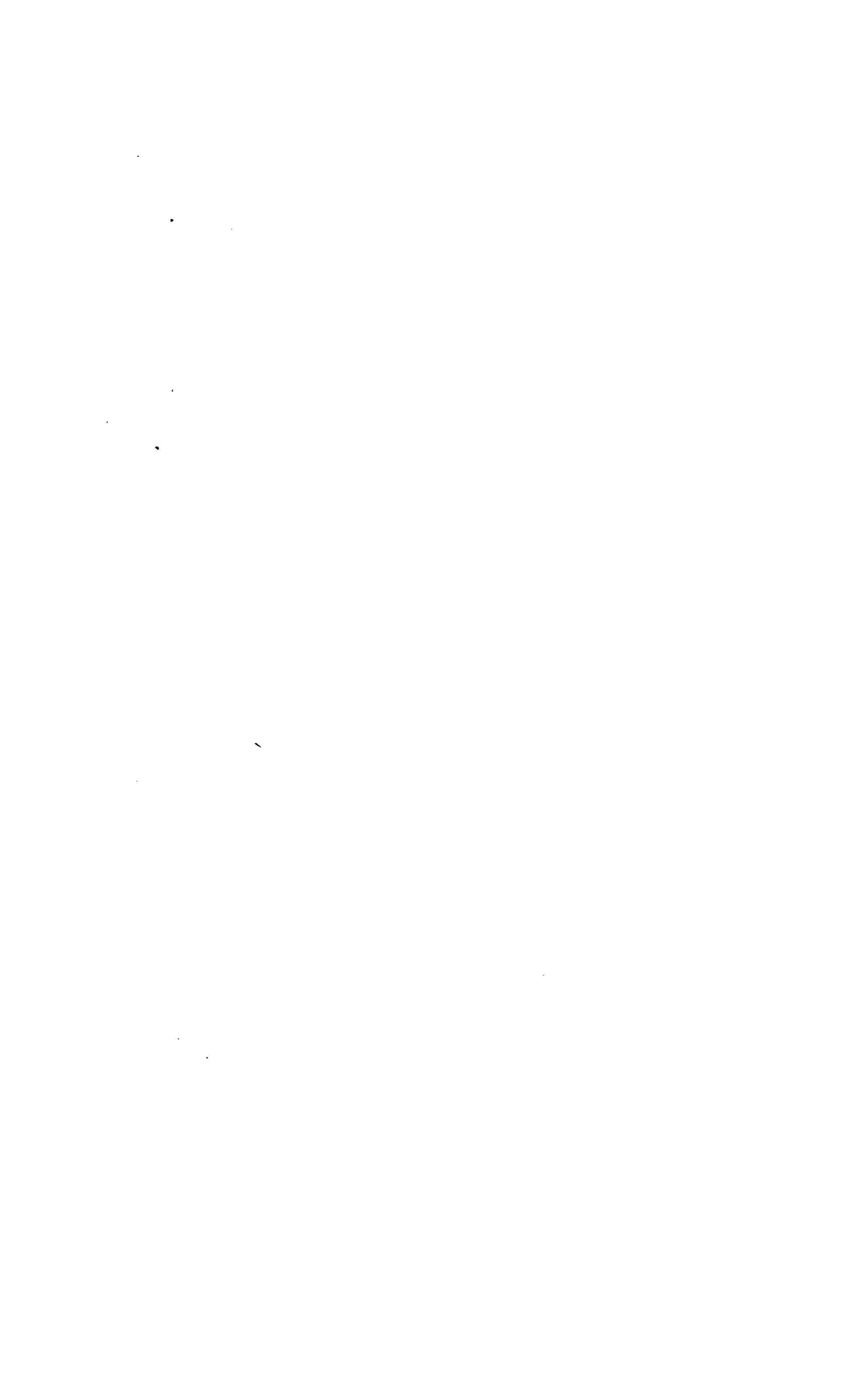


١١

ديسمبر ١٩٥٩

ضروبُ الناسِ عُشّاقٌ ضروبا فأعذرُهم أشفُّهُم حبيبا

المتنبي



١١

«توقع راشد ان يكون موسم الغوص الماضي موسمه الأخير. شعر أكثر من مرة، وهو تحت الماء، بالدوار، قبل ان تنقضي دقيقة. اضطر إلى ان يهزّ الحبل قبل ان يجمع القدر المألوف من المحار. يدرك راشد انه يندر ان يستطيع الغوّاص الاستمرار في مهنة الغوص بعد سن الأربعين التي يوشك ان يصل إليها. حاول في فترة ما بين الموسمين ان يحصل على عمل آخر. ولكن أين؟ الغوص هو عمل الجزيرة الوحيد. حاول مع النوخذة ان يحوّله من «غيص» إلى «سيب»، الملاّح الذي يبقى على ظهر السفينة ويسحب «الغيص» بمجرد ان يهتز الحبل. إلاّ ان «النوخذة» رفض بإصرار. يحتاج «السيب» إلى ذراع قويّ وعضلات شابة. رجع راشد قبل الموسم ليسجل اسمه مع الغوّاصين. وتلقى السلفة المعتادة. وتطايرت في أيام. كالعادة، لا يدري راشد هل سيتمكن من سداد الدين بعد الموسم أم يبقى في ذمته شيء «للنوخذة».

حياة الغوص مقنّنة بكل تفاصيلها. «النوخذة» هو المسؤول المباشر عن السفينة ومن فيها. يأتي الغوّاصون بالمحار. تذهب الحصيلة، أولاً بأول، إلى «النوخذة». كل اسبوع يمر بالسفينة مركب «الطواش»، التاجر الصغير الذي يشتري اللؤلؤ ثم يبيعه للتاجر الكبير في المحرق والمنامة. تذهب اللآلىء إلى التاجر الكبير، ولا يعرف إلاّ الله أين تنتهي. هناك من يتحدث عن بلاد بعيدة، فرنسا، انجلترا، وأمريكا. وهناك من يقول انها تذهب إلى مهراجات الهند. ويسمع راشد الأسعار الخيالية التي تباع بها بعض اللآلىء، ولا يصدق. لؤلؤة بلّك، مائة ألف روبية! وأخرى بلكيّن. عالم الغوص مليء بالأساطير، والحقائق والأكاذيب.

كل هذه اللكوك لا يصل منها إلى راشد إلاّ ما يكفي لسداد السلفة، بالاضافة إلى مبلغ تافه. في نهاية الموسم «يكسّر» «النوخذة» الحساب،

و«النوخذة» هو الوحيد الذي يقرأ ويكتب على ظهر السفينة، ثم يُحدّد لكلّ واحد نصيبه، بعد خصم السلفة. أحياناً يحصل راشد على مائتي روبيه، لا بد ان يعيش عليها بقية السنة. وقد تنخفض إلى مائة روبية، إذا كان الموسم رديئاً. وقد تقفز إلى أربعمائة، في الموسم النادر.

تتعلق به الدانة، ابنته ذات السنين السبع، قبل الإبحار. تقول له إن البنات في الحي كثيراً ما يسألنها «يا الدانة! وين دانتك؟». ترجو أباها أن يحضر لها معه دانة تتباهى بها بين البنات. يضحك راشد وهو يضمّها. لا يوجد في تقاليد الغوص ما يسمح للغواص بتلقي نصيبه عيناً. ولكنه يعدها خيراً.

تبحر السفينة في الخلجان الزرقاء وفي روتينها المعتاد. الرّز والسمك. التمر الذي ينخر فيه السوس. الماء الرمادي. «النهّام» وأهازيج الغوص الجماعية. وفي المساء، القهوة وقصص البحار. يروى كل رجل مغامراته. هنا بحّار يقسم انه رأى «أبو درياه»، جنيّ البحر الذي يشبه القرد، مراراً. يؤكد انه رآه بعينيه وهو يدخن «الكدو». يتدخل بحار ثانٍ ليقسم، بدوره، انه رأى «أبو درياه». يثور نقاش حول حجم الجنيّ. يؤكد الأول انه بحجم القرد الصغير ويصرّ الثاني انه بحجم الرجل الضخم. ثم يثور سؤال عن نوايا «أبو درياه». ويجمع البحارة على انه جنيّ ظريف لا يؤذي أحداً. ويجمعون على ان الوسيلة الوحيدة للتخلص منه هي قرع الهاون. بمجرد سماع الصوت، يذعر «أبو درياه»، ويقفز إلى الأعماق، تاركاً «الكدو»، يتصاعد منه الدخان.

ثم يتطرق الحديث إلى «الهّامة»، الحوت الهائل الذي يبتلع السفن بمن فيها. أكثر من بحار يزعم انه رآه، أكبر من سفينة الغوص، بمرتين أو ثلاث. لكن أحداً لا يذكر انه ابتلع أي سفينة. هناك من يؤكد ان الأمواج الهائلة التي يحدثها قد أغرقت العديد من السفن. ثم يجيء ذكر «النِهْم»، الحوت الضخم الآخر. ويثور جدل عنيف. البعض يقسم أن «النهم» هو «الهامة» والبعض الآخر يقسم ان «النهم» مخلوق أخر يتميز عن «الهامة» بحبه الشديد للأجساد البشرية.

تختفي صور الحيتان من مخيلة راشد وتطفو صورة الدانة. يُقرر انه سيخالف تقاليد الغوص وسيطلب من «النوخذة» ان يكون نصيبه في هذا الموسم دانة، بدلاً من الروبيات. كيف يعيش بقية السنة وهو لا ينوي بيع

الدانة؟ يفرجها الله! هناك إشاعات عن شركة أجنبية قادمة لاستخراج البترول من الجبل. من يدري؟ قد يحصل على عمل في الشركة.

تمر أيام الغوص رتيبة متثاقلة. يدرك راشد، بالغريزة، ان كل مرة يغوص فيها تدنيه من أجله. الدوار الذي يبدأ بمجرد ملامسة القاع. الدماء التي توشك ان تغادر عروقه. الصداع العنيف الذي يمزق رأسه. ولكنه يتجلد. ويبقى تحت الماء. ويجمع الكمية المتوقعة، وأكثر منها، ضعفها. ويمنحه «النوخذة» ابتسامة تشجيع. ويزداد أمله في الحصول على الدانة.

ها هي ذي هناك! محّارة عملاقة. ملكة المحّارات! يدنو راشد وينزعها. يدهشه ثقلها. يضعها في الكيس المتدلي من عنقه. ثم يغلبه الدوار. ويهزّ الحبل. ويصحو وهو على السطح. ويرى المحّارة العملاقة وقد فُتحت. ويرى الدانة الرائعة. أجمل ما رآه في حياته من لآلىء. يأخذ الدانة. ويدنو من «النوخذة» بخطى مترنحة ويهمس:

ـ نوخذة! الدانة للدانة!

ويسقط. ويتراكض البحارة. وترتفع الأصوات:

ـ لا إله إلاّ الله! مات راشد! رحمة الله عليه!

ـ مات؟ توّه كان يغوص.

ـ طلع من البحر دايخ.

ـ لا إله إلاّ الله!

يُلفّ الجسد النحيل بإزارين ويؤخذ إلى مؤخرة السفينة.

يلتفت «النوخذة» إلى بحار بقربه ويسأله:

ـ ماذا كان يقصد؟ الدانة للدانة؟!

ـ استجنّ يا نوخذه! استجن قبل ما يموت! رحمة الله عليه».

* * *

ينظر إليه عبدالرؤوف مبتسماً:

ـ مرحباً بك في نادي الواقعيين. هل اقتنعت بآراء ميشيل عفلق؟

ويرد فؤاد:

ـ مجرد مشهد كما تقول أنت. مشهد حقيقي من فترة الغوص. سمعت القصة من والدي الذي بدأ حياته غواصاً.

- أبوك أنت بدأ حياته غواصاً؟!

- نعم. لمَ الاستغراب؟ كان صبياً مراهقاً وقتها إلاّ انه كان عصامياً. ترك الغوص وتعلم القراءة والكتابة. واشتغل مع الطواويش، ثم أصبح طوّاشاً. ثم جاء الكساد العالمي واللؤلؤ الصناعي الياباني وسقطت امبراطورية الغوص. وبقيت آثارها لدينا في المتجر.

- كان، إذن، من المستغلين؟ من البورجوازيين؟

- رأى الحياتين. حياة الغواص وحياة الطواش.

- وكيف كانت الحياتان؟

- حياة الغواص بائسة. معاناة وفقر وديون. ولكن لم يكن هناك بديل. البديل الوحيد للبحر كان الجوع والتسوّل. حياة «النوخذة» أفضل نسبياً، لا سيما إذا كان يملك السفينة. الطوّاش كان ميسوراً. ما نسميه اليوم الطبقة المتوسطة. أما التجار الكبار فقد كان عددهم قليلاً. لم يكن في البحرين أكثر من أربعة أو خمسة.

- والآن؟ حلَّ البترول محل البحر؟

- نعم. لا أدري هل كانت أيام الغوص أفضل أم أيامنا هذه.

- على الأقل لا يوجد الآن جوع.

- هذا صحيح. ولكن هل عامل المصفاة اليوم أسعد من الغوّاص؟ علم هذا عند ربي.

- اسمع يا فؤاد! هذه القصة ذكرتني. منذ فترة وأنا أفكر في مشروع أدبي مشترك.

- ماذا تقصد؟

- ان نؤلف كتاباً يضم مجموعة قصص قصيرة نصفها بقلمك والآخر بقلمي.

- فكرة طريفة. هل سبق أحد إليها؟

- لم أر مجموعة قصصية بقلم كاتبيْن من قبل.

- توكل على الله. عشر قصص منك، وعشر قصص مني.

- والأسم؟ نريد اسماً يلفت الأنظار. اسماً يجمع بين مصر والبحرين.

- فكرة طريفة ثانية.

ـ أهرام المنامة؟

ـ لا! ولا منامة الأهرام!

ـ نيل دلمون؟

ـ لحظة! لحظة! دلمون! ورقة من بُردى دلمون! ما رأيك؟

ـ «ورقة من بُردى دلمون»! قنبلة الموسم! الكاتبان الصاعدان فؤاد الطارف وعبد الرؤوف بحيري يقدمان لك، عزيزي القارىء، من أعماق المنامة، ومن أغوار الصعيد، قنبلة الموسم الأدبي: «ورقة من بردى دلمون»!

ـ والناشر؟ من سينشر هذه القنبلة؟

ـ سأتحدث مع الاستاذ عبدالباري. أعتقد ان نادي القصة مُستعد لنشرها.

* * *

عندما التحقت شيرين بالجامعة اتّسعت فرص اللقاء. أصبح بوسع قاسم ان يراها الآن في كلية الصيدلة، وأصبح بوسعها ان تحضر لمقابلته في كلية التجارة. والمحاضرات عذر فضفاض يستغرق ساعات النهار. من حسن الحظ ان أباها العميد مشغول لا يتسع وقته لمراقبة تحركاتها. مع قدوم سيارة نشأت، التي سمّتها الشلة لسبب لا يعرفه أحد «البعكوكة»، جاءت احتمالات جديدة لم تكن واردة من قبل. يستعير «البعكوكة» ويذهبان لتناول الغداء، أو يذهبان للفسحة في شارع الهرم. يتذكر قاسم مقالاً سبق ان قرأه لإحسان عبدالقدوس اسمه «أين أقبّل حبيبتي؟» الفكرة الأساسية في المقال ان القاهرة، على ضخامتها، لا تتسع للعشاق. لا يوجد فيها مكان واحد يستطيع فيه الحبيب ان يقبّل حبيبته وهو آمن. لو أمسك بيدها في التاكسي لأوقف السائق السيارة وطردهما على الفور. لو قبّلها في محل عام لانقض عليهما الجمهور ضرباً. في بيت عائلته؟ مستحيل! في بيت عائلتها؟ غير ممكن! إذن أين أقبّل حبيبتي!

اكتشف قاسم، كما اكتشف عبد الكريم من قبل، ان السينما هي المكان الأفضل، والأسلم. غير ان المسألة تحتاج إلى تخطيط. عندما تكون السينما مزدحمة، تتلاشى فرص القبلة. مجرد الاقتراب يقود، فوراً، إلى تعليقات ساخرة. تعلّم قاسم ان العروض الصباحية، التي تبدأ في العاشرة والنصف، هي الأكثر ملائمة. لا يكاد يحضرها أحد سوى العشاق. والمكان الوحيد الملائم الآخر هو «البعكوكة»، في زاوية نائية بعيدة عن

العيون، عيون الفضوليين وعيون بوليس الآداب الذين يسميهم ماجد «مطاوعة مصر».

كانت القبلة الأولى في سينما «الكورسال». لم يتوقع قاسم رد الفعل العنيف الذي أعقب لقاء الشفاه القصير. أخذت شيرين ترتعش، وبدأت تتأوه، وكادت، حسب تعبيرها، «تسخسخ». طرأ ببال قاسم ان في الأمر مبالغة. لا يمكن ان تؤدي «حبّة» واحدة إلى كل هذه التداعيات. إلا ان رد الفعل كان حقيقياً، وأدرك قاسم انه يتعامل مع فتاة سريعة الاشتعال. كل مرة يصلان فيها إلى مرحلة القبل، وهما لم يتجاوزا أبداً هذه المرحلة، تبدأ الأعراض الغريبة. وتهمس شيرين: «مش قادرة!» «مش طايقة!»، ثم تجيء الدموع كالأنهار.

يصعب على قاسم ان يشخّص طبيعة مشاعره نحو شيرين. لا شك انه يشتاق إليها عند غيابها. ولا شك انه يستمتع بصحبتها عندما يكونان معاً. ولا شك ان القبلات التي تفجّر كيانها تلمس كيانه ولكنه لا يستطيع ان يدّعي انه يحبها. تخبره في كل لقاء انها تحبه ويعجز عن ان يقول لها الشيء نفسه. ثم جاءت التلميحات. «مش ناوي تتعرّف على بابا؟». «امتى تيجي تزورنا في البيت؟». أسئلة تبدو بريئة وطبيعية ولكنها ليست بريئة ولا طبيعية. وراء الأكمة ما وراءها. ماذا سيقول لأبيها بعد التعرف عليه؟ ماذا سيفعل عند زيارة البيت؟ خطوبة! شبكة! زواج! حبس! اشرد يا ولد! اشرد!

بكل ما أوتي من لباقة يشرح لشيرين ان فكرة الزواج غير واردة على الإطلاق. لا يزال طالباً أمامه سنتان قبل الليسانس وسنتان أو أكثر قبل الماجستير. ثم بعد هذا عليه ان يعمل ويكوّن نفسه. ثم يمكن التفكير في الزواج. وتقول شيرين انها تفهم ذلك جيداً، وانها لا تريد شيئاً، ولا تتوقع شيئاً. ويجيء اللقاء، وتجيء القبلة. وتنتفض. وتتأوه. «مش قادرة!» «مش طايقة!»، و«حرام عليك!». ويصاب قاسم بالبلبلة. غير قادرة على القبلة، أو غير قادرة على الوقوف عندها؟! ولماذا تقول له «حرام عليك!»؟ هل أذنب؟ وتعود التلميحات بشكل مختلف. «ماما عاوزة تشوفك». «ماما عارفه الي بينا». ماما؟! اللي بينا؟! اشرد يا ولد! اشرد!

يدقّ جرس التيلفون ويرفع قاسم السماعة. يجيبه صوت أنثوي مثير لم يسمعه من قبل:

- حضرتك الأستاذ قاسم؟

- نعم.

- أنا إلهام. أم شيرين.

- أهلاً وسهلاً، ست الهام. تشرفنا.

- أهلاً بيك. ضروري أشوفك.

- تحت أمرك.

إتفقا على اللقاء في «جرّوبي» عدلي باشا. صعقِ قاسم عندما رأى الحسناء التي دخلت. كانت نسخة من شيرين، إلاّ انها نسخة أنضج وأشهى. لم يستطع قاسم ان يكتم استغرابه، ولاحظت إلهام. شرحت له انها تزوجت في السادسة عشرة، وأنجبت شيرين في السابعة عشرة، وان الفارق، بالتالي، بينهما بسيط. لم يستطع قاسم ان يزحزح عينيه عن وجهها إلاّ إلى قوامها. لم يسبق له ان شعر برغبة جنسية قوية بمجرد النظر إلى امرأة. لم يسبق له أن أحس تياراً جارفاً من الشهوة بمجرد القرب من امرأة. استعاذ بالله، في سريرته، من الشيطان الرجيم. احمّر وجهه، وبدا عليه الاضطراب. ما هذا الشعور الشاذ؟ هذه زوجة! هذه أم! هذه أم صديقته! من أين جاءت هذه النزعة المسعورة؟ من أي مكان موبوء في العقل الباطن لا يعرفه سوى ابليس وفرويد ويعقوب؟!

وتكلمت إلهام طويلاً. لا يتذكر الكلمات، ولكنه يتذكر انها أعربت عن قلقها على ابنتها الوحيدة التي أصبحت متعلقة به إلى حد الهوس. لم تعد تأكل، أو تنام، أو تذاكر. يتذكر انها قالت انه إذا كان يحب ابنتها فعليه ان يخطبها، أو يتركها فوراً. أوضح لها قاسم ان الخطبة غير ممكنة. قال ان والده سيقطع عنه المصروف وسيضطره إلى قطع دراسته والعودة إلى البحرين. قال إنه يحتاج إلى سنين قبل ان يصبح مستعداً للزواج. واستغرق اللقاء أكثر من ساعتين. وانتهى بوعد قاطع من قاسم بأنه سينهي علاقته بشيرين ولن يتصل بها، ولن يسمح لها بالإتصال به.

الأيام التي تلت كانت قاسية عصيبة. عشرات المكالمات التيلفونية من شيرين وعشرات الأعذار من رفاقه. اضطر يعقوب، في النهاية، إلى ان يعترف لها ان قاسم موجود ولكنه لا يرغب في الحديث معها. ولكن شيرين لم تيأس، ولم تنقطع محاولاتها لمقابلته في الأماكن المعتادة. وأحسّ قاسم بتأنيب الضمير. ألم يكن هو الذي بدأ العلاقة؟ ألم يكن هو الذي

شجّعها على لقائه؟ وحاول تبرير الموقف أمام ضميره. لم يعدها بشيء. لا بخطوبة ولا بزواج. على العكس، كان حريصاً، منذ الموعد الأول، ان تكون الأمور واضحة كل الوضوح. والآن يجد نفسه مذنباً، مجرماً بلا جريمة، جانياً بلا جناية.

ويزداد لسع الضمير كلما فكّر في إلهام. الحقيقة انه منذ رآها وهو يفكّر فيها، يوماً بعد يوم، ساعة بعد ساعة. يصحو في الليل، في حالة غريبة من الشبق. يغمض عينيه فيتخيلها أمامه، نصف عارية. ويحتقر نفسه. يحتقر هذه الغريزة الحيوانية التي تجعله يشتهي أمّ صديقته. آه لو عرف يعقوب! يا للشماته! يكاد يسمع ما سيقوله. ألم أقل لك ان كل طفل يتوق إلى ممارسة الجنس مع أمه من غير ان يشعر؟ لعن الله يعقوب! وفرويد! والجنس! وشيرين! وإلهام!

يشكو قاسم همّه إلى نشأت:

ـ يا نشأت! لقد عاصرت القصة من أولها. كيف تفسّر ما حدث؟

نشأت الذي يؤمن إيماناً راسخاً ان النساء جميعاً من صواحب يوسف، يجيب ببساطه:

ـ حصل خير! إذا كانت إلهام تعجبك وتعجبها انتهى الأمر. أين المشكلة؟

ـ هذه أم صديقتي يا نشأت!

ـ صديقتك سابقاً. ألم تنقطع العلاقة؟

ـ انقطعت.

ـ لو كنت محلك لتحوّلت إلى الأم. على الأقل مع الأم لا توجد مشاكل زواج ووجع دماغ.

ـ نشأت! أنا أحدثك عن شعوري أنا لا عن شعور إلهام. من يدري؟ قد تعتبرني مثل ابنها.

ـ مثل ابنها؟! لا يا نونو! ألا تذكر حكاية الست خيرية مع أخينا فؤاد؟ ألم يكن مثل ابنها؟

ـ وماذا تقترح الآن؟

ـ أمامك حلاّن. إما ان تنسى البنت والأم معاً. أو تنسى البنت وتركز على الأم.

ـ لا أستطيع يا نشأت. علاقة مع بنت وأمها؟! أنا لست وحشاً.

ـ إذن انس الاثنتين. الدنيا مليانة نسوان.

ـ سأحاول! سأحاول!

إلاّ ان محاولة النسيان تُجهَض عندما تتصل به إلهام طالبة ان يلتقيا مرة أخرى. واتفقا على المكان نفسه. ذهب قاسم متوقعاً ان يسمع تفاصيل المأساة. شيرين لا تأكل ولا تنام ولا تذاكر. شيرين تعيش في عذاب. لا بد ان يغير رأيه، ويعيد العلاقة، ويخطبها. ويذهب مستعداً بكل الأجوبة. وجاءت إلهام مرتدية فستاناً مثيراً من موضة «الشوّال». بدت أجمل من المرة السابقة. وفوجىء بتطور الحديث. اكتفت بعبارتين عن شيرين وقالت إنها بدأت تتفهم الوضع. ثم بدأت تتحدث عنه. شكرته على تضحيته بسعادته في سبيل سعادة ابنتها. قالت إنها فكرّت فيه. ثم أخذ الحديث مجرى جديداً مذهلاً. شكت إلهام رتابة الحياة مع زوجها الذي يكبرها بعشرين عاماً. تحدّثت عن شبابها الضائع. أسهبت في وصف الملل الذي يفترس أيامها وهي بمفردها في الشقة الكبيرة. وقالت انها تحتاج إلى صديق يفهمها، وتفهمه. ارتج على قاسم. تركها تتكلم من غير ان يردّ، حتى افترقا.

تستدير «البعكوكة» قبل الوصول إلى هضبة الأهرام وتدخل الشارع المؤدي إلى المطار السري، الشارع الذي لا يطرقه أحد في المساء. القمر في منتصف السماء. تقف «البعكوكة» على جانب الشارع. إلهام بجانبه. صوت أم كلثوم ينطلق من راديو السيارة محمّلاً بكل الرغبات الأرضية، بكل شهوات التراب، بعذابات قرون من الجفاف والظمأ والجوع:

«لقيت نفسي في عز جفاك .. بافكر فيك.. وأنا ناسي» تقترب منه إلهام. ويقبّلها. وتتأوه: «مش قادرة!». القمر يطلّ عليهما، وهو يطل على إلهام. وتهمس: «حرام عليك!» يغيب القمر ثم يعود. ويتأمل الوجه: ويُذعر. تحول الوجه إلى وجه شيرين. كيف جاءت شيرين إلى هنا؟ يعود وجه إلهام. يغيب القمر ثم يعود. وأم كلثوم تصرخ: «بافكر فيك، بافكر فيك»، بافكر فيك»، يجد شيرين على يساره وإلهام على يمينه، البنت والأم تتغامزان وتضحكان. ثم تهمس البنت. «مش قادرة!» وتقوم الأم «مش طايقة!» وأم كلثوم، بغتة، تغني: «حرام عليك! حرام عليك، حرام عليك!».

يصحو، ويد يعقوب على جبينه:

ـ لا حول ولا قوة إلاّ بالله! خلصنا من كوابيس كريم ووقعنا في كوابيس قاسم.

ـ الحمد لله! الحمد لله! كان مجرد حلم.

ينظر يعقوب إلى بيجامة قاسم ويضحك:

ـ يبدو انه كان أكثر من مجرد حلم. اذهب وأغسل البيجامة!

* * *

بعد تجربته الرهيبة مع عالم الروح، لجأ عبد الكريم إلى عبد الرؤوف باحثاً عن تفسير. وأجاب عبد الرؤوف:

ـ اسمع يا كريم. تعال صلّ الجمعة معنا، في مسجد الملك الصالح في الروضة، حيث أصلّي مع فؤاد. بعد الصلاة، سنجتمع بالإمام، الشيخ رضوان، وهو عالم مطلع وبوسعه ان يجيب على تساؤلاتك.

يضحك عبد الكريم. انقلبت الدنيا رأساً على عقب. حبيبة يتفق معها على الزواج فتتزوج غيره بمجرد سفره. جدّة تطلب منه الانتحار. وأخيراً، صلاة في مسجد السنّة! وأي صلاة؟ صلاة الجمعة! هذه الصلاة التي يعتقد شيعة البحرين انه لا يوجد في البحرين كلها عالم تتوفر فيه شروط إمامتها سوى أبيه ـ وأبوه يصرّ على الرفض من باب التواضع. حسناً! فلينقلب مع الدنيا المنقلبة. ليصلّ الجمعة مع السنّة.

بعد الصلاة، ذهب عبد الرؤوف وفؤاد وعبد الكريم إلى شقة الشيخ الملحقة بالجامع. استمع الشيخ، بكل اهتمام، إلى قصة عبد الكريم. وعندما انتهى من الحديث، قام الشيخ إلى رفّ مزدحم بالكتب وجاء بكتاب قدّمه لعبد الكريم:

ـ هذا كتاب «الروح» لإبن القيم. لعلّه الكتاب الوحيد في تراثنا الذي يعالج الموضوع بهذا الشمول. خذه معك واقرأه في وقت فراغك.

ـ ما رأيك يا شيخ في ما حدث لي؟

ـ هذا شيء واضح كل الوضوح. ما حدث لك من ألاعيب الجان. كل ما تسمعه عن الأرواح في الشرق والغرب من حيل الشياطين. والهدف، في النهاية، تضليل الإنسان وإدخاله جهنم.

ـ كيف؟

- لقد قرأت كل ما كتبه أبو الخير، والدكتور علي عبد الجليل راضي. والكتب المترجمة. حتى توصلت إلى هذه النتيجة. الجن، التي تتسمى بالأرواح، تحاول ان تقنع ضحاياها بأنه لا يوجد دين صحيح ودين باطل وان كل الطرق تؤدي إلى الله. والهدف هو إغواء الإنسان وإدخاله جهنم.

- ولكن الروح يا شيخ طلبت مني الانتحار!

- وهذا الدليل على صدق ما أقول. هل توجد جدّة تطلب من حفيدها الانتحار؟

- ألا تؤمن يا شيخ ببقاء الروح بعد فناء الجسد؟

- بكل تأكيد يا ابني. وفي السيرة النبوية ما يؤكد ذلك. لقد تكلّم الرسول عليه الصلاة والسلام مع المشركين من قتلى بدر وقال انهم يسمعونه. لاحظ يا ابني التعبير الدقيق الذي استخدمه القرآن الكريم: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾. البرزخ بمعنى الحد الفاصل. للأحياء عالمهم، وللأموات عالمهم، وعالم الأموات غيب لا نعرف عنه إلا ما ورد به النص الصحيح.

- ألا توجد وسيلة للاتصال بالأرواح؟

- الوسيلة الوحيدة هي الرؤيا. ستجد في كتاب ابن القيم أمثلة لا تعد ولا تحصى. أما تحضير الأرواح فيجلب الجن لا الأرواح، كما جرّبت بنفسك. لا تعد إلى مثل هذه المحاولة. أذكر قوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾.

- يا شيخ رضوان! منذ ان حدثت القصة وأنا لا أستطيع النوم من الخوف.

- سوف أعلّمك يا ابني دعاء تردده قبل النوم وتزول المخاوف بقدرة الواحد الأحد. اكتب يا ابني: «أعوذ بوجه الله العظيم، الذي ليس شيء أعظم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر، من شر ما خلق وبرأ وذرأ، ومن شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها، ومن شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير. يا رحمن. أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة».

يتساءل عبد الكريم قبل ان ينام، بينه وبين نفسه، عما إذا كان الدعاء قد ورد في مأثورات آل البيت. ويقرر ان يسأل أباه عندما يراه. يتلو الدعاء

ثلاث مرات، ويُحسّ بطمأنينة عميقة تتغلغل في جسده. وينام كما لم ينم منذ شهور.

* * *

كاد يعقوب ان يفقد الأمل في اتصال عزت به. كل مرة يتصل فيها بعزت يرد، باختصار، ان عليه ان ينتظر. في المرة الأخيرة طلب منه عزت الاّ يعاود الاتصال. ومرت الأسابيع والشهور، ولم يحدث شيء، ثم جاءت المكالمة. وطار يعقوب إلى الشقة الصغيرة في العباسية. وكم كان سروره عظيماً عندما اكتشف ان المقابلة ليست تمهيدية ولا روتينية. وجد عزت، ومعه ثلاثة شبان، في انتظاره. أدرك، من قراءاته، انه على وشك الالتحاق «بخليّته».

تحدّث عزت:

ـ استغرق الأمر بعض الوقت. كان لا بد ان نتحرّى عنك. كما ان الظروف كانت سيئة للغاية. بدأت الآن تتحسن. خرج معظم الرفاق من المعتقلات.

الرفاق؟! الرفاق!! للكلمة وقع أعذب من زخّات المطر. أصبح يعقوب الآن عضواً في الأسرة العالمية، أسرة المناضلين ضد الاستغلال والظلم، أصبح واحداً من «الرفاق».

واستطرد عزت:

ـ من الآن فصاعداً لن يكون لك أي اتصال بي، على الإطلاق. وأقصد ذلك حرفياً، على الإطلاق. سيقتصر اتصالك على الرفاق هنا: «رامز»، و«رمسيس»، و«اسكندر». هذه بطبيعة الحال، أسماء حزبية. تكفيك الآن. فيما بعد، سوف تعرف الأسماء الحقيقية. واسمك الحزبي أنت «شبلي».

ويسارع يعقوب:

ـ «شبلي»؟! ما هذا الاسم؟ ألا أستطيع اختيار اسمي بنفسي؟

ـ لا. هذا اسمك. انتهى الموضوع. عليك ان تتعوّد على الانضباط. والآن، سوف أترك لكم الشقة. أترككم مع «رامز»، المسؤول عن الخلية.

تحدّث «رامز» عن ضرورة اتخاذ أقصى درجات الحيطة ثم تحدث عن الممنوعات. ممنوع ان يحتفظ أي منهم في بيته بكتاب له صلة بالشيوعية من بعيد أو قريب. وعلى الذين يحتفظون بكتب كهذه ان يتخلصوا منها

بأسرع وقت ممكن بحرقها. ممنوع ان يتحدث العضو عن نشاطه الحزبي مع أي مخلوق خارج الخلية. «وأي مخلوق» تشمل الأم والأب والاخوان والأخوات. توقف «رامز»، ونظر إلى يعقوب نظرة ذات دلالة، وأضاف: «والفتيات!». وأدرك يعقوب ان التحريات عنه كانت دقيقة، وابتسم. وطالت قائمة الممنوعات. وتم الاتفاق على اللقاء الثاني في شقة «اسكندر» في بولاق.

كان الاجتماع الثاني، بدوره، مخصصاً للإجراءات الاحتياطية. استمع الأعضاء إلى درس من «رامز» أوضح فيه كيفية التأكد من عدم وجود مراقب يتبع خطوات الواحد منهم، وكيفية التخلص منه في حالة وجوده. طلب منهم ان يفترضوا ان كل المكالمات التيلفونية مسجلة، وان كل الرسائل، داخلية كانت أو خارجية، مراقبة، وان جميع البوابين يعملون في المخابرات. قال «رامز» ان تعليقاً عابراً قد يؤدي إلى الاعتقال. وقال إن عدداً من الرفاق قد افتضحت هويتهم لأنهم تحدثوا تحت تأثير الكحول. ورمق يعقوب بنظرة أخرى ذات دلالة. تساءل يعقوب عن بدء العمل الفعلي، وعن المهام التي ستناط بكل واحد منهم، ورد «رامز» باختصار: «سيتم كل شيء في الوقت المناسب».

لم يشعر يعقوب خلال سنين حياته الماضية بنشوة غامرة عارمة كالتي تتملكه وهو يغادر مكان الاجتماع ويبدأ روتين التحقق من عدم المطاردة. سار إلى الأمام بخطاه الطبيعية المعتادة ثم توقف، بغتة، وانحنى ليربط خيط الحذاء. أتاح له الانحناء ان يرى، بوضوح، السائرين خلفه. ثم واصل مشيه، وترك منديله ينزلق من يده. توقّف وعاد أدراجه ليلتقط المنديل وليبحث عن أي تصرفات مريبة في الماشين وراءه. وواصل سيره. ثم جاءت المحطة الثالثة، والأخيرة. وقف، بغتة، أمام التيلفون في بقّالة صغيرة، وتظاهر بإدارة القرص والحديث، وعيناه تتفحصان كل شيء.

أصبحت الحياة اليومية مغامرة لذيذة. تمزيق كتبه الماركسية ورقة ورقة، وحرقها ورقة ورقة، حين تخلو شقة الحرية من سكانها. الدور المزدوج الذي يحياه: نواسياً وجودياً في الظاهر، مناضلاً حزبياً في الباطن. المتعة التي يُحسها عندما يهاجم الآراء الماركسية ويعلن عن خيبة أمله فيها. ودهشة الشلة من هذا التحول الجديد. السعادة التي تنتابه وهو يتابع انجازات الرفاق في العراق: معركتهم النبيلة ضد البورجوازية التي تريد ان تقذف بالعراق في أحضان جمال عبدالناصر، وجهودهم الدائبة لتثقيف عبد الكريم قاسم

وتجنيده. الدفء الذي يتسرب إلى عروقه وهو يقرأ ما بين سطور المقالات في الصحف نزعات ماركسية لا يفهمها سوى خاصة الخاصة، «شبلي» ورفاقه.

* * *

وافقت المجموعة، وعُدل الدستور، وأصبح ماجد الزبير ساكناً تبعياً في شقة الحرية. اقترح عبد الكريم إقامة حفلة صاخبة بهذه المناسبة، ولم يتحمّس أحد. نشأت مشغول بهيلدا التي أصبحت «الفلاحة السويسرية». فؤاد، بعد تجربته مع شاهيناز، يرفض حتى مجرد الحديث عن الفتيات. قاسم مذهول ضائع بين الأم والبنت، رغم انه يرفض ان يقابل أياً منهما. ويعقوب يتنقل من كتاب إلى كتاب.

احتفل قاسم بماجد على طريقته:

ـ ماجد! عندنا في الكلية بعض السعوديين. عجايب وغرايب!

ـ ماذا تقصد؟

ـ واحد يقول إنه من جمعية «نجد الفتاة»، التي تطالب باستقلال نجد. والثاني يقول إنه من حزب «الحجاز الحر» الذي يطالب باستقلال الحجاز. ما هذه البلاوي؟

ـ هذه نزعات اقليمية انفصالية سوف تزول بمجيء الوحدة العربية الكاملة.

ـ تزول؟!

ـ نعم. ألم تدرس نشوء الأمم؟ تبدأ العملية بالأسرة التي تتطور فتصبح عشيرة، ثم تكبر فتصبح قبيلة، ثم شعباً ثم أمة. كل هؤلاء لا يزالون يعيشون مرحلة القبيلة. عندما ندخل مرحلة الأمة ستزول كل هذه الفوارق.

ـ ومتى تدخلون مرحلة الأمة؟

ـ عندما ينتهي الحكم الذي يقاوم الوحدة العربية.

ـ تقصد انه لو زال آل سعود فسوف تتحد المملكة مع بقية العرب؟

ـ بكل تأكيد.

ـ في المشمش! اسمع! سوف أخبرك ما سيحدث لو ذهب آل سعود. سوف يستقل الحجاز بقيادة حزب «الحجاز الحر». وسوف تستقل نجد

بقيادة حزب «نجد الفتاة». أما «أرامكو» فسوف يضمّها الشاه عندما يضم البحرين. والسلام عليكم!

ـ هذه أفكار حشاشين.

ـ أنت تعرف الحشاشين. وتعرف مشيرهم!

* * *

يُرحّب الشيخ أبو زهرة، كالعادة، بفؤاد ويبدأ بالسؤال التقليدي:

ـ وازيّ البحرين؟ لسه ما بقوش تلاتة؟

ويرد فؤاد كالمعتاد:

ـ لسّه يا فضيلة الشيخ.

منذ ان حصل فؤاد على تقدير «ممتاز» في الشريعة في الترم الثاني من السنة الماضية وهو يحظى برعاية خاصة من الشيخ الذي يسأله الآن:

ـ وعامل إيه مع الشريعة السنة دي؟!

ـ الصراحة يا فضيلة الشيخ اننا تيتّمنا بعدك.

ـ ليه بسّ يا ابني؟

ـ كتاب الدكتور مختار مُعقّد. ومحاضراته أكثر تعقيداً. ولا يوجد بيننا طالب واحد يفهم شيئاً من المقرر.

ـ الدكتور مختار يا فؤاد عالم فاضل.

غير ان ابتسامة الشيخ العريضة تقول انه يتفق مع فؤاد في رأيه عن الدكتور مختار.

ـ يا فضيلة الشيخ! هناك موضوعات تقلقني. أتمنى لو أمكنني ان أسألكم عنها عندما يكون لديكم متسع من الوقت.

ـ موضوعات مثل ماذا يا ابني؟

ـ القومية العربية والإسلام. الرأي القائل ان النظام في مصر...

ويقاطعه الشيخ:

ـ اسمع يا فؤاد. عندي محاضرة الآن. لماذا لا تمر عليَّ غداً في البيت، ونبحث كل ما تريد بحثه؟

استقبله الشيخ بحفاوة. وبعد ان انتهيا من شرب الشاي ابتسم وقال:

ـ تفضّل! اسأل!

ـ يا فضيلة الشيخ! أود ان أعرف، أولاً، هل هناك تناقض بين القومية العربية والإسلام؟

ـ ودي عايزة سؤال؟! بدون شك يا ابني.

تأتي إجابة الشيخ صفعة هائلة على وجه فؤاد. ويضطرب. ويحتاج إلى بعض الوقت قبل ان يتكلم:

ـ ألم يكن محمد عربياً؟ ألم ينزل القرآن باللغة العربية؟

ـ من حسن الأدب يا ابني مع رسول الله عليه الصلاة والسلام أن تصلي وتسلّم عليه كلما ذكرت اسمه.

ـ آسف.

ـ كان النبي عليه الصلاة والسلام عربياً من غير ريب. بل ان من العلماء من قال بأنه من أنكر عروبته عليه السلام فقد كفر لأنه أنكر معلوماً بالضرورة. والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين. ولكن يا فؤاد عليك بالدقة في المصطلحات. أنت لم تسألني عن العروبة. سألتني عن القومية العربية.

ـ وما الفارق يا فضيلة الشيخ؟

ـ الفارق عظيم يا ابني. من سنن الله في خلقه ان تتعدّد الألوان والأجناس. هناك عرب وعجم وصين وهنود. مشكلة القومية العربية انها تريد ان تحول هذا التعدد في الألوان والأجناس إلى تعدد في الولاء. القوميون يريدون إلغاء الولاء للاسلام ليحل محله الولاء للقومية. هذا لا يجوز. لا يمكن ان يوجد بجانب الإسلام ولاء لمعتقد آخر غير الإسلام. لا للقومية، ولا للشيوعية، ولا للأممية.

ـ ولكن يا فضيلة الشيخ ما رأيك في الوحدة العربية؟

ـ إذا كانت قائمة على الإسلام، ونواة لوحدة اسلامية، فبها ونعمت. أما إذا كانت قائمة على العصبية العربية فهي مرفوضة. العصبية العربية لا تختلف عن أي عصبية جاهلية.

يصمت فؤاد تحت تأثير الصدمة. كان يتوقع من الشيخ كل شيء سوى هذه الآراء. ثم يواصل:

- ما رأيك يا فضيلة الشيخ في الذين يقولون ان النظام في مصر لا يحكم بما أنزل الله؟

يضحك الشيخ:

- حتوديني في داهية؟ أنت ايه؟! مخابرات؟ هم وصلوا البحرين؟!

ثم يستأنف بجد:

- الذين يقولون هذا محقون!

لطمة أخرى تصطدم بوجه فؤاد. ويحاول يائساً:

- ولكن يا فضيلة الشيخ مصر هي معقل الإسلام. وجمال عبدالناصر في فلسفة الثورة أسهب في الحديث عن الإسلام والدائرة الإسلامية.

يبتسم الشيخ:

- لا داعي للحديث عن أفراد. هيه؟! فهمت قصدي؟! لا ضرورة للأسماء. نحن نتحدث عن المبدأ. أي بلد لا تقيم حدود الله ولا تأخذ كل أنظمتها من شريعة الله، ولا تستمد كل مقومات وجودها من كتاب الله وسنة رسوله، هي بلد غير اسلامية.

- إذن فالسعودية هي البلد الإسلامي الوحيد في الدنيا؟!

- ألم نتفق انه لا ضرورة للأسماء؟

يعجز فؤاد عن الحديث. ويطرق واجماً. ويدرك الشيخ ان اجاباته صدمت تلميذه. ويحاول التخفيف عنه:

- ومع هذا يا فؤاد لا داعي للقلق. لا داعي لتكفير الناس. بقي الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة في مكة يعلم الناس مبادىء التوحيد. لم تطبق التشريعات الإسلامية إلا في المدينة المنورة. لا داعي للعجلة. النصر مضمون في النهاية. ضمنه الله عز وجل، ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

- ولكن يا فضيلة الشيخ...

- أعرف انك فوجئت ولكن هوّن عليك. لا يقع الإثم على المسلم العادي المغلوب على أمره. الإثم على الذين يتمكنون من تطبيق حكم الله ولا يفعلون. هؤلاء وحدهم، هم الكافرون والظالمون والفاسقون.

- سؤال أخير يا فضيلة الشيخ. ما رأيك في حسن البنا؟

- رحمه الله. كان استاذي، ومات مظلوماً شهيداً. لا أزكّي على الله أحداً، أحسبه كذلك. رحمه الله.

- وجماعة الإخوان المسلمين؟

تعود الابتسامة الكبيرة:

- الامتحان الشهر الجاي يا فؤاد. روح ذاكر ربنا يفتح عليك.

غادر فؤاد مجلس الشيخ مُثقلاً بالهموم. الشيخ محمد أبو زهرة، في رأي الكثيرين، أكبر علماء مصر، وقد يكون أكبر علماء الأمة الإسلامية. كيف يؤمن الشيخ، رغم علمه الغزير، بوجود تناقض بين القومية العربية والإسلام؟! كيف؟! كيف؟! كيف؟!

* * *

يركض عبد الكريم وفي يده مجلة «الكواكب»:

- فؤاد! فؤاد! شوف! غسّل عيونك!

يأخذ فؤاد المجلة. ويجد الصورة في المنتصف. هدية العدد. الوجه الجديد، شاهيناز شاكر. الشعر الذهبي المنسدل على الكتفين. الابتسامة التي تملأ الأرض. حقول الخضرة المترامية في العينين.

يلتفت فؤاد إلى يعقوب:

- يعقوب! المقطع الأول من الأطلال!

ينشد يعقوب بصوته الجميل:

يا فؤادي! رحم الله الهوى ... كان صرحاً من خيالٍ.. فهوى
اسقني واشرب على أطلاله ... وارو عني.. طالما الدمع روى
كيف ذاك الحب أمسى خبراً ... وحديثاً من أحاديث الجوى؟
وبساطاً من ندامى حُلُمٍ ... هم تواروا أبداً.. وهو انطوى

يعلّق عبد الكريم:

- يا فؤادي؟! هذه شاهيناز تنادي فؤاد.

يتجاهله فؤاد، وينظر إلى يعقوب:

- والمقطع الثاني؟

ويمضي يعقوب:

يا رياحاً ليس يهدا عصفها ... نضب الزيت.. ومصباحي انطفا

وأنا أقتات من وهم عفا — وأفى العمر لناسٍ ما وفى
كم تقلّبت على خَنجره — لا الهوى مال.. ولا الجفن غفا
وإذا القلب على غفرانه — كلما غار به النصل عفا

تومض دمعة في عين فؤاد، ويسرع إلى غرفته قبل ان تهوى على خده.

يصرخ قاسم في وجه عبد الكريم:

ـ انظر ماذا فعلت؟

ـ ماذا فعلت؟! لا تصرخ عليَّ. اصرخ على «الكواكب»!



١٢

فبراير ١٩٦٠



أظبية الوحش! لولا ظبيةُ الأَنَسِ   لما غدوتُ بجدٍّ في الهوى تَعِس

المتنبي



١٢

حملت نهاية السنة لقاسم تطورين هامين. وصلت، أخيراً، سيارته من البحرين، السيارة التي وعده أبوه بشحنها منذ ان حصل علي رخصة القيادة. كانت من طراز - «فولكس واجن»، بيضاء كالحليب. أطلق عليها قاسم، فوراً، اسم «سالم الخطر»، الاسم الذي يستعمل في البحرين للإشارة إلى شاحنات «بابكو» العملاقة. جاء هذا الاسم، عندما التصق بالسيارة الضئيلة، طريفاً ومناسباً، ولم يعد أحد يعرف لها اسماً غيره. قرر يعقوب ان يتعلم القيادة وفي ذهنه مخططات حزبية «لسالم الخطر».

أما التطور الثاني، الأروع، فقد كان إطلالة مارجريت صديقة هيلدا التي جاءت من سويسرا لتقضي معها عطلة نهاية العام. بمجرد ان رآها قاسم، أدرك ان نشأت كان محقاً عندما انتقد تضييع الوقت مع «الفلاحات». كان اللقاء الأول في نادي الصيد بالدقي. كان جالساً مع نشأت، عندما أقبلت مارجريت تتمشّى مع هيلدا. كانت ترتدي بنطلوناً ضيقاً من الجينز الأزرق، على الطريقة الأميركية، وبلوزة مشجّرة، على الطريقة الأميركية. فضح الجينز كل أسرار ساقيها وفخذيها، وأذاعت البلوزة كل خفايا صدرها. على وجهها بقايا من النمش زادت روعته، وفي عينيها زرقة المياه في خليج أم الحصم. اتضح ان مارجريت تكبره بثلاثة أعوام، وانها تعمل في بنك في جنيف، وانها تزور القاهرة لأول مرة.

سبق لعبد الكريم، في ساعة من ساعات اعتدال المزاج، ان صنّف الشلة طبقاً لمقاييس الوسامة. أعطى نفسه تقدير «ضعيف»، وأعطى فؤاد وماجد «مقبول»، وأعطى عبدالرؤوف «جيد»، وأعطى نشأت ويعقوب «جيد جداً»، وأعطى قاسم وحده، «ممتاز». في حقيقة الأمر لم يكن قاسم يولي مظهره كثيراً أو قليلاً من الاهتمام. أخذ شكله على علاّته. لم يشعر ان

شعره الكثّ الناعم، وقوامه الرياضي الفارع، وعينيه السوداوتين الواسعتين، وملامحه التي توائم بين خشونة الرجال ونعومة النساء، قد يعطيه موقعاً متميزاً عند التعامل مع الجنس اللطيف. لم يلاحظ تأثير مظهره على النساء، إلاّ بعد تجربته مع إلهام، أو تجربة إلهام معه. بعدها، اتضح له ما لم يكن واضحاً من قبل. كل الفتيات، تقريباً، يمنحنه من اهتمامهن ونظراتهن ما لا يحظى به بقية الأصدقاء. بمجرد ان تعرّف على مارجريت شعر ان إعجابه الفوري بها، قابل إعجاباً فورياً به من جانبها.

من محاسن الصدف ان تصل مارجريت في الأسبوع الذي وصل فيه «سالم الخطر». طارت بهما السيارة الصغيرة إلى كل معالم القاهرة في جولات سياحية يومية. وكانت مارجريت تمضغ كل تجربة كما لو كانت أمام مأدبة شهية. ترتشف، بنهم، عصير قصب السكر الرمادي الذي يأبى قاسم ان يتذوّقه خوفاً من الجراثيم. تقضي على ساندوتش الطعمية في لحظات كما لو كانت من مواليد خان الخليلي. تقفز على ظهر الجمل في الأهرام كما لو كانت توشك ان تمتطي بساط الريح. وعبر هذا كله، تعامل قاسم كما لو كانت تعرفه منذ الطفولة.

احتفالاً بالمناسبتين السعيدتين، قرر قاسم دعوة الشلة إلى حفلة رأس السنة في ملهى «الأريزونا» بشارع الهرم. واعتذر الأصدقاء، مشيرين إلى قرب الامتحانات، ولم يلب الدعوة سوى نشأت وعبدالكريم الذي أسرّ لقاسم انه سيصطحب معه صديقه. التأم الشمل على طاولة أمامية في الملهى الكبير. نشأت وفلاحته السويسرية، وقاسم ومارجريت، وعبدالكريم مع ريري التي بدأت متألقة في فستان ذهبي جميل. أشار نشأت إلى طاولة بعيدة تحيط بها الشجيرات من كل جانب:

ـ عش البلبل! طاولة الاستاذ محمد عبدالوهاب. دائما محجوزة له سواء جاء أو لم يجيء. قد نراه الليلة!

قرّر قاسم ان هذه السهرة لا تصلح للبيرة. وافق، في الحال، على اقتراح «الميتر»، وجاءت زجاجة الشبمانيا.

بدأت السهرة. ارتدوا طراطير رأس السنة وأقنعتها. وتضاربوا بالبالونات. وتقاذفوا بالقنابل اليدوية. ونفخوا في الصفارات. وفجأة، همس نشأت:

ـ فؤاد! كريم! جاء الأستاذ عبد الوهاب.

هناك على الطاولة المنزوية جلس الموسيقار تحف به مجموعة من الأصدقاء. طلبت ريري من عبدالكريم ان يذهب إلى الاستاذ ويطلب منه ان يوقّع لها. وأصرّ عبدالكريم ان تقوم بنفسها. ذهبت إلى طاولة الأستاذ، وعادت بابتسامة كبيرة. على «المانيو» بخط واضح جميل كتب الاستاذ «مع أطيب تمنياتي بالصحة والسعادة في السنة الجديدة. محمد عبدالوهاب». وضعت ريري الورقة في حقيبتها بحرص كما لو كانت تتعامل مع خاتم ثمين من الماس.

توالت فقرات البرنامج الذي أُعدّ بعناية ليتمشى مع أذواق الزبائن المصريين، والزوار العرب، والسواح الأجانب. وصلة من الرقص الشرقي، تعقبها فرقة استعراضية اسبانية. تقاسيم على العود، ثم موسيقى «روك اند رول». منولوجيست يتلوه ساحر برازيلي. ويقفز الليل قفزاً. وقاسم لا يكاد يرفع عينيه عن مارجريت. تصطدم ساقه بساقها. لا يدري هل بدأ هو أو بدأت هي. ولكنه يشعر ان جيوشاً من النمل بدأت تصعد من ساقه إلى دماغه. يمسك بيدها، وتضغط على يده. ينتابه ذلك الشعور الشهواني العنيف الذي عرفه لأول مرة عندما رأى الهام. ويقفز الليل قفزاً. مارجريت، الآن، تصفّق مع الموسيقى. ويده، الآن، على كتفها. وساقها، الآن، ملتفّة حول ساقه كأفعى جائعة. يُعلن مُقدم البرنامج ان الليل يوشك ان ينتصف وان العام الجديد يوشك ان يطل. ويبدأ العدّ التنازلي وتطفأ الأنوار. ثم تضاء. ويحتضن كل جار جارته، وتضمّه مارجريت، وتأخذ شفتاها شفتيه في قبلة بدأت في سنة ١٩٥٩ ولم تنته إلاّ في سنة ١٩٦٠، قبلة عمرها سنة، مرّت كالبرق.

أخذ نشأت فلاحته السويسرية وذهبا في «البعكوكة». عاد قاسم في «سالم الخطر»، وعبدالكريم وريري في المقعد الخلفي، ومارجريت بجانبه. تسلّلت يد مارجريت إلى ساقه، وبذل كل جهده للتركيز على الطريق. تنطلق تأوّهات من المقعد الخلفي. ويبتسم قاسم في الظلام. لا شك ان صحبة ريري أمتع من صحبة «الجدة» مراراً، وأسلم مراراً. عندما وصلوا شقة الحرية، دخلت ريري الغرفة مع عبدالكريم، ودخلت مارجريت معه غرفته، بلا سلام أو كلام.

كل ما كان قاسم يحلم به عبر السنين وجده تلك الليلة، أو، على الأصح، ذلك الصباح. كل التوقعات. كل التخيلات. كل التطلعات. لم ينم لحظة واحدة، ولا نامت هي. عرف الرّي كما لم يعرفه من قبل، وظمأ

كما لم يظمأ قط. حلقه مفرغة من الرّي والظمأ، والجوع والشبع. تبددت العقد، وزالت المخاوف، ووقف التاريخ. غابت الدنيا، ولم يبق سوى جسدين فتيين جامحين يعطيان ويأخذان، مُوجِعيْن في سخائهما، مُوجِعيْن في استجدائهما. ترك قاسم السنة القديمة صبيّاً، واستقبل السنة الجديدة رجلاً.

«اليوم خمر وغدا أمر» ـ طافت العبارة بذهن قاسم ـ ونسي قائلها. أبو نواس؟ وجاء الغد، وذهبت السكرة. اختفت مارجريت وكأنها شبح من أشباح السنة الغابرة أفزعه ضوء السنة القادمة. لم تترك غير ذكرى الشبق المعطر. ذكرى الليلة الوحيدة، الفريدة، اليتيمة. يعرف قاسم انه من العبث ان يحاول الاتصال بالشبح الفاتن الذي رحل. يدرك ان شيئاً رائعاً كهذا لا يمكن ان يحدث في عمر واحد سوى مرة واحدة.

بعد السهرة التاريخية بأيام، أبصر قاسم البقع الصفراء المتناثرة على ملابسه الداخلية. خطر بباله، بادىء الأمر، انه يحتاج إلى نظارة. ثم جاء الحرَقان، ولم يعد هناك مجال للوهم. أسرع، بمفرده هذه المرة، إلى الأخصائي الذي عالج عبدالكريم. وفحصه الأخصائي ثم ابتسم:

ـ عشر حقن بنسلين!

وأضاف وهو يضحك:

ـ انتو إيه؟ ما حيلتكوش حاجة نضيفة؟!

ذهبت السكرة، وجاء ما هو أسوأ من الفكرة. جاء السيلان!

يصرخ كالمهبول:

ـ يا نشأت! يا نشأت! هل هذا معقول؟ هل هذا ممكن؟ بنيّة سويسرية مصابة بالسيلان؟!

ـ هل أنت متأكد انك لم تنم مع غيرها؟

ـ متأكد؟! طبعاً متأكد.

ـ ألا يمكن ان تكون قد التقطت العدوى عن طريق آخر؟ في الحمّام؟

ـ يقول الطبيب ان احتمال حدوث شيء كهذا هو واحد في المليون.

ـ عجيبة!

ـ أكثر من عجيبة! عندما أصيب يعقوب قلنا يستاهل لأنه يلتقط من

الشوارع. ولكن هذه البنيّة! موظفة في بنك، خريجة جامعة، من أين جاءت بالسيلان؟!

- علمي علمك! قليل البخت يلاقي العضم في الكرشة، والسيلان في سويسرا!

تصطخب الأفكار الغاضبة في رأس قاسم. سيلان!! سيلان؟! من مارجريت؟! بعد أول مرة ينام فيها مع بنيّة. وأي بنيّة؟ أجمل فتاة رآها في حياته. أي حظّ منحوس حظه مع النساء! محترفات لا يستطيع الاقتراب منهن. فتاة تضرب عن الطعام، وتصر على الزواج، وتسخسخ مع كل لمسة، وأم تراود صديق ابنتها عن نفسه. ثم فاتنة تجيء من جبال الألب ومعها هدية رأس السنة. يا لهذه السنة التي بدأت بالسيلان. كيف ستنتهي؟ بالسل أو بالسرطان؟!

* * *

كل حوار بين فؤاد وعبدالرؤوف، الآن، ينتهي بمشادة. وكل منهما عاجز عن فهم الآخر. كل منهما يحاول عبثاً ان يوضح ما يعتبره واضحاً. فؤاد لا يُصدق ان عبدالرؤوف، بكل ذكائه وثقافته، يؤمن أن بوسع الإخوان المسلمين ان يقودوا أمّة الإسلام إلى المستقبل. ماذا لدى الجماعة؟ شعار واحد: تطبيق الشريعة. حسناً! وبعد تطبيق الشريعة؟! ما هو البرنامج الاقتصادي والاجتماعي والسياسي؟ لا شيء لدى الإخوان بعد الشعار. هل يملكون الرؤية الناصرية العصرية للتنمية؟ هل لديهم المقدرة على التخطيط الناصري العصري؟ هل يستطيعون تحريك الجماهير كما يحرّكها جمال عبدالناصر؟

الإسلام، كما يفهمه فؤاد، يتجلى في مسلك جمال عبدالناصر كما لا يتجلى في مسلك الهضيبي وجماعته. ألم يكن الإسلام نفسه ثورة؟ أعظم ثورة في التاريخ؟ ألم يحرّر المرأة من الوأد وبقية التقاليد الجاهلية؟ ألم تكن عائشة تقود الجيوش؟ ألم يصادر عمر بن الخطاب أموال الولاة؟ أليس ما يدور الآن في مصر الثورة هو الترجمة الفعلية لروح الإسلام؟ هل الإسلام نصوص يفسرها أصحاب العمائم كما يشتهون، أم ممارسة ثورية تقدمية؟

ألا يستطيع عبدالرؤوف ان يرى بعينيه كيف يجسد جمال عبدالناصر مبادىء الإسلام؟ ألا يرى كيف يحارب الاستعمار بضراوة المؤمن القوي؟ وكيف يحاسب أعوانه بنزاهة المسلم الورع؟ ألا يشاهده يجمع شتات

العرب من المحيط إلى الخليج؟ ألا يبصر المصانع التي تُبنى كل يوم؟ والمدارس؟ والجامعات؟ ومراكز البحث العلمي؟ والطاقة الذرية؟ والسد العالي؟ والجيش الحديث القوي؟ هل يستطيع الهضيبي ان يفعل شيئاً من هذا؟ الهضيبي الذي لم يتمكن من إقناع ابنته بالحجاب؟

وعبدالرؤوف يحاول، باستماته، ان يشرح لفؤاد انه لا يرى الواقع على حقيقته بل كما يتمناه ويتوهمه. يحاول ان يبين له انه لا توجد في مصر عدالة بل حكم ديكتاتوري بوليسي غاشم. يحاول ان يوضّح ان بناء المدارس يضر ولا ينفع إذا كانت المناهج مليئة بتقديس الديكتاتور. وان إقامة المصانع لا تجدي ما دام انتاجها نهباً لحفنة من الضباط. والجيش الذي لا يدافع عن الإسلام هو جهاز آخر من أجهزة القمع. يحاول عبدالرؤوف ان يخلص فؤاد من الغشاوة الوردية التي لا يستطيع ان يرى جمال عبدالناصر إلاّ من خلالها. يحاول ان يجعله يحس بالوحش المختفي تحت الابتسامة المصطنعة، والدعاية الكاذبة، والشعارات البراقة، الوحش الذي لا يتردد عن سفك الدماء، وسجن الآلاف، الطاغية الذي لا يهمه سوى طموحه المسعور.

يفشل الإثنان. ثم يتفقان على إعلان هدنة، لمدة لا تقل عن ثلاثة شهور، يمتنع على أي منهما خلالها ان يثير موضوع جمال عبدالناصر، أو الإخوان المسلمين، أو العلاقة بين القومية العربية والإسلام.

* * *

كل يوم يمر يزيد حماسة ماجد لحركة القوميين العرب وإصراره على ضم فؤاد إليها:

- أقسم لك انها مكانك الطبيعي يا فؤاد. انضم ولن تندم.

- لا تزال تجربتي مع البعث حيّة في ذهني. أنا لا أصلح للانضباط الحزبي.

- قلت لك اننا لا نعتبر أنفسنا حزباً. نحن حركة.

- هذا فرق شكلي في التسمية.

- لا. لقد رأيت، بنفسك، حزب البعث. جناح يميني وجناح يساري. بعث عراقي وبعث سوري. بعث عسكري وبعث مدني. نحن حركة واحدة. حركة جماهيرية. لا نعتبر أنفسنا نخبة تقود الجماهير من علٍ؛ نحن الجماهير! وقائدنا الوحيد هو جمال عبدالناصر.

ـ لا أعتقد يا ماجد اني مستعد لالتزام سياسي جديد. أنا ناصري فحسب.

ـ ونحن في الحركة جميعاً ناصريون. لديَّ اقتراح. سوف يكون الدكتور أحمد الخطيب في القاهرة في الاسبوع القادم. لماذا لا تذهب معي لمقابلته؟

ـ تجربتي مع الاستاذ لا تشجع. لا أريد استاذاً جديداً. يكفي اساتذة الكلية.

ـ هذا رجل مختلف. شعبي إلى أبعد الحدود.

تم اللقاء في شقة برّاك النافي، طالب كويتي يدرس الطب مع ماجد. الدكتور أحمد الخطيب شاب لم يبلغ الثلاثين، أسمر داكن السمرة، يستعمل نظارة طبية، وتشع من جسمه طاقة لا حدود لها. بمجرد ان يتعرف على فؤاد يبادره:

ـ ما هذا؟ هيكل عظمي؟ سوف أصف لك بعض المقوّيات.

ويرد فؤاد:

ـ نسيت انك طبيب. الدكتور جورج حبش والدكتور وديع حداد والدكتور أحمد الخطيب، وغداً الدكتور ماجد الزبير والدكتور براك النافي. هل هذه حركة سياسية أم نقابة أطباء؟

يردّ الدكتور أحمد الخطيب ضاحكاً:

ـ ومن أحسن من الأطباء لتشخيص أمراض الأمة؟

ـ والوصفة وحدة. تحرر. ثأر؟

ـ هل لديك وصفة أحسن؟

ـ أنا لا أحمل وصفات يا دكتور. أحمل أسئلة.

ـ وأنا لا أحب شيئاً قدر حبي للنقاش. إلاّ، ربّما، «المُموّش».

ـ في البداية: لماذا الحركة؟ لماذا نقيم حاجزاً بين الجماهير وجمال عبدالناصر؟

ـ أولاً، نحن جئنا قبل ظهور جمال عبدالناصر، بدأنا في نهاية الاربعينات. ثانياً، نحن لا نعتبر أنفسنا حاجزاً بين القائد وجماهيره. على العكس تماماً، نحن جسر بين الزعيم والأمة. لقد اتخذنا قراراً بأن قيادة

الأمة العربية، في هذه المرحلة، يجب ان تكون لجمال عبدالناصر، وله وحده. تستطيع ان تعتبر جمال عبدالناصر قائدنا الفعلي.

ـ السؤال الثاني: ما هو موقف الحركة من الاشتراكية؟ هل أنتم رأسماليون؟ أم اشتراكيون مستترون؟

ـ هذا سؤال هام جدًا. لقد طرحنا على أنفسنا هذا السؤال منذ كنا طلاباً في الجامعة الأميركية ببيروت. لم يكن هناك سوى ثلاثة أو أربعة أعضاء وقتها، ولم نكن نسمي أنفسنا حركة. منذ ذلك الوقت وموضوع الاشتراكية يشغلنا. وقد بحثناه مع الإخوان البعثيين مراراً. كنا، ولا نزال، مقتنعين ان العدالة الاجتماعية لن تتحقق في ظل نظام رأسمالي مستغل. لا بد من صيغة تجمع بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة. إلا اننا، ودعني أتكلم معك بصراحة، انتهينا إلى انه من الأفضل تأجيل الموضوع بأكمله، وعدم طرح الاشتراكية شعاراً أو هدفاً في هذه المرحلة.

ـ وإلى متى التأجيل؟

ـ إلى ان يخرج الاستعمار من الوطن العربي ويتحد وتتحرر فلسطين. نبدأ بالثورة السياسية وننتهي بالثورة الاجتماعية الاقتصادية. الحديث عن الاشتراكية الآن لا يخدم القضية. سوف يقسم العالم العربي إلى معسكر أغنياء ومعسكر فقراء. وقد يدفع الفقراء إلى الكتلة الشيوعية والأغنياء إلى الكتلة الرأسمالية. علينا ان نكون في غاية الحذر. في هذه المرحلة يجب ان تكون الأولوية المطلقة لمحاربة الاستعمار.

ـ ومع ذلك، فأنا ألمح من خلال كلامك شيئاً من التعاطف مع الاشتراكية.

ـ حركتنا منفتحة على كل النظريات والآراء والمذاهب. نحن لا نملك قوالب جاهزة. لم نصنع شعاراتنا في أبراج عاجية. صنعتها تجارب الجماهير. ونحن نملك القدرة على التطور والتغيير. هذا ما يجعلنا نعتقد ان حركتنا تختلف عن الآخرين.

ـ من الأشياء التي تقلقني يا دكتور اني شعرت من تجربتي مع البعث ان كل الأعضاء من سوريا ولبنان والعراق، ولا يكاد أحد يعرف شيئاً عن بقية الأمة العربية. عن منطقتنا مثلاً.

ـ نحن في الحركة نلتزم الواقعية والنظرة العلمية. لا تنس اننا أطباء. نحن نعي تماماً الفوارق التي خلفها الاستعمار بين الشعب العربي في هذا

القطر. والشعب العربي في ذلك القطر. نعرف تماماً كيف نتعامل مع هذه الفروق، وكيف نزيلها عن طريق الوحدة العربية الشاملة.

ـ ألا تعتقد ان منطقتنا، بالذات، لها خصوصية متميزة؟

ـ يا أخ فؤاد نحن نتحدث عن أمة عربية تسكن وطناً عربياً يمتد من المحيط إلى الخليج. أكثر من مائة مليون. ما هي منطقتنا؟ مائة ألف في الكويت؟ مائة ألف في البحرين؟ نحن قطرة في البحر العربي. مجرد عشيرتين صغيرتين. ومن دون العمق العربي سوف نظل مجرد عشيرتين، بلا مستقبل.

يتدخل ماجد:

ـ يا دكتور أحمد! فؤاد يهتم كثيراً بالعلاقة بين الإسلام والعروبة. نريد ان نسمع رأيك.

ـ وهذا أيضاً موضوع أساسي، وقد قتلناه بحثاً. دعني في البداية، أؤكد انه لا يوجد أحد في الحركة، حتّى من الرفاق المسيحيين، ينكر ان الإسلام هو الذي أعطى الأمة العربية مناقبيتها وأصالتها وقيمها الروحية. هذه مسألة حُسمت وانتهت. لم نشعر أبداً بأي تناقض بين الاسلام والعروبة.

ـ وماذا عن تطبيق الشريعة الإسلامية؟ عن دور الإسلام في الدولة العربية الواحدة؟

ـ نحن نؤمن بحرية الأديان. بحق كل انسان عربي في اعتناق الدين الذي يرتضيه وممارسته. ولكن تذكّر ان الحرية لا تتجزأ. إذا أعطيت الانسان العربي الحرية الدينية فلا بد أن أعطيه الحق في ان يرفض أي سيطرة تفرض عليه باسم الدين. لا يمكن ان أترك المسلم يفرض رأيه على المسيحي. أو السنّي على الشيعي.

ـ أفهم من ذلك ان الشريعة الاسلامية سوف تعتبر مجرد طقوس وشعائر ولن تطبق في الواقع؟

ـ السؤال الجوهري في رأيي: ما هو الاسلام؟ في مفهومي، لا يختلف الاسلام عما نؤمن به وننادي به. نقول وحدة؛ والإسلام يحث على الوحدة. نقول تحرر؛ والاسلام يقول «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّاتهم أحراراً». نقول ثأر؛ والاسلام يقول ردوا على العدوان بالعدوان. لقد ولدتُ في بيئة دينية محافظة ولم أشعر أبداً ان مبادئي القومية تتعارض مع ديني.

ـ النظرية الإسلامية يا دكتور تقول ان الاسلام منهج شامل متكامل لا يمكن تطبيق بعض أجزائه واهمال البعض الآخر.

ـ إذا كنت تتحدث عن التفسير الإخواني للاسلام فدعني أقلْ لك، بصراحة، انني أعتبره تعبيراً عن العقلية الإخوانية لا عن الاسلام. دعني أقلْ لك، بصراحة، انني عالم أعيش عصر العلم ولا أسمح لأحد ان يفرض عليَّ آراء متخلفة باسم الاسلام.

يتدخل ماجد:

ـ الاسبوع الماضي جاء مطوّع من بلدتنا إلى القاهرة للعلاج. وذهبت أزوره. بدأ فوبخني لأني حليق اللحية. ثم تطرق الكلام إلى حديث الذباب وقلت له انني كشخص يدرس الطب لا يمكن ان أصدق ان الرسول قال ان في جناح الذبابة شفاء من الأمراض التي يحملها الجناح الآخر، فغضب وقال ان عليَّ ان استغفر وأتوب.

تدخل براك:

ـ هذا مثل جيد للأشياء التي تطرح باسم الإسلام. هل يمكنني، وأنا طبيب، أن أشيد بنظافة الذباب، أو اختن البنات؟

ينظر إليه فؤاد ببرود:

ـ لم تصبح طبيباً بعد.

ويرد براك ضاحكاً:

ـ صحيح. ولكني طباخ ماهر. تفضل يا دكتور. تفضلوا يا اخوان. «المموش» جاهز!

عندما خرجا من الشقة سأله ماجد عن رأيه في الدكتور أحمد الخطيب وأجابه فؤاد:

ـ على الأقل، هنا شاب يضحك ويمزح. ويعترف بأنه لا يملك جميع الأجوبة. إذا كان لا بد من خيار بين الاستاذ والدكتور فإنني أفضل الدكتور. خصوصاً إذا نجحت الأدوية التي وصفها في إضافة بعض الأرطال إلى الهيكل العظمي.

* * *

تتنامى سعادة يعقوب مع تنامي خبرته في العمل الثوري. كانت نشوته بالغة عندما طلب «رامز» منه ان يستضيف أحد الاجتماعات في شقة

الحرية. اختار مساء خميس، واتخذ كافة الاحتياطات ليضمن خلو الشقة من السكان والزوار. كان من المثير ان يخصص هذا الاجتماع لدرس عن قنابل «المولوتوف». كان يعقوب يسمع كثيراً عن هذه القنابل التي ابتكرها مولوتوف والتي أودت بالكثير من المدرعات النازية. كان يعتقد انها قنابل حقيقية وان صنعها يحتاج إلى مهارة ومواد خام متنوعة. ثم تبين ان المسألة لا تتطلب سوى زجاجة تملأ بالبنزين وتغمس فيها فتيلة. عندما تقذف الفتيلة وتصطدم الزجاجة بجسم صلب، تنكسر متحوّله إلى قنبلة تنشر النار في ما حولها.

هذه هي روعة العمل الثوري! هنا الفرق بين القصائد والقنابل، بين الكلمات والطلقات، بين الشعب الأعزل والشعب المسلح. زجاجة عادية، وكمية صغيرة من البنزين، وتشب النار. وتشتعل دبابة أو عربة مصفحة أو بناية. آه، لو أمكن تثوير الجماهير في يوم واحد! لو أعطى كل انسان مسحوق في العالم زجاجة «مولوتوف» وطلب إليه ان يرميها على أقرب رمز من رموز الاستغلال. في اليوم نفسه! ماذا كان سيحدث؟ تشتعل الكرة الأرضية من أقصاها إلى أقصاها، ويسقط الطغاة، وينتصر الكادحون في يوم واحد!

كل هذا يعرفه الرأسماليون القذرون تمام المعرفة. ولهذا يحولون بين الجماهير المقهورة وقدرها الثوري، بينها وبين الحزب الشيوعي. وتنساق الجماهير المسحوقة مع الخداع مدفوعة بالجهل وانعدام الوعي. تُنشأ الأحزاب «الديمقراطية» وتموّل من قبل الرأسماليين، ويُقبل عليها الناس مصدّقين أنها تهدف إلى اعطائهم الحرية. تُسرق الشعارات وتقدّم إلى الأحزاب «الاشتراكية» التي تديرها حفنة من الاحتكاريين. وتجنّد المنابر الدينية للهجوم على الإلحاد، والهدف الحقيقي هو الهجوم على الثورة. يعرف الرأسماليون المجرمون ان الثورة الشيوعية هي الخطر الوحيد الذي يتهددهم. أما بقية الأخطار فمن صنعهم هم، يخلقونها عندما يرغبون، ويقضون عليها عندما يشتهون.

ولكن كيف نوصل زجاجة «مولوتوف» إلى كل فرد في الجماهير الغفيرة؟ كيف ندرّبه على استعمالها؟ كيف نحرّضه على التحرك؟ هنا يجيء دور الحزب. هنا تبرز أهمية التنظيم. وهنا تبدو أهمية الحذر الشديد.

كل حلقة من حلقات العمل الثوري محفوفة بالصعوبات والمخاطر. لم يكن يعقوب يتصور مدى الجهد المبذول في اعداد منشور واحد حتى انضم إلى الحزب. جهاز «الاستنسل» يجب ان يكون في مكان لا يعرفه إلا القلة، وكلما قلّ العدد زاد الأمان. والجهاز يحتاج إلى آلة طابعة، وحبر، وورق، لا يجوز ان تُشترى من مكان واحد أو في وقت واحد أو بواسطة شخص واحد. بعد هذا كله تجيء مرحلة الكتابة والطبع. ثم تجيء مرحلة التوزيع، أخطر المراحل. لا بد من اختيار الوقت المناسب لرمي المناشير أو لصقها، في تلك الساعات المتأرجحة بين الليل والنهار. لا بد من اختيار النقاط المناسبة، حيث يتجمع أكبر عدد ممكن من الناس وأقل عدد ممكن من رجال الأمن، معادلة شبه مستحيلة. وإلى جانب المناشير، هناك كتابة الشعارات على الجدران، عملية معقدة بدورها. تحويل آلة الصباغة التي تستخدم في ورش السيارات إلى جهاز كتابة. اختيار الجدران، والكلمات، والكاتب، والوقت. أي غلطة في أي مرحلة تؤدّي إلى سنوات في السجن.

في نهاية الاجتماع استفسر يعقوب من «رامز» عن القنابل الحقيقية ومتى يتعلمون صنعها. ورد «رامز» بأنه لا حاجة إلى قنابل حقيقية في هذه المرحلة. ثم قال يعقوب ان لديه أسئلة عن علاقة الحزب بالأديان وانه يود طرحها في الاجتماع القادم. قال «رامز» ان الاجتماعات لا تناقش مسائل فلسفية، وانه شخصياً ليس خبيراً في الموضوع، ولكنه سيرتب لقاء بين منظر الحزب في مصر، «الاستاذ سين» وبين يعقوب. يستفهم يعقوب عن هوية هذا المنظر، ويرد «رامز»:

ـ قلت لك. «الاستاذ سين»!

* * *

أصبحت ريري ضيفة دائمة، تزور شقة الحرية مرتين في الاسبوع على الأقل. اتضح ان اسمها الحقيقي هو عنايات وقرر الجميع انهم يفضلون ريري. واتضح ان المعلومات التي استخلصها عبدالكريم في لقائهما الأول كانت صحيحة مع اختلاف يسير في التفاصيل. كان أبوها، الذي توفي بالفعل في حادث سيارة، موظفاً في الحكومة ولم يكن عسكرياً. وأمها تعول، بالفعل، طفلاً وثلاث فتيات. وقد بدأت «الشغل» فعلاً، عندما كانت في السادسة عشرة (قبل أربع سنوات لا سنتين كما زعمت في المرة

الأولى). وهي، فعلاً، أنهت دراستها الاعدادية، وقدمت الشهادة برهاناً ساطعاً لعبدالكريم.

عندما اتصل بها عبدالكريم في أواخر السنة المنصرمة لم يحرص على تحليل دوافعه. كان في حاجة إلى الترويح عن نفسه بعد المحن التي مرت به، وجاءت ريري لتروّح عنه. جاءت تتأبط النكات والبسمات والضحكات والكثير من التفهم. استمعت إليه، ساعة بعد ساعة، يقص عليها ما حدث له، واستمعت باهتمام وتعاطف وحنان. عندما استمع هو إلى تجاربها المريرة التي تتكرر يومياً، أدرك صدق المثل الشعبي الذي يتحدث عن بلاوي الغير وبلاوي النفس. كان منظر عبدالكريم وريري يتبادلان حكايات المآسي مصدر متعة لا تنتهي وتعليقات لا تنفد.

متى تحولت العلاقة بينها وبين عبدالكريم من علاقة تجارية خالصة إلى صداقة؟ متى بدأت ريري تتغير في لباسها وتصرفاتها وحركاتها؟ متى فقدت إمارات الاحتراف؟ متى بدأ العم زكريا البواب يعاملها كطالبة محترمة في الكلية؟ متى بدأت تدخل المطبخ وتساعد عيشة؟ لا يستطيع عبدالكريم ان يجيب على أي من هذه الأسئلة. جاء كل شيء من غير تخطيط مسبق، من غير إصرار وترصد كما تقول كتب القانون الجنائي. تمّت هذه التطورات من غير ان يشجعها عبدالكريم على أي نحو. كان، كالزوج الاسطوري المخدوع، آخر من يعلم.

ريري من جهة، و«الفلاحة السويسرية» من جهة أخرى. ربّتا منزل: واحدة قادمة من أقاصي الدلتا والثانية من قمم سويسرا. مع هيلدا، بدأت شقة الحرية تتعرف على الزهور، ومفارش الطاولات، واللوحات الزيتية الرخيصة. ومع ريري، تعرفت شقة الحرية على مستويات عالية جديدة من النظافة، والترتيب، والغسيل والطبخ. يلاحظ الاستاذ شريف، بسرور واضح، وفضول أوضح، التغييرات، ويسأل:

ـ اللوحة دي يا فؤاد جت منين؟

ويردّ فؤاد ببراءة:

ـ أرسلوها من البحرين.

ويسأل:

مين اللي اشترى الأباجورة دي؟

ويرد قاسم بهدوء:

ـ أنا يا استاذ.

ويتساءل:

ـ عيشه عرفت تطبخ الاسكلوب ده ازاي؟

ويرد يعقوب:

ـ كتاب الطبخ يا استاذ شريف.

ويهز الاستاذ رأسه، ويبتسم.

يا للتغيير المذهل الذي يدخله الوجود النسائي على حياة أربعة عزاب بوهيميين. لم يلحظ أحد الفوضى التي كانت تضرب بأطنابها في كل مكان من شقة الحرية حتى زالت الفوضى. لم ينتبه أحد إلى كومة الثياب المتسخة في الحمام حتى اختفت. لم يشعر أحد ان الحمّام يفتقر إلى كثير من اللوازم، الصيدلية والرفوف ومواضع المعجون والفرش، حتى استكملت اللوازم. لم يحس أحد منهم بالفتوق التي كانت تزين ملابسه حتى تلاشت الفتوق.

عبدالكريم سعيد إلى درجة المباهاة بالتحسينات التي أدخلتها ريري على الشقة عموماً، وعلى حياته بوجه أخص. قذفت بكل كرافتاته (الستة) في سلة المهملات واشترت له مجموعة جديدة. أحضرت له عدداً من القمصان بألوان «فرايحي». أصرت على ان يشتري نظارة جديدة بإطار أنيق. دلّته على حلاّق جديد غيّر خارطة شعره تماماً. اللمسات التي نثرتها هنا وهناك، الدولاب الجديد، رفوف الكتب، السجادة الصغيرة، المزهرية، حوّلت غرفته من زنزانة كبيرة إلى منتزه صغير.

رغم الصداقة التي تتكثّف، رغم العلاقة الجسدية والروحية المتصاعدة، بقيت منطقة محظورة لا يتطرق إليها الحديث، موضوع «الشغل». ترفض ان تأخذ منه شيئاً ويصرّ هو، بين الحين والحين، على ان تقبل منه هدية بسيطة، زجاجة عطر، أو ايشارب، أو خاتماً من متجر والد فؤاد. ولكن ماذا عن «الشغل»؟ هل لا زالت تمارس المهنة القديمة؟ هل عثرت على عمل جديد في مجال آخر؟ ابتسم عبدالكريم وهو يتذكر إجابتها عندما سألها عن موقف أمها من خروجها من المنزل «لا هي بتسأل، ولا أنا بأقول». منتهى الحكمة!

* * *

تدنو الساعة من منتصف الليل. وفؤاد في السرير منهمكٍ في قراءة آخر كتب يوسف ادريس. ويرن جرس التيلفون، ويقوم متثاقلاً يود ان يكفيه أحد أصدقائه مؤونة الرد. يفتح الباب ويرى بقية الغرف مظلمة. يرفع السماعة ويقول بضيق لا يحاول اخفاءه:

ـ نعم؟!

ـ أنت مين؟

ـ فؤاد.

ـ فؤاد الأول؟

ـ لا! فؤاد النايم.

ـ دمك خفيف.

الصوت الانثوي مشاغب وموسيقى، ومع ذلك يرد بغلظة:

ـ عقلك اللي خفيف. أي خدمة؟

ـ نخدمك بعنينا.

ـ انتي مين؟

ـ مديحة.

ـ مديحة القبيحة؟

ـ لا. مديحة المليحة.

لا. مديحة الوكيحة.

ـ وكيحة؟ إيه دي؟ لاوْندي؟

ـ تمر هندي!

ـ والنبي دمك خفيف.

ـ شكراً. أي خدمة؟

ـ سوسو موجودة؟

ـ لا سوسو ولا حلموسو.

ـ جدّ. سوسو موجودة؟

ـ يا مديحة الوكيحة! سوسو مش موجودة!

ـ انت مش مصري؟

- أنا المصري. فريد عصري!
- مش باين!
- مش باين اني مصري؟ والاّ اني فريد عصري؟
- الاثنين! حقة أنت منين؟
- من كوم الزفت. وجه قبلي. يا أبوي!
- حضرتك بتتريق؟ يا حجازي يا أبو دم ثقيل!
- مدد يا سيدي أحمد!
- امّال فين سوسو؟
- اسمعي! الساعة اتناشر. وبكرة لازم أصحى بدري.
- ليه؟ رايح تدنّ؟
- يا ريت. رايح الكلية.
- كلية إيه؟
- الحقوق.
- أنت طالب هناك؟
- لا! خفير!
- خفير وبتِستقرا. طالع نبيه لمين؟
- للي خلفوكي!
- انت حاتلبّخ يا واد يا حجازي أنت؟!
- وانتي حاتفرشي لي الطرحة يا بنت يا شلق أنتي؟!

لا يدري فؤاد متى فقد الرغبة في إنهاء الحوار. كل ما يدريه انه الآن حريص على ان يطول هذا الحديث العجيب.

- بلاش بياخه بقى - فين سوسو؟
- انت ما سمعتيش؟! دي ماتت! عقبال عندك!
- بعد الشرا ان شاء الله أنت!
- اطلبيها في الإمام.
- بعد الشرا انت مسحوب من لسانك كده ليه؟

- وأنت مسمومة من لسانك كده ليه؟

ترن الضحكة صافية مثيرة:

- اسمع! انت دمك خفيف. حاطلبك بكرة تاني! نمرتك كام؟

- مش أنت اللي طلبتيها؟

- أنا كنت عايزة سوسو وطلعت لي بسلامتك. بلاوي مستخبيّة.

- خدي النمرة. حاتتكلمي امتى؟

- مش عارفة. لما اشوف.

وأقفلت السماعة في الجانب الآخر.

يتمتع فؤاد، باعتراف أصدقائه، بخبرة واسعة في المعاكسات التيلفونية. يستطيع، إذا وجد تجاوباً، ان يتحدث من غير انقطاع. وفؤاد يصرّ على انه يستقي من هذه المعاكسات مادة فنية لقصصه. إلاّ ان هذه المكالمة من نوع مختلف. لم يشعر فؤاد من قبل برغبة جنسية تنتقل من السماعة وتشعل جسده. لم يشعر أبداً، قبل الليلة، بشهوة حقيقية تأسره من مجرد معاكسة تيلفونية. بلاوي مستخبيّة!

* * *

يبتسم الشيخ أبو زهرة:

- خير يا فؤاد؟

- سؤال بسيط يا فضيلة الشيخ. حديث الذباب.

على خلاف عادته ينفجر الشيخ:

- حديث الذباب؟! اشمعنى؟! حرّرنا فلسطين؟! حرّرنا كشمير؟! وحّدنا الأمة الاسلامية؟! انهينا كل مشاكلنا ولم يبق إلاّ حديث الذباب؟!

يؤخذ فؤاد، على حين غرة، بهذه الثورة ويتلعثم:

- آسف. آسف يا فضيلة الشيخ. كنت فقط أريد ان أعرف إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قاله بالفعل.

وتستمر ثورة الشيخ:

- هل أجبرك أحد على ان تأكل من إناء وقع فيه الذباب؟! هل أصدرت أي حكومة قراراً بقتل من لا يأكل من إناء وقع فيه الذباب؟! هل قال عليه

الصلاة والسلام ان الذي لا يفعل هذا يُخلد في النار؟! ارم الطبق يا أخي! ارمه بما فيه!

يحمّر وجه فؤاد ويطرق خجلاً. ويستعيد الشيخ هدوءه وجزءاً من ابتسامته:

ـ هذا الحديث يا ابني شغل المستشرقين الشاغل. ألّفوا عنه الكتب. ولا يزالون يثيرون الشبهات عن طريقه. هذا سبب غضبي. بحثوا في هذا الحديث وكأن كتب السنّة المطهرة لم تحو غيره.

ـ هل هو حديث صحيح؟

ـ ورد في الصحاح. ولكنه حديث آحاد. وعند الأحناف حديث الآحاد لا يفيد سوى الظن. لا يوجد ما يجبر المسلم على قبول كل أحاديث الآحاد. الإمام البخاري رحمه الله لم يضع في صحيحه الكثير من الأحاديث رغم انطباق شروطه عليها. ولا الإمام مسلم رحمه الله. وهذا ما استدركه الحاكم. إذا كان في نفسك شيء من الحديث فتوقّف فيه. ومع هذا فقد تكلم بعض العلماء في السند هناك بحث قيّم للمرحوم السيد محمد رشيد رضا. تجده في أعداد المنار، في مكتبة الكلية. إذا لم تجده فأخبرني لأبحث عنه في مكتبتي. تذكر ان هنالك ما هو أهم من الذباب.

* * *

حذّر نشأت فؤاد وعبد الكريم أنهما ما لم يدرسا اللغة الفرنسية فلن يجتازا الجزء الفرنسي من امتحان القانون المدني وبالتالي لن ينجحا في المادة. نتيجة إلحاح نشأت التحق فؤاد وعبدالكريم بمدرسة «بيرلتز» ودفع كل منهما، مقدماً، ثمن الكورس في اللغة الفرنسية، خمسين جنيهاً مقابل عشرين درساً. أخبرتهم السكرتيرة ان المدرّس فرنسي وانه لا جدوى من محاولة التخاطب معه باللغة العربية.

الاستاذ، مسيو دانتيه، رجل عبوس، أصلع الرأس، شديد الانفعال، تجاوز الستين. بدأت الدروس وسرعان ما اكتشف فؤاد وعبدالكريم ان أملهما في ان يتعلما الفرنسية لا يختلف في درجة واقعيته عن تطلع ابليس إلى دخول الجنة. لم يخل درس واحد من غضبة عنيفة بالفرنسية لا يستطيع الطالبان النجيبان فهمها ولكنهما يستطيعان ان يتخيلا ما تعنيه. وجاءت الطامة الكبرى مع حرف O الذي يلفظه الإثنان على الطريقة

الانكليزية «أو»، ويصرّ المسيو على ان يلفظ بطريقة مختلفة تماماً: «اوورويه»! أعاد المسيو النطق مرة بعد مرة، وعجزا عن تقليده مرة بعد مرة. فجأة ضرب المسيو بيده على الطاولة وصرخ:

ـ انتو بني آدم ولاّ حمير؟!

لم يستطع فؤاد الحديث من الدهشة. أما عبدالكريم فقال للمسيو بهدوء:

ـ الحمار أبوك! وأنت ابنه!

استردا المبلغ من المدرسة. وأقسما ان هذا فراق ما بينهما وبين الفرنسية. نشأت يضرب يداً بيد:

ـ حاتسقطوا! يا جماعة! والله حا تسقطوا! شوفولكو حد تاني. أنا مستعد أدرسكم.

يرد الاثنان بصوت واحد:

ـ نسقط نسقط!

ويضيف فؤاد:

ـ السقوط موقف وجودي بطولي.



١٣

ابريل ١٩٦٠



مــا أجــدر الأيــام والــلــيــالــي
بــأن تــقــول: مــا لــه ومــا لــي؟

المتنبي



١٣

يُسر قاسم بسماع آراء سيد محرم باشا، والد نشأت، كلما ذهب إلى زيارته بين الحين والحين. ويُسر الباشا بالحديث مع هذا الفتى الرأسمالي البحريني الذي يبدو، في نظر الباشا، العاقل الوحيد في جيل كامل تمكن جمال عبدالناصر من سلبه موهبة التفكير. يدور الحديث في حديقة الفيلا الكبيرة بقرب النيل على مرمى حجر من دارة شوقي الشهيرة «كرمة ابن هاني». قضى الإصلاح الزراعي على الجزء الأكبر من ثروة الباشا، وتبقّت بقايا منها في العمارات والأسهم. أما روتين الفيلا فيظهر انه لم يتغير منذ أيام الملكية. المكان يعج بالخدم، يروحون ويجيئون بكامل أناقتهم، من الطربوش اللامع، إلى الجلابية اللامعة، إلى الحذاء اللامع.

يسأل قاسم:

- يا باشا! أرجو ان تشرح لي كيف نجح الانقلاب. كيف استطاعوا خلع الملك فاروق؟

- لم يخلعوا الملك يا ابني. الملك هو الذي خلع نفسه.

- كيف يا باشا؟

- سوف أوضح لك حقيقة ما حدث، ودعك من الادعاءات الكاذبة التي أصبحت الآن تاريخاً رسمياً. كان في الجيش المصري قبل الثورة قرابة ألف وخمسمائة ضابط. ما يسمى تنظيم الضباط الأحرار لم يتجاوز أربعين ضابطاً، مع عشرين أو ثلاثين من المتعاطفين، أي أقل من ٥٪ من مجموع الضباط.

- إذن كيف نجحوا في الوصول إلى الحكم؟

- كانت مغامرة. في البداية، لم يكن لديهم سوى مطالب محدودة.

ولكن انهيار الملك هو الذي شجعهم. هل تعرف عدد الدبابات التي شاركت في الانقلاب؟ أقل من ثلاثين دبابة. هل تعرف عدد المصفحات؟ أقل من عشرين مصفّحة. تمكنوا من احتلال مبنى القيادة مستفيدين من المعلومات التي حصل عليها عبدالحكيم عامر بحكم عمله في مكتب قريبه حيدر باشا. ثم سيطروا على الإذاعة. بمجرد إعلان البيان الأول انهار الملك وفقد القدرة على التصرف.

ـ ماذا كان رد فعل الملك؟

ـ كان في الاسكندرية وقتها. وكانت كل أسلحة الجيش موالية له. البحرية بأكملها. الطيران بأكمله باستثناء المخبول جمال سالم. القوات البرية كلها باستثناء حفنة من الضباط. لو أعلن الملك انه سيزحف على القاهرة للقضاء على التمرد لانهارت المحاولة في ساعات.

ـ ماذا فعل؟

ـ قضى كل وقته في اتصالات تيلفونية مع السفير الأميركي والسفير البريطاني ونصحه كل منهما بالتنازل.

ـ الانطباع العام يا باشا انه كان هناك تأييد كبير للانقلاب على المستوى الشعبي.

ـ لا تأييد شعبي، ولا تأييد عسكري. لولا انهيار الملك لانهار الانقلاب. بقي مكانه في الاسكندرية حتى وصلت الدبابات من القاهرة وحاصرت القصر. هل تعرف عددها؟ عشر دبابات. كان بوسع الحرس الملكي تدميرها بسهولة. إلاّ ان الملك استسلم ووقع وثيقة التنازل. لم يكن الانقلابيون أنفسهم يحلمون بتنازل الملك.

صمت الباشا قليلاً، ثم أضاف:

ـ لا تنس يا قاسم ان الملك فاروق لم يكن رجلاً، كان مجرد طفل كبير.

جاء هذا التصريح من قطب من أقطاب النظام الملكي مفاجأة لم يتوقعها قاسم، ولاحظ الباشا رد فعله:

ـ لا تستغرب. هل تعرف كيف كان الملك فاروق يقضي كلّ وقته؟ يقود سياراته السريعة، أو يلعب بقطاراته وطوابعه وتحفه.

ـ إذن يا باشا فالكلام الذي يقال عنه الآن غير صحيح؟

ـ لا. ولا نصفه. ولا ربعه. ولا عُشره. يقولون انه كان مخموراً طيلة الوقت وهذا كذب فهو لم يذق الخمر أبداً. يقولون إنه سرق الدولة ونهبها وهذا افتراء. قامت ضجة في البرلمان عندما كلّف اصلاح يخته «المحروسة» نصف مليون جنيه. «المحروسة» أصبحت الآن اليخت الجمهوري «الحرية» ولو سأل سائل عن تكاليف صيانتها لاختفى إلى الأبد.

ـ وماذا عن... عن الأشياء الأخرى؟

ـ النسوان؟! كان يحب ان يظهر بمظهر «الدون جوان». امرأة جديدة كل ليلة. شأنه شأن الطفل الذي يود ان يرى كل أطفال الحارة لعبته الجديدة. لعب عيال!

ـ وهذه الكتب التي ألفت عنه؟

ـ الكتب؟! آه لو رأيت كيف كان مؤلفوها ينحنون أمامه. آه لو عرفت المبالغ التي كانوا يقبضونها من القصر.

ـ وماذا عن قضية الأسلحة الفاسدة؟

ـ اسمع يا ابني. كان الملك محاطاً بعصابة من اللصوص. شوية «معرّصين»! لا أستبعد انهم تورطوا في فضائح مالية. أما هو فلم يكن يهتم بالمال. لو عرضت عليه مليون جنيه وسيارة جديدة بخمسة آلاف جنيه لاختار السيارة. صدقني انه يعيش منذ خلعه على المخصصات التي تقدّمها له السعودية.

ـ ولكن يا باشا ألم تكن هناك رغبة شعبية في التغيير؟ ألم يكن هناك تذمّر؟

ـ تذمّر؟! بطبيعة الحال، كان هناك تذمر. والبلد الآن مليئة بالتذمر. وبعد ألف سنة، سوف يكون هناك تذمر. عواطف الجماهير كالزئبق لا تثبت على حال. كلمة تودّيها وكلمة تجيبها. قبل عشر سنوات عندما كانت سيارة الملك، الروز رويس الحمراء، تظهر في أي مكان يجن جنون الناس. كل ما تراه الآن من حشود مرتبة لا يعادل الحشود العفوية التي كانت تواكب النحاس باشا حيثما ذهب.

ـ إذن لماذا سقط النظام؟ وبهذه السهولة؟

ـ سقط النظام لأنه كان ضعيفاً لا لأنه كان مستبداً. أعرف ما يدرّسونكم في الجامعة وسبق أن حذّرت نشأت من تصديقه. يعلمونكم ان

الاستبداد يؤدّي إلى الثورة. كلام فارغ! يعلمونكم ان الجوع أبو الثورة. كلام فاضي! هل تعرف متى قامت الثورة الفرنسية؟ لم تقم حين كان هناك استبداد؛ قامت حين انتهى الاستبداد وبدأت التنازلات. والأمر نفسه ينطبق على الثورة الروسية: لم تشتعل بسبب طغيان القيصر؛ اشتعلت عندما تخاذل القيصر. وآخر مثال حي هو انقلاب العراق. أخبرني مصدر مطّلع ان الملك حسين أرسل إلى الملك فيصل قائمة بأسماء الضباط المتآمرين، قائمة صحيحة ودقيقة، ولم يفعل الملك فيصل شيئاً. وقتلوه!

ـ هل كان النظام في مصر يعرف ما يدور؟

ـ كان الملك يعرف. وقُدّمت له أسماء الضباط الأحرار أكثر من مرة، ولكنه لم يتحرك. أتعرف رد فعل النظام؟ استدعى رئيس الوزراء جمال عبدالناصر ووبّخه. وبّخه! تصوّر! لو وضع الملك عشرة ضباط في السجن لبقي ملكاً.

ـ كيف تفسر عجزه عن التحرك؟

ـ هل يحتاج العجز إلى تفسير؟! خلق الله البعض أقوياء والبعض ضعفاء، البعض شجعاناً والبعض جبناء. غير ان الانقلابيين تعلموا الدرس. أدنى بادرة الآن وتُعلّق المشانق وتُفتح المعتقلات.

توقف الباشا، وسرح بصره في الأفق، بعيداً إلى ايطاليا ربما، حيث يقيم الملك المخلوع، الرجل/الطفل، وزفر، ونظر إلى قاسم:

ـ تذكر هذا يا ابني. الضعف هو أبو الثورات. لا الاستبداد. ولا الجوع.

خرج قاسم وقد أضاف إلى حصيلته الفكرية حكمة جديدة كلما فكر فيها ازداد إيماناً بصدقها. الضعف هو أبو الثورات. صدقت يا باشا!

* * *

«يركل خالد الحصى بحذائه، متصوّراً ان كل حصاة قد تحولت إلى كرة منطلقة إلى مرمى الخصم. يقطع الزرنوق الذي يقع فيه البيت، متوجهاً إلى البراحة الكبيرة، ثم ينعطف إلى زرنوق آخر، يقوده إلى الشارع الواسع الذي تقع عليه المدرسة الشرقية. في ركن الشارع يجثم دكان غلوم، في موقع استراتيجي يصطاد كل طالب خلال ذهابه إلى المدرسة وخلال عودته إلى المنزل. يخرج خالد من جيبه مصروفه اليومي، أربع آنات، ويفكر في كيفية انفاقها. يقرر ان يشتري بآنتين «علك الملوك»، وان يحتفظ بآنتين لقرص الخبز والجام في المقصف. يمدّ يده ليأخذ العلك من غلوم وتصطدم

حقيبته بالبرطمان الزجاجي المليء بالبرميت. يسقط البرطمان، وتتناثر القطع الزجاجية، ويصرخ غلوم:

ـ إيش سويت؟ كسرتها؟ هات قيمتها! هات خمس روبيات!

ويرد متلعثماً:

ـ خمس روبيات؟ ما عندي!

ـ أجل تعال داخل معاي.

يشير غلوم إلى باب في مؤخرة الدكان يفضي إلى ظلام دامس. يدخل معه؟! إلى أين؟! ولماذا؟! ينظر خالد إلى الوجه الدميم، والدماميل المنتثرة عبره، والوميض الأحمر في العينين، ويرتجف. هل يريد غلوم ان يقتله من أجل برطمان؟ ويصرخ:

ـ لا! لا!

كلمع البرق تمتد يد غلوم وتخطف حقيبته:

ـ هات خمس روبيات وخذ الشنطة.

يبدأ اليوم الدراسيّ بحصّة الحساب. ويجمع الاستاذ الكراسات:

ـ إين كراستك يا خالد؟

ـ متأسف يا استاذ. نسيت الشنطة في البيت.

يرسله الاستاذ إلى المدير. ويطلب إليه المدير ان يفتح يده. وتهوي الخيزرانة مرتين. ويغالب خالد الدموع. ويعود إلى الفصل جريح اليد، والقلب.

ويجيء اليوم التالي، وحصة اللغة العربية.

ـ الكراسة يا خالد؟

ـ متأسف يا استاذ. نسيت الشنطة في البيت.

المدير. والخيزرانة. ورسالة إلى والده.

يقف خالد مطرقاً لا يستطيع ان يرفع عينيه. يقرأ أبوه رسالة المدير بتمعن. ينبض قلب خالد بشدة. لم يسبق لأبيه ان ضربه. لم يسبق لأبيه ان انتهره. هل ستكون هذه المرة الأولى؟ يوجّه إليه أبوه نظرة فيها من الأسى أكثر مما فيها من الغضب:

ـ وين راحت الشنطة يا خالد؟

تبرق في ذاكرة خالد دمامل غلوم، والظلام الدامس في نهاية الدكان، ولا يتكلم.

يسأله أبوه:

ـ ضيّعتها؟ وين ضيّعتها؟

البرطمان المكسور، والزجاج المتناثر، و«تعال داخل معاي»، ويحمر وجهه ولا يرد.

يتنهد أبوه:

ـ سوف أعطيك فرصة إلى بكرة. أبحث عنها حيث ضيّعتها. ولا تعد إلاّ بها.

الغد. والشيخ محمد صالح في حصة الدين يحفّظهم ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾. تلمع الفكرة في ذهن خالد:

ـ استاذ! استاذ! هل يستجيب الله لكل دعوة؟

ـ نعم. إذا كانت من قلب مؤمن.

ـ كل دعوة يا استاذ؟!

ـ نعم يا خالد.

ـ حتى لو كانت من ولد صغير؟

ـ حتى لو كانت من طفل.

ـ حتى لو تطلب من الله خمس روبيات؟!

يضجّ الفصل بالضحك. ويبتسم الشيخ محمد صالح:

ـ نعم. حتّى خمس روبيات.

وراء المقصف، في ركن بعيد، يغمض خالد عينيه، ويتجه بكل أحاسيسه إلى السماء، ويهمس:

ـ يا ربي! يا ربي! خمس روبيات! من فضلك يا ربي! خمس روبيات! من فضلك يا ربي!

يضرب الجرس معلناً انتهاء الفرصة وخالد منهمك في الدعاء.

يغادر المدرسة ويلتف متجنباً غلوم ودكانه. يركل علبة صفيح فارغة، وتنطلق محدثة صوتاً جميلاً. يتبعها، ويركلها من جديد. تطير وتحط

بقرب الجدار. يتبعها. ويرى النوْط. خمس روبيات نوط جديد أبو خمس روبيات ملقى على الأرض. يلتقطه ويطير إلى الدكان:

- خذ البيزات! هات الشنطة!

يحتضن حقيبته ويركض إلى المنزل. لا يتوقف ليركل الحصى. يركض وهو يتمتم:

- يا ربي! مشكور! مشكور! مشكور يا ربي!».

* * *

- غطست يا فؤاد في بحر الأدب الملتزم، ويبدو انك لن تخرج.

- هذا، بدوره، مجرد مشهد يا رؤوف.

- كم كان عمرك؟

- الثامنة. أو السابعة. لا أذكر الآن.

- وكان هناك رجل اسمه غلوم؟

- اسمه الحقيقي عباس. وأظن انه لا يزال هناك.

- وطلب إليك ان تذهب معه إلى الداخل؟

- نعم.

- لماذا؟

- وقتها كنت أعتقد انه ينوي ضربي أو قتلي. أما الآن، فلعل الجواب الصحيح عند يعقوب.

- اسمع يا فؤاد. لدينا الآن قصص تكفي للمجموعة. وافق الأستاذ عبدالباري من حيث المبدأ. ووعد بطبع الكتاب في الصيف. ثلاثة آلاف نسخة. ولنا ١٠٪ من الأرباح بعد خصم التكاليف.

- إذا كانت هناك أرباح.

* * *

في الليلة التي تلت المكالمة الأولى رنّ الجرس وجاء صوت مديحة. وفي الليلة التي بعدها، والتي بعدها. تحولت المعابثة إلى مداعبة ثم أصبحت تسلية ثم صارت جزءاً من الروتين الليلي. في تمام الحادية عشرة يرن التيلفون في شقة الحرية ويهمس صوت مديحة من الروف في عمارة «برج

الزمالك». أو يدقّ في الروف ويجيء صوت فؤاد من شقة الحرية. ويستمر الحديث حتى منتصف الليل، حتى الواحدة أحياناً.

ليلة بعد ليلة. كم ليلة؟ خمسون؟ ستون؟ ضاع الحساب! الحديث الذي بدأ بالشتائم والنكت أصبح ذا شجون. تحول التيلفون مزيجاً من أشياء كثيرة: كرسي الاعتراف، خشبة المسرح، اسطوانة الموسيقى، الكتاب، والسرير. تحول الجهاز الأسود إدماناً ليلياً لا يستطيع أحد منهما التحرر من قبضته. في العشرين يشعر فؤاد بخجل من نفسه، ومن سخف المراهقة هذا، ومن التيار الشهواني اللذيذ الذي يبثّه الجهاز في جسده. ومديحة تقسم انها لم تعاكس أحداً منذ الخامسة عشرة. غير ان أحدًا منهما لا يستطيع ان يتخلص من العادة، ولا ان يقترح اللقاء.

عرفت عنه كل ما يمكن ان تعرفه صديقة عن صديق لم تره. وعرف عنها كل ما يمكن ان يعرفه حبيب عن حبيبة لم يشاهدها. اقترحت ان يرسل لها صورته، وترسل هي صورتها. وبقي الاقتراح معلقاً. هو يطلب إليها ان تبدأ، وهي تطلب إليه ان يبدأ. ثم أعطته عنوان مصور تعرفه في شارع فؤاد. ذهب وهو يحمد الله على ان ادوية الدكتور أحمد الخطيب أحدثت بعض التحسينات على مظهره. وجاءت الفاتورة: ثلاثين جنيهاً! صور بثلاثين جنيهاً؟! قضت الفاتورة على الاحتياطي كله. إلاّ انه كان سعيداً بالنتيجة. نجح المصور في اخفاء العيوب والتركيز على المزايا.

أرسل إليها صوره، ثم وصلت صورها. جاءت في ألبوم صغير يؤرخ لحياتها، منذ كانت طفلة في المريول المدرسي، حتّى الأسبوع المنصرم. هذه صورة في ثياب الزفاف (هل كان من الضروري ارسال هذه الصورة؟). وهذه صورة مع مجموعة من الصديقات. وهذه صورة أمام الهرم. لم تعلّق على صوره، ولم يعلّق على صورها، واستمر الحديث الليلي كما كان.

مديحة مظهر رشوان! لعلها كانت تتوقع ان يصرخ دهشة بمجرد سماع اسم أبيها. إلاّ انه لم يسمع الاسم من قبل. واعترف لها بهذه الحقيقة، وسرّت بدلاً من ان تغضب. اتضح ان مظهر رشوان رجل أعمال مشهور يملك فندقاً ضخماً في الزمالك بقرب كوبري أبو العلا، «ستار هوتيل»، وفندقاً أضخم في الاسكندرية، «سيفيو هوتيل». يضحك فؤاد. ليلى بنت الأغنياء! القصة المعهودة. الأب الثري والطفلة المدللة. ماتت الأم ومديحة في الخامسة. ونذر الأب نفسه لتربيتها وأعرض عن النساء. طلبات الطفلة أوامر، وأوامرها مطاعة. حتى وصلت إلى التوجيهية. وانتهى العصر

الذهبي. تزوج الأب، ودخلت امرأة جديدة بينهما. كان الأب يتوقع ان تقوم بين الزوجة والابنة التي لا تصغرها إلاّ بسنوات قليلة علاقة شبيهة بعلاقة الأخوات. إلاّ ان الحرب بين المرأتين اندلعت منذ اللحظة الأولى، ولم تنطفأ. وجاء المخرج عندما التحقت مديحة بقسم اللغة الانجليزية في كلية الآداب. أتاح لها الجو الجامعي ان تبتعد عن المنزل الذي أصبح بوجود زوجة الأب مكاناً لا يطاق. أعجبت مديحة بالدكتور صدقي، مدرسها في الكلية، وأعجب بها، وتقدم لخطبتها. تم الزواج بسرعة لا تصدق. كان الأب حريصاً على الاستجابة لطلبها، وكانت زوجة الأب حريصة على إبعادها، وكانت مديحة حريصة على الاستقلال. بعد أسابيع من الزفاف أدركت مديحة انها استبدلت سجناً بسجن. الدكتور صدقي، الذي لم يكد يتجاوز الثلاثين، أصبح يتصرف كصعيدي طاعن في السن. منعها من الاستمرار في الدراسة (هل كان يخشى ان تعجب بمدرس آخر؟). ثم منعها من ان تلبس ثيابها المعتادة، وطلب إليها ان تكون أكثر حشمة. وكان يصرّ، بمناسبة وبلا مناسبة، انه لن يكون زوج الست. أراد منها ان تخرج من الروف الذي استأجره ابوها وفرّشه وقدّمه لها هدية زواج، وان تسكن معه في شقته الصغيرة، ورفضت. بدأت المشاكل، وانتهى الأمر بالطلاق، بعد أقل من سنة. بقيت مديحة في الروف لا يؤنس وحدتها سوى الدادة التي ربّتها منذ صغرها. حاولت العودة إلى الدراسة، ولكنها اكتشفت انها فقدت الرغبة في المواصلة. اتفقت مع أبيها على ان تعمل في «ستار هوتيل»، مسؤولة عن قسم العلاقات العامة، بشرط واحد، وهو ان تحضر عندما تريد وتغادر عندما تشاء. خصّص لها أبوها ثلاثمائة جنيه شهرياً (أكثر من راتب الوزير في مصر طبقاً لمعلومات قاسم) مقابل هذا العمل. انقطعت علاقتها بزوجة أبيها التي انهمكت في زيارة طبيب بعد طبيب أملاً في الانجاب. وأصبحت لا ترى أباها إلاّ في الفندق. كان هذا الترتيب يرضي كل الأطراف. في البداية، كانت مديحة سعيدة كل السعادة بحريتها، بوظيفتها، وبانطلاقها، غير انها بعد شهور من حياتها الجديدة بدأت تعاني السأم. باغتتها وهي في الثالثة والعشرين كل أعراض الكهولة: الضيق، والملل، والوحدة، والأرق. لم تعد السيارة المكشوفة تلك النشوة المتحركة، كما كانت ذات يوم. ولم يعد نادي الجزيرة ذلك المرفأ الرومانسي الحالم، كما كان ذات مرة. تشابهت الأيام، وتشابه لغو

الصديقات، وتشابهت الفساتين. أصبح الشيء الوحيد المثير في حياتها الآن هو ذلك الموعد الليلي مع الفتى الغريب، «الحجازي أبو دم تقيل»!

يتأمل الصور ويقف عند صورته المفضلة، مديحة في المايوه. لا يمكن لمراقب موضوعي يتبع أي معيار من المعايير ان يطلق على مديحة لقب جميلة. ولا يمكن للمراقب الموضوعي نفسه بأي مقياس من المقاييس ان يصفها بالقبح. جسمها ضئيل صغير. يضحك فؤاد وهو يتصورها واقفة بقربه. ولكنه جسم مليء متفجّر. كيف دخل هذا الجسم في المايوه؟ لا يوجد ثمة خصر. يمتد الوجه إلى الصدر مباشرة عبر رقبة لا تكاد تبين. ثم يتمدّد الصدر في كل مكان، إن صدقت الصورة. وملامح الوجه خليط عجيب من التماثيل الرومانية ومن السمات الزنجية. شعر أكرت قصير. أنف يرفع طرفه باستكبار، على الطريقة الرومانية. فم مترهّل على الطراز الإفريقي. وعينان ضيقتان شبيهتان بعيون اليابانيات والصينيات. ومع ذلك تجيء هذه الخلطة الغريبة، سمك، لبن، تمر هندي، في صورتها النهائية جذابة تشد العين ولا تسمح لها بالحراك.

ذات ليلة من ليالي ابريل الباردة الساخنة، وبغتة، في منتصف الحوار الساخر الجاد، والساعة تدنو من منتصف الليل، والحديث عن آخر المسرحيات التي تعرض على مسرح الريحاني، بغتة، كما تسقط الصاعقة من الجو، قالت:

ـ انتظرني تحت. سوف أكون عندك بعد ربع ساعة. وسآخذك معي إلى الروف.

هبطت السمّاعة. ووضع فؤاد أصابعه في أذنيه ليحاول ان يسكت ضجيج قلبه الذي قرر ان يصرخ بملء عروقه.

* * *

يفتح يعقوب باب شقة الحرية مرحباً بضيفه. لم يكد يرى وجهه حتى تجمّد في مكانه:

ـ أنت؟! الاستاذ صا...

وقاطعه الضيف ضاحكاً:

ـ «سين»! «الاستاذ سين»!

في غرفة يعقوب بدأ الضيف الحديث:

- أرجو عندما أخرج من هنا أن تنسى انك قابلتني. لن يصدّقك أحد لو تكلمت. غير انني واثق انك لن تتكلم.

- أقسم لك بشرفي.

- فلنبدأ. ما هي الأسئلة التي تقلقك؟

- هل من الممكن ان أتحدّث بصراحة تامة؟

- هذه هي الفكرة.

- حسناً يا استاذ صا... أقصد سين! سوف أخبرك بكل ما يدور في رأسي حول الدين. أنا شيوعي، وسوف أظل شيوعياً حتى أموت. ومع هذا، فأنا لا أستطيع ان أتنكر لنشأتي وتربيتي. لقد وُلدت مسلماً، ورضعت الإسلام مع الحليب، ولا يمكن ان أتخلّص من هذا الجزء من نفسي. أتعرف لماذا اعتنقت الشيوعية؟ اعتنقتها بحثاً عن الحرية. وصلت إلى الماركسية بعد مراحل فكرية عديدة، وكنت في كل مرحلة أبحث عن المذهب الذي يحمي حرية الانسان. ثم اكتشفت انه لا يمكن ان توجد حرية حقيقية إلاّ في ظل الشيوعية. ولكني يا استاذ لا أودّ أن يكون عملي الحزبي على حساب حريتي. إذا أردت أن أصلّي فسوف أصلي. وإذا أردت ان أصوم فسوف أصوم. إذا قررت أن أكون ماركسياً مسلماً فسوف أكون ماركسياً مسلماً. هل تفهمني؟ أريد ان يكون موقفي من الدين نابعاً من اقتناعي، ومن اقتناعي وحده.

- أشكرك على صراحتك. لا يصبح للنقاش معنى إلاّ إذا تحرر من المجاملات. دعني، قبل التحدث عن التفاصيل، أوضح ثلاثة مواقف يسيء الناس فهمها نتيجة الدعاية الرأسمالية المغرضة. أولاً، ليس صحيحاً ما يتردد من ان الشيوعية تعني التفسخ والانحلال الأخلاقي. الاتحاد السوفييتي محافظ أكثر من أي دولة رأسمالية، وأكثر من بعض الدول الإسلامية. والصين أكثر محافظة من الاتحاد السوفييتي. في الصين، وقد زرتها بنفسي أكثر من مرة، تعتقلك الشرطة لو أمسكت بيد زوجتك في الشارع. ثانياً، نحن في الحزب لسنا صوراً مكررة من بعضنا البعض، كما يذهب الرأي الشائع الخاطىء. لكل منا اهتماماته الخاصة ونزعاته الفكرية الخاصة وحياته الخاصة. باستثناء المبادىء العامة التي تجمعنا، هناك تفاوت كبير بيننا. ما يردده الأعداء عن «قرية النمل» الشيوعية بعيد عن الدقة. ثالثاً، موقف

الحزب من الدين لا ينصب على الدين كفكرة ولكن على الدين كمؤسسة.

يقاطعه يعقوب:

ـ ولكن كيف يمكن الفصل؟

ـ سوف أشرح لك. كل دين، بلا استثناء، يبدأ على صورة مبادىء أخلاقية تحثّ على الرفق والعدل والشفقة والإحسان إلى آخره. لا اعتراض لنا على هذه المبادىء. الكثير منها لا يناقض جوهر الفكر الاشتراكي. ولكن الدين، أي دين، بمجرد موت النبي يتحول إلى مؤسسة لها تنظيمها الهرمي ولها أولوياتها ولها مصالحها. هنا تبدأ المشكلة. تتحول المؤسسة الدينية إلى مؤسسة رجعية تعمل ضد مصالح الجماهير ولحساب المستغلين.

ـ قد أوافق، جدلاً، على الجزء الأول، تحوّل الدين إلى مؤسسة. ولكني لا أفهم الجزء الثاني. لماذا تكون المؤسسة الدينية، بالضرورة، رجعية تعمل ضد مصالح الجماهير؟

ـ نستطيع ان نناقش الأسباب شهراً كاملاً إذا شئت. ولكن ما يهم هو ان هذا كان النمط التاريخي الفعلي الذي لم يشذ عنه دين واحد. تتحول المؤسسة الدينية إلى مؤسسة دنيوية تتاجر بالعالم الآخر. الحياة الدنيا عذاب وشقاء. أصبروا. سيعوضكم الله في الجنة. سوف يعطيكم قصوراً من ذهب. لا تهتموا بهذه الدنيا الزائلة. إنها للكفّار. لا تعترضوا على قضاء الله. الله أراد ان يكون هناك أغنياء وفقراء. أليس هذا هو فحوى الرسالة التي تبثها المؤسسات الدينية في كل مكان؟ أليست النتيجة تخدير الجماهير؟ هذا ما دفع بالحزب إلى أن يقول: «الدين أفيون الشعوب».

ـ ولكن يا استاذ إذا انطبق هذا الكلام على بعض الأديان فإنه لا ينطبق على الاسلام. لا تنس ان الاسلام يختلف عن بقية الأديان.

ـ الأديان تختلف ولكن المؤسسات الدينية لا تختلف. انظر إلى مصر. ما ينطبق على موقف المؤسسة الدينية من المؤسسة الحاكمة أيام رمسيس الأول ينطبق على موقفها منها أيام جمال عبد الناصر.

ـ لحظة يا استاذ! إذن، كيف تفسر حركة الاخوان المسلمين؟

ـ الإخوان المسلمون لم يقنعوا بدور الشريك الأصغر وتطلّعوا إلى احتكار السلطة. هل تعتقد ان حسن البنا كان مهتما بالعمال والفلاحين؟! لو وصل الإخوان إلى الحكم لأقاموا أبشع رأسمالية رجعية في التاريخ.

ـ لا أزال أقول يا استاذ ان الإسلام يختلف عن بقية الأديان. الإسلام دين ودنيا، وهو يهتم بالدنيا قدر اهتمامه بالآخرة، وربما أكثر.

ـ كلامك صحيح. في النظرية. في القرآن. في الحديث. ولكن ماذا عن الواقع؟ تعال معي إلى مسجد، هنا في القاهرة، أو في نيودلهي، أو في آخر الدنيا، في جاكرتا، ماذا ستسمع؟ هل ستسمع خطبة عن العمال المضطهدين؟ هل ستسمع دعوة إلى تكوين نقابات؟ هل ستسمع تحريضاً على مظاهرة؟ سوف تسمع عن عذاب القبر وأفاعي جهنم وقصور الجنة. لن تسمع كلمة واحدة عن عذاب المصنع وأفاعي الاستعمار وقصور الرأسماليين. لن تسمع رأي الإسلام؛ سوف تسمع رأي الكهنوت.

ـ لا يوجد في الإسلام كهنوت يا استاذ. هذه حقيقة يعرفها الجميع.

ـ كلام سليم من الناحية النظرية. أما من الناحية العملية فلم يكد الرسول يموت حتى ظهر الكهنوت وتحالف مع السلطة. منذ ان أصبح أبو هريرة موظفاً عند معاوية حتى أصبح شيخ الأزهر موظفاً عند جمال عبد الناصر وطبيعة العلاقة واحدة.

ـ يا استاذ! عفواً! أنت تبالغ وتعمّم! ألم تحدث ثورات في الاسلام؟! ألم يُعدم العلماء؟ ألم يسجن الفقهاء؟ ألم يكن بعض رجال الدين في طليعة المناضلين ضد الاستعمار؟

ـ كل هذا صحيح. وكل هذا مجرد استثناء من القاعدة. اذهب إلى الاستاذ عبدالرحمن الشرقاوي وسوف يعطيك محاضرة عن أبو ذرّ الغفاري وسلمان الفارسي والثورات الاشتراكية في الاسلام. كل هذا استثناء. خرج بعض رجال الدين عن الخط وأعدموا. هذا صحيح. والصحيح أيضاً ان الغالبية العظمى تحالفت مع الحكام. أنا لا أتحدث عن الاسلام فقط. أنا أتحدث عن الكهنوت في كل زمان ومكان. أنت طالب اجتماع وسوف تحصل قريباً على الليسانس. أخبرني، هل مرّ عليك مجتمع لم تتحالف فيه المؤسسة الدينية مع المؤسسة الحاكمة؟

ـ نحن لا ندرس هذا في الكلية. وأنا لم أقرأ ما يكفي عن الموضوع.

ـ اقرأ. ابحث. اذهب إلى أي موسوعة وانظر تاريخ الكهنوت. ستجد ان المؤسسة الدينية والمؤسسة الحاكمة وجهان لعملة واحدة.

ـ ولكن المؤسسة الدينية قد تنشق على نفسها وتثور على الأوضاع القائمة. مارتن لوثر مثلاً.

ـ مارتن لوثر أفتى بقتل الفلاحين! التمرد إما ان يفشل وإما ان ينجح ويتحول إلى مؤسسة دينية جديدة تتحالف مع الطبقة الحاكمة. هل تعرف ان ملكة بريطانيا العظمى هي رئيسة الكنيسة؟

ـ ولكن الوضع يختلف في الاسلام. لا توجد كنيسة.

ـ يوجد كهنوت.

ـ حتى الآن لم تجب عن تساؤلي الرئيسي: ماذا عن موقفي الشخصي من الدين؟ هل أستطيع ان أجمع بين الإسلام والماركسية؟

ـ ما دام موقفك الشخصي من الدين لا يتناقض مع الفكر الماركسي ومع مصالح الجماهير، فبإمكانك ان تصلي وتصوم ليلاً ونهاراً.

يقوم «الاستاذ سين» وهو يضحك:

ـ في الواقع، إذا أردنا ان نتغلغل في منطقتكم الرجعية فمن صالحنا ان يكون في الحزب أعضاء يصلّون ويصومون ليلاً ونهاراً.

* * *

في غداء الجمعة، يبدأ يعقوب:

ـ أود لو سمحتم ان نطرح اليوم موضوعاً يهمّني. العلاقة بين الدين والجماهير.

على الفور يجيب فؤاد.

ـ تقصد العلاقة بين الإسلام والقومية العربية؟

ـ لا. أقصد الأديان عموماً. في الاسبوع الماضي بحثت هذه القضية مع بعض الزملاء في الكلية. وكان هناك من يرى ان الأديان، بطبيعتها، تتحول إلى مؤسسات، وان هذه المؤسسات، بطبيعتها، تتحول إلى مؤسسات رجعية تتحالف مع المؤسسة الحاكمة ضد الجماهير.

بهدوء يقول عبدالرؤوف:

ـ هذا ليس رأي بعض الزملاء في الكلية. هذا رأي ماركس ولينين.

يحمرّ وجه يعقوب:

ـ حسناً. هذا هو الموقف الماركسي. هذا ما أريد بحثه.

هل الموقف الماركسي صحيح؟

يجيب عبدالرؤوف:

ـ لا أعرف الكثير عن الأديان عموماً. كل معلوماتي عن الإسلام. إذا أحببت ان تبحث الوضع في الإسلام فتفضل.

ـ ألم يتحول الإسلام إلى مؤسسة كهنوتية تحالفت مع السلطة الحاكمة؟

يردّ عبد الرؤوف:

ـ لا يمكن طرح السؤال على هذا النحو، وعلى هذا المستوى من التعميم. هل هناك أمثلة محددة؟

ـ ألم تكن طبقة الفقهاء عبر التاريخ الاسلامي متحالفة مع طبقة الحكام؟

ـ هذه أكذوبة. لا يتطلب الرد عليها سوى حد أدنى من الإلمام بالتاريخ الإسلامي، وهذا ما يفتقر إليه «الزملاء في الكلية». انظر إلى المذاهب الأربعة الرئيسية، وخذ علاقة كل إمام بالسلطة. الإمام مالك ضُرب إلى ان خلعت كتفه. الإمام أبو حنيفة تعرّض لمختلف أنواع الاضطهاد. الإمام الشافعي نجا بأعجوبة. الإمام ابن حنبل كاد يموت من الضرب في السجن. هؤلاء هم أعظم الفقهاء في تاريخنا. هل هذه مواقف متواطئة مع السلطة؟

ـ هذه مجرد استثناءات.

ـ إذا كان مؤسسو المذاهب الأربعة الرئيسية مجرد استثناءات فأين توجد القاعدة؟! ابن تيمية مات في سجن السلطان. هذا عن السنة، فإذا ما بحثنا في الشيعة وجدنا ما هو أغرب. عبدالكريم يؤكد لي ان كل أئمتهم ماتوا مقتولين أو مسمومين. أين التحالف المزعوم؟

ـ هل تنكر يا رؤوف أنه خلال فترات طويلة كان هناك، بالفعل تلاحم بين المؤسسة الدينية والمؤسسة الحاكمة؟

ـ تعبير المؤسسة الدينية جاء من عندك وليس من عندي. لا يوجد في الإسلام لا كهنوت ولا بابا ولا كنيسة ولا سلطة تقرر من يصبح رجل دين ومن لا يصبح.

ـ هذا كلام نظري. في واقع الأمر، وجدت المؤسسة الدينية. وُجد «قاضي القضاة» و«مفتي الاسلام» إلى آخره. هل تنكر ذلك؟

ـ لا أنكر وجود هذه المناصب. ولكني أعترض على الخلط بين مواقف أشخاص، هم في الأساس موظفون، وبين الاسلام. كل هؤلاء لا يمثلون سوى أنفسهم.

- من الذي يمثل الإسلام إذن؟

- هذا هو الفرق بين الاسلام والمسيحية. لا يوجد متحدث رسمي باسم الإسلام. خذ، مثلاً، مصر. يوجد مفتي للديار المصرية يصدر عشرات الفتاوى كل يوم. فتاويه لا تلزمه إلاّ هو والأشخاص المقتنعين بعلمه وورعه. لا تلزمني أنا. لا يلزمني شيء سوى القرآن الكريم والسنّة النبوية.

- هل كل الناس مثلك؟ الأغلبية الساحقة تتبع رأي رجال الدين، وإذا تحالفوا مع السلطة تبعتهم العامة.

- أعود إلى موضوع طالما بحثته مع فؤاد. يجب تربية الناس تربية اسلامية حقيقية. إذا علمنا المسلم ان عليه اتباع القرآن والسنة وانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق لا يعود بوسع أحد ان يتحدث باسم الاسلام.

- يا رؤوف! كل هذا كلام نظري وتمنّيات. انظر إلى الواقع الملموس. انظر إلى مصر مثلاً...

يقاطعه عبد الرؤوف:

- سوف أريحك من العناء. شيخ الأزهر والمفتي والبقية موظفون عند رئيس الجمهورية. هذا الكلام قلته لفؤاد مراراً وتكراراً. هل مواقفهم تلزم الاسلام؟ لا! موقف الاسلام يجسده أولئك المشايخ الذين قادوا النضال ضد الفرنسيين في الماضي، ويمثله في الوقت الحاضر الإخوان...

يقاطعه يعقوب:

- هناك من يقول إن حسن البنا تحالف مع الجميع، حتى مع الملك فاروق في سبيل الوصول إلى السلطة.

- لو حصل هذا لأصبح الشيخ حسن البنا شيخ الجامع الأزهر وربما ظل حياً إلى اليوم.

- ولكنك لا تستطيع ان تنكر ان الأمثلة التي تضربها لا تغير شيئاً في طبيعة الواقع. أنت تتحدث عن نظريات وأنا أتحدث عن ممارسة.

يتدخل فؤاد:

- يا يعقوب! إذا أردنا ان نتحدث عن الاختلاف بين النظرية والممارسة فلن نجد أمثلة صارخة كقادة الاتحاد السوفييتي الذين يعيشون عيشة الملوك والقياصرة.

يرد يعقوب بحدّة:

ـ هذا افتراء رخيص. وهذا ليس موضوعنا.

يجيب فؤاد:

ـ هذا هو موضوعنا! من طبيعة البشر ان مرور الزمن يفقد الثوري ثوريته. الأمر ينطبق على المسلمين وغير المسلمين. إن كان لا بد من القسوة في الحكم فيجب ان نوجه قسوتنا إلى الطبيعة البشرية لا إلى الإسلام.

يرد يعقوب:

ـ حسناً! حسناً! أعطوني شيخاً واحداً الآن يصدر الفتاوي ضد الإقطاع. أعطوني شيخاً واحداً يؤيد العمال.

يجيب عبد الرؤوف:

ـ هنا مشكلة منهجية. أنت تؤمن بمسلمات تعتبرها في صالح الجماهير وتعتبر كل ما يخالفها إقطاعاً واستغلالاً. أنت، مثلاً، تؤمن بالتأميم..

ويقاطعه يعقوب:

ـ طبعاً. هل هناك وسيلة أخرى لتحقيق الاشتراكية؟

ـ وصلنا إلى مربط الفرس! من قال لك ان الاشتراكية في صالح الجماهير؟ من قال لك ان العدالة الاجتماعية سوف تتحقق عن طريق التأميم؟ هذا رأيك أنت.

ـ هذه هي النظرية العلمية.

ـ النظرية العلمية عندك، أما عندي فأساطير ماركس ولينين. إذا جاء شيخ وأصدر فتوى ضد التأميم، هذا لا يعني انه ضد الجماهير. كل ما يعنيه هو انه يرى ان التأميم يتناقض مع الإسلام. والمسلم الحقيقي لا يمكن ان يعتقد ان في الاسلام شيئاً يتناقض مع مصلحة الجماهير. هذه استحالة منطقية. من الذي خلق الجماهير؟ الله! من الذي أنزل القرآن؟ الله! كيف يمكن ان يوجد التناقض؟

ـ أنت الآن تدخلنا في متاهات. موضوع البحث هو تحالف رجال الدين مع السلطة.

ـ بحثنا هذا ولم تستطع ان تثبت هذا التحالف المزعوم. لقد أثبت لك ان أعظم الفقهاء في تاريخنا كانوا ضد السلطة.

يقول يعقوب لنفسه، بعد الغداء، «في المرة القادمة سوف أطرح على «الأستاذ سين» أسئلة لا يتوقعها».

* * *

بعد تفكير عميق طويل، استغرق أكثر من سنة، اختمر في ذهن قاسم مشروعه التجاري الأول. لم يكن في تخطيط قاسم ان يقنع، مستقبلاً، بالثروة التي جمعها أبوه. كان ينوي مضاعفتها، عدة مرات. ولم يكن في تخطيطه ان ينتظر حتى يتخرج قبل ان يبدأ في ممارسة التجارة. بحث المشروع مع زملاء السكن فلم يجد أي تجاوب. لم يجد أي قبول للفكرة إلاّ من نشأت الذي يصغي إليه باهتمام:

ـ هذا منجم ذهب يا نشأت! في كل شهر يصل إلى القاهرة مئات الزوار. من السعودية، من الكويت، من البحرين، من قطر، ومن دبي. يصلون إلى القاهرة ولا يجدون من يساعدهم. الفكرة هي انشاء مكتب للخدمات. المصاريف لا تذكر والأرباح كبيرة.

ـ ولكن ماذا سيفعل المكتب بالضبط؟ أي نوع من الخدمات سيُقدّم؟ ومن أين ستجيء الأرباح؟

ـ سيقدم المكتب كل الخدمات التي يحتاج إليها الزائر. ترتيب الاستقبال في المطار. الحجز في الفنادق. مواعيد الأطباء. مرافقة من يحتاج إلى مرافقة. الجولات السياحية. تأجير السيارات. تأجير الشقق. وأي خدمات أخرى، خدمات مشروعة بطبيعة الحال. سوف نتقاضى ثمن الفاتورة الفعلية، بالاضافة إلى ١٠٪ من قيمة كل فاتورة تدفع عن طريقنا.

ـ هل درست الفكرة من مختلف جوانبها؟

ـ قتلتها دراسة. والتفاصيل مكتوبة عندي. دعني ألخص لك النقاط الهامة. لن يكون للمكتب صفة رسمية حتى لا ندخل في اشكالات التسجيل والضرائب ووجع الدماغ. مجرد شقة عادية، بلا يافطة. ثانياً، لن يكون عندنا سوى حد أدنى من الموظفين، ثلاثة على الأكثر. ثالثاً، لن نقدم الخدمات بأنفسنا ولكننا سنستعين قدر الإمكان بالمكاتب القائمة: وكالات السيارات، مكاتب السياحة، شركات الطيران، إلى آخره. وبهذه الطريقة سوف نختزل النفقات الإدارية.

ـ ولكن كيف سيعرف الزبائن بوجود المكتب إذا لم يكن مسجلاً رسمياً؟

ـ دع هذا لي. سوف نبثّ الخبر ونوزع رقم التيلفون بعد فترة وجيزة سيسمع كافة الزوار بالمكتب.

ـ ومن الذي سيدير المكتب؟

ـ في البداية سوف أذهب بنفسي ثلاث أو أربع ساعات كل يوم حتى نعثر على مدير نثق فيه.

ـ وماذا عن بقية الموظفين؟

ـ لقد عثرت على اثنين بالفعل. أحدهما كان يعمل في السفارة السعودية ويعرف معظم الزوار السعوديين. والآخر كان يعمل في «الهيلتون»، ولديه فكرة عن كل مكاتب الخدمات الموجودة في القاهرة. قبل كل منهما العمل بثلاثين جنيهاً في الشهر، تحت التجربة.

ـ وماذا عن التكلفة الكلية للمشروع؟

هذا هو أجمل ما في الموضوع. لا شيء سوى الايجار وقيمة بعض الأثاث البسيط، والرواتب. رأس المال المطلوب لتغطية نفقات المكتب سنة كاملة، حتى لو لم نحصل على قرش واحد خلالها، هو ألف جنيه، لديَّ منها سبعمائة. بإمكانك ان تدخل شريكاً بالجزء الباقي. أؤكد لك انك سوف تحصل على أرباح سنوية تفوق حصتك من رأس المال.

ـ لديَّ في صندوق التوفير بالبريد أربعمائة جنيه تقريباً. بإمكاني تدبير المبلغ.

ـ إذن نبدأ فوراً. نبدأ غداً. ونتناوب الإدارة. تحضر يوماً وأحضر يوماً.

لم ينم قاسم تلك الليلة. فليركّز أصدقاؤه على الأحزاب والايديولوجيات والأمة العربية الواحدة، أما هو فيعرف طريقه. يعرف الأولويّة الوحيدة الحقيقية في هذا العالم. الشيء الذي يعشقه الكبار والصغار. الذكور والإناث (خصوصاً الإناث!). الرأسماليون والشيوعيون. الحكام والمحكومون. المؤمنون والملحدون. الشيء الوحيد الذي لا يحتاج إلى نظريات أو شعارات أو هتافات. الحقيقة الأساسية في الحياة: «البيزات»!

* * *

تحمرّ وجنتا ريري وتطرف عيناها وهي تهمس:

ـ هدية عشانك ياسي كريم.

يزيل ورق الهدايا الملوّن. ويجد شهادة في برواز. من معهد الحلاقة التابع لوزارة الشؤون الاجتماعية. تعلن ان الآنسة عنايات راضي حصلت على دبلوم تصفيف الشعر من المعهد. ويجد رسالة في برواز آخر. من مدير

شؤون الموظفين في «الهيلتون» تخطر الآنسة عنايات راضي بأنه تمّ تعيينها في محل الكوافير بالفندق، بمرتب شهري مقداره خمس وعشرون جنيهاً.

ينظر إليها عبد الكريم بزهو واضح. وتزداد حمرة الوجنتين. ثم ينهض ويقبّلها.

ـ مبروك يا حبيبتي. ألف مبروك.

بعد فوات الأوان أدرك عبد الكريم انه لأول مرة منذ عرف ريري قال لها: «ياحبيبتي!».

* * *

ظلت الصداقة بين فؤاد وسعاد قائمة بعد انتهاء العلاقة كما توقع كل منهما. كان يلتقي بها، مرة أو مرتين في الشهر، في المدرج، أو في بوفيه الكلية. أو في المكان التاريخي، مكتب توزيع الملازم. وكان أحياناً، يدعوها إلى فنجان الشاي ويتبادلان الأخبار والإشاعات. إلا انها هذه المرة تبدو مهمومة كئيبة موزعة الأفكار. تحاول ان تبتسم:

ـ سمعت انك التحقت بحركة «الشيش كباب». مبروك!

ـ من قال لك هذا؟

ـ إشاعة.

ـ إشاعة كاذبة.

ـ الحمد لله. أنت أذكى من ان تنضم إلى زعران «دم. حديد. نار»!.

ـ وماذا عنك أنتِ؟ ماذا عن الحزب؟ ما هي آخر التطورات؟

تصمت سعاد ثم تزفر:

ـ كنتَ على حق يا فؤاد. آه، كم كنتَ على حق! دبّ الخلاف بين جمال عبد الناصر والرفاق، واستقال الرفاق، وسقطت سوريا في قبضة الإقطاع.

لم يستطع فؤاد إخفاء دهشته:

ـ في قبضة الإقطاع؟! متى؟! وكيف؟!

ـ وقعت في قبضة الاتحاد القومي. من الذي يملك الاتحاد القومي في سوريا؟ الشركة الخماسية.

ـ يا سعاد! كلّ هذا لأن البعثيين فشلوا في انتخابات الاتحاد القومي؟

- انتخابات؟! أي انتخابات؟! عبد الحميد السراج يعين من يشاء ويفصل من يشاء.

- وكيف الوضع الآن؟

- ينذر بالخطر. ينذر بكارثة محققة. ذهب الوحدويون، ولم يبق في الساحة سوى الاقطاعيين والخونة والانتهازيين، والمكتب الثاني.

- أقدّر يا سعاد مشاعرك. ولكني، بكل صراحة، لا أرى أي كارثة. لا شعبية جمال عبدالناصر تأثرت. ولا الوحدة ضعفت. هناك من يقول ان شعبية جمال عبدالناصر في سوريا ارتفعت بعد استقالة الوزراء البعثيين.

- لا يقول هذا الكلام إلاّ خائن مأجور. كنا نعلّق الآمال على جمال عبدالناصر ولكنه، للأسف الشديد، نكث بكل وعوده.

- يا سعاد! يا سعاد! جمال عبد الناصر لم يعدكم بشيء. قال لكم انه لن يعترف بأي حزب، وهذا يشمل حزب البعث. قال لكم انه لن يسمح بأي تنظيم سوى الاتحاد القومي. أنتم الذين انقلبتم عليه.

- هذه دعاية الأجهزة. أتعرف حقيقة ما حدث؟ بدأ يعبث بالجيش السوري. بدأ ينقل كل ضابط بعثي إلى القاهرة أو يسرّحه من الخدمة. ركّز نشاط الأجهزة الأمنية من أولها إلى آخرها على البعثيين. أصبحت سوريا عبارة عن معتقل كبير، معتقل للوحدويين.

- لا أصدق أذني يا سعاد. أنتِ تقولين هذا الكلام؟ أنت تهاجمين الوحدة بمجرد ظهور خلاف بين جمال عبد الناصر والوزراء البعثيين؟

- أي وحدة يا فؤاد؟ فقدت الوحدة تأييد الجماهير وأصبحت ضحية في يد السراج. لا معنى لوحدة تديرها الأجهزة.

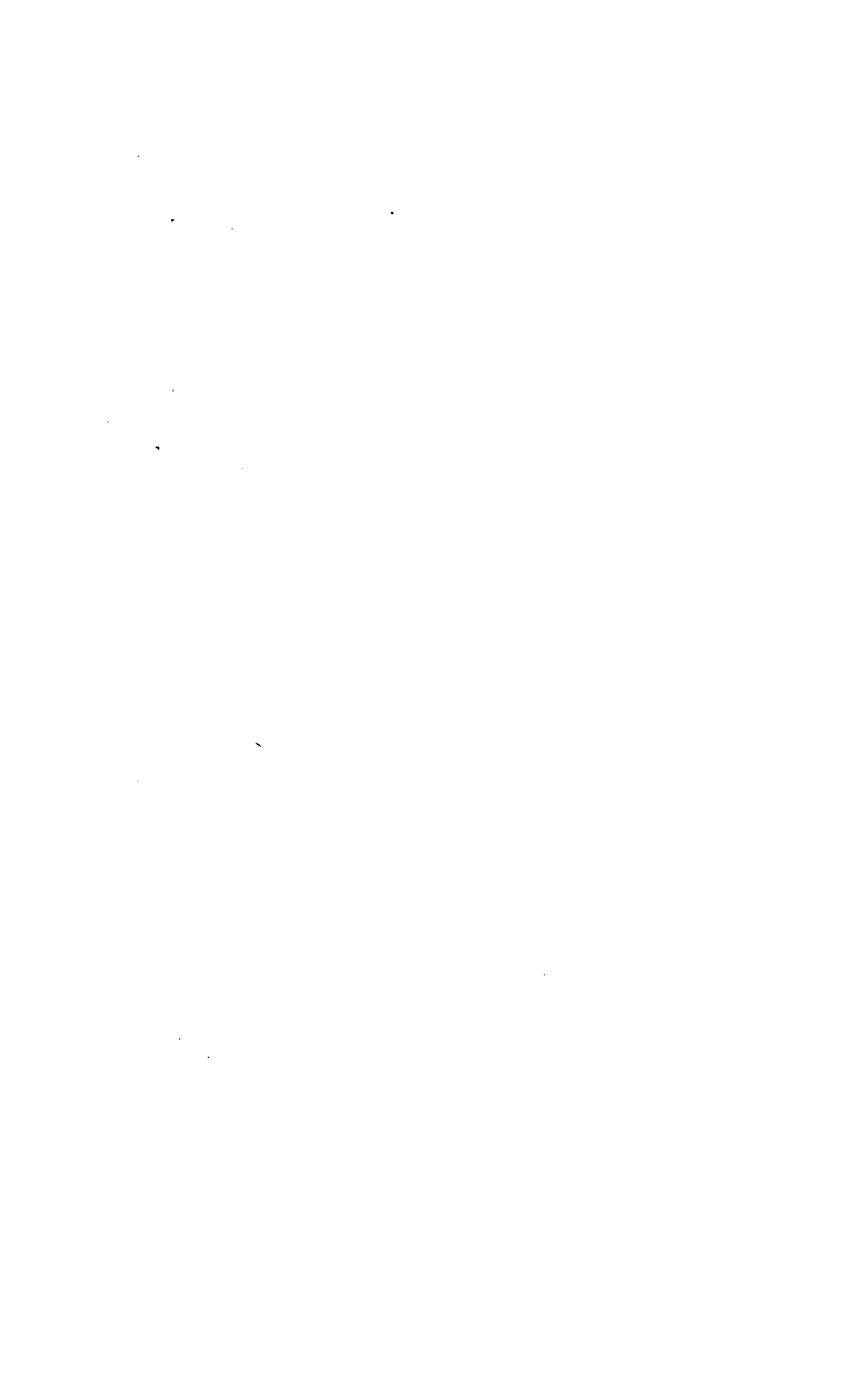
قام فؤاد ووجدانه يختلج بالأسئلة المزعجة. ماذا حدث للبعث؟ ماذا حدث لسوريا؟ ماذا حدث لسعاد؟ عن أي كارثة تتحدث؟ كارثة؟!

١٤

أغسطس ١٩٦٠

أريقُك؟ أم ماءُ الغمامةِ؟ أم خمر؟ بفيَّ بَرودٌ وهو في كبدي جمرُ

المتنبي



١٤

عندما فتح فؤاد باب السيارة المكشوفة، التي لم تكن وقتها مكشوفة، في تلك الليلة التاريخية من ليالي ابريل، نظر إلى مديحة طويلاً، ونظرت إليه طويلاً، ثم انفجرا، في الوقت نفسه، يقهقهان، كما لو كان الواحد منهما يتطلع إلى نكتة بشرية متجسدة. انطلقت السيارة، وفي دقائق كانا أمام «برج الزمالك»، وفي لحظات كانا في الروف الذي يحتل الدور العاشر بأكمله. وشهق فؤاد:

ـ إيه ده؟ ملعب كورة؟

لم ير فؤاد في مصر، أو في أي مكان آخر، شقة بهذه الضخامة، أو بهذه الفخامة.

ـ ماذا تفعلين بكل هذه الغرف؟

ـ تعال، سوف آخذك في جولة. هذا الصالون الكبير. وهناك غرفة الطعام. وهنا الصالون الصغير. وهناك المطبخ وتوابعه. وهنا غرفة الدادة. وهناك غرفة الضيوف. وهنا غرفتي.

ـ عشر غرف؟! لك وحدك؟!

شعر فؤاد بتعاطف مفاجىء مع الزوج السابق. لا يمكن لرجل ان يسكن هنا من غير ان يشعر انه «زوج الست»، شاء أو لم يشأ.

يعرف فؤاد، على نحو قاطع غريزي، انه يوشك ان ينهي تجربته المريرة الطويلة مع الحرمان الجنسي. وحدهما في غرفتها، على السرير الكبير. ويدنو. وتدنو. المسألة أبسط مما كان يظن. «عرف الشعب طريقه» ـ هل جاءت الجملة من راديو الدادة؟ «وحّد الشعب بلاده». أم جاءت هذه الجملة من عقله الباطن؟ وهي تتأوه. ولا تكفّ عن الصراخ. ويفهم بعض كلماتها دون البعض الآخر. وتنغرز أظافرها في كتفيه. ويصرخ من الألم.

وتتشبث به. لا تدع له مجالاً للحركة، أو للتنفس. وتتابع الصرخات. وتطويها إغماءة قصيرة، وتصحو، وتصرخ من جديد.

دخل فؤاد في عالم جديد، ولم يفكّر في الخروج. دخل دنيا «الاربيج». عبق «الاربيج» في كل مكان: الوسائد، الملاءات، حتى الجدران والستائر. دخل عالم اللذة المتجددة: طائر الفينيق الذي يحترق ثم يعود، ولاحتراقه، في كل مرة، طعم أروع من طعم الاحتراق السابق، ولعودته طعم أجمل. اكتشف قارة الجسد، قارة جسدها وقارة جسده. كان يعتقد ان الرغبة تتركز في مكان واحد من الجسم. يدرك الآن ان جسمه بأكمله، من رأسه إلى قدمه، خلايا تنبض بالاشتهاء. كيف كان غافلاً عن كل هذه الاحتمالات؟ عن كل هذه الطاقات؟ وجسدها؟ كيف يمكن ان يتحول كل شبر من هذا الجسد الصغير شلالاً لا ينضب لكل هذه المتع، لكل هذه الأعراس؟

كيف مرّت الأيام؟! وكيف انقضت الليالي؟! متى عاد إلى التدخين الذي هجره بعد اسبوعه الأول في القاهرة؟ ومتى رجع إلى البيرة التي طلقها منذ تلك الحفلة الأولى في شقة الحرية؟ وكيف تصرّم شهر العسل؟ أين تعشيا ليلة الجمعة؟ أين سهرا البارحة؟ ما اسم هذا المرقص الصغير المنزوي في شارع الهرم؟ ما اسم هذا المطعم المتحرك على النيل؟ «ايزيس؟» «اوزيريس؟» ومتى بدأ يلبس القمصان المشجرة والبنطلون «الخاكي»؟ ومتى علّمته رقصة التانجو؟ ومتى شرب أول كأس شمبانيا؟ منذ متى، أصبح ينام في فراشها كل ليلة؟ كيف اختفى كل شيء، الدراسة، والسياسة، والأصحاب، والأهل، ولم يبق في الدنيا سوى مديحة، سيارة مديحة، روف مديحة، «أربيج» مديحة، ودادة مديحة؟ هل كان عاقلاً طيلة المدة الماضية، وجاء الجنون مع مديحة؟ أم كان مجنوناً، وجاء العقل مع مديحة؟ لا يهم. لا يهم الآن شيء سوى هذا الجسد المُعطّر «بالأربيج». هذا الفم الافريقي المكتنز. هذا الصدر الأعظم. طائر الفينيق الشبق. أين قانون الغلّة المتناقصة الذي يتحدث عنه الدكتور رفعت المحجوب في الكلية؟ التفاحة الأولى تعطيك من اللذة ما لا تعطيك التفاحة الثانية التي تعطيك ما لا تعطيك التفاحة الثالثة. لا يا دكتور! التفاح هنا يختلف. الثانية ألذ من الأولى والثالثة ألذّ من الثانية. لِمَ لا يبتكر قانوناً جديداً، قانون الغلّة المتزايدة؟ القانون الذي اكتشفه، ذات ليلة، في «برج الزمالك» فؤاد الطارف. فؤاد؟! ماذا حدث لاسمه؟ كيف تحول إلى «دودة»؟ دودة؟!

قبحك الله يا مديحة الوكيحة! وإلى «ديدو» وإلى «فدفد»؟ وكيف تحولت مديحة إلى «حداية». و«دحّة»، و«مدوحوه»؟! هل تركت أظافرها كل هذه الآثار؟ هل تركت أسنانها كل هذه التوقيعات؟ كيف استطاع، خلال السنين الماضية، ان يتعايش مع الوحش الجنسي الذي ينطلق الآن من ثيابه؟ هل كان مزيجاً من المستر هايد والدكتور جايكل؟ هل كان انساناً/ ذئباً ينتظر اكتمال القمر على الروف ليتحول إلى ذئب/ ذئب ينعتق من قيود الانسان ويهاجم بحرية الذئب؟ وأين ذهب الوقار الذي كان يحكم كل حركة من حركاته (وسكنة من سكناته؟). كيف يضمها إليه أثناء الرقص غير آبه بأحد؟ ويقبّلها في المرقص الصغير غير مكترث بالعيون؟ أين كانت هذه الجرأة؟ وماله تعلّم منها العض وإنشاب الأظافر ـ والصراخ؟ وما هذه الألفاظ التي تزوره مع الحمى اللذيذة؟ وما هذا الحوار الغريب، «باكرهك»، «باكرهك أكثر»، يا «وِحِشْ»، يا «وِحْشِة»، الذي يدور أثناء حوار الجسدين؟ وهل لا زالت الدادة، رغم هذا المولد، في سابع نومة؟!

أدرك فؤاد بمجرد ان دخل شقة الحرية ان محكمة نورمبرج توشك ان تعقد جلسة من جلساتها الشهيرة. وقرر ان يترك العاصفة تمر بسلام. استنزفت ليالي «الاربيج» كل طاقاته، حتى القدرة على الكلام.

بدأ قاسم:

ـ انظر إلى الرزنامة! آخر يوم في مايو. لم يبق إلاّ ثلاثة أسابيع على الامتحان. وأنت لم تفتح كتاباً بعد. هل تنوي السقوط؟

نظر فؤاد إلى الأرض ولم يجب. وتكلّم يعقوب:

ـ ماذا حدث يا فؤاد؟ لا نراك إلاّ مرة كل اسبوع. وأحياناً مرة كل اسبوعين. ماذا حدث؟

نظر فؤاد إلى السقف ولم يتحدث. وجاء دور عبدالكريم:

ـ تحبّ؟! عرفنا وفهمنا. ألف مبروك. كلنا حبّينا واتبهدلنا وأكلنا تبن! ولكن دروسك. مستقبلك. خذ اجازة يا أخي. أطلب منها إجازة دراسية إلى ما بعد الامتحانات.

تأمل فؤاد يديه وظل صامتاً.

بغتة، انفجر قاسم:

ـ في داهية! في ستين داهية! اسقط! اسقط! ضيّع نفسك بسبب شهوانية منحلّة.

ما ان وصلت العبارة إلى سمع فؤاد حتى شعر ان شيئاً ما تقمّصه، وأمسك بيده، وجعلها تأخذ منفضة السجائر وتقذفها في اتجاه وجه قاسم، الذي تفاداها بأعجوبة، ثم جعله يقوم، ويمشي نحو قاسم، ويطبق على رقبته، ويضغط، ويضغط، ثم اختلطت الأشياء، واشتبكت الأيدي، وعلت الأصوات، ودخل فؤاد غرفته، ونام.

إلاّ ان المحاكمة لم تنته. القاضي، هذه المرة، هو الاستاذ شريف. وهذا القاضي لا يلفّ ولا يدور:

ـ اسمع يا فؤاد. كل شيء له حدود. أنا مسؤول أمام والدك عنك وعن دراستك. إذا لم تنتبه لنفسك فسوف اضطر إلى ان أذهب بنفسي إلى مظهر بيه رشوان وأطلب إليه ان يلمّ ابنته.

أغلق فؤاد باب غرفته، وبدأ المذاكرة، وطلب إلى عبدالكريم ان يخبر مديحة عندما تتصل انه دخل الغرفة ولن يخرج منها إلاّ بعد انتهاء الامتحانات.

* * *

ظهرت النتائج. وكما توقع نشأت، رسب فؤاد وعبدالكريم في مادة القانون المدني. وعلى خلاف التوقعات نجح فؤاد في بقية المواد وإن كان مُعدله، باستثناء مادة الشريعة حيث حصل على «جيد»، لم يتجاوز «مقبول». نجح عبدالرؤوف، كالعادة، بامتياز. وحصل كل من نشأت وقاسم ويعقوب على تقدير «جيد». نجح ماجد وانتقل إلى السنة النهائية بكلية الطب. على ان النتيجة مرت على فؤاد كما يمر النسيم العليل على المحيط العميق. كأن الذي رسب في مادة، لأول مرة في حياته، انسان لا يعرفه. كأنّ الذي حصل على المعدل المنخفض شخص غيره. لم يكن يهمه شيء سوى البقاء بقرب مديحة. سافرت المجموعة إلى البحرين وبقي في القاهرة، واضطر إلى أن يكذب على أبيه أول كذبة في سجل العلاقة بينهما، مدعياً انه بقي لإجراء فحوص طبية في المعدة والعين.

مرّ شهر العسل الثاني كما مرّ الأول، بل كان أكثر حلاوة. يعرف الآن جسدها جيداً ويعرف أين يجد مفاتيح الرغبة. وتعرف هي كيف تثير كل المواجع في جسمه. ويعرف الآن دورة الشبق عندها، كيف تولد ومتى

تصل إلى الذروة وكيف تنحسر. وتعرف هي متى تستطيع ان تهاجم، ومتى يجب ان تتركه يسترد أنفاسه. وجاء شهر العسل الثالث أغنى وأجمل من سلفيْه. تحولت شهوة الالتهام المسعور إلى نزعة تلمظ بطيء. وأصبحت سعادته بقربها وهما في مكان عام لا تقل عن سعادته بقربها وهما في السرير. وتغير الحوار الطفولي المبتذل فصار حديثاً جاداً عن معنى الحياة والموت والحب والسعادة. ذهب معها إلى مكتبها في الفندق. وزارت معه شقة الحرية التي أقفرت من سكانها. وذهبت معه إلى الكلية التي تتحول، طوال عطلة الصيف، إلى قرية أشباح. إلاّ ان اليوم، كل يوم، لا ينتهي إلاّ في السرير، بين الملاءات البيضاء، حيث تقبل غمامة «الأريج» وتأخذه معها إلى أعلى القمم ثم تهبط به إلى أعمق الأعماق.

لم يبدأ قانون الغلّة المتناقصة عمله إلاّ مع الشهر الرابع، الذي لم يعد شهر عسل. لا يعرف متى تسللت الأفعى إلى الروف ولا كيف. لم يكن الشجار بالأمر الجديد فطالما تشاجرا حتى في بداية العلاقة التيلفونية. إلاّ ان الشجار البريء تحول الآن إلى مباراة بين خصمين في ايقاع أبلغ الأذى النفسي. ولم تكن الغيرة ضيفاً طارئاً على العلاقة، فقد كانت، فيما يخصّه هو على الأقل، جزءاً نابضاً في قلب العلاقة منذ المعاكسة التيلفونية الأولى. إلاّ انها الآن تتخذ مظاهر صاخبة عنيفة. حطّم هو صورة الزفاف التي تجمعها بالزوج السابق، ومزّقت هي صوره مع سعاد. أصبح يستجوبها عن كل ما فعلته في الفترة ما بين طلاقها والتعرف عليه. لم تعد ترضى ان يخرج بمفرده، ولم يعد يسمح لها بالذهاب إلى الفندق. إلاّ ان الأزمة الأخطر أخذت تتكشف بين الملاءات البيضاء العابقة «بالأريج». كان مستعداً كلما أرادته، وكانت جاهزة كلما اشتهاها. الآن، يتسلّل الصداع إلى رأسها قبيل ساعة الصفر، ويداهمه التعب بمجرد ان يرى ذلك الشعاع في العينين الآسيوتين الضيقتين. ذهب الجنون العفوي وجاء التخطيط. ذهبت الصرخات، ثم اختفت التأوهات لم يبق سوى الصمت المثلّج.

عندما حمل ثيابه ذات صباح وغادر الروف، لم تكن هناك دموع. كانت ترقبه بهدوء، ولم يتبادلا حتى تحية الوداع.

يعانقه عبدالرؤوف بحرارة، ويقول:

ـ كنت أعرف انك ستعود. الحمد لله على السلامة.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني انك كنت في رحلة مؤقتة، وكنت واثقاً انها ستنتهي. ولو انني، بصراحة، لم أتوقع ان تستمر كل هذه الأسابيع.

ـ وكيف عرفت انها انتهت؟

ـ يكفي ان أنظر إليك. زال التوهج البدائي من عينيك. واختفت آثار الجوع النهم من فمك. ولم يعد لفقدان البكارة ذلك السحر.

ـ تتحدث يا رؤوف وكأنك عبرت تجربة مشابهة.

ـ ربما. ولكن لا تنتظر التفاصيل في قصة قادمة. متى ستسافر إلى البحرين؟

ـ كيف عرفت عن هذا؟ حجزت للأسبوع القادم.

ـ وأعرف شيئاً ثانياً يا فؤاد. أعرف انك لن تكتب إليها، ولن تكتب هي إليك. ولن تسأل عنها بعد عودتك ولن تسأل هي عنك.

ـ هل أصبحت تبيّن زين؟

ـ واضرب ودع. أليست هذه مهمة الفنان؟ كانت امرأتك الأولى وكنت أنت، رغم زواجها، رجلها الأول. وانفجرت الرغبات المكبوتة كالبركان، ثم خمدت.

ـ المذهل يا رؤوف ان ينتهي كل شيء بهذه البساطة. كنت أتوقع ان أبكي قليلاً، وأن تبكي هي قليلاً.

ـ لِمَ البكاء؟ لم يكن هناك حب، ولا حتى صداقة. لم يكن هناك سوى الجوع المتبادل.

ـ كانت تجربة لا تُصدق.

ـ هل في العالم كله تجربة أروع من تجربة الجائع الذي يلتقي بوليمة؟ غير ان أعظم الناس جوعاً لن يدّعي انه في حالة حب مع سفرة!

ـ دعنا منها الآن. ماذا عن كتابنا؟

ـ ستجده جاهزاً عندما تعود. ثلاثة آلاف نسخة!

* * *

لم يشهد فؤاد كل هذا الشجن على ملامح أبيه من قبل. لم يلحظ خُطى الشيخوخة وهي تدوس الوجه الأليف الصبوح البشوش. يكاد يصعق عندما يذكّره أبوه:

ـ لقد وصلتُ السبعين يا فؤاد. ماذا بقى من العمر؟

ثم يزفر، ويستطرد:

ـ هل هذه حالة؟ عندما قرر ناصر ان يترك العمل بالمتجر ويفتح مكتب سفريات قلت ما دام انه يسكن بقربي فلن يتغير شيء. إلاّ انه الآن يريد ان يترك البيت المجاور وينتقل إلى القضيبيّة. هل هذه حالة؟!

يزفر من جديد، ويواصل:

ـ لم يبق إلاّ انت وخليل. هل ستتركاني بدوركما؟

يعرف فؤاد ان خليل، بدوره، على وشك ان يبدأ عمله المستقل، ولكنه يؤثر السكوت. يقوم ويقبّل رأس أبيه:

ـ ما يصير إلاّ الخير ان شاء الله. ما يصير إلاّ ما تريد.

* * *

على خلاف الصيف الماضي، يجد قاسم هذا الصيف في البحرين متعة متجددة لا تنتهي. حدّث أباه عن مشروعه في القاهرة، وسرّ الأب باكتشاف هذه النزعة التجارية المبكرة في الابن، وقرر ان الوقت قد حان لكي يبدأ قاسم تدريبه العملي. أرسله إلى قسم المحاسبة في مؤسسته وطلب من مدير القسم ان يطلعه على كل تفاصيل العمل. أخذه معه في جولاته اليومية، وعرّفه على مدراء البنوك والمسؤولين في الشركات الأجنبية العاملة في البحرين. إلاّ ان المهمة الأساسية التي كلفه أبوه بها كانت الإشراف على مشروع «البستان». أثبت هذا المشروع ان محمد صدفي سبق زمانه، وسبق كل منافسيه. أزال النخيل من بستان ضخم يملكه في منطقة الخميس، وبنى خمسين فيلا وفرشها، وعرض الواحدة للايجار بمبلغ ستمائة روبية في الشهر. لم يصدق أحد ان هذا المشروع سينجح، أو ان مستأجراً واحداً سيدفع هذا المبلغ الضخم. إلاّ ان المشروع لم يكد ينتهي حتى كانت الفيلل قد استؤجرت ولم يبق سوى عدد يقل عن عدد أصابع اليد الواحدة. طلب الأب إلى قاسم ان يداوم يومياً في المشروع، وان يتولى استكمال النواقص، والاشراف على راحة المستأجرين.

اكتشف قاسم خلال مروره بالفيلل وتعرفه على سكانها منجماً غنياً من البنيات الانجليزيات، منهنّ من تقيم مع عائلتها بصفة دائمة، ومنهن من جاءت في زيارة صيفية. تعرف على جين ابنة طبيب الاسنان في «بابكو» الدكتور هندرسون. ودفنى ابنة الجراح الذي يعمل في مستشفى النعيم،

الدكتور بولت. وهيذر ابنة مدير الجمرك، المستر ستون. وسوزان ابنة مدير محطة الكهرباء المستر كوك. وماري ابنة مدير الانتاج في «بابكو»، المستر لستي. وجدت الفتيات عند قاسم ما يبدد سأم الصيف البحريني: السيارة الفخمة، اللنج التي يستعيرها من أبيه كل جمعة ويأخذهن فيها إلى رحلات صيد السمك والسباحة، ثم «البارتيز». سكن قاسم في إحدى الفيلل الشاغرة واستأذن أباه في دعوة نشأت لزيارته. جاء نشأت وسكن مع قاسم. وأصبحت فيلا البستان ملحقاً لشقة الحرية، تحولت إلى «فيلا الحرية» حيث يلتأم شمل المجموعة كل مساء هاربين من الجو الخانق والمحيط المحصور.

بدأ «البارتي» الأول بمحض الصدفة. جاء الاقتراح، عفوياً، من جين وتولت دعوة الفتيات والفتيان. وكان على كل ضيف ان يحضّر مشروبه معه. كان العشاء ساندوتشات التكة البحرينية التقليدية. نجحت الحفلة واستمرت إلى ما قبيل الفجر. وسرعان ما أصبحت تقليداً يتكرر كل خميس. وانتشر الخبر في البستان، وتدفق الضيوف بدعوة وبلا دعوة. جاء الأزواج والزوجات، والمراهقون والمراهقات، والزوار والزائرات - إلى ان تجاوز العدد، في بعض الحفلات، الثمانين والتسعين.

في الجو الساخن الصاخب، ومع التصاق الأجساد، ومع الموسيقى المثيرة، ومع السيل الذي لا ينتهي من البيرة، تحررت الغرائز الجنسية من كل عقال. لم يصدق قاسم السهولة التي يتم بها كل شيء. خلال الحفلة الثانية، اقترح على جين ان يذهبا إلى الطابق الأعلى، وذهبت وفي لحظات كانا على الفراش. وفي الحفلة التالية، اقترح الاقتراح نفسه على هيذر وتكررت التجربة. بعد تردد قصير أعلن خلاله انه لن يخون فلاحته السويسرية، اكتشف نشأت الفرص المتاحة وتكررت زياراته، بدوره، للطابق الأعلى.

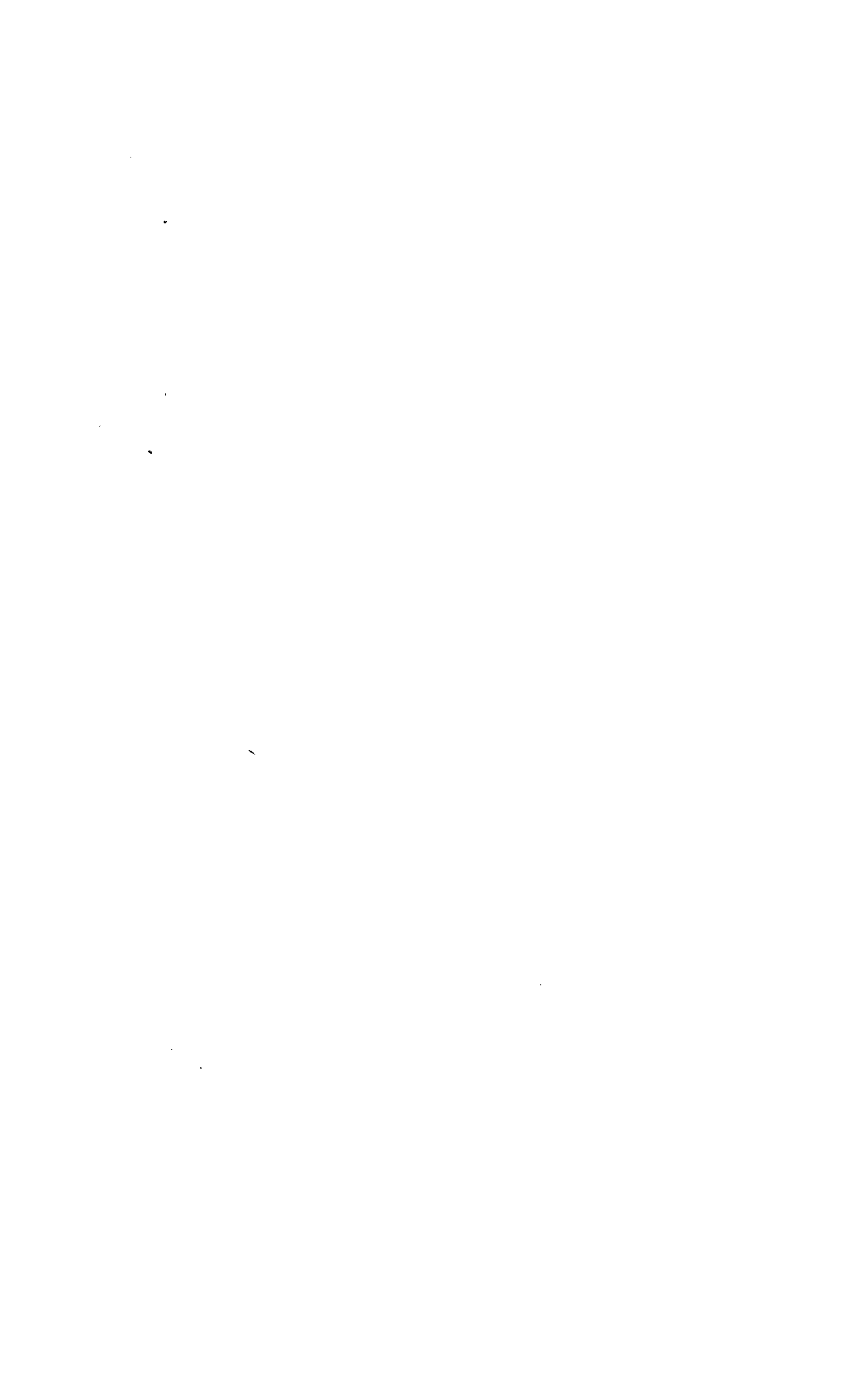
أهمل يعقوب البنات، وركّز اهتمامه على الأمهات. ولم يقلّ نجاحه في هذا المجال عن نجاح زميليه. كان ينتظر حتى يصل الزوج مرحلة متقدمة من السكر، أو ينشغل مع امرأة أخرى، ويقترح على الزوجة جولة في الحديقة. وهناك في ركن مظلم، على الحشائش، يبدأ الهجوم. لم يكن يعقوب يشعر انه يمارس الجنس بل يمارس الثأر. لم يكن يضاجع المسز هندرسون، ولا المسز ستون، ولا بقية الشمطاوات، بقدر ما كان يغتصب الامبراطورية الاستعمارية العجوز.

رفض عبد الكريم وفؤاد دخول المعمعة الجنسية مكتفييْن بالتفرج من بعيد. ومع هذا، لم يسلما من محاولات مخمورة، في آخر الليل، من زوجة مخمورة. مع نهاية العطلة، كان قاسم ونشأت، فيما بينهما، قد طافا على كل بنيات البستان، وكان يعقوب قد صفّى حسابه مع معظم العجائز. رجع قاسم إلى القاهرة بخطى متثاقلة. يا له من صيف! يا له من صيف!

* * *

فكّر فؤاد طويلاً في التجربة العاصفة التي مرت به، فكر بتجرد، من غير شعور بالألم، ومن غير تعذيب للذات. كان يهمه ان يعرف كيف أفلت زمام حياته من يده على هذا النحو، وهو الذي لم يعهد عنه تصرف طائش واحد. وهو الذي لم يتخلّف عن يوم دراسي واحد. وهو الذي كان مضرب المثل في الاتزان والانضباط منذ طفولته. كيف مرّ به اليوم بعد اليوم، والشهر بعد الشهر، وهو لا يكاد يخرج من السرير؟!

انتهى فؤاد، بعد تفكير عميق، إلى أن الفاصل بين عالم العقل وعالم الجنون خيط رقيق، عرضة للانقطاع في أي لحظة. وعاهد نفسه، بعد تفكير عميق، انه من الآن فصاعداً، ومهما كانت اهتماماته أو مشاغله، ومهما كانت الاغراءات التي تحيط به، أو التحديات التي تحاصره، انه من الآن فصاعداً، إلى آخر حياته، سوف يجعل جانبا من تفكيره، طرف عينيه، منصباً على الخيط الرقيق للتأكد انه لم ينقطع، وان العالميْن لا يزالان منفصليْن.



١٥

سبتمبر
اكتوبر ١٩٦٠



ذي المعالي.. فليَعلُون مَنْ تَعالَى   هكذا... وإلاّ فلاَ لاَ!

المتنبي

١٥

وصلت المجموعة إلى سنة الليسانس، ودنت ساعة القرار، ساعة المستقبل. قرر فؤاد ان يكمل دراسته في أمريكا مع قاسم، وان يسافرا معاً، ولم يبق إلا حصوله على موافقة أبيه. كان واثقاً انه، بقليل من الحكمة والصبر، سوف يتمكن من إقناع أبيه. وقرر عبدالكريم فتح مكتب للمحاماة في البحرين. أما عبدالرؤوف فقرر ان يتقدم للعمل مُعيداً بالكلية، تمهيداً للبعثة والدكتوراه. وفي ذهن نشأت ان يلتحق بمجلس الدولة. أما يعقوب فكان يستعجل الرجوع إلى البحرين ليبدأ هناك حلقة جديدة من حلقات النضال.

قرر الأصدقاء ان تكون هذه السنة مختلفة عن السنوات السابقة. ان يبدأوا المذاكرة الجدية من أول يوم. ان يحضروا حتى السكاشن. وباشر فؤاد وعبدالكريم دراسة اللغة الفرنسية على يد مدرس اختاره الاستاذ شريف. أقبل فؤاد على العام الدراسي الجديد بنهم، سعيداً لأن صفوة الأساتذة هم الذين يتولون التدريس لطلبة الليسانس. الشيخ أبو زهرة يدرس أصول الفقه، والدكتور سليمان مرقص، الذي ينعقد الإجماع على انه خليفة الدكتور السنهوري، يدرّس القانون المدني. وعميد الكلية الدكتور محمود مصطفى يدرّس القانون الجنائي. والدكتور جابر جاد عبدالرحمن يدرّس تنازع القوانين. والدكتور محسن شفيق يدرّس القانون التجاري. هؤلاء هم عمالقة القانون في مصر، الاستماع إليهم متعة كبرى، وكتبهم أحسن ما أُلّف في بابها.

يجد فؤاد في انتظاره عدة مفاجآت أدبية سارة. لقيت المجموعة القصصية ترحيباً حاراً من الوسط الأدبي. كتب الدكتور شاكر عيّاد مقالاً عنها في مجلة نادي القصة. وتحدث عنها الدكتور عبدالقادر القط في برنامجه الإذاعي الاسبوعي. وأثنى عليها الاستاذ صالح جودت في

«المصور». وأشار إليها الاستاذ كمال الملاح في صفحة «الاهرام» الأخيرة. وجد الطالبان المغموران نفسيهما وقد أصبحا أديبين معروفين. وسكر المؤلفان الشابان بهذا العالم الجديد، وتمتعا بكل لحظة من لحظات الشهرة الطارئة.

جاءت المفاجأة الكبرى في الاسبوع الأول من اكتوبر. قال عبدالرؤوف لفؤاد ان عميد كلية الآداب الدكتور صابر السيد أعجب بالمجموعة، وبلغ من اعجابه ان تطوع بتقديم المؤلفين الشابين إلى الدكتور طه حسين، الذي كان استاذه. وصعق فؤاد. طه حسين؟! اتضح ان الدكتور طه حسين يلقي محاضرة في الشهر على طلاب الدراسات العليا في الكلية، ويمرّ قبل المحاضرة بمكتب العميد حيث يتناول معه فنجاناً من القهوة. في هذا المكتب تم ترتيب اللقاء.

أوّل ما لفت نظر فؤاد اناقة الدكتور طه حسين. البدلة الرمادية الغامقة المكوية بعناية، ربطة العنق الحمراء المشوبة بالسواد، والطربوش الذي لا يبدو ان في مصر الآن من يستخدمه غيره. كما لفت نظره ان السنين لم تزل من ملامح طه حسين الحيوية، لم تقض على بقايا حُمرة تتوهّج بالعافية. وذهل لأن الدكتور طه حسين بدا أضأل بكثير مما كان يتصور. كان يظنه عملاقاً في الحجم، وصدم عندما رآه ربعة في الرجال، أقرب إلى القصر منه إلى الطول.

قدم الدكتور صابر السيد فؤاد وعبد الرؤوف لطه حسين الذي صافحهما بحرارة. قال الدكتور صابر:

ـ يا معالي الباشا! فؤاد من البحرين.

ما كاد طه حسين يسمع اسم البحرين حتى ابتسم وأنشد:

قلّدتني الملوك من لؤلؤ البحرين   آلاءهـا ... ومـن مُـرجـانِـهْ
نخلة لا تزال للشرق معنى   مـن بـداواتـه إلـى عُـمـرانِـهْ

وأضاف:

ـ هل تعرف قصة هذين البيتين يا دكتور صابر؟

وردّ الدكتور صابر.

ـ لا، والله، يا معالي الباشا.

ابتسم طه حسين مرة أخرى وقال:

ـ أخبره يا استاذ فؤاد.

استاذ فؤاد؟! طه حسين يسميه استاذ فؤاد؟!

تردّد فؤاد لحظة ثم تكلم:

ـ عندما بويع شوقي أميراً للشعراء أهدته البحرين نخلة من الذهب، رطبها من الفضة. جاء بعض اللؤلؤ من متجر أبي الذي لا يزال يذكر النخلة جيداً.

قال الدكتور صابر:

ـ لم أسمعك من قبل تستشهد بشعر شوقي يا باشا.

ردّ طه حسين:

ـ رحم الله شوقي. كان شاعراً فحلاً. آخر الشعراء الفحول.

قال عبدالرؤوف:

ـ ولكنك هاجمته يا دكتور طه.

ضحك طه حسين ضحكة طويلة صافية:

ـ هاجمتُ الجميع وهاجمني الجميع. شأني شأن بشار:

ألَـم ترَ أني منذ ستين حجَة أكيد شياطين العِدا... وأُكَادُ

ثم تنهد، وأضاف:

ـ كان هذا في الماضي. أما الآن فلسان حالي:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس «كيف لَبيد؟»

سأل عبدالرؤوف:

ـ يا دكتور طه! لقد كتبت كل أنواع الأدب. فما هو أقربها إلى قلبك؟

ـ قد لا تصدق. أقربها إلى قلبي الشعر ولكن حاله معي كحاله مع الخليل بن أحمد، «يأباني جيده، وآبى رديئه»، ولهذا طلقته بلا رجعة.

ـ لم الشعر بالذات يا دكتور طه؟

ـ لأنه قمة التركيز. في بيت واحد تجمع خلاصة عمر كامل. بوسع المرء ان يؤلف كتاباً كاملاً عن بيت المعري:

تشتـاق أيّار نـفوسُ الورى وإنمـا الـشـوق إلـى وردِه

يقترب سكرتير الدكتور طه حسين منه ويقول:

ـ موعد المحاضرة يا معالي الباشا.

قبل ان يخرج طه حسين، يضحك وهو يصافح فؤاد ويقول:

ـ ما هي أخبار ابن مالك يا استاذ فؤاد؟

وضحك فؤاد بدوره:

ـ بخير، يا دكتور، بخير. يسلّم عليك!

يغادر المؤلفان الناشئان المكتب وهما لا يكادان يُصدّقان انهما قضيا قرابة ربع ساعة يتحاوران مع عميد الأدب العربي.

يسأل فؤاد:

ـ ما هي حكاية «معالي الباشا»؟

ـ كان طه حسين وزيراً، وباشا. هل نسيت؟

ـ ألم تلغ الألقاب؟

ـ لا يا باشا! من هو ابن مالك؟

ـ سرّ بيني وبين الدكتور. لقد سماني الاستاذ فؤاد! ألم تسمعه؟

ـ من هو ابن مالك يا أستاذ فؤاد؟

ـ لا تسأل عما لا يعنيك.

ـ من هو؟ يكاد الفضول يقتلني.

ـ اقرأ مُعلقة طرفة بن العبد.

وجاءت المفاجأة الكبرى الثانية في الشهر نفسه: مقابلة الاستاذ عباس محمود العقاد. حقاً إن الكتاب غيّر مجرى حياتهما. تفتح، الآن أمامهما الأبواب، ويريان وجهاً لوجه، أولئك العباقرة الذين كانوا لا يرونهم إلاّ صوراً على صفحات الجرائد والمجلات. اصطحبهما الاستاذ عبدالباري إلى صالون العقاد الشهير، الذي يفتح أبوابه ظهر كل جمعة. كان الصالون الصغير يغُص بالرواد، وكان الاستاذ العقاد في الصدر يرتدي بيجامه صفراء أكل الدهر عليها وشرب، ويلف على رقبته شال الصوف المشهور، ويضع يده اليسرى تحت البيجامه ويتركها هناك. عندما رأي فؤاد وجوه المعجبين والمعجبات تذكّر على الفور مجلس الاستاذ ميشيل عفلق. لم يعرف من الحاضرين سوى انيس منصور وصالح جودت. قدم الاستاذ

عبدالباري المؤلفين الشابين، وقام العقاد وصافحهما، وما ان رأى عنوان الكتاب حتى بادر فؤاد:

- «ورقه من بردى دلمون»؟ الكتاب عن جلجامش يا مولانا؟

احمرَّ وجه فؤاد، وتلعثم:

- لا يا استاذ. اخترنا العنوان رمزاً يدل على كل من مصر والبحرين.

سأل أحد الموجودين:

- من هو جلجامش يا استاذ؟

وضحك العقاد:

- ما سمعتش عنه يا مولانا؟ ده مطرب مشهور.

وضحك مرة أخرى. وروى للحاضرين ملحمة جلجامش بكل تفاصيلها. وذهل فؤاد. لا يمكن ان يكون في مصر بأكملها، أكثر من عشرة أشخاص سمعوا، مجرد سمع بجلجامش. وهو ذا الآن يستمع إلى العقاد يروي القصة كما لو كانت من تأليفه. ما ان انتهى العقاد من سرد أحداث الملحمة حتى جاء سؤال آخر:

- لماذا يخلو الأدب العربي من الأساطير يا استاذ؟

وردّ العقاد بحدة:

- جبت الكلام الفارغ ده منين يا مولانا؟

استغرب فؤاد هذا الردّ الجارح، إلاّ ان السائل لم يستغرب، ولم يستغرب أحد من الحاضرين. يبدو ان تعليقات كهذه تتكرر، بانتظام، في الصالون العتيد. ثم انطلق العقاد يتحدث عن الأساطير في الأدب العربي، بدءاً بأسطورة خرافة وانتهاء باسطورة علي الزيبق. وجاء الكلام متناسقاً وكأنه محاضرة أعدت بعناية على مدى أيام طويلة.

استجمع فؤاد كل شجاعته وقرر ان يتحمل أي ردّ جارح برجولة، وسأل العقاد:

- يا استاذ! العالم العربي يعج بالتيارات الفكرية هذه الأيام. ونحن الشباب ضائعون. أريد أن أسألكم عن رأيكم في العلاقة بين القومية العربية والاسلام.

رمقه الاستاذ بنظرة غامضة المدلول. وقال:

ـ ما احنا عرب يا مولانا! ومسلمين برضه يا مولانا!

استطرد فؤاد:

ـ ولكن ألا يوجد تناقض بين الإيمان بالقومية العربية والإيمان بالإسلام؟

أجاب العقاد على الفور:

ـ اسمع يا مولانا! التناقض الوحيد هو بين العبودية والحرية، بين الاستبداد والعدالة، بين الديكتاتورية والديمقراطية. أما الشعارات يا مولانا فهي مجرد شعارات، لا تودّي ولا تجيب.

قبل ان يفيق فؤاد من صدمة هذه الصراحة، استمرّ العقاد هادراً:

ـ لا بديل عن الحرية. كل ما يطرح بديلاً عن الحرية هو ديكتاتورية. إذا طرحوا الاسلام بديلاً عن الحرية فاعرف انهم يطرحون إسلاماً مزيفاً. إذا طرحوا الاشتراكية بديلاً عن الحرية، فاعلم انهم يطرحون عدالة كاذبة. وإذا طرحوا القومية بديلاً عن الحرية، فاعرف انها مجرد شوشرة ايديولوجية. تسألني عن القومية يا مولانا؟ شوف هتلر عمل إيه باسم القومية! شوف موسيليني!

استمرت الأسئلة والأجوبة، والعقاد يتكلم في كل موضوع كما لو كان لا يحسن غيره. وفي تمام الثانية نهض، ونهض الجميع.

في الطريق يقول عبدالرؤوف:

ـ كنت أسمع من قبل عن جرأة الاستاذ العقاد. ولكني لم أكن أتصور انها تصل إلى هذا الحد. لم يكن العقاد يتكلم عن هتلر أو موسوليني. الجميع أدركوا المقصود. لو قالها شخص غير العقاد لبات الليلة في السجن.

نظر فؤاد إلى الساعة:

ـ فاتتنا صلاة الجمعة اليوم بسبب العقاد. على فكرة ألا يصلّي العقاد الجمعة؟

نظر إليه عبد الرؤوف بمكر:

ـ ما بلاش أسئلة سخيفة يا مولانا!

ـ وماذا تفعل يد العقاد تحت البيجامة؟

ـ مش قلنا بلاش اسئلة سخيفة يا مولانا؟!

* * *

يجلس يعقوب وراء عجلة القيادة، وتقف «سالم الخطر» في شارع جانبي ضيق يتفرع من باب الحديد. ينظر يعقوب إلى الساعة، بمعدل مرتين في الثانية. تجيء التاسعة، ولا يحدث شيء. وتمر خمس دقائق، ولا يحدث شيء. ثم يفتح باب السيارة، ويطل وجه نسائي، وتطالعه عيون تختفي تحت نظارة طبية سميكة:

ـ شبلي؟ ميرفت!

يتأملها يعقوب بحذر، ويسأل:

ـ معاكي الجورنال؟

ـ هنا. أخبار الجمعة.

يهدأ يعقوب. «الجورنال». «أخبار الجمعة». اكتملت كلمة السر.

ـ تفضلي.

تجلس ميرفت بجانبه، وتنطلق «سالم الخطر».

كانت هذه مهمته الحزبية الأولى، توزيع منشور يدين الإقطاع الذي عاد إلى الريف رغم الاصلاح الزراعي. يتحدث المنشور عن معاناة الفلاحين، وعن أوضاعهم المتردّية، ويطالب بحل الجمعيات التعاونية، وإعطاء الفلاحين الحق في انشاء نقابات، وتأميم ما تبقى من ملكيات الاقطاعيين. قرابة ألف نسخة من المنشور تقبع في حقيبة ميرفت اليدوية المنتفخة التي تسيل منها، للتمويه، خيوط التريكو. أعطيا أربع نقاط للتوزيع: الأولى في الجيزة، والثانية في بولاق، والثالثة بقرب ميدان التحرير، والرابعة في شبرا الخيمة. لم تنص التعليمات، لحسن الحظ، على لصق أي أوراق. نثر المنشورات من السيارة عملية سريعة نسبياً، وسليمة من المخاطر التي تكتنف عملية اللصق على الجدران. اختار يعقوب شارعاً قريباً من الهدف وراقب كل الاتجاهات بعناية، وهمس:

ـ الآن!

امتدت يد ميرفت وألقت بحزمة من الأوراق. وانطلقت «سالم الخطر» إلى النقطة الثانية. وتكرر المشهد. قبيل منتصف الليل كانا قد أنهيا المهمة وعاد يعقوب بميرفت إلى المكان الذي التقيا فيه.

وجد يعقوب صعوبة بالغة في النوم بعد عودته. تصوّر ماذا سيحدث عندما يجيء الصباح، وتزدحم المناطق وتُكتشف المناشير. تصور غضب

رجال الأمن وهم يرون الأوراق الطائرة على الأرصفة. تخيّل مؤتمراً يُعقد على الفور في وزارة الداخلية، ويحضره وزير الداخلية بنفسه. تابع رحلة المنشور وهو يصل، قبل انقضاء النهار، إلى جمال عبدالناصر. تخيّل فرحة المسحوقين وهم يقرأون العبارات التي تشد أزرهم. وابتسم وهو يفكر في الذعر الذي سيتملك الاقطاعيين الجدد. كل نسخة من هذا المنشور ضربة توجهها الجماهير إلى أعدائها. كل نسخة من هذا المنشور خنجر تغمده الجماهير في صدور جلاديها. بدأت مرحلة النضال الحقيقي في حياة يعقوب. ويقسم يعقوب، قبل ان ينام مع الفجر، انها ستدوم ما دامت حياته.

* * *

يدقّ عبدالكريم باب الغرفة، ويدخل:

ـ فؤاد! هناك موضوع شخصي أود ان أبحثه معك. ومعك وحدك. لا أريد ان يعرف الآخرون. هل تعدني بكتمان السر؟

ـ أعدك. خير؟

ـ أفكّر جدياً في الزواج بريري، وأحب ان أتشاور معك قبل الوصول إلى قرار نهائي. ما رأيك؟

صمت فؤاد محرجاً، وألح عبدالكريم:

ـ تكلم! ما رأيك؟

احمرّ وجه فؤاد وظل ساكتاً، ومضى عبد الكريم:

ـ أرجوك يا فؤاد. من الضروري ان أسمع رأيك.

ـ ماذا تريد مني ان أقول يا كريم؟ إذا كنت قد اتخذت قرارك فلماذا تطلب رأيي؟ أعتقد انك تعرف رأيي جيداً.

ـ أريد ان أسمعه منك.

يتنهد فؤاد:

ـ حسناً. كل ما أرجوه هو ان تستمع بهدوء ولا تغضب. أولاً، سوف تتخرج بعد شهور، وبإمكانك ان تفتح مكتب محاماة وتعتمد على نفسك. هذه ليست هي المشكلة. سيغضب والدك وسيقطع علاقته بك، وربما تبرأ منك. وهذه، أيضاً ليست هي المشكلة.

يبدو على وجه عبدالكريم ارتياح واضح:

ـ إذن فأنت موافق؟!

ـ لم أكمل بعد. أنا لا أعترض على ريري. بنت طيبة ومهذبة، وتحبك. ولكني أعتقد انك تظلمها لو تزوجتها، وتظلم نفسك.

ـ كيف؟

ـ لا داعي لأن نلف وندور يا كريم. أعرف انها الآن تعمل في صالون حلاقة، وإن لم تعد «تشتغل»، أعني لم تعد «تلعب»، كلمة «تلعب» أفضل. هذا صحيح، ولكن ماذا عن الماضي؟

ـ لقد غفرت لها الماضي.

ـ الموضوع ليس موضوع غفران. هل تستطيع ان تنسى هذا الماضي.

ـ لقد نسيته بالفعل.

ـ أشكّ في هذا. ولكن لنفترض، جدلاً، انك نسيته. الآخرون لن ينسوا.

ـ ما دخل الآخرين؟ هذه حياتي الخاصة!

ـ منذ متى احترم الآخرون حياة أحد الخاصة؟! هل احترمتم انتم حياتي الخاصة مع مديحة؟!

ـ الموضوع يختلف.

ـ ربّما. ولكن الفكرة هي ان الناس لا يرحمون. أتعرف ماذا سيقول الناس لو تزوجت ريري؟ سيقولون تزوج...

ـ لا تكمل! لا تكمل!

ـ لقد فهمت، إذن، ما أقصد! لا تود ان تسمع الكلمة. ولكنها سوف تقال. شئت أو لم تشأ.

ـ لن ألقي بالاً لكلام الناس. سعادتي فوق كل شيء.

ـ ولكن هذا الزواج لن يجلب لك السعادة.

ـ لماذا تقول هذا؟ لا تتصور مدى سعادتي مع ريري.

ـ سوف يختلف الوضع في المستقبل.

ـ ولماذا يختلف؟

ـ سوف يكون هناك دائماً ما يذكّرك بماضيها. ومن يذكّرك به.

ـ ذهب الماضي إلى غير رجعة.

ـ اسمح لي ان أكون قاسياً. هل تعرف عدد الزبائن الذين تعاملت معهم ريري خلال فترة عملها، خلال فترة لعبها؟

ـ لا أعرف. ولا أريد ان أعرف.

ـ بإمكاننا ان نفترض انها تعاملت مع مئات.

ـ لا تكن سخيفاً يا فؤاد!

ـ يا كريم! تستطيع ان تهرب من الناس. ولكن كيف تهرب من نفسك؟ سوف تظل دائماً وأبداً في براثن الأسئلة المزعجة. هل عرفت فلان؟ هل انبسطت مع فلان؟ هل أرضاها فلان في الفراش؟ كيف أضمن انها لا تخونني؟ كيف أعرف انها لن تعود إلى اللعب؟ سوف تتحول حياتك إلى جحيم، وسوف تحول حياتها إلى جحيم. سوف تكون هي الضحية.

ـ لن تخطر هذه الأسئلة ببالي. ثقتي فيها مطلقة.

ـ في رأيي انها لن توافق على الزواج حتى ولو طلبت إليها ذلك.

ينظر إليه عبد الكريم بدهشة:

ـ كيف عرفت؟! هل بحثت الموضوع معها؟

ـ لم أبحث معها شيئاً. هذا ظني. مجرد ظن.

ـ لقد تحدثت معها، بالفعل، أكثر من مرة. وفي كل مرة ترفض فكرة الزواج. وترفض بشدة.

ـ ترفض لأنها ذكية يا كريم. أذكى منك!

* * *

لم يتوقع قاسم ان تحظى المغامرة التجارية الأولى في حياته بكل هذا النجاح. لم يكد المكتب يبدأ أعماله، حتى انهالت عليه الطلبات. رُقي الموظف الذي جاء من «الهيلتون» مديراً، ووصل عدد الموظفين إلى خمسة. سرعان ما أصبح دخل المكتب الشهري في حدود خمسمائة جنيه، بربح صافٍ يعادل ثلث المبلغ. شعر قاسم بنشوة من نوع جديد وهو يعدّ النقود التي حصل عليها من عرق جبينه. فوق النشوة، يشعر نحو هذا المال بشعور تملّك غريب يمنعه من انفاقه. كيف يبعثر الانسان مالاً تعب في الحصول

عليه؟ فتح قاسم حساباً خاصاً لأرباح المكتب ـ لم يصرف منه مليماً واحداً.

والشعور نفسه، أو شبيهه، يراود نشأت. رغم انه تعوّد على ان يحصل من أبيه على كل ما يحتاج إليه، فالمال الذي يجيء من المكتب، الآن، له مذاق خاص. يجد نشأت، هو الآخر، ان من الصعب عليه ان ينفق قرشاً واحداً من دخل المكتب. توطدت العلاقة أكثر فأكثر بين الصديقيْن وهما يلتقيان في المكتب، في الرابعة من بعد ظهر كل يوم، ولا يغادرانه إلاّ مع الثامنة. ومع تجربة المكتب، جاءت تجارب أخرى من كل صنف ونوع. تعلم الصديقان من فنون العلاقات العامة دروساً لا يمكن تلقّيها في أي كلية. تعلّما الفرق بين التعامل مع المريض والتعامل مع المعافى؛ بين التعامل مع الغنى الارستقراطي والتعامل مع محدث النعمة؛ بين التعامل مع المرأة والتعامل مع الرجل. وكثيراً ما وجد الاثنان نفسيهما في فوهة المدفع، أمام زبون ثائر أو زبونة منفعلة. واكتشف نشأت في أعماقه، من المواهب التجارية ما لم يكن يخطر له ببال. اقترح فتح فرع صغير في المطار، مجرد طاولة مع موظف، وضاعف هذا الفرع نشاط المكتب. واقترح توظيف سكرتيرة تتولى الاستقبال والرد على المكالمات، وكانت هذه، بدورها، إضافة فعالة.

بحث الصديقان مستقبل المكتب:

ـ اسمع يا نشأت. بعد سفري، سوف يكون المكتب كله لك. سوف أبيعك حصتي بسعرها الأساسي، سبعمائة جنيه.

ـ لا. لماذا لا تحتفظ بحصتك؟

ـ ماذا سأفعل وأنا في أمريكا بالجنيهات المصرية؟

ـ لا تستعجل. دعنا نفكر في الموضوع.

ـ انتهينا. سوف يكون المكتب لك. هل تنوي ان تستمر في إدارته بالطريقة نفسها؟

ـ لا. أعتقد انني سأحتاج إلى شهادة ميلاد رسمية. لا بد من تسجيل المكتب رسمياً، ومن اعطائه اسماً.

ـ ماذا عن الضرائب؟

ـ لا تكاد تذكر. مائة جنيه في السنة، أو نحوها.

ـ ولكن كيف ستجمع بين عملك في مجلس الدولة وعملك في المكتب؟

ارتسمت على وجه نشأت علامات رعب مصطنع:

ـ صحيح! صحيح! القانون يمنع الجمع بين الوظيفة العامة والعمل الخاص! ماذا سأصنع؟

ـ لديك في مجلس الدولة أعظم العقليات القانونية في مصر. لماذا لا تستأنس برأيهم؟

ـ فكرة! مكتب مجلس الدولة للخدمات!

ومع عالم المكتب، تكشفت أمام الصديقين عوالم مليئة بالبنيّات: البنيات العاملات في مكاتب السياحة، البنيات الموظفات في البنوك، البنيات العاملات في الفنادق. اكتشف كل من قاسم ونشأت، بما يشبه الصدمة، ان التحدي الحقيقي الذي يواجههما الآن ليس العثور على البنيات بل البقاء بعيداً عنهن! كيف تغيرت الأمور؟! كيف أصبح الصياد هو الطريدة؟! البيزات؟! البيزات!

تردّد قاسم قبل ان يفاتح نشأت، ثم أقدم:

ـ عفواً يا نشأت! لا أود ان أتدخل في شؤونك الخاصة. ولكن منذ عودتنا من الإجازة لم أرك مع الفلاحة السويسرية. ماذا حدث؟

رد نشأت بانفعال:

ـ فلاحة فعلاً! أتدري ماذا قالت لي بعد عودتي من البحرين؟

ـ ماذا قالت؟

ـ إما ان تتزوجني، وإما ان تتركني.

ـ وما وجه الغرابة؟ هذا ما قالته فريدة. وما قالته شيرين.

ـ كنت أعتقد ان هذا يقتصر على الفلاحات المصريات. هذا الحرص الغريب على الزواج. ولكن هذه بنت سويسرية. تعرف انه من المستحيل ان أتزوجها.

ـ يبدو ان قضية الزواج مغروسة في أعماق كل بنيّة، سويسرية كانت أو صعيدية. ماذا قلت لها؟

ـ قلت لها في ستين داهية!

- حرام عليك! بعد هذا كلّه؟

- قلت لها إني لا أستطيع ان أتزوجها. إذا كانت تقنع بالصداقة فأهلاً وسهلاً. وإذا كانت مصرّة على الزواج فعليها ان تبحث عن خواجة سويسري.

- حتى أنت يا نشأت؟!

- ماذا تريدني ان أفعل؟ أتزوجها؟

- لا يتزوج الشرقي امرأة نام معها قبل الزواج، إلاّ إذا كان مجنوناً.

- وأنا شرقي. ولست مجنوناً. لم أضحك على أحد ولم أخدع أحداً. فرفشة؟ «أوكي»! زواج؟ يفتح الله!

- والآن لديك «جوّ» جديد؟ موظفة «الميناهاوس»؟

- ما رأيك؟

- تحفة؟ ولكن انتبه! عليها علامات الرغبة في الزواج.

- لن أتزوج بنتاً ألعب معها.

- هل أوضحت لها ذلك؟

- yes sir.

* * *

كل الجهود التي بذلها موظفو المكتب، وكل محاولات قاسم ونشأت، وكل الدعم الإضافي الذي جاء من الاستاذ شريف ومن الباشا، كل هذا لم يفلح في العثور على السجّادة الايرانية التي أحضرها قاسم معه من البحرين. يلعن قاسم، الآن، الساعة التي قرّر فيها ان شقة الحرية تحتاج إلى سجادة أصفهاني. ويلعن الساعة التي اشترى فيها السجّادة الصغيرة بثلاثمائة روبية. ويلعن الساعة التي اصطحب فيها السجادة معه على الطائرة. كان مستعداً لدفع الرسوم الجمركية، وكان يعرف انها سوف تكون ١٠٠٪ من الثمن الأصلي، وجاء مزوّداً بالفاتورة والمبلغ وكل التصديقات الرسمية الضرورية.

نظر إليه موظف الجمرك في المطار ببرود، وأعلن:

- دي سجادة!

وحاول قاسم ان يجابه بروده ببرود مماثل:

ـ ما أنا عارف!

قال الموظف:

ـ الرسم على السجاد ما يندفعش هنا!

ـ أمال بيندفع فين؟

ـ في جمرك السبتيه.

ـ ليه بقى؟

ـ التعليمات! راجع السبتيه بعد اسبوع.

أخذ فؤاد الوصل. وراجع، جمرك السبتيه بعد اسبوع. إلاّ انه لم يجد السجادة. وعاد بعد اسبوع آخر. ولم يجد جديد. قال له أحد الموظفين:

ـ شوف الجمرك الكبير في الجيزة. يمكن راحت هناك بالغلط.

وفوجىء فؤاد:

ـ الجمرك الكبير؟

ـ هنا جمرك المطار بس. جمرك المديرية في الجيزة.

في الجيزة لا يعرف أحد شيئاً عن السجادة. ولا في السبتيه. ولا في المطار.

صرخ قاسم في وجه فؤاد وكأنه المسؤول عن ضياع السجادة:

ـ طاسة ضايعة! فوضى! هذه إدارة زعيمكم العظيم!

سرقوا سجادتي!

ـ ردّ فؤاد بشماتة واضحة:

ـ مال المستغلين للمحرومين. مجتمع الكفاية والعدل.

ويزداد صراخ قاسم:

ـ لصوص وحرامية! لصوص وحرامية!

١٦

ديسمبر ١٩٦٠

بنا مِنكَ فوق الرمل ما بك في الرَمْلِ   وهذا الذي يضني.. كهذا الذي يبلي

المتنبي

١٦

جاء الصوت عبر التيلفون هادئاً رقراقاً:

ـ فؤاد؟ اشلونك يا ولدي؟

على الفور صرخ فؤاد:

ـ استاذ ابراهيم؟! أهلاً وسهلاً. أنت في القاهرة؟

وردّ الصوت الهادىء:

ـ نعم يا ولدي. وعندي لك رسالة من الوالد. هل تمرّ وتأخذها؟ أم أمرّ أنا عليك؟

ـ لا يا استاذ. أمرّ عليك أنا. أين تقيم؟

ـ فندق ناشونال.

ـ هل يمكن ان آتي الآن؟

ـ تفضّل يا ولدي.

الاستاذ ابراهيم العريّض! كل من في البحرين يسميه «الاستاذ». لا يوجد سوى استاذ واحد. أشهر شعراء المنطقة، وأشهر أدبائها. فؤاد، منذ طفولته، يعرف الاستاذ الذي يسكن الحي نفسه، والذي يمر بمتجر أبيه كل يوم تقريباً. ألقى الاستاذ عدة محاضرات في الثانوية عندما كان فؤاد طالباً. وقرأ الاستاذ قصص فؤاد المنشورة. وشجّعه على الاستمرار. خطّ فؤاد اهداء طويلاً على نسخة من «ورقة من بردى دلمون»، وقفز في أول تاكسي، متجاهلاً تعليمات الاستاذ شريف الاقتصادية.

في بهو الفندق استقبله الاستاذ بقامته الفارعة، بابتسامته الكبيرة، وبعينيه الواسعتين الصافيتين، واحتضنه بحرارة:

- أهلاً وسهلاً يا ولدي. اشلونك عزيزي؟

- بخير يا استاذ. اشلونك أنت؟

- الحمد لله. هذا مكتوب لك من الوالد.

- شكراً يا استاذ. نوّرت القاهرة. عمل أو زيارة؟

- عمل يا ولدي. جئت أمثل البحرين في مؤتمر الأدباء العرب.

- قرأت عنه في الجريدة. هل جاء معك أحد؟

- لا يا ولدي. أنا الوحيد الذي دُعي.

- وكيف برنامج المؤتمر؟

- كالعادة يا ولدي. كلمات وتوصيات. غداً وبعد غد. ثم نلتقي بالرئيس.

- بجمال عبد الناصر؟! متى؟!

- الخميس ظهراً. بعد انتهاء المؤتمر.

- أين؟

- البرنامج يقول القصر الجمهوري.

- في القبة.

لمعت الفكرة، بغتة، حادة كالسيف، في رأس فؤاد:

- استاذ ابراهيم! هل من الممكن ان أتقدم إليك بطلب؟ أرجوك؟

بدت غمامة حذر على محيا الاستاذ:

- طلب؟ حاضر يا عزيزي.

- استاذ ابراهيم! أعظم أمنية في حياتي هي ان أقابل جمال عبدالناصر. وهذه فرصة لن تتكرر. أرجوك! سجّل اسمي معك في الوفد. وخذني معك لمقابلة جمال عبدالناصر.

انطبعت على وجه الاستاذ علامات حيرة واضحة. ولم يتكلم. واستطرد فؤاد:

- أرجوك! أرجوك يا استاذ ابراهيم! لقد ألفت عشرات القصص وأصدرت كتاباً. ها هوذا أمامك. ولقي الكتاب ترحيباً من كبار النقاد. يمكن اعتباري أديباً. أليس كذلك يا استاذ ابراهيم؟

- صحيح يا ولدي. أنا أعتبرك أديباً من دون شك.

- إذن، يا استاذ، ساعدني. سجّل اسمي معك في المؤتمر. قل لهم ان هذا عضو انضم إلى وفد البحرين في آخر لحظة.

تصطرع المشاعر على وجه الاستاذ الذي لا يحسن اخفاء مشاعره. من الواضح انه ممزق بين رغبته في تحقيق أمل هذا الأديب الصغير، ابن صديقه، وبين الانضباط الصارم الذي يتحكم في حياته والذي لا يسمح بتصرفات عفوية مفاجئة:

- ولكن يا ولدي فات الأوان. المؤتمر يبدأ غداً.

- يا استاذ! المسؤول عن المؤتمر هو يوسف السباعي. وهو صديقك. أعرف انه صديقك. كلمة واحدة منك ويدخل اسمي ضمن الأعضاء. أرجوك يا استاذ ابراهيم! هذه فرصتي الوحيدة لرؤية جمال عبدالناصر. سوف أغادر القاهرة هذا الصيف وإذا لم أره الآن فمتى أراه؟ أرجوك يا استاذ ابراهيم!

يقوم الاستاذ من مقعده:

- سأحاول يا ولدي. انتظرني هنا.

اتجه الاستاذ إلى مكتب الاستقبال. رفع سماعة التيلفون. واستغرق في حديث طويل. على خلاف عادته، كان يشير بيده بين الحين والآخر. ثم وضع السماعة. وأقبل على فؤاد مبتسماً:

- وافق يوسف السباعي وأصبحت ضمن وفد البحرين. نلتقي هنا الثامنة من صباح الغد.

يقف فؤاد ويعانق العملاق المبتسم:

- كيف أشكرك يا استاذ ابراهيم؟ كيف أشكرك؟

مرت وقائع المؤتمر بفؤاد مرور الحلم العابر. بدأ المؤتمر في قاعة الاجتماعات بمبنى الجامعة العربية. ألقى يوسف السباعي كلمة الافتتاح. ثم توالت كلمات رؤساء الوفود. في المساء، كان هناك حفل عشاء في نادي الضباط بالزمالك. ورأى فؤاد كثيراً من المشاهير، نزار قباني، عبدالوهاب البياتي، سليمان العيسى، نازك الملائكة، يوسف ادريس، حمد الجاسر، وتحدث مع بعضهم. في الصباح التالي بدأت اجتماعات اللجان ووجد فؤاد نفسه في لجنة الصياغة حيث انصبت كل التوصيات. يدين المؤتمر.

يشجب المؤتمر. يحيّي المؤتمر. يناشد المؤتمر. قُرئت التوصيات وأُقرّت في الجلسة الختامية. وألقى الاستاذ ابراهيم العريّض كلمة باسم الوفود شكر فيها حكومة الجمهورية العربية المتحدة.

ثم حانت الساعة! توجّه الأدباء إلى القبة في موكب ضخم من أربعين سيارة تتقدمه سيارات النجدة وصفارات الأنذار. الناس في الشوارع يلتفتون ويحيّون. وفؤاد في السيارة بقرب الاستاذ. جمال عبدالناصر! سوف يلتقي الآن بجمال عبدالناصر. وجاء صوت الاستاذ خافتاً كما لو كان قادماً من قارة أخرى:

ـ أبو المتنبي يا ولدي ليس لغزاً. كل ما يحتاج إليه الباحث هو بعض الذكاء.

أبو المتنبي؟! نحن في الطريق إلى رائد القومية العربية والاستاذ يتحدث عن أبي المتنبي؟!

واستمر الاستاذ:

ـ تنبّه الاستاذ شاكر إلى هذه النقطة. ولكن الدكتور طه حسين، مع الأسف، ضلّ الطريق.

جمال عبدالناصر! جمال عبدالناصر! جمال عبدالناصر!

ـ وأنا الآن يا ولدي بصدد إعداد كتاب عن المتنبي. وسوف أوضح هذه المسألة.

جمال عبد الناصر! جمال عبد الناصر! جمال عبد الناصر!

ـ وصلنا يا استاذ.

استقبلهم موظفو التشريفات على مدخل القصر وقادوهم إلى الصالة الكبرى. اصطف الأدباء في انتظار الرئيس. أحسَّ فؤاد باللهفة تتجمّع في الجو ثم تتحوّل إلى كتلة صلبة تضغط على الصدور. بغتة، دبّ تيار كهربائي في الصالة. دخل عدد من الضباط. ثم دخل الرئيس وبجانبه يوسف السباعي. ضجت الصالة بالتصفيق. وابتسم الرئيس. ومرّ على كل وفد، يصافح كل عضو، ويتبادل جملة أو جملتين مع رئيس الوفد. وارتشف فؤاد بعينيه، ووجدانه، كلّ التفاصيل. الوجه الأسمر الذي يبدو، الآن، أوسم مما يبدو في الصور. البريق النفّاذ الذي يشع من العينين. البقعتان الرماديتان تحت العينين. الشيب في الفوْدين، أكثر بياضاً من

الصور. البدلة الزرقاء الداكنة. الكرافتة الزرقاء المخططة بالأحمر (يزعم قاسم ان كل كرافتات جمال عبدالناصر من ماركة «سولكا»، وانه أحصى ما لا يقل عن أربعمائة كرافتة مختلفة من صوره). جرح الحلاقة الصغير على الذقن.

وقف الرئيس أمام الاستاذ، وقال يوسف السباعي:

ـ سيادة الرئيس! هذا الاستاذ ابراهيم العريّض. أديب البحرين الكبير.

ابتسم جمال عبدالناصر، ومدّ يده:

ـ أهلاً وسهلاً. أهلاً بك في بلدك.

إلاّ ان الاستاذ الذي تحرر الآن من سجن المتنبي لم يكتف بالمصافحة. هجم الاستاذ على جمال عبدالناصر واحتضنه ثم قبّل جبهته. أخذ جمال عبدالناصر، ثم قال:

ـ سمعت انك كتبت ملحمة هايلة عن فلسطين.

وردّ الاستاذ بصوت لا يكاد يسمع:

ـ «أرض الشهداء». سوف أرسل لفخامتكم نسخة. فخامتكم؟! واستطرد الاستاذ:

ـ يا فخامة الرئيس! أقدم لكم فؤاد الطارف. أديب شاب من البحرين. ويدرس هنا في القاهرة.

جمال عبدالناصر أمامه الآن! أمامه تماما! وجهاً لوجه! عيناً لعين! في طوله تقريباً. يا للمفاجأة السعيدة!

يد جمال عبدالناصر تشدّ على يده:

ـ أهلاً وسهلاً. بتدرس فين؟

ـ كلية الحقوق. جامعة القاهرة.

ـ شد حيلك. واتخرج!

بحركة عفوية كرّر فؤاد ما فعله الاستاذ. هجم على جمال عبدالناصر واحتضنه وقبّل جبهته. ابتسم جمال عبدالناصر، الذي كان مستعداً هذه المرة، وقال:

ـ أهلاً بك في بلدك.

ومضة واحدة في عمر الزمان، ثم اختفى جمال عبدالناصر. انتقل إلى

الوفد المجاور. شعر فؤاد بدوار مفاجيء. خشي أن يغمى عليه أمام الجميع. تمسك بذراع الاستاذ الذي أدرك ما يدور. ابتسم الاستاذ وهمس في أذن فؤاد:

- لو كان المتنبي هنا يا ولدي هل تعرف ماذا كان سينشد؟

ردّد فؤاد بين الصحوة والاغماء:

- ماذا يا استاذ؟

- كان سينشد:

فدىً لك من يقصّر عن مداكا فلا مَلِكٌ، إذن، إلاّ فَداكَا

* * *

استيقظ عبدالكريم على رنين التيلفون. فتح النور ونظر إلى الساعة. الثالثة صباحاً! من يتكلم في هذا الوقت؟ أي سخيف! واستمر الرنين. وقام عبدالكريم متذمراً متثاقلاً، ورفع السماعة.

- سي كريم؟ سي كريم؟

وردّ بصوت متخم بالنوم:

- نعم؟ مين؟

- أنا أم عنايات يا سي كريم.

في البداية لا يعرف من هي أم عنايات. ثم يتذكر اسم ريري الحقيقي.

- الحق يا سي كريم! الحق! عملوا عملية لعنايات وحالتها خطر! الحق يا سي كريم!

أصيب عبدالكريم بما يشبه الشلل. وعجز عن الكلام. وجاءت المعلومات متناثرة من التيلفون:

- إحنا هنا في القصر العيني. عنبر خمسة. والنبي تلحق يا سي كريم. يا رب استرها معانا يا رب.

وضع عبد الكريم السماعة وأدار رقم ماجد. ورن التيلفون عدة دقائق قبل ان يجيب ماجد:

- هلّوا!

- ماجد؟ أنا كريم!

- خير؟ الفجر لم يطلع بعد.

ـ أعرف يا ماجد. آسف على الازعاج. ريري في القصر العيني. عنبر خمسة. عملوا لها عملية. وحالتها خطرة.

ـ تعال الآن. أراك عند المدخل.

وقف عبد الكريم وماجد والأم بقرب سرير ريري في طرف العنبر. بغتة، فتحت ريري عينيها وابتسمت، وهمست:

ـ ازيك يا سي كريم؟

قبل ان يجيب عبد الكريم انطبقت الجفون وعادت إلى نومتها العميقة. طلب إليه ماجد ان ينتظره في العنبر وذهب لاستقصاء ما حدث. مرت الدقائق كسيحة جريحة. وريري تتكلم في نومها. وهو يضع أذنه على فمها ليسمع ما تقول. والممرضات يقسن الضغط والنبض كل ربع ساعة، ويرفضن الاجابة عن اسئلة عبدالكريم والأم في دعاء مستمر:

ـ يا رب استرها معانا. يا رب دعوة وليّه ساعة الفجريّة يا رب لطفك يا رب.

سألها عبد الكريم عن تفاصيل ما حدث وانفجرت:

ـ يا ابني دي جت من الشغل على العصر. وقالت انها تعبانة وعاوزة تستريح. بعد شوية، قامت تستفرغ. يا ضنايه! وتصرخ، «بطني، يا ماما، بطني!» قلت لها: «بينا نشوف الدكتور يا حبيبتي». قالت: «لا يا ماما. ما لوش لزوم. حاخف دلوقتي» قعدت تبكي وتستفرغ. وبعدين داخت. ما بقتش توعي عليّه. قمت يا ابني جبت الدكتور بطرس. عيادته قدام عمارتنا. أول ما شافها قال: «القصر العيني، طوّالي!» جبناها يا ابني على المغرب. شافوها الدكاترة وقالوا: «زايدة! عملية على طول» ودّوها أوضة العمليات. قعدوا يجي أربع خمس ساعات. وجابوها زي ما أنت شايف كده. مش واعيه على حاجة. قلت للدكتور: «خير؟». قال: «ربنا يلطف يا ست!». يا رب استرها معانا يا رب.

جاء ماجد وطلب إلى عبد الكريم ان يرافقه في جولة على الأقدام خارج المستشفى. غادرا القصر العيني، وأضواء الصباح تتسلل من بعيد، والقاهرة على وشك ان تبدأ يوماً جديداً.

ـ لم أشأ ان أتحدث أمام أمها. الحالة ميئوس منها يا كريم. التهاب في الغشاء البريتوني.

نظر إليه عبد الكريم ببلاهة، واستأنف ماجد:

ـ آسف. سوف أشرح لك. أصيبت بالتهاب حاد في الزائدة الدودية. وانفجرت الزائدة قبل وصولها إلى المستشفى بساعات. عندما أجروا العملية وجدوا السموم منتشرة في الامعاء. هذا ما أقصده بالتهاب الغشاء البريتوني.

ـ ولكنهم أجروا لها عملية يا ماجد. قالت لي أمها ان العملية استغرقت أكثر من أربع ساعات. لماذا لم تنقذها العملية؟

ـ تحدثت مع الجراح الذي أجرى العملية. قام بكل شيء يمكن عمله. حاول تطهير الامعاء إلاّ ان السموم كانت قد تسربت إلى الدماء. وهي الآن في غيبوبة لا يتوقّع الأطباء ان تفيق منها.

ـ ولكنها فتحت عينيها، وكلمتني. رأيتها بنفسك!

ـ صحوة الموت! يحدث هذا أحياناً. لا تتعلق بالأمل الكاذب. وطّن نفسك على قبول الحقيقة الأليمة.

ـ يا ماجد! ماذا تقول؟ هذه فتاة في العشرين. كيف تموت في عملية زايدة؟ هل هذا معقول؟ أين طبّكم؟ أين جراحتكم؟

ـ إرادة الله فوق كل شيء. لو جاءت إلى المستشفى فور ظهور الأعراض لكانت العملية روتينية وبسيطة. جاءت بعد فوات الأوان. أمر الله. أجل مكتوب.

عندما عادا وجد عبد الكريم الأم بانتظاره على المدخل. ضمّته إلى صدرها بعنف، واختلطت العبرات بالصرخات بالكلمات:

ـ عنايات تعيش انت يا سي كريم! ماتت البت يا كريم! ماتت في عزّ شبابها! يا ريتني أنا يا سي كريم! في عز شبابها! لا تجوزت ولا خلفت! ماتت عنايات يا سي كريم!

احتضنها عبدالكريم، وحاول ان يصرخ معها، ولم يستطع ان يصرخ. وحاول ان ينوح معها ولم يستطع ان ينوح. وحاول ان يبكي، ولم تسل الدموع.

وجد قاسم وفؤاد ويعقوب في انتظاره. يا الله! كيف تنتشر الأخبار السيئة بهذه السرعة؟ ضمه كل واحد منهم، بشدة، وبصمت. ولم يقل

أحد منهم شيئاً وقبّلهم واحداً واحداً، بصمت. واتجه إلى غرفته، يتبعه ماجد، وقبل ان يدخل التفت إلى أصدقائه وتمتم:

- ترتيبات ...

وقاطعه قاسم.

- سوف نتولى كل شيء.

دخل معه ماجد. وأعطاه قرصاً منوماً. وغادر الغرفة.

شعر عبدالكريم بالخدر يتسلل إلى رأسه. وتقلصت أجفانه. ولكن النوم لا يجيء. على الطاولة الصغيرة بقرب السرير صورة ريري في جنينة الحيوانات، الصورة التي أرسلتها إليه في الصيف الماضي عندما كان في البحرين. صورتها وهي تضحك للحياة، وللناس، وللحيوانات أيضاً. لم تكن تعرف، وقتها، ان حياتها سوف تنتهي بغتة في هذا الفجر الرمادي من ديسمبر. بالتهاب في الغشاء البريتوني. ماتت من غير ان تسمع بالغشاء البريتوني. من غير أن تعرف سبب موتها. ماتت قبل ان تتزوج وتنجب. والفضل يعود إليك أنت. أيها البطل الشجاع! عبدالكريم الشيخ! تخاف من كلام الناس. ماذا سيقول الناس الآن؟ لا! الآن، اختلف الوضع تماماً. الناس يذكرون محاسن الموتى. لن يقول أحد انها كانت تلعب. «مسكينة!» «ماتت شباب!». حتى الزبائن القدامى سوف ينسون الآن انهم عرفوها. من يتذكر جثة؟! ريري؟! ريري مين؟! لا أعرفها. لا أتذكرها. جاءتنا مرة. متى؟ متى؟ نسيت. لا. غلطان. لا أذكر واحدة اسمها ريري. لا أحد يتذكر جثة. إلاّ أم الجثة. وانت يا سي كريم؟ سوف تنساني! أليس كذلك؟ سوف تتعرف على واحدة ثانية! أليس كذلك؟

فُتح باب الغرفة، ودخل ماجد. سأله عبد الكريم:

- كم الساعة؟

وردّ ماجد:

- نام الحين! ارتاح!

أحس بوخز الحقنة. وذهب ماجد. ونام عبد الكريم وصحا. ونام وصحا. هل سيراها في الصباح؟ يخرج وتصيح المجموعة «العبيط أهو! أهو!» «ضحكنا عليك يا الثور!». «صدقت يا حمار انها ماتت؟» «مجرد مقلب». «هل يموت أحد من الزايدة يا «مغفل؟» كابوس من كوابيس كريم

المشهورة. تعرفون كوابيس كريم؟ عقد نفسية مترسّبة من الطفولة. تتسرب إلى العقل الباطن. وتسبب هذه الكوابيس. مجرد كابوس من نوع مختلف. ماتت ريري؟ ماتت؟! في العشرين؟! لا يا جماعة! تجاوزت العشرين. البنيات يكذبون. تجاوزت العشرين بسنتين أو ثلاث. مجرد كابوس. هل يتعاطى صاحبكم الحشيش أو الأفيون؟ البيرة؟ آه! البيرة! البيرة تسبّب الكوابيس إذا أسرف الانسان في شربها. وهذا الكابوس من صنع البيرة. كابوس موت ريري. التي بطّلت شغل. والتحقت بدورة الحلاقة. وحصلت على دبلوم. وأصبحت ربة بيت درجة أولى، زوجة من غير زواج. ريري التي تطبخ له وتنسج له البلوفر الأزرق. وتشتري مناديله وشراباته. ريري التي جبن عن زواجها. كلام الناس يا كريم! عيب يا كريم! ماذا سيقول الناس؟ تزوج.. لا! لا داعي للكلمة. الكلمة معروفة، ولها مترادفات كثيرة. كانت «تلعب» هذه كلمة أحسن. شكراً! شكراً! «تلعب» البنت عندما «تلعب» يا اخوان تتحول إلى... الكلمة المعروفة يا اخوان التي تبدأ بحرف الشين أو حرف القاف. الكلمة إياها. والرجل عندما «يلعب» يا اخوان. آه! لحظة! الرجل؟ الرجل يختلف وضعه تماماً. الرجل عندما يلعب يصبح «زكرتي». دوان جوان. روميو. لا يصبح الرجل عاهراً، ولا غانياً، ولا مومساً. يصبح الرجل زير نساء. الزير سالم. الزير كريم. الزير فؤاد. الزير يعقوب. الزير قاسم. وها هو ذا الآن الزير ماجد أمامه:

- كم الساعة يا ماجد؟

- ارتاح! نام!

وخز الحقنة. الراحة. الراحة مطلوبة. ريري الآن مرتاحة. تولّى الاخوان كل شيء. كافة المصاريف. كل شيء بحسابه يا وَلَه! الميلاد بحسابه، والموت بحسابه. هيه فوضى يا وَلَه؟ وهنا في مصر لا يدفنون الموتى، بل يضعونهم في غرف صغيرة ويغلقون عليهم الباب. عادة فرعونية قديمة. لا! الأغنياء وحدهم هم الذين يملكون منازل في القرافة. والفقراء؟! الفقراء يسكنون التراب. مثل موتى البحرين. في المنامة مقبرتان. واحدة للشيعة في رأس رمّان. وواحدة للسنّة في القضيبية. أمّة عربية واحدة. إلاّ في الموت. نخاف ان يتنجس أموات السنّة من أموات الشيعة. والعكس بالعكس. السني ما يغش. والشيعي ما يصافي. ها ها ها! ماي غش! وماي صافي! أفهموها بقى! لقاء في الحياة. وفراق في الموت. والموعد الجنة إن شاء الله.

الجنة؟! هل يدخل السنّة الجنة؟ نسأل فضيلة الوالد «يا شيخ»! ويش رأيك في السنّة؟» لا يجيب الشيخ على أسئلة كهذه، حتى في الحلايل. حيث يعزمه القرويون على الغداء، ويطبخون له اسمن دجاجاتهم. ويحتفظون بالماء الذي يتوضأ به. ويشربونه للبركة. نسأل فضيلة الوالد عن ريري. «ويش رأيك يا شيخ؟ ماتت في المستشفى يا شيخ! التهاب في الغشاء البريتوني» يحار الوالد. «ويش هو الغشاء البريتوني؟» «الله أعلم يا شيخ. شيء لا نعرفه، لا نحن ولا أنتم. سنّية يا شيخ! عدوة المذهب! وتلعب يا شيخ! ويش رأيك يا شيخ؟ تروح الجنة هادي؟» الشيخ لا يجيب، أبداً، على أسئلة كهذه. دبلوماسي، فضيلة الوالد. أين درس القانون الدبلوماسي؟ على يد الدكتورة عائشة راتب؟ لا! الشيخ لا يدرس على يد النساء. الشيخ يتزوج النساء. الزواج العادي، وزواج المتعة. آه! زواج المتعة! راحت عن البال حكاية المتعة! لماذا لم يتزوج ريري بالمتعة؟ يتمتّعها! انكحتك نفسي. ساعتين! ساعتين بس يا كريم؟! اخص عليك! صحيح. ساعتين مش كفاية. اصبري حتى أتخرج وارجع واتزوج بنت خالتي وتنتهي مشكلتي الجنسية وعندها تصبحين طالقاً. تلقائياً. ترتيب مريح! أحسن من الزنا. ألم يقل الإمام علي: «لو لم يحّرم عمر المتعة ما زنا إلاّ شقيّ»؟ فكرة ممتازة. نتزوج بالمتعة، بأثر رجعي. يجوز ان ينص القانون على سريانه بأثر رجعي، باستثناء قانون العقوبات. لن يعترض الوالد على المتعة. منك نستفيد يا شيخ. كم واحدة تزوجت بالمتعة يا فضيلة الوالد؟ بالله عليك! كم واحدة؟ حوالي أربعين؟ برافو! زواج المتعة. سوف اقترح الفكرة على ريري وسوف توافق فوراً. بأثر مباشر. وبأثر رجعي. الرجعية عميلة الاستعمار. إش جاب لجاب؟! أنكحتك نفسي. إلاّ أنكحتك! عيب يا سي كريم! بلاش أنكحتك دي! «ويصحّ العقد بثلاثة ألفاظ، أنكحتك وزوجتك ومتعتك، نفسي، كما نص عليه شيخ الطائفة». الشيخ الصدوق؟ أم الطوسي؟ أم فضيلة الوالد؟ زوجتك نفسي أحسن والنبي يا سي كريم. ماجد يغضب عندما يحلف أحد بالنبي. وهّابي يدّعي انه قومي تقدمي. رجعي، بأثر رجعي. لا تحلفوا بالنبي. شرك! لا تقولوا «عبدالنبي». كفر! زوجتك نفسي يا سي كريم؟ دقيقتين؟! مش كفاية؟ يا طمّاع يا أبو عين فارغة! خمس دقايق؟ خمس دقايق حتة واحدة؟!

دخل ماجد ومعه رجل لم يره عبد الكريم من قبل، ووصلته أصداء الحديث:

ـ يا دكتور حسني، هذا اليوم الرابع. حالته طبيعية، النبض والضغط والقلب والحرارة، وكل شيء. ولكنه، كما ترى، في عالم ثانٍ.

ـ الصدمة يا دكتور ماجد. الصدمة.

ـ أعطيته بعض الحقن والأقراص المنومة. كنت أخشى ان ينتحر. سبق ان هدد بالانتحار.

ـ لا ما تخفش! مجرد صدمة عصبية قوية. كلها يومين ويفوق.

دكتور ماجد؟! متى تخرج ماجد وأصبح دكتوراً؟ يا حلاوة يا ولاد! ده احنا كبرنا واتخرجنا أهوه! وبقينا مريشين وبهوات. ودكاترة ومحامين. مكتب الشيخ للمحاماة. لا والنبي! خليه مكتب سي كريم للمحاماة. ما انت تخرجت يا سي كريم. وبقيت محامي قد الدنيا. دقي يا مزيكة! البيه المحامي. المحامي! والجدعان. الجدعان! وأهل الحتة. أهل الحتة! وأنا وأنت. أنا وأنت! هيّه العروس اسمها ايه يا استاذ كريم؟ العروس يا شيخ اسمها عنايات. واسم الدلع ريري. الاسم الحركي. أفهموها بقى! اسم الدلع يا شيخ. أصلها دلوعة يا شيخ. هل تقبلين ان تتزوجي هذا المحامي يا دلوعة؟! قابله يا سيدنا الشيخ. هو حدّ طايل؟ محامي قد الدنيا! إحنا غلابه يا سيدنا الشيخ. لعبنا يا سيدنا الشيخ. وبعدين تبنا يا سيدنا الشيخ. ما تبناش قوي يعني! تبنا على قد حالنا. وبطلنا لعب يا سيدنا الشيخ. إلاّ مع سي كريم. ما أنا زوجته نفسي يا سيدنا الشيخ. ساعتين، ثلاثة، أربعة. ما تدقش بقى يا سيدنا الشيخ. أهو قدامك اسأله. مش زوجتك نفسي يا سي كريم؟ وانت برضه مش زوجتني نفسك لغاية ما تتخرج وتتجوز بنت خالتك. وكل واحد يروح في حاله بقى. هي شغلانة؟! أهل البحرين يرجعوا البحرين. المحامين يروحوا المكاتب. الدكاترة على العيادات. وريري؟! ريري ترجع عند المدام. هيّه فوضى يا وله؟ ولا هيّه فوضى؟ بس ريري تابت يا شيخ. والله العظيم تابت. سمعتها في المستشفى بنفسي سمعتها تقول: «لا إله إلا الله. محمد رسول الله». سمعتها تقول: «سامحني يا رب». سمعتها تقول: «تبت يا رب». سمعتها بودني دي اللي حياكلها الدود. هي مين دي اللي حياكلها الدود يا وله؟! مش تحسّن ملافظك؟! ما تقولش كلام زي ده قدام ريري. لحسن تخاف. دي لسه صغيرة يا ضناية. لا تجوزت ولا خلفت.

فتح عبدالكريم عينيه، وسمع صوت الرجل الغريب:

ـ ما أظنشْ فيه داعي للمستشفى يا دكتور ماجد.

وصرخ عبد الكريم بأعلى صوته:

ـ مستشفى؟! لن أذهب إلى المستشفى.

وعاد إلى النوم. المستشفى؟ لماذا يتحدثون عن المستشفى؟ هل أصابه إلتهاب في الغشاء البريتوني؟ لا يوجد في الطب إلاّ غشاء بعد غشاء. غشاء البكارة. الغشاء الحاجز. وأخيراً الغشاء البريتوني! أخطر الغشاءات. من لم يمت بالسيف مات بالغشاء البريتوني!

ـ لا يا دكتور ماجد. كلها يومين ويخف.

من هو الذي سيخف بعد يومين؟!

ما تصحى بقى يا سي كريم؟! زودتها حبتين! قوم بقى. لحسن أزعل منك. اجمد أمال يا سي كريم! ما تكسفنيش قدام الميتين! ما تبقاش خرع أمّال! شد حيلك وقوم بقى! ده أنت قدها وقدود، يا بتاع البحرين! خليك جدع واصحى بقى! قوم بقى يا سي كريم! عشان خاطري! قوم يا ريمو! قوم يا بيبي! طبْ ده أنا مخاصماك! والنبي لتقوم! عشان خاطري يا ريمو. عشان خاطري يا حبيبي.

فتح عبد الكريم عينيه ورأى المجموعة حول السرير وسأل:

ـ يا جماعة انتو تغديتو؟!

ولسبب لم يعرفه، انفجر اصدقاؤه في ضحكة طويلة سعيدة.

* * *

قاعة المحاضرات في بيت الكويت بالدقّي تغصّ بالحضور. هذه الأمسية الأدبية، على خلاف العادة، اجتذبت أكثر من مائتي طالب وطالبة، وجاءوا من مختلف الأقطار والكليات. والنجم الذي جاء الجميع من أجله هو الشاعر سليمان العيسى. غير ان منظّمي الحفلة الأذكياء أبقوه حتى النهاية. لو بدأوا البرنامج به لما بقي أحد بعد انتهائه. تحدث الاستاذ عبدالعزيز حسين. ثم الأستاذ عبدالرزاق البصير. وألقى الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي مجموعة من قصائده. قوبلت بتصفيق مؤدب. ثم جاء دور فؤاد وقرأ قصة الدانة. تصفيق أقل من مؤدب. ثم وقف سليمان العيسى. واشتعلت القاعة بالتصفيق قبل ان يفتح فمه. وبدأ «حملت في شفتيّ النار والألما». وضجت القاعة من جديد. «هما جناحايَ في الزحف

الكبير.. هما». وعلا التصفيق. وجاءت قصيدة أخرى: «أنا عائد لأشم عطر بلادي». وارتفعت الهتافات: «وحدة! تحرر! ثأر!» وما كادت تهدأ حتى علت هتافات في جانب آخر من القاعة: «وحدة! حرية! اشتراكية!» و«ابتسم سليمان العيسى وأكمل «أمة البعث لن تموت».. وجنّت الهتافات. سليمان العيسى بعثي، لا شك، أخبرته سعاد بنفسها. سعاد التي تصفق الآن بحماسة.

عندما كان فؤاد يقرأ قصته لاحظ في الصف الثاني فتاة جذابة لم يرها من قبل. طويلة، بيضاء على نحو يندر في فتيات المنطقة، ولها شعر طويل تضمه ضفيرة واحدة، على الطريقة الهندية، بخلاف الموضة الدارجة. وعينان عميقتان. كيف تكون العينان عميقتين؟ عينان عسليتان. كان يقرأ. ويقلّب نظره بين الورقة وبين الجمهور. ويحاول ان يتجنب الفتاة الطويلة الجذابة. ابتسم لسعاد. وابتسمت له. وعاد إلى قصة الغواص الذي مات وفي يده الدانة التي كان ينوي ان يقدمها للدانة.

أحاط المعجبون والمعجبات بسليمان العيسى الذي انهمك في التوقيع على دفاتر المحاضرات. واقتربت الفتاة الطويلة ذات اللون الأبيض والضفيرة السوداء من فؤاد:

- أنا ليلى الخزيني. من الكويت.

- ليلى الخزيني؟ الشاعرة؟

بدت على وجهها علامات سرور واضح:

- كيف عرفت؟

- قرأت لك قصيدة في مجلة البعثة. وقصيدة في «المصور».

- وما رأيك؟

- بصراحة، مررت عليهما مرور الكرام. ما كنت أظن اننا سنلتقي وتطلبين رأيي.

- عندي بعض الملاحظات على قصتك.

- ملاحظات؟!

- ملاحظات فنية.

- الحمد لله. شبعت من الملاحظات العقائدية.

ـ ذكرت في القصة ان راشد أفاق فوجد المحارّة مفتوحة. كم من الوقت مضى قبل ان يفيق؟

ـ لا أدري. هذه قصة قصيرة والتفاصيل...

قاطعته مبتسمة:

ـ التفاصيل مهمة في هذه الحالة. المحّارة لا يمكن تنفتح وهي حيّة. لا بد ان تترك ليلة كاملة حتى تموت. ولا تفتح إلاّ في الصباح التالي.

ـ وكيف عرفت هذا؟

ـ كان جدي يعمل في الغوص.

جدّها يعمل في الغوص؟! وجاء هذا البياض المشرب بحمرة من سلالة الجد الغواص؟! كل شيء جائز.

ـ وأبي أيضاً كان غوّاصاً.

ـ إذن، اسأله إذا لم تصدقني. ثم ما هي حكاية التمر الذي ينخره السوس والماء الرمادي؟

ـ هذا ما يقال.

ـ من يقول هذا؟! المياه العذبة التي تنبع من قاع البحر متوفرة في كل المغاصات. ألم تسمع عن «ماي شريبة»؟ لماذا يشرب البحارة ماء رمادياً؟

ـ هذا ما يقوله الأدباء الملتزمون.

ـ يكفي الغواصين ما لقوه من غير ان نخترع الماء الرمادي والتمر الذي أكله السوس. يقول جدي ان التمر كان من أجود الأنواع.

ـ لا بد ان جدك كان غواصاً ارستقراطياً.

ضحكت ليلى، وافترقا. أخذت عنوانه ورقم تيلفونه. وتركت في يده رقم تيلفون بيت الطالبات الكويتيات حيث تسكن. وضع الرقم في جيبه ووعد نفسه أن لن يستخدمه. لسبب لا يعرفه، قرر انه لن يتعلق بهذه الكويتية ذات اللون الأبيض والقامة الممدودة والضفيرة الهندية، ولو كانت شاعرة، ولو كانت حفيدة غواص ارستقراطي، ولو كانت كل ملاحظاتها الفنية صحيحة.

* * *

مهمة يعقوب هذه المرة أخطر من مهماته السابقة. إستلام المعلومات من

رفيق يعمل في مجمع حلوان للحديد والصلب، ثم صياغة البيان واعطاء المسودة لرفيق آخر يتولى مهمة الطباعة. كلما ازداد الخطر ازداد شعور يعقوب بالسعادة. متى تجيء ساعة القنابل؟ أو على الأقل ساعة «المولوتوف»؟

في محطة حلوان المزدحمة وقف يراقب الوجوه. وجاء رجل يرتدي قبعة ويحمل في يده مظلة. اقترب من الرجل وسأله بصوت خافت «معاك بطيخ؟» ورد الرجل «على السكين». أخذ الظرف الصغير، وأسرع إلى المترو الذي عاد به إلى القاهرة. دخل الغرفة وأخذ يكتب، ويمزق، ويعيد الكتابة. ولم ينته المنشور إلاّ مع الفجر.

«أيها الكادحون الشرفاء.

تتحدث الصحف المأجورة عن الإنجاز العظيم الذي حققته الحكومة بإقامة مجمع حلوان للحديد والصلب. ولكن الدعاية المضللة شيء، والواقع الأليم شيء آخر. الواقع الأليم هو ان المجمع تحول إلى معتقل رهيب يعاني العمال فيه كافة أنواع البطش والقمع والإرهاب. في الاسبوع الماضي، تم سجن ثلاثة عُمال لا لشيء إلاّ لأنهم تذمروا من كثرة الدخان الملوث الذي يسبب المرض في الصدور. ومدير المصنع، العقيد أكرم شبراوي، رجل مخابرات فاشيستي متخصص في التعذيب. ومهمته الوحيدة هي القضاء على أي بادرة يقوم بها العمال لتحسين أوضاعهم. هل تعلمون أيها الكادحون الشرفاء كم يتقاضى العامل في المجمع؟ خمسة عشر جنيهاً في الشهر...»

قبيل الظهر، استقل يعقوب سيارة تاكسي وذهب إلى ميدان الأزهار في باب اللوق. وقف أمام بقالة البركة في انتظار الرفيق الذي سوف يأخذ منه مسودة المنشور. وقف أمامه كهل رث الثياب وسأله «بضاعة اسكندرية وصلت؟» كلمة السر! ورد يعقوب: «في قطر الصبح» جواب كلمة السر. أعطاه يعقوب الورقة. في تلك اللحظة أحاط بهما أربعة أشخاص وقال أحدهم:

- تفضلوا معانا.

وجد يعقوب نفسه والرفيق في بوكس أسود أسرع إلى مكان مجهول.

١٧

فبراير ١٩٦١

لجنيّة؟! أم غَادةٍ؟ رُفع السَجُف؟   لوحشيّة؟ لا.. ما لوحشيّة شنفُ

المتنبي

١٧

لم يطل تصميم فؤاد على تجنب ليلى. بمجرد ان رأى الظرف الأزرق الصغير والخط الأنيق أدرك ان الرسالة قادمة من ليلى. وأدرك ان تصميمه سيتبخّر، يروح ملح كما يقول أهل البحرين وأهل الكويت، بمجرد قراءة الرسالة. أصرّ على تأجيل القراءة. وضع الظرف في جيبه. ذهب إلى الجامعة، كالعادة. واستمرّ في روتينه اليومي. ومع ذلك، فقد كان يشعر ان الرسالة قد تحولت إلى كائن حي ينبض في جيبه، إلى قلب صغير من الورق. وقاوم الإغراء. ولم يفتح الظرف إلّا قبل النوم. وكانت المفاجأة تامة. كان يعرف انها تكتب الشعر ولكنه لم يتصور انها ستكتب شعراً عنه، وبعد أيام قلائل من لقاء عابر. تعوّد ان يجعل الآخرين مادة لأدبه، وهذه هي المرة الأولى التي يجد فيها نفسه مادة لأدب الآخرين.

«إلى ف:

ألقلبي أنت؟ أم للأخرياتْ؟ — أيها المانع حتى النظرَاتْ؟
تتحاشاني .. كأني شوكةٌ — وصبايا الحيِّ هُنّ الزهراتْ
وأنا في دمعتي.. مقهورة — أوَ للمقهور غير العَبَراتْ؟

ل»

متى كتبت هذا الشعر؟ لا بد انها كتبته بعد انتهاء الأمسية الأدبية. وماذا تقصد؟ هل كانت تشير إلى محاولاته الفاشلة ان يتفادى النظر إليها؟ هل كانت تعرف عنه قبل الأمسية؟ هل قرأت المجموعة القصصية؟ هل جاءت مستعدة بملاحظاتها الفنية؟ شعور عميق يسري في أعماقه وهو يرى نفسه محور قصيدة، أو، على الأصح، محور أبيات؟ هل سيدخل التاريخ عن طريق ليلى وشعرها؟ أليس الأولى ان تدخل التاريخ هي عن طريقه

وطريق قصصه؟ من الظلم المقارنة بين القصيدة والقصّة. الشعر كما قال الدكتور طه حسين خلاصة مركّزة. كبسولة يسهل حفظها وتداولها وابتلاعها. والقصة، طويلة كانت أو قصيرة، نسيج مُعقد لا يسهل حفظه ولا تداوله ولا ابتلاعه. وجبة ثقيلة عسيرة الهضم. من سمع بشخصية دخلت التاريخ عن طريق قصة؟ في الشعر يختلف الأمر. يجيء ذكرك في بيت شائع واحد، وتضمن الخلود، حتى لو كان بيت هجاء.

ولكن الذي جذبه إلى ليلى لم يكن شِعرها. لم يكن يعرف عندما خُطفتْ أنظاره نحوها، انها شاعرة. جذبه ذلك اللون الحليبي النادر، الضفيرة الكثة السوداء، العيون العسلية العميقة، والقامة الفارعة. نخلة من الكويت! امرأة من الرمال! جذبته إليها روائح اللؤلؤ (هل للؤلؤ رائحة يا فؤاد؟ بالتأكيد!) والبحر، وذكريات الأسمار والأهازيج. والآن تجيء هذه الأبيات. يتحول كل بيت إلى نصل حاد من الشوق يتغلغل في قلبه. يسرع إلى التيلفون ثم يتردد. أليس من الأفضل ان يكون الجزاء من جنس العمل؟ ان يجيء رد الأديب أدباً؟ من يدري، لعلها تفضّل ان تبقى عواطفها رهينة الشعر. قد تتجاهل كل شيء عندما يتحدث إليها مباشرة. من يدري كيف يتصرف الشعراء والشاعرات؟ قرأ مرة في مكان ما ان كل شاعر لا بد ان تكون فيه لمسة من جنون. والقاعدة، فيما يظن، تنطبق على الشاعرات. لعل هذا الجنون مما ورثه الشعراء من شياطين الشعر.

«إلى ل.

يسرح بخياله كلّما وقف على البحر، متصوراً ألف شيء وشيء. متصوراً اللآلىء النائمة في أحضان المحار. متصوراً قطعان الجراجير المفترسة. متصوراً غابات المرجان. متصوراً أسراب حوريات البحر الحسان. ومعرفته بالبحر وثيقة، بدأت منذ طفولته. لم يكن بيته يبعد عن السيف غير دقائق. قبل ان يبلغ عامه الرابع كان يعرف دورات السقي والثبر. صاد سمكته الأولى، زمرور، في الخامسة. صاد بالسمّ في السادسة. صاد بالقرقور في السابعة بدأ يغير على الحظور في الثامنة. دشّ البحر، بمفرده في البانوش، في العاشرة. دخل مدرسة البحر وتدرّج فيها فصلاً بعد فصل، سنة بعد سنة. يقف أمام المياه الزرقاء التي تناديه إليها. يبدأ في الخوض ثم يبدأ في السباحة. يأخذه التيار بعيداً. يشعر بنشوة رائعة والتيار يدفعه إلى جزر صغيرة لم يرها من قبل. ثم يحس بتعب لذيذ. يمتصه التيار الآن. يجذبه إلى الأعماق. ويفتح عينيه، فيرى كل العوالم التي كان يحلم بها.

الجراجير وغابات المرجان والحوريات. ويتمشى على القاع. لا بد ان يكون هذا حلماً. ثم يرى نخلة مُحمّلة بالرطب. نخلة في الماء. وتبتسم النخلة. ثم تتكلم وتقول: «أنا ليلى... من الكويت..

ف»

أرسل الرسالة بالبريد، ولم يطل انتظاره. جاء الظرف الأزرق الصغير مُورِقاً بالخط الأنيق ولم يستطع الانتظار هذه المرّة. فتحه على الفور.

«الى ف.

يا شبَحَ القُلوعْ!
يا أيها الغوّاص في الأعماقْ
يا مَن غسلتَ البحرَ بالدِماءْ
يا أيّها المعذَّب الموجوعْ
قالوا بأن اللؤلؤ البرّاقْ
ينبتُ في محّاره
من دمعة المطرْ.
لكنني أعرف انه
من دمعة البشرْ.

ل»

ويرد:

«ل.

عندما جئت الى القاهرة، قبل سنوات، لم أكن أتطلّع الى شيء تطلّعي الى أن تكون لي صديقة، تحبّني وأحبّها، أسير معها في ضوء القمر، وأسامرها في زورق ضائع على النيل، على طريقة الملاّح التائه!

وجاءت تجارب، ليس هذا مجال ذكرها، فيها ما يسعد وفيها ما يوجع، تركتني، في الحادية والعشرين، أشعر أنني أحمل قلباً مرهقاً بالشيخوخة، وبالأحداث.

لم يكن في حسابي، في هذه الشهور الأخيرة، قبل أن أحزم حقائبي راحلاً الى بلاد أبعد، بلاد من الغرباء، أن يلقي بي قدري أمام شاعرة رائعة

الجمال (قلتها الآن واسترحت: أنت رائعة الجمال!)، تتحدّث عن دموع الغواصين التي تتحوّل الى لآلىء في المحارّ.

أليس من غرائب الدهر، وغرائبه لا تنقضي، أن يلتقي شاب من البحرين وفتاة من الكويت في الدّقي؟!

أما كان الأولى أن يتمّ اللقاء على ظهر سفينة مبحرة في المياه الزرقاء، تحمل السندباد الجديد وأميرة البحار الى جزر الواق واق؟

أريد أن أقول: أليس الأولى ألاّ يكون هناك لقاء؟!

ف»

وجاء ردّها:

«ف.

لا تتوقع أن تكون كل رسائلي شعراً. قصائدي ليست تحت الطلب. ولا تتوقع أن أعينك على الابتعاد عنّي. أنت رجل لا تحتاج الى من يتّخذ القرار نيابة عنك، خاصة وأنه لم يبق أمامك، لم يبق أمامنا، سوى شهور قليلة.

ل»

وأرسل رداً أشبه ما يكون بالبرقية:

«ل.

أين؟ ومتى؟

ف»

وفتح الظرف الأزرق الصغير بلهفة:

«ف.

في منتصف شارع الهرم مكان لا يعرفه سوى القلّة، مكان يتوارى عن الأنظار، اسمه «العش الصغير». سأنتظرك هناك، لنقضي معاً آخر يوم من أيام السنة، لنحتفل بوداع هذا العام.

ل»

كتب لها فوراً:

«ل.

كيف عرفت بوجود «العش الصغير»؟

ف»

وجاء الظرف الأزرق، وأطلّت الورقة الزرقاء تحمل أصداء شاحبة من عطر «شانيل ٥»:

«ف.

هو في أحلامها ضوءُ النهارْ
وسنى البدر.. وموسيقى الهزارْ
والأساطير... وأشواق البحارْ
عجباً.. تعطيه هذا ويغارْ؟!

ل»

يجزم فؤاد أن المهندس الذي صمّم هذا المكان لا بُدّ أن يكون عاشقاً أزعجه أن تظلّ القاهرة بلا أعشاش يأوي اليها العشّاق. أسف فؤاد على الأعوام التي ضاعت قبل أن يعرف «العش الصغير». في المنتصف حديقة جميلة، وعلى جانبيها تمتد الأعشاش، الحواجز الخشبية، وفي داخل كلّ «عش» طاولة ومقعدان. لا يرى أحد في الخارج ما يدور داخل «العش» المحاصر بالشجيرات، ولا يرى أحد في داخل «العش» ما يدور في الخارج. والجرسون لا يأتي إلاّ إذا ضغط الزبون على الجرس، ثم يأتي بالطلب ويختفي. شعر فؤاد انهما الآن بمنأى عن العالم كلّه.

جاء الجرسون، وقالت له ليلى ببساطة:

ـ اثنين بيره من فضلك.

بدت الدهشة على وجه فؤاد. ثم فتحت حقيبة يدها وأخرجت علبة «كنت» وقدّمت له سيجارة، وأشعلتها، ثم أشعلت سيجارتها، ونفثت الدخان. لاحظت دهشته فضحكت:

ـ ايش فيك؟ ليكون اخوانجي؟!

هل أصبح كلّ الذين لا يدخنون ولا يشربون هذه الأيام من «الإخوانجية»؟! أجابها:

ـ لم أتعوّد على السجائر ولا على البيرة.

ثم استدرك:

ـ إلاّ في المناسبات الخاصة.

ـ وهذه، بطبيعة الحال، مناسبة خاصة؟

ـ بطبيعة الحال!

سرعان ما اتضح لفؤاد أن الشاعرة التي تجلس أمامه تعتبر نفسها زعيمة التحرّر النسائي في الكويت. وقد شاركت في حادثة حرق العباءات الشهيرة رغم صغر سنّها. تقول له، الآن، انها الفتاة الكويتية الوحيدة التي أوقفت في المركز مرّتين، لتزعمها المظاهرات. وابتسم فؤاد:

ـ أنا محظوظ بالثوريات، من كل صنف وقطر.

ـ ماذا تقصد؟

ـ المعنى في بطن الشاعر.

ـ أنا الشاعرة.

ـ إذن فالمعنى في بطنك.

ـ ليس في بطني شيء. اطلب لنا الغداء.

ظل فؤاد، بذهول متزايد، يتأمّل هذه المرأة الجميلة التي ترتشف البيرة وتنفث الدخان في وجهه. يرقب هذا المزيج الغريب من رقّة الأنثى وعنف التمرّد، كيف تخفي هذه الملامح الوسيمة كل هذه الشحنات من الغضب؟ كيف استطاعت أن تجمع بين النقيضين: النعومة والخشونة؟ بين «شانيل ٥» والتوقيف في المركز؟ خطر بباله، بغتة في ما يشبه الصدمة، انه لم يتخذ أيّ قرار بشأن العلاقة بينهما، وانها اتخذت كل القرارات. هي التي بدأت الكلام، وهي التي بدأت المراسلة، وهي التي اختارت الزمان والمكان. هل تحول الى «صديق الست»، الست الشاعرة؟

لم يستطع مغالبة فضوله:

ـ كيف عرفت بهذا المكان؟

ـ اكتشفه زوجي السابق. كنا نجيء هنا قبل الزواج.

زوجها السابق؟! مُتفجّرة صغيرة اندلعت من قلب الدخان. سألها ببلاهة:

ـ زوجك السابق؟! كنت متزوجة؟

ـ نعم. هل كنت تظنني عذراء؟

احمرّ وجه فؤاد، واستطردت:

- هل تريد أن تعرف القصة؟
- إذا أردت أن تقوليها.
- باختصار، أحببتُ شاباً فلسطينياً كان يدرس معي وتزوّجته. ثارت ثائرة العائلة، وهددوا بقتلي، ولم أعبأ بهم. عشت معه ستة شهور ثم مللت منه وطلقته.
- تقصدين طلقك؟!
- لا! أقصد طلقته!
- بهذه السهولة؟! يعجبك شاب فتتزوجينه ثم تملّين فتطلقينه؟
- أليس هذا ما يفعله الرجال طيلة الوقت؟ يتزوجون ثم يملّون فيطلقون؟ لم لا أفعل الشيء نفسه؟
- والأسرة؟
- رضيت، حتى إشعار آخر.
- وكيف عشت خلال المقاطعة؟
- تعني ماديّاً؟
- نعم.
- ألم أقل لك أني غنيّة؟
- لم أسأل. ولم تخبريني.
- خرجت من الزواج بكثير من المال.
- من الشاب الفلسطيني؟!
- لا. من زوجي الأول. الكويتي.

مُتفجّرة صغيرة أخرى. ونفثة أخرى من الدخان.

- أنت تمزحين يا ليلى! أكيد انك تمزحين.
- لا. هذه هي الحقيقة. كنت في السابعة عشرة. وتقدّم لخطبتي رجل من أغنى أغنياء الكويت، تجاوز الستين. قضى معي سنة. ثم تركني. وترك لي قصراً، أعني فيلا، وبعض المجوهرات وبعض السيارات وبعض المال.
- اتركي عنك السخافة! لا أصدّق كلمة واحدة!
- هل تريد أن ترى الوثائق؟ وثائق الزواج ووثائق الطلاق؟

ـ كم عمرك الآن؟
ـ أنا في الثالثة والعشرين.
ـ وتزوجت مرتين؟ وطلقت مرتين؟
ـ والبقية تأتي! عرفت من هو زوجي الأول. أليس كذلك؟
ـ لا.
ـ كل الكويتيين يعرفونه.
ـ ليلى! أنا لست من الكويت. أنا من البحرين. الكمال لله وحده!
ضحكت معابثة:
ـ هل تعرفون عيبكم يا أهل البحرين؟
ـ لا.
ـ الغرور! تعتقدون انكم محور العالم. أوال! دلمون! عروس الخليج.
ـ وهل تعرفون عيبكم يا أهل الكويت؟
ـ لا.
ـ عيبكم انه لا عيب فيكم!
ـ مالت عليك!
ـ نعود الى زيجاتك. كان الزواج الثاني بسبب الحب. فهمنا. ماذا عن الزواج الأوّل؟
ـ بسبب التحدّي.
ـ تحدّي من؟
ـ تحدّي كل فضولي قال لي: «لا تتزوجيه». قال لي: «هذا أكبر من أبوكِ». قال لي: «سوف يطلقك غداً».
ـ وثروته؟ ألم تدخل في الحساب؟
ـ لا.
ـ ولكنك لم تمانعي حين جاءك نصيبك منها؟
ـ ولماذا أمانع؟
ـ ألا تؤمنين بتحرّر المرأة؟
ـ جزء أساسي من التحرّر أن تكون المرأة مُستقلة مادياً عن الرجل.

ـ حتى لو جاء هذا الاستقلال عن طريق شرهة من ثري عجوز؟

ـ لماذا يهمّك موضوع زواجي الى هذا الحدّ؟

ـ لأني أحاول فهمك.

ـ لا أظن أني استعصي علي الفهم.

ـ تستعصين ونصّ! عندي، حتّى الآن ثلاثة انطباعات. الأول، الشاعرة الرقيقة الرومانسية. الثاني، الثورية، زعيمة التحرّر النسائي، هدى شعراوي الكويت. الثالث، الفتاة التي تتزوج رجلاً في سن أبيها، وتصبح غنيّة بسببه.

ـ كل هذه انطباعات صحيحة. وهناك المزيد.

ـ كلي آذان.

ـ اصبر. سوف تكتشف بنفسك.

وصلا «العش الصغير» في الحادية عشرة صباحاً، وتناولا الغداء في الثانية، وتناولا العشاء في التاسعة. نظرت الى ساعتها وقالت:

ـ الحادية عشرة! مرَّ علينا يوم كامل هنا. لا بُدّ أن أعود الآن.

ـ لماذا؟

ـ تعليمات بيت الطالبات.

ـ المرأة التي تتحدى الأسرة والمجتمع والعالم تخضع لتعليمات بيت الطالبات؟!

ـ عندما تناسبني!

ـ تقصدين انك لو أردت البقاء أكثر لبقيت.

ـ طبعاً!

أمام «العش الصغير» كانت تقف سيارتها «البيوك» الحمراء. جلست وراء عجلة القيادة وجلس بجانبها. وانطلقت السيارة، وانطلق فؤاد في ضحك مفاجىء. التفتت اليه:

ـ خير؟ ضحّكني معاك!

ـ لدّي صديق يعيش على أربعة جنيهات في الشهر. وهو مؤمن بأنني من أعظم أثرياء العالم لأنني أتلقّى من والدي خمسة وعشرين جنيهاً في الشهر. وبالفعل كنت أشعر أنني من أغنى الأغنياء. كنت أحس بتأنيب

الضمير. كيف يستريح الغني وهو محاط ببحر من الفقراء؟ ثم تعرفت على فتاة تسكن، بمفردها، في روف من عشرة غرف. وأتعرّف الآن على فتاة تملك قصراً وتسوق سيارة «بيوك». على الأقل، زال تأنيب الضمير.

- ماذا حدث للفتاة التي تملك الروف؟

- لم أقل انها تملكه. قلت انها تسكنه.

- ومن يملكه؟

- لا أدري. أفترض انه مالك العمارة. «برج الزمالك».

- «برج الزمالك»؟ هل تعرف العمارة الضخمة التي تقابلها؟

- نعم «أضواء الزمالك». ماذا عنها؟

- يملكها زوجي السابق. أعني زوجي الأول.

- هل يمكن التعرّف على بنت من بنات زوجك السابق؟

- لا. ولكن يمكن التعرّف على مطلّقته!

إثر عودته جلس وراء مكتبه وكتب لها الرسالة التالية:

«ل.

هل تصدّقين أنّي لا أعرف قيادة السيارة؟! لا شك أنني الرجل الوحيد في العالم كلّه الذي يجلس، كاللوح، ويترك للمرأة «دفة القيادة». أشعر أنني مُجرّد مسافر، مجرد متفرّج، مجرد عابر، أما القرار ففي يد أخرى، في اليد التي تمسك بعجلة القيادة. أصارحك أنني أجد في هذا الوضع ما يدعو الى القلق. هل جاء وقت الاعتراف؟ لا يوجد في تاريخي زيجات وطلاقات، وقصور وسيّارات. في البداية، كانت هناك فتاة أحببتها، ثم شعرتُ أني لست سوى جزء هامشي من اهتماماتها السياسية. شعرت أنني مُجرّد متفرّج. ثم أحببت فتاة أخرى، وتبيّن أنها لا تعشق سوى مستقبلها وطموحها. ثم جاءت فتاة الروف. كانت بدورها، تقود سيارتها (ليست فخمة مثل سيارتك، ولكنها مكشوفة). كانت تأخذني وتعيدني. لا نلتقي إلا تحت سقفها، أو سقف فندق أبيها. والآن، جاء موسم «البيوك» الحمراء، و«العش الصغير»، والشاعرة المتحررة التي تتزوج عجوزاً ثرياً لكي تمارس حقّها في الحرية، وتقبل هدايا الطلاق لكي تمارس حقها في الحريّة، ثم تتزوج شاباً فلسطينياً لكي تمارس حقّها في الحريّة. ثم تطلّقه لكي تمارس

حقها في الحريّة. الفتاة الجميلة المُدلّلة التي تعتقد أن الناس لم يُخلقوا إلا كي يستجيبوا لنزواتها: نزوة التحدّي، ونزوة الزواج، ونزوة الطلاق.

وماذا عن شخصي الضعيف؟ أين موقعي في خارطة قلبك؟ هل نحن بإزاء نزوة أدبية تنتهي بعد القصيدة الثانية، أو العاشرة؟

الحق أقول لك أنني لا أرى أي جدوى في استمرار علاقة وُلدت وهي تحمل كلّ مقومّات موتها. لا أرى أي جدوى من حب يجيء بالأوامر. قلت لي، مرة، ان قصائدك ليست تحت الطلب. ومشاعري أنا، أيضاً، ليست تحت الطلب.

كل عام وأنتِ بخير.

ف

صباح ١٩٦١/١/١»

أرسل فؤاد الرسالة وأصيب بالفصام. أرجو أن ترد. أتمنى ألاّ ترد. أرجو أن تغضب وتختفي الى الأبد. أرجو أن ترقّ وتعاود الاتصال. لم تكد ساعة من ساعات النهار تخلو من طيفها الذي يزور بلا موعد. أما في ساعات الليل فتكاد ذكراها تطغى على كتب القانون وعلى رهبة الامتحانات. يا للانسانة العجيبة! أين ذهبت تلك الصورة الشائعة عن الشاعرات؟ الخنساء. ليلى الأخيليّة. نازك الملائكة. فدوى طوقان. الحب الرزين الصامت. الكآبة العاشقة. الحرمان النبيل «لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه». و«التفسير يُقلّل من طرافة الموضوع». و«هذي فتاتك يا مروج». فتاة المروج الخجول. مختلف أمر هذه الشاعرة. مختلف تماماً. تدخّن علبتي «كنت» وتشرب ستّ زجاجات من البيرة في يوم واحد. وتقود سيارة «بيوك» حمراء. وتتزوج رجلاً في سن جدّها تحدياً للعشيرة. ثم تتزوج شاباً فلسطينياً في القاهرة، تحدّياً للعشيرة. وتعرف مطعماً صُمّم خصيصاً للعشاق. وتقضي معه فيه اثني عشرة ساعة كاملة. وترفض أن تبقى ساعة إضافية للاحتفال بالسنة الجديدة. ولا تسمح ليده بالدنو من يدها. ولا تسمح لوجهه بالاقتراب من وجهها. ليتها تغضب ولا ترد. ليتها تذهب الى الجحيم!

إلاّ أن الرد جاء بعد شهر كامل:

«ف.

فكرت فيك طيلة المساء

فازدانت السماءْ
وأزهر العالم بالنجومْ
وجاءت الغيومْ
تمطر في تفكيري
قنابل العبيرِ

ل»

قنابل العبير؟! كتب لها على الفور:

«ل.

نفس المكان. نفس الساعة. الخميس.

ف»

ذهب وأفكاره تصطرع وتصطخب. هل ستجيء؟ أرجو أن تجيء؟ أرجو أن تجيء. أرجو ألاّ تجيء. ثم رأى «البيوك» الحمراء تبرق وتلمع في الشمس كياقوتة حمراء في خاتم سليمان.

* * *

فتح الباب ودخل يعقوب. وقفز الأصدقاء المتجمّعون في الصالون وكأنهم قد أبصروا شبحاً. حقيقة الأمر انهم أبصروا شبحاً لا تربط بينه وبين يعقوب رابطة. ذبل الوجه الوسيم، وغارت العينان، ونبتت تحتهما بقعتان من الليل، وانتشرت الشعيرات والدمامل في كل مكان. أصيب الجسم بالهزال الشديد واعترت اليدين هزّة عصبية دائمة. تلقفه أصحابه بالعناق والقبلات. وانهال طوفان الأسئلة:

ـ عذبّوك؟!

ـ ماذا فعلوا بك؟!

ـ ضربوك؟!

ـ قال لنا الأستاذ شريف انك في سجن المخابرات.

ـ قال لنا الباشا انك في السجن الحربي.

ـ هل وُجّهت اليك تهمة؟!

جلس يعقوب:

ـ أريد أولاً، فنجاناً من الشاي وسيجارة. ثم أريد ساندوتش جبنة، ثم أحكي لكم كل شيء.

صرخ قاسم:

ـ عيشة! عيشة!

جاءت عيشة وأطلقت زغرودة عالية بمجرد رؤية يعقوب. وجاء الشاي والساندوتش. وبدأ يروي القصة:

ـ أخذوني في البوكس الى فيلا عادية في العباسية. فيلا سكنية صغيرة لا توجد على بابها يافطة، ولا يقف أمامها جندي. وضعوني في غرفة فيها سرير مريح وتركوني بعد أن أقفلوا الباب من الخارج. لم يكن في المكان سواي وسوى الحارس. يجيء الفطور في الثامنة. والغداء في الواحدة. والعشاء في الثامنة. طعام ممتاز يبدو انه من مطعم. إذا أردت الذهاب الى الحمام وقفت على الباب وجاء الحارس وأخذني وأعادني. لا قيود، ولا ضرب، ولا إهانات، ولا تحقيق. مجرد سجن انفرادي. الراديو؟ ممنوع! الجرائد؟ ممنوع! التيلفون؟ ممنوع! الزيارات؟ ممنوع! بعد أربعة أيام جاء نجار ووضع فوق الشباك لوحاً سميكاً من الخشب. لم يعد بوسعي أن أرى ضوء النهار. أخذ الحارس ساعتي. ووضع مصباحاً كهربائياً ضعيفاً بدل المصباح القديم. ولم يعد يسمح لي بالخروج الى الحمام. جاء بجردلين طلب إليّ تحويلهما الى دورة مياه. أصبحت فأراً في جحر مظلم. لا أعرف الليل من النهار، ولا الشروق من الغروب. فقدت عقلي تدريجياً، أو هكذا خيّل الي. لا أدري هل أكلت وجبة الغداء أم العشاء. والحارس لا يكلمني. بدأت أتحدّث مع نفسي. بدأت أضحك وأبكي. ثم اختلطت الأمور. لم أعد أفرّق بين الساعة والدقيقة، بين اليوم والأسبوع. وجدت نفسي عاجزاً عن الأكل، ثم عاجزاً عن النوم. صرت أقضي وقتي كلّه في المشي في الغرفة. أمشي وأبكي. ثم بدأت أرى وجوهاً في الظلام، لا أدري هل جاءت من ذاكرتي أو كانت موجودة بالفعل. ثم زاد الجنون. بدأت أرى جنوداً ملء الغرفة. وأبصر المشانق تتدلّى من السقف. وأسمع الصراخ آتياً من كل مكان. ثم اليوم، أظن انه اليوم، جاء ضابط واصطحبني الى مبنى آخر لا يبعد عن المبنى الأول. عمارة عاديّة صغيرة. أخذني الى ضابط آخر وقال ان اسمه العميد مصطفى. رحب بي العميد ترحيباً شديداً وطلب لي فنجان قهوة. سألته عن «رامز» و«اسكندر» و«رمسيس»...

ـ يقاطعه قاسم:

ـ من هؤلاء؟

يضحك يعقوب بمرارة:

ـ سرّ! سرّ حزبي! راح وقت الأسرار! لا بُدّ انكم الآن عرفتم أني كنت في الحزب الشيوعي. هؤلاء أعضاء خليتي. على أية حال، رفض العميد أن يعطيني أية معلومات عنهم. ثم قال لي انه يعرف كل شيء عني، وانه لا يحتاج الى تحقيقات أو اعترافات. وقال انه يقدّر أن الشباب عرضة للخطأ والانحراف. وأضاف انه يقدّر تطوعي للقتال مع الشعب المصري خلال العدوان الثلاثي. وأنهى كلامه بأن أخبرني انه تقرَّر إعفائي من العقوبة على أن أغادر مصر خلال ثلاثة أيام.

يسأله فؤاد:

ـ تغادر مصر؟ خلال ثلاثة أيام؟ والدراسة؟

ـ حاولت أن أتحدّث عن الدراسة. قلت للضابط انّه لم يبق سوى شهور وأحصل على الليسانس فأجاب انَّ القرار نهائي ولا يمكن الرجوع عنه.

صرخ قاسم:

ـ صدقتم الآن؟! صدقتم كلامي؟! إرهاب وسجن وإبعاد. يطلبون الى الناس مقاومة الاستعمار وإذا استجاب أحد كانت هذه النتيجة. صدّقتم كلامي؟!

بهدوء ردّ يعقوب:

ـ لا يفيد الكلام الآن. وقعت الفاس في الرأس. سوف أبدأ في تحضير حقائبي.

عاد قاسم الى الصراخ:

ـ ولكن ماذا ستقول لوالدك؟ لعائلتك؟ للناس في البحرين؟

نظر اليه يعقوب بحزن عميق:

ـ ألا تظنّ أن الأخبار قد سبقتني؟ من الآن وحتّى أموت لن يكون لي سوى اسم واحد: «الشيوعي»، راح «الشيوعي»، وجاء «الشيوعي».

سأله عبدالرؤوف بصوت يقطر بالتعاطف:

ـ كانت تجربة رهيبة. أليس كذلك؟

ـ لا أستطيع وصفها. وأسوأ ما فيها أنني وصلت الى مرحلة الإنهيار الكامل من دون أن يسألني أحد سؤالاً واحداً. من دون أن يصفعني أحد صفعة واحدة، كنت مستعداً لأن أعترف بأي شيء. قتل جمال عبد الناصر، حرق مستشفى، نسف جسر، أي شيء. هذا هو المرعب. كيف ستكون حالتي لو انهم لجأوا الى التعذيب؟ الى الضرب والكهرباء والحرق بالسجائر وبقيّة الأشياء التي نسمع عنها؟ كنت أعتقد أنني من مادة صلبة. كنت أعتقد أنني أستطيع الصمود، ولكنني انهرت تماماً كأنني طفل صغير.

قال عبد الرؤوف:

ـ ما تعرضّت له أعنف بكثير من التعذيب الجسماني. التعذيب قد يثير الرغبة في العناد والتحدّي، ولكن هذا الضغط النفسي لا يثير سوى المخاوف البدائية الغريزية. هذا هو أقسى أنواع التعذيب. أؤكد لك أن أي إنسان يتعرّض له سينهار.

بعد سفر يعقوب الى البحرين بيومين، رن التيلفون ورفع فؤاد السمّاعة:

ـ فؤاد؟ أنا يعقوب. أكلمّك من المطار.

ـ المطار؟ أيّ مطار؟

ـ مطار القاهرة.

ـ القاهرة؟ ماذا حدث؟

ـ أعادوني من مطار البحرين. ويرفضون هنا أن يسمحوا لي بالدخول.

ـ سوف نكون عندك الآن.

ذهب الأستاذ شريف وفؤاد وقاسم الى المطار. وجدوا يعقوب في مخفر المطار، مع ثلاثة أشخاص يبدو انهم، بدورهم، ممنوعون من دخول مصر. شرح لهم يعقوب ما حدث في مطار البحرين. بمجرّد أن رأى موظف الجوازات جوازه استدعى شرطياً أخذه الى سجن المطار. قضى هناك ليلتين ثم طُلب إليه أن يعود الى القاهرة على أوّل طيارة. في مطار القاهرة طلب إليه ضابط الجوازات الانتظار ثم عاد وأخبره انه ممنوع من الدخول وبامكانه أن يسافر الى الجهة التي يريدها.

بدأ الأستاذ شريف في مناقشة الاحتمالات:

- سوريا؟ مستحيل! المنع يسري هناك. السعودية؟ مستحيل! الكويت؟ غير مضمونة. العراق؟ سيظنونه جاسوساً مرسلاً من مصر.

قاطعه قاسم:

- يا أستاذ شريف! بيروت! لا يوجد سوى بيروت.

سرعان ما اتضح أن هذا هو الخيار الوحيد العملي. وتم الحجز له على الطائرة المغادرة صباح اليوم التالي.

قدّم له قاسم ظرفاً منتفخاً وهو يضحك:

- من المكتب.

ثم همس:

- الرأسمالية تموّل الشيوعية.

وابتسم يعقوب رغماً عنه. وطارت الطائرة. مخلفة دمعة صغيرة في كل عين من العيون التي تابعت مسارها حتى توارت وراء الأفق.

* * *

صرخ ماجد بانفعال:

- لا يمكنك أن تتجنّب القرار الى الأبد. آن الأوان. لا بُدّ أن تقرّر الآن.

وردّ فؤاد:

- الآن؟ لماذا؟

- عدت لتوي من مؤتمر خاص في دمشق، مؤتمر للمسؤولين القطريين في الحركة.

- أصبحت الآن مسؤولاً قطرياً؟! الترقيات لديكم سريعة جداً.

- المفروض أن يكون هذا سرّاً ولكن لا أسرار بيننا. أنا الآن المسؤول عن الحركة في السعودية، أو الجزيرة كما نفضّل أن نسميها. أتعرف لماذا أصبحت المسؤول؟ لأنه لا يوجد سوى أربعة قوميين عرب من السعودية، وأنا أقدمهم. في البحرين الصغيرة أكثر من هذا العدد.

- أهل البحرين مشاغبون. ماذا حدث في المؤتمر الخاص؟

- هذا ما يدعوني الى أن أطلب إليك أن تتخذ قرارك الآن. أقول لك بكل صراحة إننا في الحركة نشعر أنّ الوحدة أصبحت في خطر. كل المسيرة الوحدوية في خطر. نحسّ أن الزخم الجماهيري بدأ يضعف. هل

تصدّق أن البعثيين أصبحوا الآن أعدى أعداء الوحدة وأعدى أعداء جمال عبدالناصر؟ الحاجة ماسّة الى دماء جديدة، والحركة تحتاج اليك يا فؤاد.

- إليّ أنا؟!

- نعم. بحثت هذا الموضوع، مطولاً، مع الدكتور أحمد الخطيب الذي يتفق معي أنك سوف تكون مكسباً للحركة. نحتاج الى شباب ناضج.

- شباب ناضج؟! أنا؟!

- يا فؤاد! دعنا من السخرية. أنت تختلف عن الآخرين. دخولك يجيء عن اقتناع وبعد تجربة فكرية غنيّة. أنا واثق انك ستساهم في الحركة مساهمة فعّالة بعقلك وبقلمك.

- بقلمي؟ هل ستطلبون إليّ كتابة قصص عن الثأر؟

- لن نطلب إليك شيئاً لا تود أنت أن تفعله. ماذا قلت؟

- اسمع يا ماجد! ما رأيك في حل وسط؟ أقبل بي الآن على أساس متعاطف مع الحركة، نصير كما يقول اخواننا البعثيون. سوف أتعاون معك الى أبعد الحدود، ولكنني سأفعل كل شيء عن طريقك. أما عن الانضمام الفعلي فدعه الى وقت آخر.

- حسناً. فترة انتقالية قصيرة، ثم تنضمّ رسميّاً. هذه مهمتك الأولى. في القاهرة لاجىء بعثي عراقي اسمه صدّام التكريتي، أحد الذين حاولوا اغتيال عبد الكريم قاسم. لا يزال شاباً صغيراً ومع ذلك يعتقد الإخوان في الحركة انه سوف يكون، في القريب، من ألمع القادة الحزبيين. من الضروري معرفة آرائه وميوله. وأنت أصلح من يتولّى هذه العملية لأن صدّام صديق حميم لسعاد.

- عرضت أن أكون نصيراً ولم أعرض أن أكون جاسوساً.

- في العمل الوطني، جمع المعلومات عن العدّو مهمة نبيلة وليست جاسوسية.

- العدّو؟ حزب البعث؟!

- نعم. للأسف الشديد! للأسف الشديد!

كانت سعاد بمفردها على طاولة منزوية في بوفيه الكليّة تكتب باستغراق كامل عندما اقترب منها فؤاد:

- صباح الخير. تقرير حزبي؟

- أهلين! لا. مجرد رسالة شخصية.

- لن أزعجك طويلاً. هناك خدمة أودّ أن أطلبها منك.

- على راسي.

- يسلم راسك. أودّ التعرّف على صدّام التكريتي.

- ألم تتعرّف عليه حتى الآن؟ انه يجيء الكلية عدة مرات في الأسبوع.

- ربما رأيته. ولكنني لم أتعرّف عليه.

- ولماذا تودّ التعرّف عليه؟ هل تنوي العودة الى الحزب؟

- سمعت الكثير عنه وعن محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم وعن هربه وبوّدي أن أراه.

- لماذا لا نلتقي هنا صباح الخميس؟ في الغالب، يكون موجوداً كل خميس.

قالت سعاد:

- رفيق صدّام! أقدّم لك الرفيق فؤاد الطارف من البحرين.

قام الشاب الأسمر النحيل الطويل، ذو الملامح الوسيمة، والعينان النفّاذتان، وصافح فؤاد بحرارة:

- عفية على البحرين! نصّها بعثية!

وضحك فؤاد:

- والباقي في الطريق.

ورد الشاب النحيل الطويل:

- بحيْل الله!

جلس الثلاثة. وأشعل صدّام التكريتي السيجارة تلو السيجارة. لاحظ فؤاد آثار وشم أزرق على يديه. وسأله عن محاولة الاغتيال. وسُرّ صدام بالسؤال. وانطلق يصف التفاصيل. ثم سأله فؤاد عن السجن والهرب. وسُرّ أكثر. وروى ما حدث وكشف عن ساقه ليرى فؤاد مكان الرصاصة التي أطلقت عليه خلال الهرب.

ثم سأله فؤاد بحذر:

- وماذا عن المستقبل يا رفيق صدّام؟

ـ بعد ثلاث سنوات، سوف يكون حزبنا في السلطة في العراق، وسوف يبقى في السلطة.

ـ والأمّة العربية؟

ـ مستقبل الأمّة العربية مرتبط بمستقبل العراق، ومستقبل العراق مرتبط بمستقبل الحزب. سوف يتحوّل مركز الثقل من القاهرة الى بغداد. أثبت جمال عبدالناصر، للأسف، انه مجرد سياسي يخضع للحسابات الآنية وتقارير الأجهزة. تخلّى عن الثورة وقيادة الأمة وقنع بأنه يكون رئيساً للجمهورية العربية المتحدة.

ذهل فؤاد وهو يسمع هذا النقد الشديد القادم من رجل يعيش في ضيافة جمال عبدالناصر. كأنّ صدام التكريتي قرأ أفكاره:

ـ هذه دولة مخابرات. أعتقد انهم خصّصوا مفرزة كاملة لمراقبتي. لو التفت الآن حولك لوجدت ثلاثة مخبرين، أو أربعة. لم يعد جمال عبدالناصر قائداً جماهيرياً. الأمل الوحيد الآن هو الحزب.

بحذر أشدّ تساءل فؤاد:

ـ ماذا عن القوميين العرب؟ ألا يمكن التعاون معهم؟

ـ مجرد حركيين! امّعات من صنع الأجهزة. حاولنا التفاهم معهم بلا جدوى. الأمل الوحيد هو الحزب.

قال فؤاد:

ـ هذا صحيح. لا بديل عن الحزب. ولكن في الظروف الحالية، وكمرحلة انتقالية حتى وصول الحزب الى السلطة، ألا يمكن أن نستثمر قيادة جمال عبدالناصر لصالحنا؟

وردّ صدّام التكريتي:

ـ كان هذا اعتقادي واعتقاد الرفاق في العراق. ولكن جاءت الصدمة بعد الصدمة. في اليوم الذي أطلقنا فيه الرصاص على عبد الكريم قاسم كان المفروض أن يتحرّك جمال عبد الناصر. كان الاتفاق أن يرسل طائرات. لو جاءت طائرة واحدة لسقط عبد الكريم قاسم. ولكنه لم يتحرّك. وقبلها كانت انتفاضة الشواف التي شجّعها ثم وقف يتفرّج على تصفيتها. لو طارت عشر طائرات من سوريا لمساندة الشواف لنجحت المحاولة.

ـ وكيف تفسّر موقف جمال عبد الناصر؟

ـ تعوّد على الرئاسة، ونسيَ النضال. جاءته الوحدة مع سوريا على طبق من ذهب وظنّ أن الوحدة ستتحقق في كل مكان بالأسلوب عينه. لن تتحقق الوحدة العربية إلا بأنهار من الدم، بحار من الدم.

ـ ولكن الجمهورية العربية المتحدة دولة قائمة تضطر الى التصرف بمنطق الدولة.

ـ رحم الله والديك! وهنا يجيء دور الحزب. عندما يحكم حزبنا تنتهي المشكلة. بوسع الدولة أن تتصرف كدولة، ولكن القيادة الفعلية سوف تكون بيد الحزب. سوف تكون له الكلمة الأولى والأخيرة. مشكلة جمال عبد الناصر انّه يفتقر الى الحزب الثوري. لا توجد عنده سوى تنظيمات بيروقراطية وأجهزة أمنية.

ـ وماذا عن الحزب في سوريا؟

ـ لا يوجد سوى القائد المؤسّس ومجموعة من الرفاق. البقيّة لا يزالون يحلمون بالعودة الى الوزارة، يحلمون بالصلح مع جمال عبد الناصر.

ـ ألا ترى أنت أن هناك امكانية للصلح؟

ـ مع جمال عبد الناصر؟ مستحيل! مستحيل!

سألته سعاد:

ـ ما رأيك؟

وأجاب فؤاد:

ـ ما رأيكِ أنتِ؟ يقولون انّه صديقك المفضّل.

ـ تغار؟ انه وسيم جداً. أليس كذلك؟

ـ لا بأس به.

ـ واضح انك تغار. لا داعي للغيرة. صدّام لا يوجد عنده وقت للصديقات. حياته الحزب. أمّه الحزب. أبوه الحزب. صديقته الحزب. أنا شخصياً أعلّق عليه آمالاً كبيرة. ما هو انطباعك أنت عنه؟

ـ يبدو انه يعرف ما يريد، ويعرف كيف يصل اليه.

ـ تماماً! انطباعي نفسه.

ـ لماذا لم تخبريه انني تركت الحزب؟

- هل أنت مجنون؟ لو قلت له هذا لرفض حتّى مصافحتك.

ألقى فؤاد بالتحية العسكرية ضاحكاً، ثم قال:

- تقرير الجاسوس جاهز. سيّدي!

وردّ ماجد:

- هات.

- باختصار شديد، يرى صدّام التكريتي انَّ البعث سوف يصل الى السلطة في العراق خلال ثلاث سنوات على الأكثر، ومع وصوله سينتقل مركز الثقل من القاهرة الى بغداد.

- وجمال عبد الناصر؟

- انتهى كثائر واستمرّ رئيس دولة مُكوّنة من تنظيمات بيروقراطية وأجهزة أمنية.

- ونحن؟

- مجرد حركيين. إمّعات من صنع الأجهزة.

- أيّ أجهزة؟

- لم يقل. الأجهزة والسلام!

- وسوريا؟

- لا يوجد غير القائد المؤسّس ومجموعة صغيرة من الرفاق.

- ما هو انطباعك عنه؟ هل هناك أمل في أن يتحقق ما يقوله صدام التكريتي؟

- نعم. بنسبة واحد في المليون!

* * *

بموت ريري، واختفاء هيلدا، وإبعاد يعقوب فقدت شقّة الحريّة الجزء السعيد من روحها، فقدت القدرة على الفرح. لم تعد الضحكات تصاحب كل ساعة من ساعات النهار ومعظم ساعات الليل. لم يعد صوت الصراخ ينطلق من كل غرفة. اختفت البنيات. غابت الزهور. ازدحم الحمّام بالملابس القذرة. تطايرت المقالب الصبيانية اليومية. رجع عبدالكريم الى ارتداء قمصانه الداكنة وكرافتاته الغامقة. نسيت عيشة وصفات الطبخ الجديدة التي تعلّمتها. تحوّل المكان الى فندق كئيب لا

يأوي اليه سكانه إلاّ مُضطرين في ساعات النوم. حتّى المذاكرة لا تتمّ الآن إلاّ في الكليّة. قاسم يقضي كل لحظات فراغه في المكتب. عبد الكريم لا يغادر مكتبة الكليّة إلاّ عندما تغلق أبوابها في المساء. وفؤاد غارق في كتب القانون، وفي العلاقة التي تزداد تعقيداً وغموضاً يوماً بعد يوم.

كانت الرابطة التي ربطته بسعاد شعوراً متبادلاً، ابتدأ برغبة مشتركة وانتهى بفتور مشترك. كانت علاقة واضحة كل الوضوح. ثم جاءت شاهيناز، وجاء الحبّ من جانبه والصداقة من جانبها. وانتهى كل شيء عندما فقد الأمل في تحول الصداقة الى حب. كانت العلاقة، بدورها، واضحة كل الوضوح. ثم جاءت مديحة، وجمعتهما الشهوة الجامحة المتبادلة عندما اشتعلت، وفرّقتهما عندما انطفأت. كانت، أيضاً، علاقة واضحة كل الوضوح. أما هذه العلاقة مع ليلى فمعقدة الى أبعد الحدود، أعقد من ذيل الضبّ كما يقولون. لا يستطيع أن يفهم هذه المرأة، ولا أن يعرف ماذا تريد منه أو ماذا يريد منها.

هي، على ما يبدو، تحبّه؛ لا تكتب شعراً كهذا الشعر إلاّ عاشقة. وهو، على ما يبدو، يحبّها؛ لا يصبر على هذا الجنون المقيم إلاّ عاشق. غير ان هناك شيئاً ما يفتقده. لا يوجد ذلك الحنان الفطري الذي لا ينبع إلاّ من أنثى. لا توجد تلك النعومة السائلة الدافئة التي لا تصدر إلا عن امرأة. يشعر وهو معها انه في مباراة: أيهما الأذكى، أيهما الأظرف، أيهما الأكثر تحرّراً. لا يستطيع أن يمنحها نفسه بكل ما فيها؛ يحاول أن يُقدّم لها نفساً مصقولة منقّحة تستحوذ على إعجابها. وهي، بدورها، لا تكشف له إلاّ عن السطح، السطح اللامع كالثلج، البارد كالثلج: ما هو سرّ هذه المرأة التي توشك أن تدخل عامها الرابع والعشرين ولا تزال طالبة في السنة الثانية من كلية الآداب؟ المرأة التي تتحدّث عن زوجيْها السابقيْن كما يتحدث المرء عن قميصين قديمين؟ المرأة التي تريد لنفسها الحريّة، كل الحريّة، ولا شيء إلا الحريّة: حرية الزواج وحريّة الطلاق، زواج الفقراء وقبول هدايا الأثرياء؟ ومن أين جاءت هذه العفّة التي ترفض حتّى لقاء اليد باليد، فضلاً عن لقاء الفم بالفم، فضلاً عن لقاء الجسد بالجسد؟

لم يصدق عينيه عندما أرته ذات خميس، وهما في العشّ المعتاد، ملّف رسائلها. هنا رسالة من جمال عبدالناصر، بتوقيعه لا بالختم، تشكرها على تبرّعها بخمسة آلاف جنيه خلال العدوان الثلاثي. خمسة آلاف جنيه؟! وهنا رسالة من عبدالحليم حافظ تشكرها على الهديّة التي تلقّاها منها

بمناسبة عيد ميلاده. وهنا قصيدة من الشاعر كامل الشناوي، بخطّ يده. وهنا قصيدة من الشاعر صالح جودت، بخط يدّه.

لم يستطع فؤاد أن يغالب الغضب الذي اعتراه:

ـ ما هذا؟ ما كل هذا؟ من جمال عبد الناصر الى عبد الحليم حافظ؟ هل أنت مجنونة شهرة؟ هل تقضين ليلك ونهارك جرياً وراء المشاهير؟

ـ العكس هو الصحيح.

ـ أين رأيتِ عبد الحليم حافظ؟

ـ وأين رأيتك؟ وأين رأيتني؟

ـ هل حدث شيء بينك وبين عبد الحليم حافظ؟

ضحكت من الأعماق:

ـ ولماذا اخترته بالذات؟ لا. لم يحدث شيء.

ـ وأنا؟

ـ ماذا عنك؟

ـ ما هو موقعي من الإعراب بين كل هؤلاء؟

ـ أنت تختلف عنهم تماماً.

ـ كيف؟

ـ هم يريدونني. أما أنت، فأنا أريدك!

ـ تريدينني؟ تفضلي! سمّي! ماذا تنتظرين؟

ـ لا تجيء القصيدة إلاّ عندما تنضج. ولا ليلة العرس.

ـ ليلة العرس؟ اسمعي! لا توجد عندي أدنى رغبة في أن أكون الزوج الثالث.

ـ أعتقد انك تعرف المقصود.

ـ لا أعرف المقصود. ولن أنتظر حتى تنضجي. تذكري ان مشاعري ليست تحت الطلب.

نظرت اليه طويلاً. وأحسّ أن تياراً مائياً خفيّاً يخرج من عينيها، ويلتف به، ويجذبه الى القاع، الى القاع البعيد البعيد. دنت منه وقبّلته على خده وهمست:

ـ سوف تنتظر يا فؤاد. وسوف تكون هناك. سوف تكون هناك.



١٨

أبريل ١٩٦١



أغالب فيكَ الشوقَ... والشوق أغلَبُ   وأعجب من ذا الهجر... والوصل أعجبُ

المتنبي



١٨

عندما فتحت عيشة الباب وجدت يعقوب أمامها، وعلى وجهه ابتسامة مشرقة. عانقته كالمأخوذة، وانطلقت الزغرودة المجلجلة، واندفعت عبر الشقة في هيستيريا من الفرح:

ـ سي يعقوب رجع!

ـ يا جماعة! سي يعقوب هنا!

ـ سي يعقوب رجع بالسلامة!

تراكض الأصدقاء وضاع يعقوب في مطر من القبلات. كان فؤاد أوّل من تكلم:

ـ ما هذه المفاجأة السارة؟ لماذا لم تخبرنا؟

ـ كنت أخشى أن تتعقّد الأمور في آخر لحظة.

تدخّل قاسم:

ـ ماذا حدث؟ نريد أن نعرف كل شيء منذ مغادرتك القاهرة حتّى عودتك.

بدأ يعقوب يروي القصّة. وصل الى بيروت وسكن في فندق متواضع بساحة البرج. بعد وصوله بأيام اتّصل به شاب فلسطيني اسمه غسّان كنفاني أخبره انه صديق لماجد وأنه عرف عن مشكلته من ماجد. يعمل غسّان محرراً في صحيفة لبنانية ناصريّة الميول، وعن طريقه تعرّف بيعقوب على عدد من الأدباء والشعراء اللبنانيين. قال له غسّان ان مشكلته لن تحلّ إلاّ بقرار شخصي من جمال عبد الناصر. وبدأ البحث عن زعيم لبناني تربطه صداقة خاصة بجمال عبدالناصر. رأى غسّان، بعد مشاورات طويلة، أن كمال جنبلاط هو خير من يقوم بالوساطة، إذا وافق. بالفعل،

زاره الاثنان في قصر المختارة وشرح له غسان الوضع. أرسل كمال بيك رسالة حارّة الى جمال عبد الناصر رجاه فيها أن يسمح ليعقوب بالعودة الى مصر لإكمال دراسته. بعدها بشهر، اتّصلت السفارة المصرية في بيروت بيعقوب. في مقرّ السفارة قابله أحد المسؤولين، ضابط على ما يبدو، وأخبره أن سيادة الرئيس وافق على عودته الى مصر وبقائه فيها الى أن يكمل الليسانس. وأضاف المسؤول ان الموافقة، بطبيعة الحال، مشروطة بعدم ممارسة يعقوب لأي نشاط سياسي. وقال يعقوب «بطبيعة الحال». كان يعقوب يتخوّف من عدم وصول قرار العفو الى المسؤولين في مطار القاهرة، ولهذا آثر التريّث. إلاّ أنّ كل شيء مرَّ بسلام.

أضاف يعقوب:

- الفضل الأكبر لغسان كنفاني. ولماجد الذي اتصل به وأخبره عني.

ثم نظر الى فؤاد:

- يبدو ان نفوذ ماجد بدأ يزداد. أليس كذلك؟

ورد فؤاد باختصار:

- يبدو هذا.

لم يكن بوسع فؤاد أن يعلن لزملائه أن ماجد أصبح المسؤول عن منطقة الجزيرة في حركة القوميين العرب وانه، بهذه الصفة، على اتصال مباشر بكل القياديين في الحركة، ومنهم غسان كنفاني المسؤول الثاني، أو الثالث، في الحركة في لبنان. ولم يكن بوسع فؤاد أن يقول لزملائه انه هو، بدوره، قرَّر، بعد تردّد طويل، أن ينضم رسمياً الى الحركة. حقيقة الأمر أنّ فؤاد يجهل العوامل التي دفعته في النهاية الى تجاوز كلّ تحفظاته القديمة والانخراط في الحركة، وإن كان يعرف بعض الاعتبارات التي كانت تدور في ذهنه. من ناحية، بدأ يُحسّ أن المدَّ الشعبي الناصري يمرّ، فعلاً، بمأزق. لم يعد الأعداء، كما كانوا في السابق، من خارج الأمّة العربية. ولم يعد أعوان الاستعمار التقليديون مصدر الخطر الأكبر داخل الأمّة. هناك الآن مقاومة عنيفة، وان كانت لا تزال خفيّة، لجمال عبدالناصر يقودها حزب البعث والمتعاطفون معه. وهناك مقاومة أعنف، وبلا خفاء، يقودها الحزب الشيوعي والمتعاطفون معه. يكفي فؤاد أن ينظر الى موقف سعاد وموقف يعقوب من جمال عبدالناصر ليدرك أبعاد التغيير. يُخيلُ الى فؤاد أن الحبل

السرّي الذي يربط جمال عبد الناصر بالجماهير العربية يتعرّض الآن لهجوم حادّ بالسكاكين من كل مكان.

من ناحية ثانية، كان ذهن فؤاد يتّجه يوماً بعد يوم نحو قبول الاشتراكية أسلوباً أمثل لتنظيم الاقتصاد في الدولة العربية القادمة، ويزداد اقتناعاً أن طرحها الآن هو أفضل وسيلة لمنع قيام هذه الدولة. مع تنامي معلوماته وقراءاته في الاقتصاد، بدأت صورة الاشتراكية تتبلور أمام عينيه. رفض الشيوعية الملحدة. ورفض الاشتراكية البعثية الغائمة. وانتهى الى أن الاشتراكية التي تلائم الأمّة العربية هي تلك التي يسميها عبدالرؤوف اشتراكية حزب العمّال البريطاني: ملكية الدولة لمرافق الانتاج الكبرى، والملكية الخاصة لكل ما عدا ذلك، والضرائب التصاعدية على الدخول. يأمل فؤاد أن يكون هذا هو القالب الذي ستطرحه الحركة حين يحين الوقت المناسب.

من ناحية ثالثة، لا يشعر فؤاد في أجواء الحركة بذلك التشنج الذي رافق تجربته البعثيّة. لا يوجد في الحركة «قائد مؤسّس» لا بُدّ من استظهار كل كلمة من كلماته. ولا يوجد في آفاق الحركة ذلك الاصرار العنيد على الالتزام، على تسخير الأدب لخدمة القضية. تبدو الحركة أشبه بأسرة كبيرة منها بتنظيم سياسي. وما تلك الرعاية التي ظفر بها يعقوب في بيروت من الإخوان، لا يزال فؤاد يرفض كلمة الرفاق رفضاً قاطعاً، سوى مظهر من مظاهر هذه الروح العائلية.

من مفارقات القدر أن يبدأ فؤاد حياته في حركة القوميين العرب بصدامين مباشرين مع حزب البعث. كان ميدان الصدام الأول رابطة الطلبة البحرينيين. كان البعثيون حريصين على السيطرة على الهيئة الادارية للرابطة، وكان القوميون العرب حريصين على ابعادهم عنها. تمت المواجهة بأسلوب غير مباشر: رشح البعثيون طُلاباً مستقلين يتعاطفون معهم، ورشح القوميون العرب، بدورهم، طلاباً لم تعهد فيهم أيّ ميول حزبية.رغم أن المعركة، في حقيقتها، كانت اختبار قوة بين الحزب والحركة فإن الانتخابات، في الظاهر، كانت تدور حول شخصيات المرشحين، وبرامجهم، وحتى أخلاقياتهم. في النهاية، خسر القوميون العرب بفارق بسيط في الأصوات. كانت هذه التجربة فرصة لتعلّم عدد من الدروس. عندما جاءت المواجهة الثانية، انتخابات الهيئة الادارية لبيت الكويت، كان القوميون العرب في أقصى درجات الاستعداد. تحوّلت شقة برّاك النافي الى

غرفة عمليات، توضع فيهاالاستراتيجية وترسم التكتيكات. كانت الحملة مليئة بالأساليب الميكافيلية، الوعود والوعيد والاشاعات، وحتّى الأكاذيب المُغرضة. انتهت الانتخابات بفوز مرشحي الحركة، بفارق بسيط.

خرج فؤاد من التجربتين بشعور متناقض نحو الانتخابات ونحو الديموقراطية بشكل عام. غالبية الطلبة في الرابطة وفي بيت الكويت من المستقلين الذين لا يهتّمون بالسياسة أو بالأحزاب. ومع ذلك تمكّنت أقليّة بعثية منظمة من فرض مرشحيها على الأغلبية في الرابطة، و تمكنت أقلية منظمة من القوميين العرب من فرض مرشحيها على الأغلبية في بيت الكويت. وتمّ كل هذا عن طريق ديموقراطي، بالانتخابات، وبالاقتراع السرّي. هل الديموقراطية، إذن، مجرد تغليف ذكي لسيطرة الأقلية الحزبية؟ وإذا كان بالامكان تضليل الصفوة العربية من الطلاب المثقفين بإطلاق الاشاعات الكاذبة عن هذا المرشح أو ذاك، ألن يكون من الأسهل خداع الجماهير العربية الأميّة؟ هل الذين ينادون بالمستبدّ العادل على حق، إذن؟ قرّر فؤاد، بعد تفكير طويل، ان قضية الديموقراطية يجب أن تؤجّل في الوقت الحاضر، شأنها شأن الاشتراكية. المرحلة الآن تتطلّب حشد كل الجهود وراء قيادة جمال عبدالناصر. هذا هو برنامج الحركة الوحيد، ويجب أن يبقى برنامجها الوحيد.

إلاّ أن هذا النشاط السياسي المحموم، بالاضافة الى المذاكرة المكثفة استعداداً للامتحان الكبير الذي يقترب بسرعة رهيبة، لم يستطع أن يشغل فؤاد عن علاقته العجيبة بليلى، هذه العلاقة التي تصبح أغرب فأغرب مع مرور كل يوم جديد:

شكا الى عبد الرؤوف:

ـ أقسم لك يا رؤوف أني أحياناً أتصوّر أنّني أتعامل مع جنيّة. لا يمكن أن توجد أنسيّة مثل ليلى.

ـ هل تدخل في الجدران؟ أم تغوص في الأرض؟ أم تدّعي انها روح جدتك؟

ـ ما تفعله أغرب من هذا كله. دعني أضرب لك بعض الأمثلة. هذه المرأة تعرف عبد الحكيم عامر معرفة شخصية حميمة وقد حدثته مرة، أمامي، بالتيلفون. كيف؟! عن طريق الزوج الأول. وتعرف محمد عبد

الوهاب معرفة وثيقة وتزوره بانتظام. كيف؟ عن طريق الزوج الأول. وتربطها بميشيل عفلق صداقة قويّة. كيف؟ عن طريق الزوج الثاني.

ـ وما العجب؟ من الواضح أن الزوج الأول كان يمينياً، والثاني كان يسارياً.

ـ وماذا عنها هي؟ أين موقعها من اليمين واليسار؟ ما هي حقيقة ميولها السياسية؟ قبل فترة، سافرت الى الكويت وقالت، ببساطة، انها ذاهبة للمساهمة في إعداد مسوّدة الدستور. ثم عادت غاضبة لأن المسودة لا تتضمّن حق التصويت للمرأة. قبلها، سافرت الى دمشق لزيارة ميشيل عفلق. في الأسبوع الماضي، كانت تقضي الكثير من وقتها مع الدكتور أحمد الخطيب الذي كان يزور القاهرة.

ـ لعلّها تعمل مع المخابرات المصرية.

ـ لا تُدخلنا في هذه المتاهات رجاء يا رؤوف.

ـ مجرد رأي.

ـ وفوق هذا كلّه، لم يبق نجم سينمائي أو شاعر معروف أو كاتب مشهور لم يتبادل معها الرسائل والقصائد. لديها صورة من عبد الحليم حافظ مهداة الى «أميرتي العربية». تصوّر! «أميرتي العربية»!

ـ فهمت الآن! الغيرة! الحكاية وما فيها هي الغيرة.

ـ لو كان هناك شخص واحد لشعرت بالغيرة. ولكن كيف تغار من كل مشاهير العالم العربي؟ وهذا ليس نهاية اللغز. هل سمعت في حياتك يا رؤوف بمليونيرة تملك القصور وتسكن في غرفة متواضعة ببيت الطالبات الكويتيات؟

ـ ما المانع؟ غنيّة وشعبيّة!

ـ غنيّة/شعبيّة/عامريّة/بعثيّة/قوميّة عربية/ عبد الحليم حافظية؟!

ـ بنت موهوبة يا أخي! ألا تقرأ ما يكتبه أصحاب عربيّات الكارو على مؤخرة عرباتهم «ملك الملوك إذا وهب * لا تسألن عن السبب»؟.

ـ على العين والراس. ولكن ماذا تريد مني أنا؟ لستُ من النجوم ولا السياسيين ولا المشاهير.

ـ استثمار في المستقبل يا أخي.

ـ وفي هذه الأثناء، حتى يجيء المستقبل، ينتهي كل لقاء

بمعركة. وأقرّر انهاء العلاقة. وتبدأ هي من جديد. قلت لها مرّة «خذي رسائلك وقصائدك وصورك واذهبي الى الجحيم». بعدها بليلتين كلّمتني، وقالت:

إنني مشتاقة جداً اليكْ　　　والى الشيء الذي في ناظريكْ
والى الشوق الذي يشتاقني　　　فمتى تأخذني في شفتيكْ؟!

قلت لها «الآن!». قالت: «أنا قادمة الآن!». بعد دقائق قليلة وصلت. تذكّر انها تقود أسرع سيارة في القاهرة. دخلت معي الغرفة. قبلتني بضراوة. لأول مرة تقبلني بهذا العنف. ثم صرخت، فجأة، «بس عاد!». وخرجت كما دخلت، بعد دقيقتين.

ـ هذه ليست تصرفات طبيعية.

ـ لا يوجد لديّ أدنى شك في غرابة أطوارها. بصراحة، ما يهمني الآن هو عقلي، لا عقلها.

ـ من الواضح يا فؤاد انك تحبّها.

ـ ومن الواضح انها ستؤدي بي الى الجنون. أشعر وكأنني ذبابة في شبكة عنكبوت، كلما تملّصت من بعض الخيوط التفّت عليها خيوط جديدة، أقوى وأقسى.

ـ الذبابة والعنكبوت. ترقبوا الرائعة القصصية الجديدة.

* * *

لا يزال يعقوب عاجزاً عن تحليل مشاعره وأفكاره بعد تجارب الاعتقال والسجن الانفرادي والطرد والعودة. خلال السجن، في اللحظات التي كان يستطيع فيها التفكير، كانت المرارة تشتعل في كلّ خلايا مخّه. أين المسحوقون الذين ناضل من أجلهم؟ أين دول البروليتاريا؟ هل تدخّل الاتحاد السوفييتي لانقاذه؟ هل احتجّ السفير السوفييتي لدى جمال عبدالناصر؟ لم يحدث شيء. كل الأمور تدور بوتيرتها المألوفة. الفلاحون يتعاملون مع الاقطاعيين الجدد بخنوع، كالعادة. والعُمّال في مجمع الحديد والصلب يخضعون للادارة، كالعادة. هل أضرب فلاّح واحد عن العمل؟ هل استقال عامل واحد؟ هل اعتذر السفير السوفييتي عن حفلة كوكتيل واحدة؟ العالم يمشي كما كان يمشي قبل أن يدخل ذلك الجحر المظلم الذي يمتزج فيه الليل بالنهار.

تلا شعور المرارة احتقار عنيف لنفسه، ولضعفها وتخاذلها. أين صلابة المناضل؟ أين قوّة الثوري؟ أين عناد البطل؟ أسابيع قليلة في غرفة وينهار، ينهار تماماً. يبكي كالطفل. يصرخ كالطفل. يرى أشباحاً ومشانق. يتمنّى الاعتراف من غير أن يطلب منه أحد اعترافاً. من أي مادة رخوة صُنِع ضميره؟ من أيّ زَبَد هش صِيغت أعصابه؟ وأيّ مستقبل ينتظر الجماهير الكادحة، إذا كانت مقاومة الطليعة القيادية تنهار من نفخة واحدة؟

في بيروت دارت بينه وبين غسان كنفاني مناقشات صاخبة لا أوّل لها ولا آخر. غسّان، الذي يكتب الشعر والمقالة والقصّة، يحاول أن يقنعه بأن عداء الماركسيّة للقومية لا يقوم على أساس. أنت أديب وشاعر يا يعقوب. هل تتذوق الأدب البولندي كما تتذوّق الأدب العربي؟ هل شعورك نحوي هو شعورك نحو مواطن صيني؟ لا تخدع نفسك يا يعقوب. أنت عربي، أولاً وثانياً وعاشراً. هل لمكان آخر في العالم المكانة نفسها التي تحتلّها فلسطين في قلبك؟ ألم تتطوّع مرّة من أجل فلسطين؟ هل أنت مستعد للتطوع من أجل المجر؟ ثم أن بوسعنا أن نختار من النظرية الماركسية ما يلائم أوضاعنا ونطرح الباقي. نستعين بفكر ماركس الاقتصادي ونتجاهل فكره القومي. لا يوجد ما يجبرنا على أن نأخذ كل شيء أو نطرح كل شيء. لحظة، يا غسان، لحظة! لا يمكن أن نتعامل مع النظريات على هذا النحو. نحن لسنا في سوق خضار، ننتقي كوسة من هنا وخيارة من هناك. هذه نظرية متكاملة، إما أن تأخذها بأكملها وإما أن ترفضها بأكملها. هذه حلقة منسجمة ومترابطة لا تقبل التجزئة. إذا قبلت تحليل ماركس للرأسمالية فلا بُدّ أن تقبل تحليله للقومية. لا يمكن يا غسّان أن نفصل القضية السياسية عن القضية الاقتصادية. هذا خداع بورجوازي. إلاّ أن غسّان ينتقي ويختار، ولا يشعر بأي تناقض. يكرّس نصف وقته لأمته، ونصف وقته لقلبه، ولا يشعر بأيّ تناقض. يشتم ماركس في الصباح ويمجّده في المساء، ولا يشعر بأي تناقض.

في بيروت اتضحت ليعقوب حالة الفصام التي تعيشها الأمّة العربية، مجرّدة من كل الأقنعة. تتحدّث الصحف الناصرية عن العمّال والفلاحين، ويضع جمال عبد الناصر من يتبنى قضاياهم في السجن. ويأتي قرار العفو بتدخل من كمال جنبلاط. كمال بيك الإقطاعي العشائري الذي يرأس الاشتراكيين اللبنانيين ويحاضر في النظريات الاشتراكية من اقطاعيته في المختارة. عاش يعقوب في بيروت على النقود التي جاءت من قاسم، أو

على الأصحّ من مكتب قاسم، أو على الأصحّ من الرأسمالية. أي عالم مجنون هذا؟ وهل يمكن أن يسعد فيه سوى المجانين؟

قرر يعقوب بعد رجوعه الي شقة الحريّة أن المخرج الوحيد هو العودة الى صاحبه القديم أبو نواس، مؤقتاً على الأقل، حتى تتّضح الرؤية. قلت يا ابن هاني:

اسقني حتى تراني أحسبُ الديك حمارا

أعلم، تجاوز الله عن ذنوبك الكثيرة، انني اكتشفت خلال الشهور الماضية انه لا يوجد أدنى فرق بين الديك والحمار في عالمنا العربي هذا، إلاّ في رؤوس السكارى.

* * *

أخيراً وصلت السجادة الأصفهاني الى شقّة الحرية وقوبلت بالهتافات والضحكات وزغاريد عيشة، وزُفّت زفاً الى غرفة قاسم. تبيّن، بعد المطاردة الطويلة، أن السجادة وصلت، بالفعل، الى جمرك السبتية. استغرق العثور عليها قرابة أسبوع وعشرين توقيعاً وثلاثين جنيهاً. ثم جاءت مرحلة «المعاينة» التي تطلبت ثلاثين توقيعاً وخمسين جنيهاً، وأكثر من شهر. ثم جاءت مرحلة «التقدير» وقد تطلبت ستين توقيعاً وسبعين جنيهاً. ثم جاءت المرحلة الأخيرة، «دفع الرسوم»، ولم تتطلب سوى عشرة تواقيع ومائتي جنيه.

فؤاد لا يزال شامتاً:

ـ لك الحمد والشكر يا رب. بيزات الرأسماليين تُوزّع على صغار الموظفين.

ويهدر قاسم:

ـ هذه ثورتكم! هذا رئيسكم! هذه حكومته! لصوص وحراميّة!

* * *

أدرك عبد الرؤوف ان هذا الموعد، التاسعة صباحاً من يوم الخميس، في هذا المكان، «الكازينور»، لم يجيء إلاّ لبحث موضوع شديد الحساسية. لا يوجد في المكان غيرهما سوى جرسون عجوز يفرك عينيه من آثار النوم ويحملق مدهوشاً في الزبونين اللذين قدما قبل موعد الغداء بساعات.

بدأ عبد الكريم بلا مقدّمات:

ـ أريد مساعدتك في موضوع شخصي هام.

ـ تحت أمرك.

ـ أريد أن أنضمّ الى الاخوان المسلمين.

صمت عبد الرؤوف. كان يتوقّع كل شيء سوى نزول هذه الصاعقة. حاول الكلام ولكنه تلعثم، وعاد الى صمته. واستمر عبد الكريم:

ـ لستُ غبيّاً يا رؤوف. لا تحتاج الى ارخاء لحيتك وحمل صور حسن البنا لكي تعلن عن حقيقة انتمائك. جميعنا نعرف هذا الانتماء، وقصصك العاطفية لا تخدع أحداً.

احمرَّ وجه عبد الرؤوف، ثم بدأ يتكلم ببطء شديد:

ـ لم أحاول خداع أحد. يجب أن تعرف يا كريم أن التنظيم قد حُلّ، وأن كل من يضبط متلبساً بالتعاطف، مجرد التعاطف، مع الجماعة يختفي في أعماق السجون ويتعرّض لمختلف أنواع التعذيب.

ـ أعرف هذا.

ـ لا! لا أعتقد انك تعرف. ما ذكرته عن ارخاء اللحية ليس نكتة. كثيرون اعتقلوا لا لشيء إلاّ لأنهم أطلقوا لحاهم. ألا تلاحظ انه لم يبق ملتحون في مصر؟ بل ان هناك من اعتقل في الأوتوبيس لأن مخبراً سمع من يناديه بكلمة «أخ»!

ـ رغم كل هذا أودّ الانضمام الى الاخوان.

ـ هناك شيء آخر. لا تغضب يا كريم. لا أعتقد ان في الاخوان شيعة.

ـ سنة! شيعة! حتى أنت يا بروتوس؟!

ـ كل ما أريده هو الايضاح. صحيح انه صدر بيان من شيخ الأزهر يعترف فيه بالمذهب الجعفري. ولكن رأي شيخ الأزهر شيء ورأي الاخوان شيء آخر.

ـ وأنت ما رأيك؟

ـ الحقيقة يا كريم أني لا أعرف عن الشيعة إلاّ ما سمعته منك.

ـ ألا يكفي أن نكون مسلمين نؤمن بربّ واحد وكتاب واحد ونبيّ واحد وقبلة واحدة؟

ـ يا كريم! نحن في مصر. ومصر، حسب علمي، لا يوجد فيها شيعي واحد. ولكن المذهب ليس العقبة الرئيسية.

ـ ما هي العقبة إذن؟

ـ العقبة انه لا يوجد حالياً أي تنظيم للجماعة. بمعنى انك إذا أردت أن تنضم فلن تجد شيئاً تنضمّ اليه. لن تجد أعضاء ولا مكتباً ولا جريدة ولا موظفين.

ـ لا بُدّ أن تكون هناك وسيلة ما.

ـ الوسيلة الوحيدة هي الانضمام اليهم في السجون. لا أعتقد ان هذا هو ما يدور في ذهنك.

ـ ما يدور في ذهني هو أن ألتحق بحركة تلغي الفوارق بين السنّة والشيعة.

ـ هل يمكن أن توجد حركة كهذه يا رؤوف؟ عمر الخلاف بين السنّة والشيعة بعمر الاسلام تقريباً، هل تعتقد انه يمكننا أن نحلّه الآن؟

ـ بامكاننا أن نحاول.

ـ والأسلوب الأمثل ليس دخول السجن. ألم تر بعينيك ما حدث ليعقوب؟ بضعة أسابيع في الاعتقال وعاد إنساناً محطمّاً. هل تريد أن يحدث هذا لك؟

ـ أصارحك يا رؤوف انك خيبت ظنّي. كنت أتوقع منك التشجيع.

ـ لا أعرف دوافعك يا كريم ولكني واثق انك لا تعرف الأوضاع الحقيقية في مصر. قضى أخي في السجن ثلاث سنوات لمجرّد انهم وجدوا معه بعض كتيبّات حسن البنا. ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقّة. آلاف غابوا في أعماق السجون لأن السلطات شكّت في تعاطفهم مع الجماعة.

ـ لا تهمني هذه المخاطر.

ـ قلت لك انه لا يوجد الآن شيء يمكنك أن تنضمّ اليه. ان كنت مُصرّاً فابدأ في قراءة الكتب الاسلامية، وان كانت هذه القراءة، بدورها، لا تخلو من مخاطرة.

ـ أفهم من هذا انك لا تريد مساعدتي؟

ـ مساعدتك؟ كيف يمكن أن أساعدك؟ بوسعك اليوم أن تقول في الكليّة بصوت مرتفع «رحم الله حسن البنّا» أو «الإخوان المسلمون

مظلومون» وسوف تجد نفسك خلال ساعات في السجن معهم. لا يحتاج الأمر الى مساعدتي.

- أنا جاد يا رؤوف وأنت تمزح.

- هذا ليس مزحاً. هذا هو الواقع. لماذا لا تنضمّ الى فؤاد وماجد؟ لا أظن ان عندهم فوارق بين السنّة والشيعة، أو بين المسيحيين والمسلمين.

- أريد أن أنضمّ الى تنظيم اسلامي.

- ابدأ بقراءة الكتب. فؤاد كثيراً ما يذهب الى الشيخ أبو زهرة في مكتبه. اذهب معه واطلب أسماء بعض الكتب التي تعالج موقف الاسلام من القضايا الراهنة.

- وبعد ذلك؟

- لكّل حادث حديث.

- تعدني؟

- لا أعدك بشيء. هل تسمح لي بسؤال؟

- تفضّل.

- هل أنت متأكد أن قرارك ليس مبنياً على تأنيب الضمير؟

- تأنيب الضمير؟ لماذا تتصوّر ذلك؟

- مجرد فكرة.

- أرجوك يا رؤوف. يكفي فرويد واحد في المجموعة.

* * *

«أضيئت الأنوار في القصر الامبراطوري. الليلة حفل الزفاف الشهري. زفاف الامبراطورة العذراء، شانا. في المقصورة الامبراطورية، تحفّ الوصيفات بشانا يساعدنها على ارتداء حلّة الزفاف البيضاء المرصّعة بالجواهر الكريمة. في ركن بعيد من أركان القصر تنشغل مجموعة من العبيد بالعريس، شين، محاولين أن يجعلوا من الفلاّح الوسيم الشاب ذي الثياب الرثّة واليد الخشنة رجلاً جديراً بأن يكون زوج الامبراطورة الجديد.

لم يتوقع شين أبداً هذا المصير. حدث ما حدث بسرعة مذهلة. قبل أيام، وقفت كوكبة من الحرس الامبراطوري بالحقل الذي يعمل فيه. تم

استدعاء جميع الفلاحين واستعراضهم واحداً واحداً. ووقع الاختيار عليه. وأخبره رئيس الحرس ان عليه الحضور الى القصر في مطلع الشهر القادم.

لا يوجد أحد في «سعباد» يجهل نهاية الزوج الذي يقع عليه الاختيار. منذ أن جلست هذه الساحرة المجنونة على عرش الامبراطورية وحفل الزفاف الشهري لعنة من لعنات حكمها الأسود. يُختار شاب وضيء من العاملين في حقولها ليصبح العريس. تعلن الاحتفالات في مختلف أرجاء «سعباد» وتُدّق الطبول، وتغرق العاصمة في الأضواء. تجلس الامبراطورة على عرشها الفضّي وبجانبها الزوج الجديد. في الصباح التالي، ينضم هذا الزوج الى جموع الخصيان الذين يتولّون مهمّة تنظيف القصور الامبراطورية. وتهمس الاشاعات أن الزوج لم يكن فحلاً، وان الامبراطورة العذراء لا زالت عذراء، وتبدأ الاستعدادات لحفل الزفاف القادم.

شين يعرف الحقيقة التي يعرفها كل إنسان في «سعباد». يعرف أن العريس الجديد بعد انتهاء المراسم والاحتفالات لا يذهب الى المخدع الامبراطوري مباشرة، وانما يقاد الى غرفة الطبيب حيث يقضي بضع دقائق يخصى خلالها كما تخصى خيول الامبراطورة وكلابها. ثم يساق الى المخدع. وينضمّ في الصباح الى جموع الخصيان.

يخفي شين الموسى الصغيرة بعناية. وتتمّ المراسم. وتبتسم الامبراطورة العذراء. ويبتسم العريس. وينتهي الاحتفال. وتختفي الامبراطورة. ويذهب الى غرفة الطبيب. وفي ثوان تغادر الموسى مكانها وتستقر في عنق الطبيب ثم تعود الى مكانها. ويخرج شين وكأن شيئاً لم يكن. يدخل المخدع الامبراطوري. يرى الامبراطورة العذراء في غلالة شفافة رقيقة. لا يصدّق أن هذه المرأة تجاوزت الستين. كل من في «سعباد» يؤمن أن السحر هو السر في شباب الامبراطورة الدائم. تدعوه الامبراطورة الى الاقتراب. لا يتحرك. تأمره أن يدنو. يقفز، وقبل أن تدرك الامبراطورة ما يحدث يصفعها بكل قوّته. ينقضّ عليها كذئب جائع يهجم على شاة. ويسيل الدم. وتصرخ الامبراطورة:

ـ اغتصبتني بالقوة أيّها الحيوان القذر.

ينظر شين الى الامبراطورة التي لم تعد عذراء. ويذهل وهو يرى التحوّل الذي يجتاح ملامحها. انقلب الوجه الطفوليّ الفاتن الى وجه قبيح مُجعّد بالغضون. وطفحت البشرة النقية بالبثور. رأى شين كما لم ير أيّ

إنسان قبله الوجه الحقيقي للساحرة الشمطاء. يدفن شين الموسى في العنق المليء بالعروق النافرة. وتصرخ الساحرة. ويتراكض الحرس من كل مكان. ويقهقه شين من الأعماق».

* * *

ـ نقلة جديدة يا فؤاد. نقلة الى قصص الخيال العلمي. كل هذا من بركات ليلى؟

ـ رُبّما.

ـ لا تقل لي انك وصلت الى المخدع الامبراطوري؟

ـ أرفض التعليق.

ـ لا تقل لي انها لا زالت عذراء بعد زوجين؟

ـ أرفض التعليق.

ـ حسناً. سؤال واحد. ما المقصود بسعباد؟

ـ سعباد تعني «بسّ عاد»!

ـ اذن قلت لي كل شيء.

* * *

هل تحدثت القصة عن كل شيء؟ عن كل ما جرى؟ بدأت الحادثة مساء الخميس الماضي عندما جاءت ليلى الى شقة الحرية وأخذته، وانطلقت «البيوك» الحمراء، وأعلنت انهما ذاهبان «في رحلة». وقفت «البيوك» أمام فيلا في حيّ المهندسين بالدّقي. بمجرد أن اجتازا الباب شعر فؤاد انه ينتقل من عالمه المعتاد الى عالم جديد: أثاث رائع، لوحات زيتية أخّاذة، أضواء خافتة، موسيقى تنبعث من مكان مجهول.

سأل ببلاهة:

ـ من يعيش هنا؟

وردت ببساطة:

ـ أنا.

ـ ولكني كنت أظن انك تعيشين في بيت الطالبات.

ـ أعيش هنا. وأعيش هناك.

ـ هل كنت تقيمين هنا مع زوجك السابق؟

- أيّهما تقصد؟

- الاثنين!

- عشت هنا مع الثاني.

- عشت مع الثائر الاشتراكي في هذا القصر الرأسمالي؟!

- بسّ عاد!

لم تكن الفيلا قصراً، ولكنها لم تكن بيتاً عاديّاً. أكثر ما أذهل فؤاد الفارق بين المظهر الخارجي البسيط الذي لا يختلف عن مظهر عشرات الفيلل المجاورة وبين الداخل. السجاد الذي يزري بسجادة قاسم اليتيمة (لا يعرف فؤاد كيف تمكنت من ادخال كل هذا السجاد عبر الجمرك: عبد الحكيم عامر؟!). الستائر الزرقاء المخمليّة. إذن، فالذين يتحدثون عن المجتمع «المخملي» لا يبالغون. والصور الفوتوغرافية. مشاهير العالم العربي. صورتها مع الزوج الأوّل في ميدان بروما. صورتها مع الزوج الأول ومع أنور السادات. صورتها مع الزوج الأوّل ومع فريد الأطرش. ثم الزوج الثاني، الذي يكاد يكون نسخة طبق الأصل من عمر الشريف. صورتها مع الزوج الثاني في مطعم فيصل ببيروت. صورتها مع الزوج الثاني ومع سليمان العيسى. صورتها مع الزوج الثاني ومع محمد حسنين هيكل. عالم غريب، عالم من الساسة والشعراء، من الثوار والحكام، من الأغنياء والفقراء، من المادة والروح. وهي تعيش العالمين بكل مشاعرها كأنها مركبّة من مخلوقتين مختلفتين تماماً: الثريّة الرأسمالية التي تزوجت الثرّي الرأسمالي، والثورية الاشتراكية التي تزوّجت الثوري الاشتراكي. ولا تزال حتّى بعد ذهاب الزوجين تعيش الحياتين المنفصلتين. من ناحية، الغرفة المتواضعة في بيت الطالبات، والصديق المتواضع القادم من البحرين، الذي لا يملك سوى خمسة وعشرين جنيهاً في الشهر، ولم يؤلّف سوى نصف كتاب. ومن ناحية أخرى، «البيوك» الحمراء، وهذه الفيلا التي يعزف كل شبر فيها ملحمة الثراء البذىء.

لأول مرة يتعرف فؤاد على الويسكي والسيجار. لأول مرّة، يرى، خارج الأفلام، امرأة تشرب الويسكي. لأول مرة، خارج الأفلام أو داخلها، يرى امرأة تدخن سيجاراً. من أي الزوجيّن جاءت العادتان؟ أم جاءت عادة من كل زوج؟ يخاف فؤاد من تهمة «الاخوانجية»، ويختنق مع

السيجار، ويغص بالسائل الأصفر. ثم تبدأ الأمور تغيم قليلاً. بغتة، ينبعث صوتها من جهاز التسجيل وهي تهمس:

أأنا قلبك؟ أم أنت فؤادي؟ يا مرادي! أنتَ.. يا أغلى مُرادِ

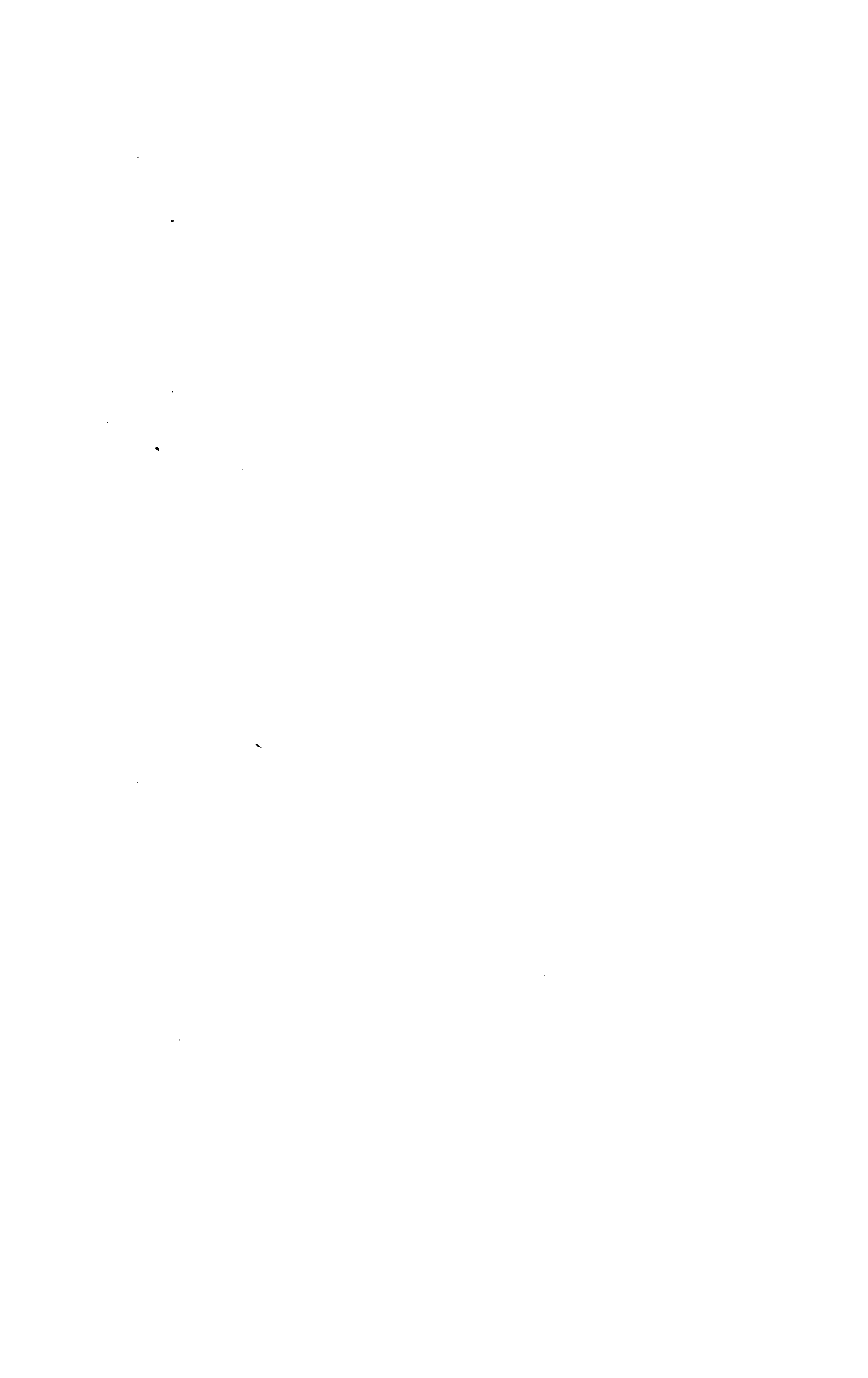
أنا أعطيتك روحي.. والمنى وضلوعي.. وعيوني.. وقيادي

لا يكاد يفيق من صدمة «أم أنت فؤادي»، حتّى يسمع الشعر نفسه بصوت عبد الحليم حافظ من غير أداة موسيقية. ثم يجيء الشعر نفسه بصوت فريد الأطرش مع تقاسيم على العود. يقرّر انه يعيش في حلم. لا يمكن أن يكون هذا واقعاً. لا يمكن أن يكون هنا في هذا البيت/القصر بقرب هذه المرأة الجميلة يستمع الى شعر جميل كتبته عنه، شعر يحمل اسمه، ويغنيّه عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش. لا تحصل هذه الأشياء إلا في الأحلام. وما دام في حلم، فليصنع ما شاء.

مرّت أحداث الحلم وكأنها مشاهد في شريط سينمائي. غرفة النوم، والسرير، وروائح «شانيل ٥» . القبلة وما بعد القبلة. ثم «بس عادا». ولكنه لا يتوقّف هذه المرّة. تتكرّر «بس عادا»، ولا يتوقف. وترن الصفعة على وجهه، وتترك مجرى يلسعه كالجمر. ينتهي الحلم ويبدأ الكابوس. يتملكه السكر المجنون، أو الجنون السكران. يلطمها بعنف. على الخد الأيمن ثم الخدّ الأيسر. أم تراه بدأ بالخدّ الأيسر؟ في الكوابيس، تضيع التفاصيل الصغيرة. المهمّ أنه صفع اليمين واليسار. اليمين واليسار؟! ها ها ها. غلطة فرويدية، أليس كذلك يا يعقوب؟! تمتد يده، وتمزّق القميص. القميص أو البلوزة؟ في الكوابيس، لا تهم الأسماء. وتمتد يده وتزيل البنطلون الذي كانت ترتديه. البنطلون أو الجونلا؟ قلنا لا تهمّ الأسماء. يرحل حي المهندسين. تختفي الفيلا. تتلاشى ليلى الخزيني الشاعرة الكويتية الجميلة الرأسمالية الاشتراكية. يتطاير فؤاد الطارف القاصّ البحريني الشابّ الذي تحول من بعثي الى قومي عربي. تصبح ليلى طريدة من العصر الحجري. يصبح فؤاد رجل كهف. تمر الطريدة أمام الكهف. يفوح عبق «شانيل ٥» . يخرج رجل الكهف ويتبع الرائحة. يثور الجوع في أعماق رجل الكهف الذي لم يأكل منذ أيام. ويجري خلف الطريدة. هل الطريدة غزالة؟ أم بقرة وحشية؟ في الكوابيس، تتشابه الطرائد. تجري الطريدة ويجري رجل الكهف وراءها. يلتفت رجل الكهف فيرى عدداً كبيراً من الرجال يتبعون طريدته. هنا رجل بملامح عمر الشريف. وهناك رجل بملامح فريد الأطرش. وهنا جمال عبد الناصر بنفسه. جمال عبد الناصر؟! ما الذي زج

بجمال عبد الناصر في أعماق هذا الكابوس؟! وهناك الأستاذ. والجميع يجرون وراء الطريدة. ويغضب رجل الكهف. هذه طريدته. صيده. غنيمته وحده. يصل الى الطريدة. ويضربها على مؤخرة عنقها. وتسقط. ويقرّر أن يفترسها قبل أن يصل الآخرون. يسمع صوت ثياب تتمزّق. ثيابها أم ثيابه؟ ويسمع أصداء صفعات جديدة. صفعته أم صفعها؟ تتأوه الطريدة. وتقاوم. وتخفّ مقاومتها. ويسمع من مكان بعيد بعيد صوت عبدالحليم حافظ يصرخ «نار يا حبيبي نار». وتشتعل النار في بقايا ثيابه. وفي أمعائه. ويسمع صوت زمجرة وهمهمة. وتصرخ الطريدة «بس!»، «بسّ!» «يا مجنون!»، «يا مجنون!». ولا يقف الكابوس رغم صراخها. ويحمل المشهد التالي صور بقع من الدماء على السرير. دماء؟! من أين جاءت الدماء؟! هل طعنها أم طعنته؟ هل عضها أم عضّته؟ هل مزقّها بأظافره أم مزقته بأظافرها؟ في الكوابيس، تضيع التفاصيل. وتصل الى سمعه كلمات متقطعة تفصل بينها نوبات من البكاء «اغتصبتني». من الذي اغتصبها؟! «بالقوّة». من الذي اغتصبها بالقوّة؟! الدقة في المصطلحات يا بنيّ. هذه الطريدة لم تدرس القانون. لو درسته لأدركت ان كلمة «بالقوّة» تزيّد لا معنى له، فالاغتصاب، قانوناً، يعني الاغتصاب بالقوة، «أيّها الحيوان القذر!». عن أي حيوان تتحدث؟! لا يوجد في الغرفة حيوانات. لا يوجد سوى أديب وشاعرة. من أين جاءت الدماء إذن؟ الدماء؟! المنديل الأحمر؟! دماء البكارة؟! هل هذا معقول أيها الكابوس؟ أقصد يا سيادة الكابوس! أعني يا سي كابوس! يا كبابيسو! هل يوجد حتى في أغبي الكوابيس امرأة تزوجت واحداً من أغنى أغنياء الأمّة العربية، ثم واحداً من أثور، آسف! أقصد من أشرس، ثوار الأمّة العربية وظلت محتفظة بعذريتها؟! ومالو؟! ومالو كيف يا أخي؟! هذا ليس كابوساً طبيعياً. هذا كابوس من اختراع العبثيين ـ العبثيين لا البعثيين! ـ «بالقوة»؟! «أيها الحيوان القذر»؟! لحظة أيها الكابوس! لحظة من فضلك! خمسة! كيف حولتني الى حيوان قذر؟ كيف جعلتني أغتصبها بالقوّة؟ هل يعاقب القانون الجنائي على جريمة اغتصاب بالقوة ـ قلنا «بالقوة» تزيّد يا محترم! ـ حدثت في كابوس؟ نسأل العميد. رئيس قسم القانون الجنائي. العميد يقول ان القانون ينطبق حتّى في الكوابيس. غريبة! والنتيجة؟ آخرتها لبن! النتيجة أيها الحيوان القذر انك سوف تذهب الى السجن. قد ترى زغلول هناك. إمام المسجد ومغتصب النساء في سجن واحد. أو ربّما وضعوك مع يعقوب. هذا أفضل. مغتصب

الرأسمالية ومغتصب الفتاة الرأسمالية. وما هذه الابتسامة العريضة التي تملأ الآن وجهها كلّه؟! قصّة معقدّة بعض الشيء. فيها قدر من السيريالية. ألم تسمع بالسيريالية يا كابوس بيه؟ السيريالية شيء شبيه بالوجودية. وبالملوخية. بتهزر حضرتك؟! آسف! في الأدب السيريالي يمكن أن يحدث كل شيء، وأي شيء. تتكلّم الطيور وتنطق الكراسي وتنوح الأشجار وتقهقه الضفادع وتسخسخ الرياح. حلوة، سخسخة الرياح. آسف! يمكن أن تتزوج المرأة مرتين وتظل عذراء. ثم تفقد عذريتها. ويمكن أن تُلفّق البكارة، بالخيط والإبرة. الرجل الشرقي لا يريد إلا العذراء. وليلة العرس! ليلة العرس؟! لا أنوي أن أكون زوجك الثالث! تعرف المقصود! أين سمع هذا الكلام من قبل؟! وهذه الطريدة الطعينة الجريحة لا تزال تبتسم. الابتسامة موقف وجودي. والبكارة. البكارة الثورية. والبكارة الرأسمالية. والاحتفاظ بالبكارة موقف وجودي. وفقدانها موقف وجودي. وتلفيقها من جديد موقف وجودي. ويعقوب يصرّ أن المواقف الوجودية مواقف بطولية، باستثناء السجن الانفرادي. أديني عقلك أيها الكابوس، رجاء، واشرح لي، على مهلك، لماذا أنا هنا، وماذا أفعل هنا، في هذه الساعة من الصباح، على هذا السرير مع هذه المرأة الدامية، (أو الدموية؟!) (أو المدمّاة؟!)، التي تزعم أنني حيوان قذر اغتصبها بالقوة. تكلم أيها الكابوس، أبوس ايدك!



١٩

يونيو ١٩٦١



في الخدّ إن عزم الخليط رحيلا مطرٌ تزيد به الخدود مُحولا

المتنبي

١٩

جاء يوم الامتحان الشفوي في القانون المدني. وقف فؤاد أمام باب لجنة الامتحان مُحاطاً بالوجوه المكفهرّة، واللحى الطويلة، والثياب المتسخة. وحده الذي يبدو كما لو كان قادماً لتوّه من الحلاّق. بعد جولات المشي الطويلة، نام نوماً عميقاً وأصبح مليئاً بالثقة. جاء الدور، ودخل معه طالبان. وراء الطاولة جلس الدكتور سليمان مرقص وبجانبه رئيس محكمة النقض المستشار زاهر حسني (من المؤكد أن وظيفة كهذه كانت تحمل معها الباشوية قبل الثورة ولكن لا بُدّ من التأكد من نشأت). بدأ الدكتور سليمان مرقص، وسأل كل طالب بالدور. ثم جاءت أسئلة المستشار. ثم عاد الدكتور سليمان مرقص. ولسبب لا يعرفه فؤاد، قرّر الدكتور أن يركّز عليه ويهمل زميليه. وتوالت الأسئلة، وتوالت الاجابات وكلّها، على ما يعتقد، صحيحة. ثم قفز الدكتور بلا مقدمّات الى موضوع جديد:

ـ وماذا عن بيع المالك عقاراً لا يملكه؟

ورد فؤاد:

ـ حسن النية أو سيىء النيّة يا دكتور؟

ـ حسن النيّة.

ـ وماذا عن المشتري يا دكتور؟ حسن النية أو سيىء النيّة؟

ضحك الدكتور سليمان مرقص:

ـ من المُمتحِنْ؟ أنا أم أنت؟ المقصود حسن النية عند الطرفين.

صمت فؤاد قليلاً ثم قال:

ـ الرأي الذي ذكرتَه في الكتاب يا دكتور والذي يستند الى أحكام

محكمة النقض في فرنسا وفي مصر يذهب الي حماية المشتري حسن النية وتعويض المالك الحقيقي بثمن المثل. ولكني أختلف مع هذا الرأي.

لو قال فؤاد «ولكني أنوي قتلك الآن يا دكتور» لما أحدثت العبارة الوقع الذي أحدثته كلماته الأخيرة. ساد الغرفة صمت رهيب مفاجىء. وتململ الطالبان، مذعورين. والتفت المستشار اليه وفي عينيه تساؤل صامت عن سلامة قواه العقلية. واحمرَّ وجه الدكتور سليمان مرقص. واستطرد فؤاد:

ـ رأيكم يا دكتور يقوم على الاعتبارات المنطقية. ليس من المنطقي أن أهدم عمارة حتى لو كان الذي بناها قد اشترى الأرض من رجل لا يملكها. ولكن المنطقي أن أعوض مالك الأرض الفعلي. إلاّ أنني أنظر الى الموضوع من زاوية العدالة التي تحتّم حماية المالك الحقيقي.

زمجر الدكتور سليمان مرقص:

ـ منذ متى كانت مبادىء العدالة تتناقض مع المنطق؟

وقال المستشار:

ـ واضح يا دكتور سليمان انه لم يستوعب رأيكم.

وردّ فؤاد:

ـ عفواً يا سيادة المستشار. لقد فهمت رأي الدكتور فهماً تاماً وأقدرّه وأحترمه. ولكني أرى أن اعتبارات العدالة تقتضي حماية المالك الفعلي. أفرض يا دكتور أنني أملك أرضاً أنوي أن أبني عليها بيتاً لسكني وسكن عائلتي ثم غبت بضعة أسابيع وعدت لأجد إنساناً غيري باعها لآخر بنى عليها بيته. ما ذنبي أنا؟

قال الدكتور بانفعال واضح:

ـ أذكّرك أننا نتحدّث عن بائع حسن النيّة لم يكن يعرف أنّه يبيع ملك الغير، ومشترٍ حسن النية لم يعرف انه يشتري ممن لا يملك. ما ذنب المشتري الذي اشترى الأرض وهو واثق ثقة مطلقة انه يشتريها من مالكها، المشتري الذي بنى عليها بيتاً بالفعل؟ بأيّ منطق أهدم بيته؟

ويرد فؤاد بهدوء:

ـ هذه هي النقطة يا دكتور. أنت تقول ما ذنب المشتري وأنا أقول ما ذنبي، أنا المالك الحقيقي.

يتدخل المستشار:

- بسّ المالك حيتعوّض يا ابني. حندفع له قيمة المثل.

إلاّ ان فؤاد يرفض الاقتناع:

- لنفرض انه لا يريد أن يبيع أصلاً ولا يريد قيمة المثل. لا يريد إلا أرضه.

يسأله الدكتور سليمان مرقص باستغراب:

- إذن فأنت تريد هدم البيت وارجاع الأرض الى ما كانت عليه وتسليمها للمالك الحقيقي؟

- هذا هو مقتضى العدالة يا دكتور.

- افرض ان المشتري بنى عليها فندقاً ضخماً، هل نزيل الفندق؟ أو مستشفى، هل نزيل المستشفى؟

- هذا ما تتطلبه العدالة.

- تتطلّب العدالة أن أزيل مبنى بمليون جنيه حماية لأرض لا تزيد قيمتها على عشرة آلاف جنيه؟!

يتدخل المستشار لتلطيف الجو ويقول مخاطباً فؤاد:

- رأيك يا ابني مقبول من الناحية النظرية، ولكن لا يمكن تطبيقه من الناحية العملية. عدد من أحياء القاهرة التي تراها الآن بيعت وعُمّرت قبل أن يكتشف أحد أن البائع باع ما لا يملك.

يضيف الدكتور سليمان مرقص:

- ألا تذكر قضية مصر الجديدة يا زاهر بيه؟ نصف مصر الجديدة بيع بهذا الشكل.

يلتفت الدكتور الى فؤاد:

- انت منين يا ابني؟

ويردّ فؤاد:

- من البحرين.

يضحك الدكتور سليمان مرقص:

- أتاريك عاوز تهدّ مصر!

ثم يضيف.

- قوم روّح. روّحوا كلكو.

قبل أن يصل فؤاد الى الباب يناديه الدكتور سليمان مرقص ويهمس في أذنه:

- رأيك غلط في غلط. ولكن برافو عليك. سوف أعطيك النمرة الكاملة. لم أفعل هذا أبداً من قبل.

* * *

يقلّب يعقوب الصفحات في كتاب «المجتمع العربي» استعداداً للامتحان. ضاعت عليه مواد الترم الأول وعليه أن يبذل أقصى جهده ليجتاز مواد هذا الترم. غير أن الكتاب لا يثير في نفسه سوى الاشمئزاز. أوراق مليئة بالنفاق ليس لها علاقة بالمجتمع العربي في أي مكان (أمّا البحرين فلا تظهر حتّى في الكتاب). شعارات فارغة عن الوحدة والموارد العربية والجنة القادمة. يفهم يعقوب أن يُردَّد هذا الكلام في الصحف والاذاعة ولكنه لا يفهم كيف يقدّم لطلبة الجامعة على أساس انه وصف علمي موضوعي لواقع المجتمع العربي. ترى ماذا سيحدث لو كتبت في دفتر الاجابة لمحات عن المجتمع العربي كما رأيته، لمحات حقيقية رأيتها وعايشتها؟!

لنبدأ بقلعة العروبة، أم الدنيا، مصر. أنت يا سيّدي الممتحن، باعتبارك مواطناً عربياً من الاقليم الجنوبي، تعرف ولا شك الأوضاع في مصر، وتعرفها أكثر مني. ولكنني أقدّر أن هناك خطورة في التعرض اليها في كتابك. دعني، إذن، أتحدث نيابة عنك. في هذا المجتمع العربي يا سيدي الممتحن يملك ضباط الثورة كل شيء. وأقصد كل شيء حرفياً: الحكومة، والمجلس، والاتحاد القومي، والجرائد، وعمارات الانجليز والفرنسيين، ومديريات التحرير، والفتيات الراغبات في الزواج، وإذا لم تصدّق فاسأل عبد الكريم، ويملكون السجون الانفرادية، وإذا لم تصدّق فاسألني، أنا محسوبك يعقوب الحدّي عضو المجتمع العربي البحريني الذي لم يكبر الى درجة دخوله في المقرّر. هل جربت السجن الانفرادي يا سيادة الممتحن؟ هذا سؤال جدّي! هل جربت السجن الانفرادي؟ السجن الانفرادي يا سيدي الممتحن يقع في بيت عادي في العباسية، لا يوجد على بابه يافطة ولا حرس، بيت لطيف ظريف. ولا يوجد في داخله تعذيب. كل ما يعنيه السجن الانفرادي انك لا تعرف الفرق بين الليل والنهار. ويا سيدي

الممتحن، هل تعرف ما يعنيه زوال الفرق بين الليل والنهار؟ يعني، بكل بساطة، الجنون التام. عندما يزول الفرق بين الفجر والمغرب، بين الافطار والعشاء، وبين النور والظلام، يزول الفرق بين العقل والجنون. صدقني يا سيادة الممتحن. حاغشك يعني؟ ايه؟ ودي تيجي؟! اذهب واسأل في العباسيّة. لا! لا! لا أقصد مستشفى المجاذيب التي نسمّيها في البحرين، بكل صراحة، «دار المجانين»، أقصد حيّ العباسيّة. اسأل هناك عن فيلا عادية لا يوجد عليها ما يدل على انها سجن انفرادي.

وماذا عن المجتمع العربي في لبنان يا سيّدي الممتحن؟ هذا مجتمع عجيب غريب، يشبه جزائر الواق واق، لا بُدّ انك سمعت عن جزائر الواق واق التي تقع بعد الليلة السبعمائة من ألف ليلة وليلة. في كل جبل من جبال لبنان الأشمّ امبراطورية مستقلّة، هل تذكر امبراطورية زفتي يا سيدي الممتحن؟، تحكمها عشيرة مستقلة، يحكمها شيخ قبلي يمثلها في البرلمان. ولكل شيخ يا سيدي جيش من «القبضايات» و«الزعران»، تستطيع أن تعتبر الكلمتين مرادفتين لكلمة «الفتوات» المصرية، يفوق في عدده الجيش اللبناني. صدّق أو لا تصدّق يا سيدي الممتحن أن شيوخ لبنان أكثر من شيوخ السعودية وقطر والبحرين والكويت مجتمعين. لم تكن تعرف ذلك من قبل؟! هناك، على سبيل المثال لا الحصر، الشيخ الخازن، والشيخ ارسلان - لا! عفواً! ارسلان مير، والمير هي الأمير - وهي تختلف عن قولكم في مصر «فلان أمير» - والشيخ إدّه، والشيخ الجميّل، والشيخ فرنجيّة، والشيخ جنبلاط - لا! عفواً! هذا، بدوره، مير، وعفواً، هذا، بالذات، بيك. كمال بيك جنبلاط صاحب الفضل في عودتي الميمونة الي القاهرة. وهناك يا سيدي الممتحن شيخ المشايخ، أو «الشيخ العود»، أو «الشيوخ»، أي رئيس الجمهورية وهذا، بدوره، «مير»!

أريد أن أقول يا سيدي الممتحن أن عليك في الطبعة القادمة من كتابك أن تترك هذا الهراء الفارغ عن دور الجماهير العربية في الأمّة العربيّة الناصرية الواحدة، وأن تكتب أن المجتمع العربي لا تحكمه الجماهير وانما شيوخ العرب، وهؤلاء يُسمّون عندنا الملوك والأمراء والشيوخ، ويسمّون عندكم الضباط، ويُسمى الواحد منهم في بلاد الشام «المير» أو «البيك». وعليك في الطبعة القادمة من كتابك يا سيادة الممتحن أن تسجّل أن «شيخكم العود»، في مصر، أو «شيوخكم»، جمال عبد الناصر، لم يعد يقنع بأن يكون «الشيخ العود» في مصر وحدها، بل يريد أن يكون «الشيخ

العود» في كل البلاد العربية الممتدّة من المحيط الأطلسي الى الخليج الفارسي. عفواً يا سيادة الممتحن أعني الخليج الذي كان اسمه الفارسي عندما قدمت الى مصر للدراسة في صيف سنة ١٩٥٦ والذي أصبح اسمه مؤخراً الخليج العربي لأسباب تتعلق بغضب «الشيخ العود» العربي من «الشيخ العود» الفارسي. المهمّ يا سيدي الممتحن أنني مع جمال عبد الناصر، «شيخنا العود»، سواءٌ سمّى الخليج فارسيّاً أو عربياً، معه حتى الموت!

* * *

يتململ عبد الكريم وهو يقرأ كتاب «القانون الدولي الخاص». أدّى مرضه عقب وفاة ريري الى رسوبه في مادتين من مواد الترم الأول ورسوبه في أي مادة من مواد الترم الثاني يعني انه سيقضي في الكلية سنة دراسية كاملة بدلاً من ترم إضافي واحد. يغالب سأمه ويستمر في المذاكرة. مادة غريبة هذه المادة، مادة ذات اسمين، «القانون الدولي الخاص» و«تنازع القوانين». يفضّل عبد الكريم الاسم الثاني: «تنازع القوانين». الحياة، في النهاية، مجموعة من القوانين المتنازعة. قوانين الرجعية وقوانين التقدمية، قوانين الفقر وقوانين الثروة، قوانين الحب وقوانين الكراهية، قوانين الرجل وقوانين المرأة، قوانين السنّة وقوانين الشيعة، وقوانين الجبن وقوانين الشجاعة.

آه! الجبن والشجاعة. هذا هو التنازع الأكبر في التاريخ، «الديالكتيكية» الأساسية، كما يقول يعقوب الفرويدي/الوجودي/الشيوعي/سابقاً/مجهول الأيديولوجية حالياً. الجبن والشجاعة. من تنازعهما يُصنع التاريخ. لا ريب في ذلك. يبدأ الريب مع السؤال التالي: هل يصنع التاريخ الشجعان أم يصنعه الجبناء؟ الحسين أم يزيد؟ يبدو، للوهلة الأولى، أن التاريخ من صنع الشجعان. ولكن ماذا بعد الوهلة الأولى؟ غالباً، يموت الشجعان، ولا يبقون ليصنعوا التاريخ. غالباً، يبقى الجبناء ويسرقون التاريخ. الجنود الشجعان وقود المعارك والقادة الجبناء أبطالها. هل هذه حقيقة تاريخية؟ من يدري؟ التاريخ، مثل سوق الخميس في البحرين، مليء بمختلف أنواع البضائع. أو مثل سوق المقاصيص.

فليدع التاريخ ولينظر الى حياته هو. ألم تكن حياته صراعاً دائماً بين الجبن والشجاعة؟ بين التقاليد والتمرّد؟ بين الطاعة والعصيان؟ وكيف يصنّف نفسه وقد بلغ الثانية والعشرين؟ هل يعتبر نفسه شجاعاً أم جباناً؟ لا يدري. لعلّه في حالة «تنازع قوانين». ولا توجد في الكتاب الذي يقلّب

صفحاته إجابات. يتحدث الدكتور جابر جاد عن قوانين الأحوال الشخصية وعن القوانين الجنائية، الأولى تتبع الشخص، كظلّه، أينما ذهب، والثانية تبقى رابضة مكانها في الاقليم. ولكنه لا يتحدّث عن تنازع قوانين الشجاعة والجبن وأيهّما ينطبق على عبد الكريم. سؤال سخيف خارج المقرّر.

يفتح باب الغرفة ويطل فؤاد:

- فريدة على التيلفون.

تغيم الدنيا. تجيء جيوش كثيفة من الضباب الأسود وتدخل عينيه وتسدّ أذنيه. لا يكاد يرى. لا يكاد يسمع.

- كريم! فريدة على التيلفون. ماذا أقول لها؟

فتح عبد الكريم فمه وأبت الكلمات أن تخرج. وعادت الرعشة القديمة بكل أعراضها. ولاحظ فؤاد:

- سآخذ رقمها وأخبرها انك ستتصل بها فيما بعد.

خرج فؤاد ولم تخرج الرعشة من جسد عبدالكريم. فريدة! فريدة؟! بعد هذا كله؟! ماذا ستقول له؟ «سوري يا كابتن»؟ «لا مؤاخذة»؟ «بردون يا أستاذ كريم»؟ وماذا سيقول لها؟ «ولا يهمك»؟ «حصل خير»؟ «زواجة تفوت ولا حد يموت»؟ إلاّ ريري! وماذا حدث «لحضرة الضابط»؟ هل قُتل في معركة؟ لم تكن هناك معارك. أم تُوفي بداء الحبّ؟ أم قتله مرض السأم؟ يكلّم فريدة أو لا يكلمّها؟ هذا هو السؤال. تنازع القوانين. قوانين الجبن وقوانين الشجاعة. تنازع قوانين مُعقّد الى أبعد الحدود. هل يقتضي قانون الشجاعة أن يكلمّها أو يتجاهلها؟ هل الجبن هنا في الإحجام أو في الإقدام؟ مسألة عويصة. لا يحلّها كتاب الدكتور جابر جاد. ولا كل كتب القانون في كلّ كليّات الحقوق. هل هو، في حقيقته، جبان يحاول أن يظهر بمظهر الشجاع؟ أو شجاع يرتدي، أحياناً، قناع الجبان؟ لا! هذا ليس هو السؤال. يكلمّها أو لا يكلّمها. هذا هو السؤال!

* * *

«منذ أن وقعت عينا مجدي على عيني صفاء وهو في حالة حبّ مع صفاء وعينيها. صفاء تسكن في شقّة في الطابق الثالث من العمارة التي يسكن مجدي غرفة صغيرة على سطحها. كانت صفاء، أيامها، في الثالثة عشرة، طالبة في الإعدادية. وكان، وقتها، في الخامسة عشرة في بداية

المرحلة الثانوية. بقي أكثر من سنة قبل أن يجرأ على أن يقول لها «صباح الخير»، ولم تردّ، ولكنها ابتسمت. ظلت الابتسامة وسيلة الاتصال الوحيدة بينهما عبر شهور. ثم بدأت الكلمات، مُجرّد جملة أو جملتين، خلال لقائهما على السلّم أو في السطح وهي تنشر غسيل العائلة.

أبو صفاء موظف في محافظة الجيزة، موظف كبير نسبياً، باشكاتب تقريباً. وهو حريص على أن تتزوج صفاء موظفاً مثله، وألاّ تضيّع مستقبلها مع طالب فقير. حذّرها من الحديث مع مجدي، وأنذرها بأنه سيسعى الى طرده من العمارة إن وجدها تتحدّث معه. ومع ذلك، استمرت الكلمات والبسمات. واستمرَّ الحب ينمو في قلب مجدي.

كيف جاءت صفاء بهذا الجمال وأبوها قبيح الملامح، شرس الطباع وأمها قصيرة دميمة تزن الأطنان؟ نبتت كما تنبت الزهرة في الصحراء القاحلة. وجنات وردية. قوام فارع. عينان كبحيرتين من الكحل الدامس. وشعر كث متمرّد، لا يريحها ولا يريحه.

عندما قدم مجدي من القاهرة وجد ابن عمه رشاد في الغرفة الصغيرة وسكن معه. عندما دخل مجدي كلية الآداب كان رشاد قد تخرج ووُظف مهندساً زراعياً في الفيّوم. جاء قريب جديد من البلد واحتل سرير رشاد. دورة لا تنتهي. يتخرج قريب ويشغر السرير ويجيء قريب. وغرفة السطوح تودّع المغادرين وتستقبل القادمين، بلا دموع وبلا ضحكات.

رشاد الذي جاء من الفيّوم في زيارة مفاجئة يقول له بسعادة واضحة:

- بارك لي يا مجدي. بارك لي!

- ألف مبروك. خير؟

- خطبت صفاء. ووافق أبوها. وكتب الكتاب الأسبوع القادم.

دخل الخنجر في قلب مجدي ولم يخرج. صفاء التي كان يتصوّر انها تحبّه كما يحبّها تتزوج رشاد؟ ورشاد الذي لم يظهر عليه عبر السنين الماضية كلها انه لاحظ وجودها على الأرض يتزوج صفاء؟ عالم غريب!

جاء كتب الكتاب. ثم جاء الفرح. وحضر مجدي المناسبتين. وأخذت صفاء حقائبها وذهبت مع زوجها الى الفيوم. منذ أن سمع الخبر من رشاد لم يلتق بها وجهاً لوجه سوى مرة واحدة، على السلم. نظر اليها، ونظرت اليه. لم يقل شيئاً ولم تقل شيئاً. ثم سقطت دمعتان كبيرتان من العينين الكبيرتين. وعندما مرّت بقربه سمع الهمسة: «قسمة ونصيب يا سي

مجدي». واختفت. ومرّت الأيام. وأقنع نفسه انها نسيته. ومرّت سنتان. وأقنع نفسه انها لم تحبّه قط وأنه كان يخادع نفسه. ومرت ثلاث سنوات. وأقنع نفسه انه لم يعرفها أبداً، ولم تعرفه.

بغتةً، ظهرت صفاء على السلّم. لم يتغير شيء. الجمال الرائع نفسه. الابتسامة المضيئة ذاتها. وتهمس، لماذا لا تتكلم هذه الفتاة إلاّ همساً، إن رشاد طلقّها. وسألها مجدي عن السبب. وجاءت الهمسة القديمة، وكأنها لا زالت مكانها عندما التقيا في المرة الأخيرة ولا زال هو في مكانه، «قسمة ونصيب يا سي مجدي».

هل يقبل الباشكاتب أن يزوج ابنته المُطلّقة معيداً في كلية؟ هل سيعتبر المعيد موظفاً «ميري» جديراً بابنة الباشكاتب؟ علم هذا عند القسمة والنصيب. يا سي مجدي!».

* * *

سأله فؤاد:

ـ أبارك لك الآن؟

ورد عبد الرؤوف بخجل:

ـ من الأفضل الانتظار.

ـ الى متى؟

ـ الى أن أتخرج. وأُعيّن.

ـ ألف مبروك مُقدّماً.

ـ شكراً.

ـ كيف عشت خلال السنين الماضية؟

ـ من قال لك اني عشت؟ كنت أطفو على سطح الحياة.

ـ لاحظت تغيّراً هائلاً فيك منذ أسابيع. لاحظت السعادة التي تأكل ملامحك. الشعاع الذي لا يفارق عينيك. كنت أخشى أن أكون واهماً.

ـ لم تكن واهماً يا فؤاد. لم أعرف الحياة إلاّ بعد عودتها.

ـ ربنا يتمّم بخير!

* * *

أتاه صوت الست فاطمة ـ بطّة! عبر التليفون مُتهدّجاً بالبكاء:

- سي فؤاد؟ ضروري أشوفك. تعال على طول.

وردّ بقلق:

- ماذا حدث؟ هل الأستاذ بخير؟ هل الأولاد بخير؟

- تعال على طول.

في شقة الأستاذ استقبلت فؤاد مناحة كبرى. الست فاطمة - بطة! - تنوح. والابن الأكبر محمد - ميمو! - ينوح. والابن الأصغر عارف - فوفو! - ينوح. والشغّالة تنوح.

قال فؤاد بحيرة:

- رأيت الأستاذ قبل يومين. وكان في صحة ممتازة. كيف توفي؟

وردّت بطة:

- ليته توفي!

- ماذا حدث إذن؟

أعطته الورقة. وقلبّها فؤاد. وقرأها عِدّة مرات، قبل أن يتبيّن انها ورقة طلاق. هذه إذن هي «الورقة» الشهيرة، مجرد قسيمة رسمية مليئة بالأختام.

وأجهشت بطة:

- تصوّرا المجرم! الشايب العايب! يتزوَّج موظفَّة في الوزارة في سنّ ابنته، ثم يطلّقني! لم أصدّق في البداية. أخبروني انه كتب كتابه على المفعوصة، ولم أصدّق. أخبروني انه استأجر لها شقّة في الزمالك، ولم أصدّق. في الزمالك؟! من أين جاء بالمال؟ يسكنني أنا وأولاده في هذه الشقة الصغيرة ويستأجر للمفعوصة شقة في الزمالك! لم أصدّق. قلت انها مجرّد إشاعات. ثم بدأ يغيب. ويكذب. مأمورية في اسكندرية. مأمورية في الاسماعيلية. والان تجيء الورقة. العجوز المفتري! يتركني بعد كل هذه السنين.

طرح فؤاد القضية على سكّان شقة الحريّة:

- هل بوسعنا التدخّل؟ هل هناك جدوى من الحديث مع الأستاذ؟

على الفور ردّ قاسم:

- الأستاذ في الخامسة والخمسين! ماذا نقول له؟ كيف ننصحه؟

وعلّق يعقوب:

ـ فتش عن فرويد. لا تحتاج المسألة الى عبقرية. لم يعد الأستاذ شريف يجد عند الزوجة القديمة الإشباع الجنسي فتزوّج غيرها. هذا كل ما هنالك.

أجابه عبد الكريم بعنف:

ـ هذا كل ما هنالك؟! بعد كل هذه السنين؟! وماذا عن الأولاد؟

قال يعقوب ضاحكاً:

ـ أنتم المحامون! الأولاد سيحصلون على حقوقهم. أنصحكم بعدم التدخّل. الجنس أقوى من كل النصائح في العالم.

تنهّد فؤاد:

ـ لو فرضنا اننا كلمنّاه ماذا يمكن أن نقول له؟

وأجاب عبد الكريم:

ـ نطلب منه أن يعيدها الى عصمته.

ورّد يعقوب:

ـ يا ذكي! لو كان ينوي إعادتها لماذا طلّقها؟

تساءل فؤاد:

ـ ماذا نفعل إذن؟

ختم يعقوب النقاش:

ـ لا شيء. لا شيء. تذكّر أن الأستاذ هو الذي يُشرف عليك ولست أنت الذي تشرف على الأستاذ.

جاء الأستاذ شريف في موعده المعتاد صباح الجمعة وبدأ، على الفور، الحديث مع فؤاد:

ـ كان المفروض أن أخبرك قبل أن تخبرك هي. لن أحاول أن أشرح. لن تفهم شيئاً من كلامي. أنت في العشرين، أمامك عمر كامل. أمّا أنا فأدنو من الستّين. لم تبق لي غير سنوات معدودة. في مثل سنّي لا تتكرر الفرص. لن تفهم الآن يا فؤاد. ولكنك ستفهم عندما تصل الى الخمسين.

ردَّ فؤاد ببرود:

ـ إذا وصلت الى الخمسين.

* * *

«ف.

هل أعتذر لك؟ أم تعتذر أنت لي؟ أم أن ما حدث كان قدراً لم يكن بوسعنا تجنّبه؟ لا يهّم هذا الآن. المهّم أنني أحبّك، كما لم أحبّك من قبل، كما لم أحب انساناً قبلك، كما لا يمكن أن أحبّ إنساناً بعدك. أرجو أن تصدّقني هذه المرّة. أرجو أن تمنحني فرصة جديدة، الفرصة الأخيرة.

ل»

لمح فؤاد بطرف عينه «البيوك» الحمراء الواقفة على الجانب الآخر من شارع الدرّي. أخرج الورقة الزرقاء من جيبه ومزّقها قطعاً صغيرة وأطلقها في النسيم. طارت القطع، وابتسم فؤاد وهو يرى قطعة منها تحط على نافذة «البيوك» الأمامية.

* * *

ينظر فؤاد الى ماجد بتوسّل:

ـ يا ماجد! أرجوك! دعني أذاكر الآن. هذا شهر غريب. البعض يتزوج، والبعض يطلّق، والبعض يعود من المجهول. وأنت الآن تتحدّث عن مؤتمر. ألا يمكن تأجيل الموضوع؟

ـ المؤتمر في الشهر القادم. ولا بُدّ أن أرسل اسمك الآن. من الضروري جداً أن تحضر. تذكر ان هذه قد تكون فرصتك الأخيرة لحضور المؤتمر العام للحركة. من يدري ماذا سيحدث بعد سفرك؟ متى ستتاح لك فرصة أخرى؟

قرّر فؤاد أن يسّمي هذا الشهر «شهر الفرص الأخيرة». ليلى تطلب منه فرصة أخيرة. والأستاذ شريف انتهز الفرصة الأخيرة. وفريدة عادت تأمل في فرصة أخيرة. وعبدالرؤوف اقتنص الفرصة الأخيرة. وها هي ذي فرصته الأخيرة لحضور المؤتمر العام لحركة القوميين العرب الذي سينعقد في بحمدون في الشهر القادم.

ـ لنفرض أني لم أحضر. ماذا سيحدث؟

ـ لا بُدّ من حضورك. أمامك دور كبير في أمريكا ومن الضروري أن تتعرّف على شخصيات الحركة القيادية. لا أذيع سراً إذا قلت انهم يعلقّون عليك الآمال.

ـ عليّ أنا؟! منذ متى أصبحتُ زعيماً؟!

ـ لا تحتاج الحركة الى زعامات. تحتاج الى قيادات. في أمريكا، لا يزال الأعضاء مشتتين وغير منظمين. لديك الآن خبرة جيدة وبامكانك أن تنظّم الحركة هناك.

ـ ولكن ما علاقة هذا بحضور المؤتمر؟

ـ لا بُدّ أن تتعرّف على المسؤولين القُطريين. لن تستطيع تنظيم الحركة هناك من غير احتكاك مباشر بهؤلاء المسؤولين.

ـ أمري لله. سوف أحضر.



٢٠

أغسطس ١٩٦١



أجاب دمعي.. وما الداعي سوى طللِ دعا فلبّاه.. قبل الركْب والإبِلِ

المتنبي



٢٠

يتمنّى فؤاد، الآن، لو لم يذهب الى المؤتمر. صحيح أن التجربة كانت من أكثر تجارب حياته خصباً وإثارة. صحيح أنه قابل كل القادة وجهاً لوجه. صحيح انه دخل في مناقشات عاصفة ومفيدة. صحيح انه اطّلع على كيفية تنظيم المؤتمرات القوميّة. إلاّ أنه، رغم هذا كلّه، خرج من مداولات المؤتمر التي استغرقت ثلاثة أيام وفي فمه، وفي قلبه، شيء من المرارة. اتضح له أن الفروق بين البعث والحركة أضأل بكثير مما كان يتمنّى. هذه الحركة حزب فيه كل ما في الأحزاب من صراعات، وأجنحة متناحرة، ومؤامرات صغيرة وكبيرة. والقيادة الجماعية التي تتباهى بها الحركة قد توجد في أذهان أتباعها ولكنها لا توجد في الواقع. في نهاية المطاف، يتّخذ «الحكيم»، الدكتور جورج حبش، كل القرارات الرئيسية. الروح الديموقراطية التي تتغنى بها الحركة لا توجد؛ كل شيء بالتعيين. في كل مرة يعترض فيها عضو على قرار ما يقال له ان المبدأ هو «نفّذ ثم ناقش». ما فائدة المناقشة بعد التنفيذ؟!

وعبر أيام المؤتمر، كانت فكرة مزعجة تلحّ على ذهن فؤاد. هل هذه حركة فلسطينية تضمّ بعض العرب الآخرين؟ أم انها حركة عربية تضمّ بعض الفلسطينيين؟ رغم ايمانه بأهميّة القضية الفلسطينية، لا يفهم فؤاد كيف تجيء الغالبية العظمى في حركة قومية من قطرٍ واحد، حتّى لو كان فلسطين. وماجد يرفض حتّى بحث الموضوع، معتبراً إثارته «نزعة إقليمية».

كما تبيَّن لفؤاد أن الحركة رغم اندفاعها الناصري الواضح لها أولوياتها التي ستصطدم، آجلاً أو عاجلاً، بأولويات جمال عبد الناصر. السلطة! فتّش عن السلطة! إذا وصلت الحركة الى السلطة مع المدّ الناصري فبها ونعمت. وإلاّ فستُقدّم اعتبارات السلطة على الولاء الناصري. لم يقل أحد هذا الكلام صراحة ولكنه كان مختفياً في المداولات. «حركتنا تؤمن

بهذا»، «حركتنا تؤيد ذلك»، «حركتنا تدين». ماذا لو اختلفت حركتنا مع زعيمنا؟! سوف تكون الأولوية للحركة، كما كانت الأولوية للحزب عندما تناقضت أهداف البعث وأهداف جمال عبد الناصر.

ثُمّ ان فؤاد كان مذهولاً لكثرة ما تردَّد عن ماركس ولينين خلال المؤتمر. «طبقاً لتحليل ماركس». «من منظور لينين». «بمقاييس الاشتراكية العلمية». ماجد يبرّر الظاهرة بأن في الحركة أقليّة صغيرة تستعير مفاهيمها من الفكر الماركسي، ويضيف أنها أقليّة لا أهمية لها. ولكن كيف استطاعت الأقليّة أن تفرض مصطلحاتها على كل المداولات؟

والاسلام؟! ماذا عن الاسلام؟! تتردّد التعابير الماركسية في كل جلسة، ولا يذكر الاسلام مرة واحدة. حاول فؤاد أن يربط القومية العربية بالاسلام، ولكن محاولاته قوبلت ببرود، وبهجوم عنيف في حالتين. «هذا ليس مؤتمر الاخوان المسلمين». ما قيمة الهجرة من البعث الى الحركة إذا كان ينتقل من سجن فكري الى سجن فكري آخر؟

قبل انفضاض المؤتمر بساعات أخبره ماجد أن «الحكيم» يريد أن يراه على انفراد. تمّ اللقاء في «غرفة العمليات»، غرفة الدكتور جورج حبش، في فندق «الرابية» حيث ينعقد المؤتمر.

وبدأ الدكتور جورج حبش:

- أخبرني ماجد انك على وشك السفر الى «أمريكا»، الى نيويورك بالذات.

- نعم. سوف أدرس القانون المقارن في جامعة نيويورك.

- أتمنى لك التوفيق. وأرجو أن تواصل هناك نشاطك. الحركة في حاجة دائمة الى دماء جديدة.

مدَّ «الحكيم» يده الى جيبه وأخرج ورقة مليئة بالأسماء:

- هؤلاء هم أعضاء الحركة في الولايات المتحدة، الأسماء والعناوين. كما ترى لا يكاد عددهم يتجاوز المائة. وهم مبعثرون بين مختلف الولايات. حتى الآن لم ينعقد مؤتمر للحركة هناك.

توقف «الحكيم» ونظر الى فؤاد بإمعان.

- نحن نعتمد عليك في عقد المؤتمر الأول.

ثم أضاف:

ـ وسوف تكون المسؤول عن الحركة، بطبيعة الحال!

أخذ فؤاد الورقة ولم يقل شيئاً.

المسؤول عن الحركة في الولايات المتحدة؟ وماجد المسؤول عن الحركة في الجزيرة. السلطة! فتّش عن السلطة! ماجد بدأ، بالفعل، يتصرّف كما لو كان زعيماً. يتحدّث، من دون أن يشعر، بصيغة الجمع: «في دولتنا»، في «برنامجنا»، في «تنظيمنا». شعر فؤاد بقلق عميق. لقد دخل الحركة ليسهم بكل قواه في دفع المدّ الناصري. واكتشف، الآن، ان الحركة مهتمّة بمدّها الخاص قدر اهتمامها بالمدّ الناصري. طوى فؤاد مخاوفه ولم يتكلّم. وعاد الى البحرين وفي ذهنه أسئلة كثيرة حزينة.

* * *

كما توقّع فؤاد، وافق أبوه، بعد تردّد طويل، على سفره الى أمريكا. ولكن الأب لا يزال في حيرة:

ـ لماذا تريد أن تذهب الى هناك؟ ألم تحصل على الشهادة؟

كيف أشرح لك يا أبي الحبيب أن الشهادة لا علاقة لها بالمعرفة؟ كيف أوضح لك يا سيّدي انك لا تعرف البشر إلاّ إذا انغمست في غمارهم، ولا تعرف المدن إلاّ إذا تشرّدت في أزقتها، ولا تعرف الحضارات إلا إذا قذفت بروحك في أتونها؟ هل تصدّق يا سيدي انني بعد خمس سنوات من الدراسة في القاهرة جئت بأسئلة أكثر من التي حملتها معي؟ وصلت الثانية والعشرين ولا أزال في حيرة من أمري أمام المعضلة الاقتصادية. ليس من العدل يا سيدي أن توزّع خيرات المجتمع على أفراد قلائل وتبقى الأغلبية تحترف الجوع أو التسوّل أو السرقة أو البغاء. وليس من العدل يا أبي أن أنقل كل الأموال الى سيطرة أفراد في حزب. لا الرأسمالية هي الحلّ، ولا الشيوعية. ستقول لي، يا سيدي، كما قال لي عبد الرؤوف، ان الحلّ في الزكاة. وأنا أعرف يا أبي انك تخرج زكاتك بأمانة. ولكن كم عدد الذين يخرجون زكواتهم من بين أصدقائك الأثرياء؟ تعرف الجواب يا أبي وأعرفه. ستقول لي يجب أن تؤخذ الزكاة بالقوّة. ولكن من يثق في الحكومة التي ستأخذها بالقوة؟ وأين ستذهب بعد أخذها؟ هل تريد معضلة ثانية يا أبي الحبيب؟ عندما علّمتني أن أذهب معك الى المسجد قبل السادسة، وعندما حرصت على أن أختم القرآن قبل العاشرة، لم تنذرني أني سأواجه، ذات يوم، مشكلة التوفيق بين الاسلام والقوميّة العربية. كل

أهل البحرين عرب، وكل أهل البحرين مسلمون - فأين الإشكال؟ الإشكال يا سيدي أن أقليّات غير إسلامية هي التي وضعت النظرية القومية التي تنتشر في العالم العربي اليوم. صدّق أو لا تصدق يا سيدي ولكن هذه هي الحقيقة. كيف أشرح لك يا سيّدي أنني ذاهب الى أميركا لأغوص في أعماق المزيد من المعضلات؟

يزفر والده، ويغالب الدمعة:

- وخليل ذهب! ترك البيت وذهب! ترك المتجر وبدأ عملاً جديداً. فرش الشقق وتأجيرها. أسألك بالله يا فؤاد هل هذا عمل يليق برجل؟ ولماذا ترك المنزل؟ لماذا سكن في شقة من شققه المفروشة؟

أوّاه يا أبي! أوّاه يا أبي الحبيب! الدنيا تتغيّر، تتغيّر بسرعة هائلة. وهذا البيت الصغير المتداعي، في هذا الزرنوق من زرانيق فريق الفاضل لم يعد بالمكان الصالح لسكن رجل أعمال من الجيل الجديد. عمل خليل الآن يتطلب إقامة «بارتي» بين الحين والحين، وكيف يمكن أن تقام «بارتي» في هذا الزرنوق؟! أوّاه يا أبي! أوّاه يا أبي الحبيب! كيف يمكن أن أقول لك، من غير أن أجرح مشاعرك، ان البحرين التي تعرفها وتحبّها لم تعد هنا؟! الزوجة الآن تريد أن تعيش مع زوجها، بدون والد الزوج وبدون أمّه. وهذا المطبخ الضيق المصبوغ بالفحم لم يعد صالحاً للاستعمال في عصر «الأستيك» والدجاج المثلّج. ويا سيّدي لم يبق في البحرين رجل له امكانياتك يعيش من غير «ايركنديشن». لم يبق أحد يكتفي بالبانكه والسطح. حتى صديقك القديم الشيخ سلمان الذي يكره «الايركنديشنات» كما تكرهها وافق، مؤخراً، على دخول «الايركنديشن» الى بيته. ألا ترى يا أبي الحبيب ما يدور حولك؟ ألا تسمع؟ ألا تسمع طنين «الايركنديشنات» وأنت في طريقك الى المتجر؟ ألا تسقط قطرات المياه المنسابة منها على رأسك؟ أوّاه يا أبي! أوّاه يا أبي الحبيب! أنت، بوجهك الصبوح البشوش الأليف، لم تتغيّر. تصحو قبل الفجر، وتصلّي في المسجد، وتمرّ لتناول فنجان القهوة مع «حجي حسن»، وتعود الى البيت، وترتاح قليلاً، ثم تتناول الفطور، صحن الباجلا وقرص دبل. وتذهب الى المتجر نفسه. ويزورك الأصدقاء أنفسهم. وتشرب البياله نفسها. وتعود الى البيت للغداء عينه: العيش الشيلاني والسمك. ثم تقيل. وتصلّي العصر في طريقك الى المتجر. ويزورك «العم عبد الله»، وتذهبان الى المسجد لصلاة المغرب. وفي الطريق تمرّان على «حجي منصور»

لفنجان القهوة. ثم تعود الى البيت. وتتناول العشاء المعهود: نخجّ وقرص دبل. ثم تصلي العشاء، وتستمع الى إذاعة لندن. وتنام. لم يتغيّر برنامجك اليومي من ثلاثين سنة، وربّما أكثر. ولم تتغير أنت. ولكن في هذه الأثناء يا سيدي جدّت على البحرين أشياء كثيرة. بدأت النساء تمشّي المواتر يا سيدي. بدأ السنّة يتزوجون من الشيعة ولا يعترض أحد. في البحرين يا أبي الحبيب الآن خلايا بعثية، وخلايا قومية عربية، ولولا اعتقال يعقوب لجاءت خلايا شيوعية. فُتح مطعم جديد في المطار لم يجد مديره لطاولاته من مفارش سوى غتر الجتايل. وأصبح «الجيمخانة كلوب» يا أبي يسمح بدخول البحرينيين. ولم تعد سينما «بابكو» تشترط أن تكون عضواً لدخولها. ويا أبي ابنك خليل ينتقل من «جيرل فرند» الى «جيرل فرند». أوّاه يا أبي! أوّاه يا أبي الحبيب! كيف أشرح لك ان العالم الذي يحيط بك يخدعك عندما يزعم انه العالم القديم الذي تعرفه. يرتدي القناع المألوف عندما تمرّ به في الصباح، وعندما تمر به في المساء. بعد أن تستمع الى أخبار لندن وتنام يا سيّدي يكشف العالم عن وجهه الجديد، عن وجهه الحقيقي. تصدح «الايركنديشنات» بأعلى صوت. وتزدهر تجارة البيرة في منازل الهنود. ويجتمع شباب البحرين، في بنطلونات ضيّقة، وقمصان مفتوحة عن الصدور، مع «الجيرل فرندز» في «البارتيز». وأنت يا أبي لا زلت سجين العالم القديم، سجين هذه المساند التي بدأت أنا، حتى أنا، أخجل من وجودها أمام أصدقائي، سجين هذه السُفرة التي أصبحت أنا، حتى أنّا أجلس عليها بصعوبة. تتفنّن البحرين في خداعك يا أبي وتخفي عنك أسرارها. هل تعرف يا أبي أن في مستشفى النعيم الآن أربعة أطباء بحرينيين؟ هل تعرف أن هناك قاعدة كبيرة بناها الانجليز في الهملة؟ وهل تعرف أن هذه القاعدة أنعشت الاقتصاد البحريني، وبصفة خاصة، التجّار الناصريين؟ لا تعجب يا سيدي. نحن نهتف لجمال عبد الناصر في النهار، ونؤجر الشقق المفروشة لجنود الاستعمار في الليل. «بيزنس إز بيزنس»، كما قال قاسم. وأنت يا أبي الحبيب لا زلت تنام على السطح، وتصحو غريقاً في الطلّ والعرق. وأنت لم تذق «الأستيك». ولم تر المجوهرات الجديدة التي بدأت تصل من ايطاليا: خاتم على هيئة سمكة، وعقد مثل الحيّة، وساعة تكشف عن أجهزتها الداخلية. هذا خير لك يا أبي. خير لك أن تعيش في عالمك الذي تعرفه. وتترك البحرين لقدرها الذي تجهله. خير لك أن تبقى آمناً في هذا البيت الآمن المتداعي وتدع ابنك الأصغر لقدره

المجهول. من يدري يا أبي الحبيب ماذا سيحدث لابنك. قد يصبح زعيماً. وقد يصبح روائياً مشهوراً. وقد يعود ليؤجر الشقق المفروشة لجنود الاستعمار. من يدري ماذا سيحدث لابنك الذي يتنقل من حزب الى حزب، ولا يستقر؟ الذي يحب امرأة بعد امرأة ولا يسعد؟ خير لك يا أبي وسيّدي أن تفعل ما تفعله الوالدة، أن تظل تعتبرني «فؤادوه»، التلميذ الذي ينتقل من مدرسة الى مدرسة أكبر ويظل تلميذاً صغيراً. خير لك يا أبي أن تبقى البحرين كما عرفتها أيام شبابك، وأن يبقى أولادك كما تركتهم أيام طفولتهم.

* * *

جاءت النتائج بلا مفاجآت تذكر. حصل كل من نشأت وفؤاد على تقدير «جيد جداً»، وحصل قاسم على تقدير «جيد»، وحصل عبد الرؤوف، كما توقع الجميع، على «ممتاز» مع «مرتبة الشرف الأولى». سوف يبقى كل من عبد الكريم ويعقوب ترماً إضافياً للانتهاء من المواد الباقية. أكمل فؤاد وقاسم ترتيبات السفر وقرّرا أن يزورا القاهرة زيارة وداعية في الطريق الى نيويورك.

٢١

سبتمبر
أكتوبر ١٩٦١



فـديـنـاك مـن ربـعٍ.. وإن زدتـنـا كـربـا فإنّك كنتَ الشرق للشمس والغربا

المتنبي

٢١

ما أبعد الليلة عن البارحة. نشأت، الذي أصبح الآن مُفوّضاً في مجلس الدولة يستقبل فؤاد وقاسم عند سُلّم الطائرة. ومدير المكتب رتّب كل شيء. لم تستغرق الاجراءات سوى دقائق. وعند البوابّة الخارجية كان يعقوب وعبد الكريم في الانتظار. ركب فؤاد مع نشأت وعبد الكريم في «البعكوكة»، وركب قاسم مع يعقوب في «سالم الخطر» وانطلق الموكب. طافت بذهن فؤاد ذكرى اليوم الذي وصل فيه الى القاهرة قبل أكثر من خمس سنوات، وضحك، والتفت نشأت مستغرباً، قال فؤاد:

ـ تذكرت أول يوم لي في القاهرة. كنت لخمة بمعنى الكلمة. لولا أن سخّر الله لي شيّالاً أنقذني ثم سخّر لي الأسطى محجوب سائق التاكسي الذي يعتقد أن البحرين في الحجاز.

قال نشأت:

ـ لعلّه كان من البعثيين أو القوميين العرب. وبالمناسبة، ماجد يعتذر عن عدم الحضور. لديه وردية في المستشفى. أصبح الآن طبيب امتياز كما تعرف.

التأم شمل الأصدقاء في صالون شقّة الحريّة، وبمجرد انتهاء زغاريد عيشة بدأ تبادل الأخبار. أكّد يعقوب انه لم يلق أيّ مضايقة منذ عودته وانه يفكّر في البقاء لمواصلة الدراسة العليا بعد حصوله على الليسانس. لاحظ فؤاد على وجه عبدالكريم لوناً وردياً لم يعهده من قبل، وعلامات سعادة طافحة وحاول أن يعرف السبب. إلاّ أن عبدالكريم اكتفى بالابتسام. كما لاحظ على مظهر نشأت شيئاً جديداً يصعب عليه تحديده. وتوالت الأسئلة. بغتة، التفت عبد الكريم الى نشأت:

ـ لا داعي للتأجيل. أخبرهم بما حدث.

ورد نشأت بحرج واضح:

ـ لا! أخبرهم أنت.

ـ وتلعثم عبدالكريم:

ـ أخبرهم أنت.

صرخ قاسم:

ـ والنهاية؟! تكلّما معاً!

تدخل يعقوب:

ـ حسناً. سأخبركم أنا. كريم تزوّج فريدة. ونشأت خطب إيمان.

أعقبت التصريح فترة من الصمت لم يقطعها إلاّ سؤال فؤاد المستغرب:

ـ إيمان الممثّلة؟!

وردّ نشأت:

ـ إيمان بنت خالي.

قال قاسم:

ـ بنت خالك؟ لم تقل لي ان لك ابنة خال.

وهمس نشأت:

ـ قصة طويلة.

التفت قاسم الى عبدالكريم وقال بحدّة:

ـ نشأت خطب بنت خاله. مفاجأة، ولكنها مفاجأة سارّة. ولكن ماذا عنك يا حظي؟! ما هي قصة الزواج؟

تمتم عبدالكريم:

ـ زواج عرفي...

وقاطعه قاسم:

ـ لسنا في كلية الحقوق. الزواج زواج. لماذا تزوّجتها؟

قبل أن يرّد عبد الكريم تدخّل فؤاد:

ـ لماذا لا نذهب الى كازينو «قصر النيل» لنتغدى ونستمع الى كل القصص وكل التفاصيل؟

ووافق الجميع.

على الطاولة القديمة نفسها بقرب النيل، استأنف نشأت الحوار:

ـ قصة غريبة. شبيهة بقصص الأفلام. كنت أعرف ايمان منذ كنا طفلين، ثم افترقنا حين بلغت السادسة، وكنت وقتها في العاشرة. سافرت مع خالي الى الولايات المتحدة حيث عمل في السفارة المصرية هناك، ثم رُشّح للعمل في البنك الدولي. منذ افترقنا لم أر إيمان ولم ترني. حتى التقينا هذا الصيف. أصبحت الطفلة فتاة ناضجة جميلة فيها كل مواصفات الزوجة المثالية. من أول نظرة أحببتها، وأعتقد انها أحبّتني. تطورت الأمور بسرعة البرق، وتمت الخطوبة، وسوف نتزوج في الصيف القادم عندما تنهي إيمان دراستها الثانوية في واشنطن.

ابتسم قاسم ولم يَقُل شيئاً. وأدرك نشأت ما يدور في خاطره:

ـ خلاص! لا سويسريات ولا صعيديات! بطلّنا خلاص.

علّق يعقوب:

ـ طريق الطاعة طويل، كما يقول المطوّع في فريقنا.

التفت فؤاد الى عبد الكريم:

ـ وماذا عنك؟ نريد أن نعرف أسرار الحُب العائد.

ابتسم عبد الكريم:

ـ عوّضني القدر عن كل شيء وعوّضها. الحمد لله! الحمد لله! عانت المسكينة أكثر مما عانيت أنا. تزوّجت وحشاً في ثياب رجل. ما إن انتهى شهر العسل حتى بدأ يعاملها كما لو كانت جارية عنده. يشتمها من دون سبب، ويضربها لأتفه الأسباب، ويرفض أن يعطيها مصروفاً للبيت. تحولت حياتها الى جحيم لا يحتمل، وأصبح يضربها كل يوم. ثم لجأت الى أسرتها ورفعت عليه قضيّة وعندما استمع القاضي الى التفاصيل حكم بإنهاء الزواج.

سأله فؤاد:

ـ أليس هذا هو الخلع الذي درسناه في الشريعة؟

ـ هو بعينه. تمَّ الطلاق بأمر المحكمة. واستعاد صاحبنا كلّ ما دفعه، المهر والشبكة وكل شيء. حتى زجاجات العطر التي أهداها لفريدة في شهر

العسل أصرّ على استردادها. واضطرت الى شراء زجاجات جديدة واعطائها له.

قال قاسم:

ـ كل هذا على العين والراس. ولكن كيف وافقت على أن ترجع اليها؟ عندما سافرنا كنت ترفض حتى الكلام معها.

نظر عبد الكريم الى نشأت الذي ضحك وأوضح:

ـ أنا المسؤول. أحضرتها معي الى شقّة الحريّة وفاجأنا كريم. ما إن رآها حتى نسي كل شيء وغفر لها كل شيء.

هزَّ عبد الكريم رأسه موافقاً:

ـ عاد الحب كما كان بل أقوى مما كان. كأن شيئاً لم يحدث. وقرّرنا ألاّ نضيّع الوقت هذه المرة. تزوجنا زواجاً عرفياً وشهد عليه نشأت ويعقوب. لن يفرّقنا شيء بعد اليوم.

لم يستطع قاسم مغالبة فضوله:

ـ وكيف تعيشان الآن؟

رد عبد الكريم:

ـ تعيش هي مع عائلتها مؤقتاً.

وصرخ يعقوب:

ـ تقضي ٩٩٪ من وقتها معنا في الشقة و ١٪ مع أهلها.

أضاف عبد الكريم:

ـ هذا ترتيب مؤقّت حتى يتّم الزواج الرسمي.

سأله قاسم:

ـ ومتى سيتمّ الزواج الرسمي؟

وردّ عبد الكريم:

لا أدري. الله أعلم. كلَّ ما يهمني الآن هو انني أسعد إنسان في العالم وانها أسعد إنسانة.

بغتة، قام قاسم من مقعده واحتضن عبد الكريم قائلاً:

ـ فات وقت النصائح. ألف مبروك يا كريم.

عانقه فؤاد، بدوره، وتساءل:

ـ ماذا عن الأولاد في المستقبل؟

وضحك عبد الكريم:

ـ شيعة، بطبيعة الحال. ماذا تتوقّع من أحفاد الشيخ؟!

عاد فؤاد بعد منتصف الليل الى غرفته، التي أصبحت الآن غرفته القديمة، واستعصى عليه النوم. فكر في شجاعة عبد الكريم التي لم يكن أحد يتوقّعها. تزوّج فريدة. وانتهى الموضوع. من يعجبه يعجبه ومن لا يعجبه في ستين داهية. هذا، بكل تأكيد، موقف وجودي وبطولي. ثم انتقلت أفكاره الى نشأت. قرار نشأت، هو الآخر، قرار شجاع، شجاع الى درجة الجنون. أن يتخلّى عن حياته الحافلة ويربط مصيره بمصير فتاة لم يرها منذ كانت طفلة. أن يترك عالمه المصطخب بالمغامرات والعلاقات ويقنع بالعيش بقية حياته مع مراهقة، لم تكمل بعد دراستها الثانوية. ويعقوب؟ أدرك فؤاد من الساعات التي قضاها في حوار لا ينقطع مع يعقوب انه تجاوز محنة الاعتقال ومحنة الطرد وعاد أقوى مما كان عليه. لدى فؤاد ظن كاليقين أن يعقوب لن يتزحزح عن مبادئه الماركسية حتّى الموت.

يا الله! وماذا عنك أنت يا فؤاد؟ هل أصبحت الجبان الوحيد في الشِلّة؟ قاسم قرّر منذ سنين وبلا أدنى تردد انه سيعمل من أجل هدفين اثنين: البيزات والبنيات. حزم أمره، واتخذ قراره، ومضى في طريقه. وماجد أصبح من القياديين البارزين في حركة القوميين العرب. وماذا عنك أنت يا فؤاد؟ فشلت في الحبّ، وفشلت في السياسة. شلل في القلب والعقل. لا أنت بالبعثي ولا بالقومي العربي. لا أنت بالرأسمالي ولا بالاشتراكي. مجرد ناصري أمّعه. من صنع الأجهزة على الأغلب. وماذا ستفعل عند وصولك الى أمريكا؟ هل ستعمل على عقد المؤتمر الأول لحركة القوميين العرب هناك؟ أم ستنهمك في كتابة قصّة بطلتها فتاة أميركية (شقراء وخضراء العينين)؟

* * *

«قضى خَلَف الليلة كُلّها من دون أن تغمض له عين. غداً سوف يدخل الفصل، يدخله مدرّساً لأول مرّة في حياته. جاء الانتقال من طالب في الجامعة الى مدرّس في الثانوية بلا تحضير ولا استعداد. بمجرّد أن اطلّع مدير

مدرسة الاهرام الخاصة للبنين على ليسانس اللغة العربية الذي حصل عليه بتقدير «ممتاز» عيّنه في المدرسة. وغداً موعده مع طلبته. وأيّ طلبة؟ فصل التوجيهية! قضى خَلَف ليلته يتصوّر نفسه أمام فصل ممتلىء بالأوغاد. طلاّب المدارس الخاصة، عادة، من الفاشلين في المدارس الحكومية وسوف يكون بينهم عدد لا يستهان به من المشاغبين. كيف سيتصرّف في حصته الأولى؟ يدرك خَلَف من تجربته الطويلة مع الدراسة ان الانطباع الأوّل هو الانطباع الأبقى. عندما يستشف الطلبة ضعفاً من المدرّس خلال الحصة الأولى يستغلون هذا الضعف وتصبح لهم الكلمة العليا ويستحيل على المدرّس، فيما بعد، أن يغيّر الوضع. وعلى العكس، عندما يتمكن المدرّس من فرض احترامه على الطلبة خلال المواجهة الأولى، يظلّ الاحترام قائماً بقيّة السنة. والعمل؟! الحزم! لا بُدّ من الحزم! الحزم بأيّ ثمن! لو سمح غداً لأي طالب بأن يضحك أو يسخر أو يعلّق فسوف يفلت زمام الفصل من يده. ولكن المشكلة الكبرى هي سنّ الطلبة. ماذا سيفعل بطالب في طوله، أو أطول منه؟ لا يمكن صفعه ولا شتمه. ولكن الحزم مطلوب على أية حال. الطرد من الفصل، وهذا أضعف الايمان.

جاء الصباح، واستجمع خلف شجاعته، ودخل الفصل عابس الوجه، متجهّم الأسارير. فتح كتاب البلاغة وأمر طلبته بفتح كتبهم. سمع صوتاً في آخر الفصل يتمتم بكلمات غير مفهومة. التفت الى مصدر الصوت فرأى طالباً ضخماً ترتسم على وجهه علامات غباء عنيد. وسأله:

- ايه؟ فيه ايه؟

ورّد الطالب الضخم:

- ما عنديش كتاب.

سأله خلف بحدّة:

- ليه؟

ردّ العملاق الأبله ببرود:

- أصلي لسه ما كتبتش كتابي.

وضجّ الفصل بالضحك. وأحسّ خلف بغضب جامح أخرجه عن طوره:

- برّه! اطلع برّه! للبيه الناظر طوّالي!

مشى الطالب بسرور واضح الى الباب، وقبل أن يغادر الفصل التفت الى خلف وسأله بوقاحة:

ـ تعوز سيادتك حاجة من بابا؟!

وضجّ الفصل بالضحك مرة أخرى. احمرّ وجه خلف وسأل:

ـ ايه الحكاية؟

وردّ عليه طالب يجلس في الصف الأول:

ـ أصله ابن البيه الناظر يا أفندم».

* * *

قهقه فؤاد من الأعماق:

ـ هل بدأت التدريس؟

وردّ عبد الرؤوف:

ـ نعم. في الأسبوع الماضي أعطيت أول محاضرة في السكشن. المعيدون لا يدرّسون إلا في السكشن كما تعرف.

ـ ووجدت ابن البيه العميد في الفصل؟!

ـ لا! كانت القصة تعبيراً عن مخاوفي من تجربة التدريس. إلاّ أنّ المخاوف لم تكن في محلّها. وجدت الطلبة مُهذبين ومتجاوبين. لا أتوقع أيّ مشكلة.

ـ وماذا عن صفاء؟

ـ وافق أبوها مؤخراً.

ـ ألف مبروك. وكتب الكتاب؟

ـ سوف نؤجّله بعض الوقت.

ـ لم التأخير؟

ردّ عبد الرؤوف بحرج:

ـ المهر، والذي منه!

* * *

قدّم فؤاد للأستاذ شريف ساعة، ماركة «رولكس»، وقدّم للزوجة الجديدة خاتماً ذهبياً تزيّنه لؤلؤتان كبيرتان، وهو يهمس بخجل:

- من الوالد. هديّة بسيطة.

شكره الأستاذ بحرارة. وتأمّل فؤاد، مذهولاً، التغيير الذي طرأ على مظهره. اختفى الشعر الأبيض نهائياً. صُبغت الشعرات البيض أو استؤصلت. وزالت الصرامة المعهودة من الملامح. ونقص وزنه بشكل ملحوظ. وتأمّل مصدر التغييرات: الزوجة الجديدة التي تبدو عليها بوادر الحمل.

قال له الأستاذ:

- رفعت رأسنا يا فؤاد. من العشر الأوائل! هذه هي البداية. أتوقع لك مستقبلاً مرموقاً. سوف تصبح وزيراً.

ضحك فؤاد:

- في البحرين لا يوجد وزراء يا أستاذ. لا يوجد سوى رؤساء دوائر. هل نسيت؟!

وردّ الأستاذ:

- اذن سوف تكون رئيس دائرة.

وقالت الزوجة:

- بلا دايرة، بلا قاعدة. افتح مكتب واكسب.

باغته الأستاذ شريف:

- هل تعرف أن بطة تنوي الزواج؟

صمت فؤاد، واستطرد الأستاذ:

- تصوّر! امرأة في سنّها! كركوبة! تتزوج من جديد، وتترك أولادها.

قال فؤاد:

- ربنا يوفّق الجميع.

وردّت الزوجة بحرارة:

- آمين يا ربّ!

* * *

نهض الشيخ محمد أبو زهرة من مقعده وعانق فؤاد:

- مبروك يا فؤاد يا ابني. «جيد جداً» و«ممتاز» في الشريعة. ربنا يفتح عليك.

- شكراً يا فضيلة الشيخ.

- وازيّ البحرين؟

وبادر فؤاد:

- مش بقّوا تلاتة يا فضيلة الشيخ؟

ضحك الشيخ طويلاً، ثم قال:

- سمعت انك ذاهب الى أمريكا. احذر من دسائس المجرم شاخت.

لم يفهم فؤاد المقصود. شاخت الوحيد الذي سمع عنه كان وزير اقتصاد هتلر. ولاحظ الشيخ حيرته، واستطرد:

- شاخت مستشرق ابن كلب شكّك في السنّة النبويّة. قضى حياته كلها يدرس السنّة النبويّة بهدف واحد وهو التشكيك فيها. قضى سنين طويلة في مصر. يزعم ان كل أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام موضوعة. كلّها!

- ألم يردّ عليه أحد؟

- ردَّ عليه الكثيرون، وأنا منهم. ولكني لا أعرف لغة أجنبية. هذه مهمّتك الآن يا فؤاد. عليك أن تشرح لهم الاسلام هناك، باللغة التي يفهمونها، وبالمنطق الذي يقبلونه.

- سأحاول جهدي يا فضيلة الشيخ.

- هناك شبهات عديدة يثيرها أعداء الاسلام، ولكنها شبهات واهية كخيوط العنكبوت. سوف يثيرون موضوع الرقيق. قل لهم ان الرقيق ظاهرة تاريخية وجدت وانتهت. وخلال وجودها تعاملت معها كل الأديان، اليهودية والمسيحية قبل الاسلام، وجاء الاسلام أكثرها عدالة. سوف يثيرون قضية تعدّد الزوجات. قل لهم ان تعدّد الزوجات أفضل من تعدد العشيقات. احصائياتهم تؤكد أن لكل انسان في الغرب، بالاضافة الى زوجته، عشيقة أو أكثر. لا تحاول الاعتذار عن شيء في الشريعة. شريعتنا، بفضل الله، كاملة ولا يوجد فيها ما نعتذر عنه. لا اعتذار! فهمت؟

- فهمت يا فضيلة الشيخ.

- وسوف يثيرون موضوع العقوبات البدنية. في الغرب عندهم هوس العقوبات البدنية. لا تعتذر. قل لهم نعم، يوجد في الشريعة جلد وقطع.

قل لهم ان قطع يد واحدة خير من اختلال الأمن في ألف منزل. قل لهم ان جلد شخص واحد خير من دخول الرعب في قلب ألف امرأة.

ـ سأبذل جهدي يا شيخ محمد.

ـ ربنا يفتح عليك يا ابني.

* * *

دعا الشيخ رضوان فؤاد وعبد الرؤوف الى شقته بعد صلاة الجمعة، وقال وهو يقدّم الشاي:

ـ مبروك يا فؤاد. سمعت من رؤوف انك تخرجت بتقدير هايل وستذهب الى أمريكا.

ـ شكراً يا شيخ رضوان.

ـ لا تترك الدراسة تستأثر بكل وقتك. خصص جزءاً من وقتك للدعوة الى دين الله.

شعر فؤاد بحمرة ساخنة تلهب وجهه وقال:

ـ أنا يا شيخ رضوان؟! لقد ارتكبت من المعاصي ما لو سمعته..

وقاطعه الشيخ:

ـ لا يا ابني. قال عليه الصلاة والسلام «كل أمتي معافاة إلاّ المجاهرون، وان من الاجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً، ثم يصبح قد ستره ربّه عز وجل فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا». لا تكشف ستر الله عنك يا ابني.

تمتم فؤاد بصوت منخفض:

ـ لو عرفت يا شيخ...

وقاطعه الشيخ مرة أخرى:

ـ للشباب زلاته ولكن باب التوبة مفتوح. أتوسّم فيك الخير. لم تفتك جمعة واحدة طيلة السنين الماضية. لا أزكي على الله أحداً، وأدعو لك ولنفسي بالهداية.

عندما خرجا التفت فؤاد الى عبد الرؤوف:

ـ الشيخ أبو زهرة يطلب إليّ شرح الاسلام في أمريكا. والشيخ رضوان يريد أن أخصص بعض وقتي هناك للدعوة. ما القصّة؟!

- مغشوشين فيك!

- والدكتور جورج حبش يطلب إليّ أن أكون المسؤول عن حركة القوميين العرب هناك.

- مغشوش فيك برضه!

- وانت؟ ما رأيك؟

- رأيي انك لن تستمع لا إلى الشيخ أبو زهرة ولا الى الدكتور حبش. سوف تركّز على أدبك وسوف تكون روائياً مرموقاً.

- مغشوش فيني!

* * *

عرض نشأت على قاسم أن يدفع له نصيبه من رأسمال المكتب نقداً، ورفض قاسم:

- اتركه عندك تحت تصرّف يعقوب. لا يدري أحد ماذا سيحدث له. تركت السيّارة عنده وطلبت إليه أن يتفاهم معك بشأنها قبل سفره.

ردّ نشأت:

لا تقلق على يعقوب. ولا على كريم. سوف أرتب لكريم عملاً في المكتب بمجرد تخرجّه. لا أظن انه يستطيع العودة الى البحرين في هذه الظروف.

- ولكن كيف يستطيع أن يعمل هنا؟ أليس هذا ضد القانون؟

ضحك نشأت:

- هل نسيت؟ في مجلس الدولة أعظم العقول القانونية في مصر. ومكالمة واحدة حتّى من موظف صغير مثلي تفعل المعجزات.

- لا أعرف كيف أشكرك يا نشأت.

عيب يا قاسم! هل بيننا شكر؟

- لماذا اخترت للمكتب هذا الاسم الغريب، مكتب «الانتصارات»؟

- الذي لا يعرف يتصوّر انها إشارة الى انتصارات جمال عبد الناصر.

- والذي يعرف؟

- افهمها انت بقى!

* * *

صحا فؤاد على صوت قرع مزعج. فتح الباب ليجد عبد الكريم أمامه وفي يده «الأهرام»:

- خير يا كريم؟ كم الساعة؟

- تسعة ونصف.

- لا توجد لديّ محاضرات. لماذا أيقظتني؟

أشار عبد الكريم الى الاعلان الضخم الذي احتلّ ربع الصفحة. وبدأ فؤاد يقرأ عن الحفل الغنائي الكبير الذي سيقام هذا المساء في «الأوبرا» لصالح نقابة الفنانين وتشارك فيه مجموعة من أشهر المطربين والمطربات. ثم لمع الاسم أمامه: شاهيناز شاكر! وكاد قلبه يتوقف عن الخفقان:

- هل من وسيلة للحصول على تذكرة؟

- صح النوم! حجزت مقعدين لك ولي، وفي الصف الأول.

- كيف تمكنت من هذا؟ وبهذه السرعة؟

- البركة في «مكتب الانتصارات للخدمات السريعة»!

توالت فقرات الحفل، وفؤاد يتململ في براثن الانتظار، عاجزاً عن متابعة شيء منها، لا يكاد يسمع كلمة من تعليقات عبد الكريم التي لم تنقطع. جاءت الأغنية بعد الأغنية، والمغني بعد المغنية، وهو في واد بعيد. ثم أعلن مقدّم البرامج عن «الموهبة الغنائية اللامعة شاهيناز شاكر». وخُيّل الى فؤاد أن قلبه كفّ عن العمل، ضربتين أو ثلاث ضربات، ثم استأنف عمله بلا انتظام. تحول وجوده كلّه الى عينين تنصبان على المسرح انصباباً. فُتحتْ الستارة، ووقعت عيناه على الحورية في ثوب وردي طويل، وشعرها الأشقر منطلق في كلّ اتجاه، وكل ما فيها يلمع، ابتسامتها، عيناها، ثوبها، والجواهر. وصفق الجمهور، وانحنت. ثم بدأت الفرقة العزف وصفّق الجمهور مرة ثانية، وانحنت مرّة أخرى. ثم وقفت عيناها عنده، فترة لا يدري فؤاد كم طالت. اعتنقت عيونهما، واتسعت الابتسامة، وانحنت انحناءة صغيرة له، لا للجمهور. ثم عادت أعقابها وتحدثت مع قائد الفرقة. وصمتت الموسيقى، ثم بدأت الفرقة في عزف لحن جديد. وصفق الجمهور للمرة الثالثة. وجاء الصوت من مكان سحيق سحيق، من أعماق الزمان:

قـــلــبـــك راح فـــينْ؟ أنـــا مـــش لاقـــيـــاهْ؟
ولا شـــفـــت يـــومـــينْ فـــي الحبّ مـــعـــاهْ

وتكررت «راح»، مرتين، خمس مرّات، عشر مرات، ونبرة مختلفة في كل مرّة، وجن الجمهور تصفيقاً. وأحسَّ فؤاد بقبضة حديدية من الشجن تعصر روحه، تذكّره بما كان وتجعله يحلم بما لم يكن.

رجعا، وعاد الى غرفته، ودخل عبد الكريم وراءه:

ـ خير؟ ما هذه المأساة المرسومة على وجهك؟ المفروض أن تفرح. لقد تذكرتك وضحكت لك وغنت لك أغنيتك المفضلة. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

ردَّ فؤاد ببطءٍ شديد وكأنّه مرغم على الحديث:

ـ هل أبصرت مجوهراتها؟ هل أبصرت عقد الماس على رقبتها؟ وخواتم الماس في أصابعها؟ واسوارة الماس في معصمها؟ هل تعرف ثمن هذا كله؟

ـ والدي ليس تاجر مجوهرات. والدي شيخ دين. لا هو يفهم في المجوهرات ولا أنا. ثم اني لا أدري ما هي المشكلة. كل الفنانات يلبسن مجوهرات.

ـ كنت أخشى عليها مغبّة جمالها. وقد كان الذي خفت أن يكون.

ـ ماذا كان؟!

ـ إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة.

ـ لا أدري. وقد أخذت نصيبي من المصائب. تصبح على خير.

* * *

صرخ فؤاد في وجه ماجد بأعلى صوته:

ـ لماذا لا يتحرّك؟ ماذا ينتظر؟ هذا الصنم!

وصرخ ماجد منفعلاً:

ـ لا تتحدّث عن جمال عبد الناصر بهذه الطريقة. هل جننت؟!

ـ لم أجنّ أنا. هل جُنَّ هو؟ لو كان الانقلاب في الاسكندرية هل كان سيكتفي بالفرجة كما يفعل الآن؟

ـ لم يكتف بالفرجة. أرسل قوة من المظليين وقطعاً من البحرية.

ـ ثم أمر بعودتها! لماذا أمر بعودتها؟

ـ هل تريد قيام حرب بين مصر وسوريا؟

ـ أريد القضاء على الانفصال. ليس من حق أحد أن يحطّم دولة الوحدة.

ـ لا يمكن أن تتم الوحدة بالعنف. أليس هذا ما كُنّا نقوله دائماً؟

ـ لم تقم الوحدة بالعنف. الانفصال هو الذي تمَّ بالعنف. لماذا لا يردّ جمال عبد الناصر على القوّة بالقوة؟ لماذا لا يتحرّك؟ هذا الجبان!

ـ قلت لك لا تتكلّم عن جمال عبد الناصر بهذه الطريقة والا اضطررت...

قاطعه فؤاد:

ـ اضطررت الى ماذا؟ الى ضربي؟ أم ستكتفي بشتمي؟ أم ستفصلني من الحركة؟ أنت تعرف أني أحّب جمال عبد الناصر أكثر منك ألف مرّة، ولكني لا أفهم موقفه الآن. لقد قضى على الوحدة. قتلها!

ـ جمال عبد الناصر قتل الوحدة؟!

ـ نعم. عندما سمح لحفنة من الضباط بوأد أعظم إنجاز في تاريخ العرب الحديث.

ـ لو كان الموضوع يتعلق بحفنة من الضبّاط لحُسم في دقائق. هناك مؤامرة دولية على الوحدة، مؤامرة دبّرها الأُستعمار وساهمت فيها الصهيونية والرجعية وكل العناصر الاقليمية العربية.

ـ اسمح لي يا ماجد! اسمح لي! الذي أراه بعيني عساكر في دبابات خرجت من ثكناتها، واعتقلت المشير العبقري، واحتلت الاذاعة. لو ضربهم جمال عبد الناصر لانتهى الأمر.

ـ لا أدري ما حلَّ بعقلك يا فؤاد. هل تريد اشعال أحقاد بين الشعب العربي في مصر والشعب العربي في سوريا؟ هل تريد حرباً أهليَّة؟

ـ حرب أهلية مؤقتّة خير من انفصال دائم. معركة صغيرة أفضل من موت الوحدة.

ـ موت الوحدة؟ من قال ان الوحدة ماتت؟ سوف يسقط الانفصال خلال أسابيع. حركتنا سوف تقاوم بضراوة.

ـ حركتنا، أقصد حركتكم، لا تملك الدبّابات ولا الطائرات. حركتكم لا تملك سوى الشعارات والمنشورات. لا يفلُّ الحديد إلاّ الحديد.

ـ لو كنت أنت محلّ جمال عبدالناصر ماذا كنت ستفعل؟

ـ كنت أرسل الطائرات لدكّ القيادة والإذاعة وكل معاقل الانفصال.

ـ هل تعتقد ان هذا كلّه سوف يتمّ من غير مقاومة؟

ـ سبق أن سألتك ماذا سيكون رد فعل جمال عبد الناصر لو حدث التمرد في الاسكندرية؟ ألم يكن سيقمعه بالقوّة؟

ـ الوضع يختلف تماماً. في هذه الحالة سوف يكون القتال بين مصريين ومصريين.

ـ لا أقبل هذا المنطق. هذا هو التفكير الاقليمي بعينه. من الناحية الدستورية، هناك دولة واحدة ومن حق رئيس الدولة الدستوري، لا بل من واجبه، أن يقضي على أي تمرّد غير شرعي سواء تم في هذا الاقليم أو ذاك.

ـ أنت تتحدّث بعقلية طالب الحقوق. الموضوع لا يتعلّق بأشكال دستورية. الموضوع يتعلق بمستقبل الأمة العربية. أي مجزرة اليوم ستعرقل عودة الوحدة غداً.

ـ لقد تمّت المجزرة وانتهت. قُتلت الوحدة ودُفنت. لن تقوم للوحدة قائمة بعد اليوم. أثبت ضباط لا قيمة لهم أن بوسعهم تحدّي جمال عبد الناصر وأظهروا عجزه. سوف يدوي الصدى في جميع أنحاء الأمّة العربية. انتهى هذا الأسبوع عهد الوحدويين وبدأ عهد الانفصاليين، في كلّ مكان.

ـ فؤاد! لا بُدّ انك جننت! ما هذا الكلام؟ ما هذه الروح اليائسة؟ هذه نكسة مؤقتة. سوف تعود الوحدة خلال أسابيع قليلة. أنا على استعداد لمراهنتك.

ـ ولا خلال شهور. ولا خلال سنين. ذهبت الوحدة الى الأبد.

ـ أنت منفعل لا تدري ماذا تقول.

ـ أنا منفعل ولكني أدري ما أقول. أقول ان ثلاثين دبابة هزمت جمال عبد الناصر، أظهرته بمظهر القزم الضعيف أمام الجماهير التي عشقته عملاقاً قويّاً.

ـ لا تتكلم عن جمال عبد الناصر...

قاطعه فؤاد:

ـ آسف! آسف! عاش جمال عبد الناصر!

ملامح جمال عبد الناصر الحزينة تطلّ من التيلفزيون الذي دخل شقة

الحريّة خلال الصيف. وتعلن النبرات الحزينة انه لن يقف في وجه الاعتراف بسوريا. وتعلن انه لن يسمح للسلاح العربي بسفك الدم العربي. ويعلن ان الجمهورية العربية المتحدة سوف تبقى محتفظة باسمها وعلمها. ثم تختفي الملامح الحزينة. ويعزف السلام الجمهوري. وينطلق من الشاشة الصغيرة صوت نجاة الصغيرة تشدو بأبيات كامل الشناوي:

سمعتُه كما أحبّ — دائماً أن أسمعهْ
يحملني بصوته — الى الذرى المرتفعهْ
رأيته يقاتل الأعداء — وسط المعمعهْ
فنالهم... ولم ينالوا — منه حتى اصبعهْ
حبيبنا! قائدنا! — زعيمنا! ما أروعهْ
وما أعزَّ موقعه — الله والشعب معهْ

يقفل فؤاد جهاز التيلفزيون وهو يدمدم:

- حتّى اصبعه!! كلمات! كلمات!

* * *

لماذا عاد الى القاهرة؟ كانت الزيارة مأساة من بدايتها الى نهايتها. ترك القاهرة، في الصيف، وهو أحد أبنائها وعاد اليها، في الخريف، زائراً. فرق شاسع بين صاحب البيت والضيف مهما كانت حرارة الحفاوة. لم يتغيّر شيء في الظاهر؛ وتغيَّر كل شيء في الحقيقة. تغيَّر النمط اليومي. لم يعد طالباً يجب أن يصحو مبكراً ليحضر المحاضرات. عيشة تسمّيه الآن «الأستاذ فؤاد» بدلاً من «سي فؤاد» القديمة، الأليفة. العم زكريّا البوّاب يحيّيه بقدر مبالغ فيه من الاحترام. والكليّة، بدورها، لم تتغيّر من الخارج، ولكنها تبدّلت تماماً من الداخل. الشيخ أبو زهرة لا يتكلّم معه كما يتكلّم مع الطلاّب. والجرسونات يعاملونه كما يعاملون أعضاء هيئة التدريس. شعر وهو يتجوّل في ردهات الكليّة كما لو كان جاسوساً أرسل من جهة معادية لمراقبة الطلاّب والطالبات. لم يعد يربطه بالكليّة شيء سوى الذكريات. لا الملازم ولا المحاضرات ولا الامتحانات ولا قصص الهوى الذي «كان صرحاً من خيال.. فهوى». جاسوس؟! لا! مجرّد سائح. سائح يتفقّد الآثار. هنا، في هذا المدرّج كان يجلس مع سعاد. هناك، في ذلك البوفيه، كانت الشلّة تجتمع يومياً. مجرّد ذكريات. ما الفرق بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث؟ ما الفرق بين الأهرام والكليّة؟ الماضي هو الماضي والحاضر هو الحاضر.

والشلّة! كيف تغيرّت الشلّة؟! نشأت أصبح مخلوقاً جديداً يدور في فلك صبيّة مراهقة اسمها إيمان. اختزل وجوده كلّه في خطوبة. يا للمأساة! هل يمسخنا الزواج ويلغي كل ما هو مثير وثائر وشائق في شخصياتنا؟ وعبد الكريم؟! تحطمت الوحدة وهو يقهقه كالحشاشين: «تكفي وحدتي مع فريدة»! أهذه نهاية الحبّ؟ أن تصبح الحبيبة أغلى من الوطن؟ وعبدالرؤوف؟! عبد الرؤوف أصبح «البيه المعيد»، وابتدأ يرتدي الكرافتة، ويحاضر وهو يتحدّث. وماجد؟! ماجد تحوّل الى كائن حزبي، أقصد حركي، فقد القدرة حتى على الانفعال. لو قالت الحركة: «اضربوا الانفصال»، لصرخ ماجد «اضربوا الانفصال». لو قالت الحركة: «لا يجوز استخدام القوة» لخرج في الشارع يهتف في مظاهرة: «لا يجوز استخدام القوة». تحوّل الى أيديولوجية بشرية تنازلت عن حقّها في التفكير والانتقاد والاحتجاج. ويعقوب؟! يعقوب لا يخفي شماتته بمصرع الوحدة. بورجوازيون مستغلّون تمرّدوا على بورجوازيين مستغلّين. حصى يكسّر بعضه. تغيّر الجميع، إلاّ قاسم. صخرة من الثبات في عالم من القلاقل. «البيزات» و«البنيّات». والملوك ملوك والبوسطجية بوسطجية. والأغنياء أغنياء والفقراء فقراء. والجميع يلهثون خلف «البيزات» و«البنيات». عالم قاسم شكل هندسي جميل. كل ما فيه منضبط ومتناسق ويعمل حسب قوانين حديدية لا تتغير أبداً.

وماذا عنك أنت؟ سي فؤاد سابقاً، الأستاذ فؤاد المحامي حالياً. ألم تتغيّر بدورك؟ ألم تشتم جمال عبد الناصر؟ ألم تصفه بالصنم والجبان؟ أوه! جمال عبد الناصر! الذي كدت تفصل من المدرسة الثانوية بسببه. الذي دخلت حركة القوميين العرب من أجله، وكرهتها من أجله. الذي كتبت عنه المقالات، وألقيت الخطب، ودبّجت المناشير. يعلن الآن ان السلاح العربي لا يمكن أن يسفك الدم العربي. اشمعنى يا ريّس؟! يا فاتح باب الحريّة! أو كما كان يقول زملاؤه الخبثاء في الكلية: يا فاتح باب الشعرية! ألم يسفك السلاح العربي الدم العربي في بغداد والموصل وبيروت وعمّان؟ ألم يطلب صوت العرب، كل ليلة، سفك دم العملاء والخونة والرجعيين من العرب؟ اشمعنى الآن؟! تتخلّى عن الجماهير السورية. وعن الوحدة. وعنّي! أنا الشاب الناصري. الإمّعة. الذي

قبّلك على جبينك ورأى جرح الحلاقة في ذقنك. الذي صفّق لك وأنت تبتسم في السيارة المفتوحة والطائرات تقصف القاهرة. والآن تتراجع. تترك الوحدة لمصيرها. وتكتفي بالاحتفاظ بالاسم والعلم والنشيد. النشيد؟! راديو دمشق أعاد «حماة الديار عليكم سلام». وأعلن أن المواطن العربي الأول تبرّأ من عهد الوحدة. وأعلن أن حزب البعث رحّب بالانفصال. حزب البعث؟! وماذا عن سعاد؟! لا بُد انها الآن في معيّة الأستاذ، تتلمّظ على وقع كلماته.

أواه! سعاد! الشقراء الملتزمة. والأخريات؟! شاهيناز! التي لا تعشق سوى مستقبلها. التي تركتها، آخر مرّة قابلتها فيها، طالبة فقيرة ورأيتها، منذ ليال، مُدجّجة بالمجوهرات الماسية. طريق الطاعة طويل، كما قال يعقوب. ومديحة! الفتاة الأربيجية. سمراء الروف. بحيرة الشبق. وليلى! المرأة اللغز. الأحجية. الأعجوبة. العذراء المتجدّدة. أم الهيلان. أم السعف والليف. لماذا لا تكتب قصصهن؟ «نساء في حياتي». قديمة. سبقك التابعي. «قصّة قلب». قديمة. سبقك الصاوي. «ليالي القاهرة». قديمة. سبقك ناجي. أيام القاهرة. نعم. لم يسبقك أحد. لماذا لا تكتب رواية عن القاهرة؟

رواية؟! ذات يوم سيجيء وقت الكتابة. أما الآن فهذا وقت الوداع. الوداع؟! أوّاه يا قاهرتي! أيتها المدينة التي ضمتني الى صدرها الكبير. وتبنتني (التبني لا يجوز في الاسلام يا فؤاد؛ أقصد تبنتّني، مجازاً، يا فضيلة الشيخ). التي منحتني شهادة الليسانس في الحقوق وبتقدير جيد جداً (ومرتبة الشرف لولا أستاذ الفرنسية الدجّال). وأعطتني مجموعتي القصصية الأولى (أقصد نصفها). وساقتني الى ليلة الحب الأولى. القاهرة. التي تغصّ بالملايين. هل ستذكر هذا الفتى الذي أعطاها خمس سنوات من عمره، خمس سنوات نادرة، لا تعود ولا تتكرّر. الذي ترك شيئاً من حياته في أوتوبيس رقم ٦. وشيئاً في ميدان التحرير (المجمّع العتيد!). وشيئاً في السعيدية. وشيئاً كثيراً في شقة الحريّة. الذي يودّع الآن. يفتح روحه ويختزن كل ما يستطيع اختزانه من الأشياء القاهرية. الوجوه. الروائح. المقاهي. الكشرّي. البقسماط والبيض المسلوق. يا أمّه القمرع الباب. أنت وبسّ اللي حبيبي. سور الأزبكية. جزيرة الشاي. كل كبده ومخ باطمئنان.

واقرأ الفاتحة للسلطان. تلمّع يا بيه؟ «روزا»... «صباح الخير»... «أهرام»... «روزا». السحلب. هل ستذكرين هذا الفتى الذي سيأخذ معه كل هذه الأشياء الى نيويورك. وعندما تطبق عليه ناطحات السحاب. ويهاجمه رعاة البقر. سوف يقف متحدياً. يقزقز لبّ. ويصرخ في الأمريكان: «يا ناس يا شر! كفاية قرّ!»؟

أوّاه! يا قاهرتي! يا قاهرة الرأسماليين والاشتراكيين (والماركسيين أحياناً). يا قاهرة الظالمين والمظلومين. الحارمين والمحرومين. الحاكمين والمحكومين. يا أمّ الدنيا! هل أراك مرّة أخرى؟ وماذا لو رأيتك «وتلاقينا لقاء الغرباء»؟! أعرف الجواب. أصبحتُ من الغرباء بالفعل، بعد غياب أربعة شهور فقط. كتبت على جبهتي في المطار بحبر غير مرئي «سائح!». وظلّت الكلمة مطبوعة على جبهتي، يراها كل أبناء القاهرة. أهلاً بسيادة السائح! الأستاذ فؤاد بيه الطارف. المحامي. لا! لا! أنا فؤاد، وبسّ! صاحبكم القديم. الطالب. ايه؟! ودي تيجي برضه؟! الطلاب طلاّب والسوّاح سوّاح. ولكني لست سائحاً. أقسم لكم بالله. لم أجيء لأهتف لجمال عبد الناصر في النهار وأقضي الليل مع البنيّات. كما يفعل الكثير من اخواننا الناصريين. أتيت فقط للوداع. لإلقاء نظرة أخيرة على حياتي هنا. على القاهرة. وعلى شقة الحريّة. الحريّة؟! رحم الله الحريّة. والوحدة! والثأر! والاشتراكية معهم!

يهزّه قاسم بعنف:

ـ فؤاد! فؤاد! هل نمت؟

ينظر فؤاد من شبّاك الطائرة الى القاهرة التي بدأت تختفي وراء الأفق، وتنهمر دموع صغيرة كثيرة من عينيه.

ـ فؤاد! لماذا تبكي؟

بصمت، يخرج فؤاد من جيبه الورقة التي تحتوي على أسماء القوميين العرب في أمريكا ويمزقها، ويضع البقايا في منفضة السجائر.

ـ فؤاد! ماذا تفعل؟ لماذا تبكي؟

ينظر فؤاد الى المدينة التي اختفت تماماً الآن، ولا يردّ.

* * *

• اقرأوا هذه القصة مباشرة، دون واسطة النقاد، وبعيون واعية يقظة وحاسة نقدية عفوية من جانبكم لتميزوا فيها بين صحيح الحياة العربية وباطلها، فهي سجل حافل بهذا كله.

إنها هدية الخليج والجزيرة العربية إلى الثقافة العربية في الوطن العربي الكبير للعام الجديد ١٩٩٤ بل لعام ألفين.

د. محمد جابر الأنصاري ـ جريدة «الأيام» ـ البحرين

• تمثل هذه الرواية إهانتين. الأولى لذكاء القارئ والتاريخ. والثانية للرواية والروائي (...) فهو لا يعرف عن الرواية سوى اسمها (...) وعليه أن لا يتطفح للرواية التي تتطلب موهبته وقدرات لا نظن أنه بقادر عليها.

سمير اليوسف ـ جريدة «القدس العربي» ـ لندن

• القصيبي جريء في تصويره الشغف الجنسي والارتباك العاطفي والجسد الأنثوي وجريء أيضاً في اكتشاف الرجل العربي الروحي.

نديم جرجورة ـ جريدة «السفير» ـ بيروت

• شقة الحرية رواية كتبها شاعر لكن قارئها لا يلمح غموض الشعر وعاطفيته وإيجازه الخاطف، إذا امتلك غازي القصيبي بمهارة ملحوظة ليونة في السرد خوّلته تصوير شخصيات وأمكنة ومواقف من دون ان نلمح ذاتية الشاعر.

محمد علي فرحات ـ جريدة «الحياة» ـ لندن

• إلى جانب الغزل والسياسة ينقل غازي القصيبي قارىء «شقة الحرية» إلى ذلك المناخ الثقافي والفني الغني، حيث يعيش مع بطل الرواية الذي يحاول كتابة القصة والانتماء إلى أهل الأدب، مشاهداته التي تمتد من صالون العقاد إلى جلسة نجيب محفوظ، مروراً بأنيس منصور الذي كان يعلم الناس تحضير الأرواح وما يزال.

جريدة «الشرق الأوسط» ـ لندن

• «حبكة متقنة وسرد مشوّق وسلاسة في الاداء ونضرة في القالب وإشراق في التركيب وبساطة في التعبير كأنه خبير قديم في الصناعة الروائية الخالصة... »

جهاد فاضل ـ مجلة «الحوادث» ـ لندن



الطبعة الخامسة

